المجموعة الكاملة
لمؤلفات الأستاذ

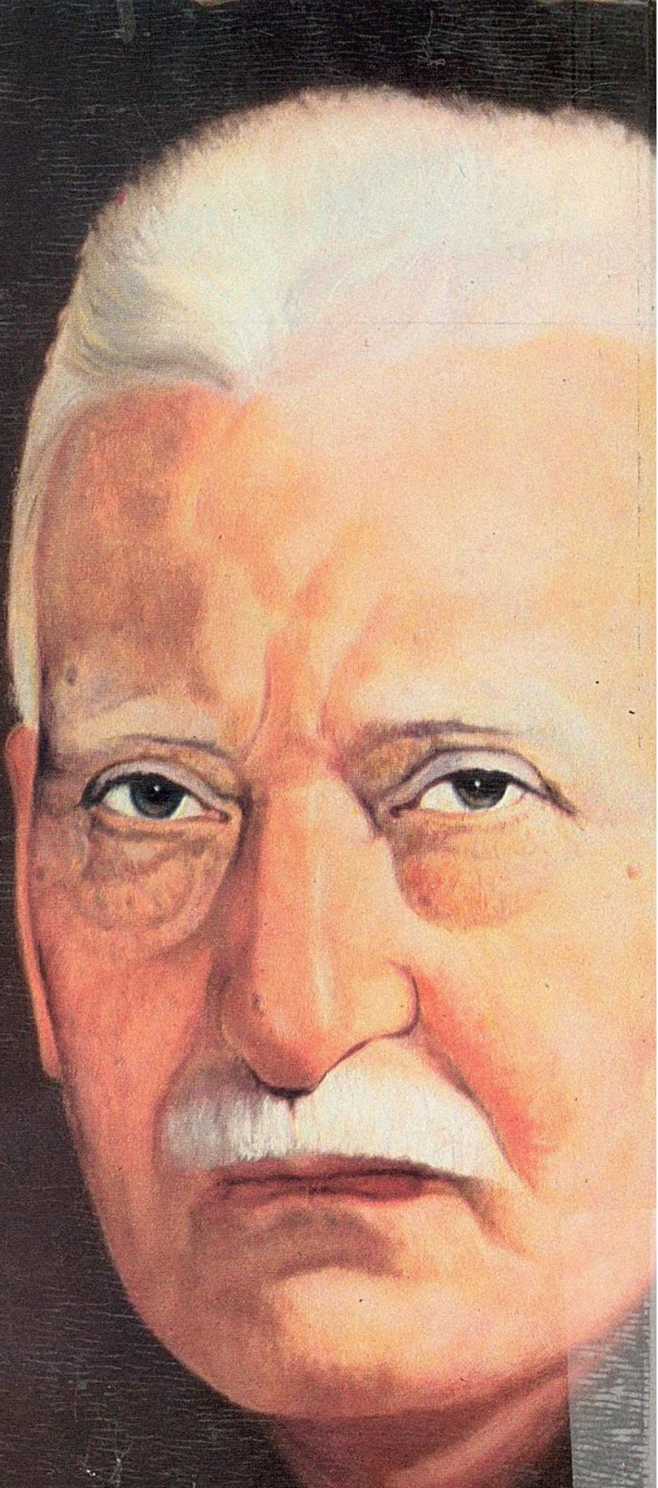
عباس محمود

العقاد

المجلد الخامس عشر

تراجم وسير

١



دار الكتاب اللبناني - بيروت

المجلد الخامس عشر

تراجم وسير

١

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الخامس عشر

تراجم وسير

١

يحتوي على

ابن الرومي

ابو العلاء

دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الكتاب المصري
القاهرة

رقم الإيداع
١٩٩٠ / ٤٥٥٩
I.S.B.N. 977 - 238 - 098 - 6

دار الكتاب المصري
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣٠١ فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب. ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقيا كتامصر
TELEX No: 23081 - 23381 - 22181
ATT. MR. HASSAN EL - ZEIN
FAX: (202) 3924657

دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦١٥٦٣ - ٨٦٠٧٩٢ - فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
ص.ب. ٨٣٣٠/١١ أو ١٢٥٣٥٢ - بيروت - لبنان
برقيا: راكلبان
TELEX DKL 23715 LE
ATT MISS MAY HASSAN EL - ZEIN
FAX: (9611) 351433

الطبعة الثانية
١٤١١هـ - ١٩٩١م

Second Edition
1991 A.D — H 1411

عباس محمود

العقاد

ابن الرومي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

تمهيد

هذه ترجمة وليست بترجمة .

لأن الترجمة يَغلبُ أن تكون قصة حياة ، وأما هذه فأحرى بها أن تُسمى صورة حياة . ولأن تكون ترجمة ابن الرومي صورةً خيرٌ من أن تكون قصة . لأن ترجمته لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع او الخيال ، ولكننا إذا نظرنا في ديوانه وجدنا مرآة صادقة ووجدنا في المرآة صورة ناطقة لا نظير لها فيما نعلم من دواوين الشعراء ، وتلك مزية تستحق من أجلها أن يُكتَب فيها كتاب .

إن مزايا الشعر كثيرة تتفرق بين الشعراء ويتفرق الاعجاب بها بين القراء . وقد يحرم الشاعر إحداها أو أكثرها وهو بعدُ شاعر لا غبار عليه ، لأنه يحسن نمطاً من الشعر تصحُّ به الشاعرية : كالجمال في الحسان يروقنا في كل وجه بلونٍ وسمةٍ وهو في جميع الوجوه رائق جميل ، وكاللمحة الواحدة من ملامح الجمال تحلو في هذا الوجه وتحلو في ذاك ولا تشابُه بينهما في غير الحلاوة . ففي العيون ألف عين جميلة لا تشبه الواحدةُ أختها ولا تتفق اثنتان منها في معاني النظرات ومحاسن الصفات وليس هناك إلا جمال واحد عند الكلام على جوهر الجمال .

وكذلك الشعر . يعجبنا في كل شاعر بطراز مختلفٍ وهو شعر سائغ مستملَح في كل طراز . فالذي يعجبنا من المتنبي غير الذي يعجبنا من البحتري ، والذي يعجبنا من هذين غير الذي يعجبنا من الشريف الرضي أو من أبي العلاء أو من أبي نواس أو من ابن زيدون ، والذي يستحق به كلٌ واحد منهم صفةَ الشاعرية غير الذي يستحقها به البقية ! فقد تفرقت مزايا الشعر كما قلنا أيما تفرق ، وامتنع الاعجاب بهن جميعاً على الحصر والتعريف .

غير أن المزية التي لا غنى عنها والتي لا يكون الشاعر شاعراً إلا بنصيب منها هي مزية واحدة ، أو هي مزيةٌ نستطيع أن نسمِّيها باسم واحد : وتلك هي الطبيعة الفنية .

ونعتمد أن نقول أنها تُسمى باسم واحد لأنها في الحقيقة أشياء شتى تدخل في عموم هذه التسمية .

فالطبيعة الفنية هي الطبيعة التي بها يقظةٌ بيّنة للاحساس بجوانب الحياة المختلفة . وهنا ينتهي بنا الاجمال إلى كلمة كأنها كلمات ، أو كأنها معجم كامل من المصطلحات . أليست جوانب الحياة عيلماً لا حدَّ له في العدد ولا في الصفة ؟ ثم أليست أنواع التيقظ لتلك الجوانب أشتاتا وأخلاطا لا تجتمع في حصر حاصر ؟ بلى ! فمن المتيقظين لجوانب الحياة من هو عميق الشعور بها ومن هو متوفِّز الشعور أو مهتاجُه أو مستفيضه أو محصوره أو مستقيمه أو منحرفه ، إلى غير ذلك من أنواع الشعور ودرجاته . فالذي تجمعه كلمة اليقظة هنيهةً لا تلبث أوصاف اليقظة أن تفرقه كلَّ مفرق . فهل من سبيل إلى إسلاس المعنى وتقريب مقاده للتعريف والتوضيح ؟ نعم ! وسبيل ذلك غير عسير ، فنحن نقول موجزين أن الطبيعة الفنية هي تلك الطبيعة التي تجعل فن الشاعر جزءاً من حياته أيا كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ومن الثروة أو الفاقة ، ومن الألفة أو الشذوذ . وتمامُ هذه الطبيعة أن تكون حياةُ الشاعر وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الانسان الحي من الانسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ،فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفي فيها ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفي فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الانسان ، ودون ذلك مراتبُ يكثر فيها الاتفاق بين حياة الشاعر وفنه أو يقل . كما يلتقي الصديقان أحياناً طواعيةً واختياراً ، أو كما يلتقي الغريبان في الحين بعد الحين على كره واضطرار . فالانسان والشاعر في هذه الحالة شخصان يلتقيان في المواعيد ثم يذهب كلٌّ منهما لطيّته إلى أن يتاح لهما اللقاء مرة أخرى بعد زمن طويل أو قصير ، وكأنَّ الشعر عند هؤلاء الشعراء روحٌ من تلك الأرواح التي تلبس صاحبها وتفارقه ثم تلبسه كلما استحضرها له مستحضر من الحوادث والأهواء ، فهو إذا لبسته شاعرٌ يأخذ عنها ما تحسه وينقل عنها ما تقول ، وهو إذا فارقته فردٌ من هذا الملأ الذي لا يوحى اليه ولا يكشف عنه الحجاب .

ابن الرومي واحدٌ من أولئك الشعراء القليلين الذين ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصيب . فمن عرف ابن الرومي الشاعر فقد عرف ابن الرومي الانسانَ حقَّ عرفانه ولم

ينقص منه إلا الفضول ، والغريب مع هذا أن ابن الرومي الشاعر هو ابن الرومي الذي لم يعرف بعدُ وإن عرفت له مزايا ونالت حسناتٌ له حقها من الاعجاب .

* * *

ليس من الصدق للتاريخ أن يقال إن ابن الرومي كان خاملا في زمانه أو بعد زمانه بهذا المعنى الشائع من الخمول الذي يراد به سقوط المكانة الأدبية ونسيان الأثر بين المتأدبين ، فلعله إذا قيس إلى الشعراء الهجّائين خليقٌ أن يُعد سعيد الحظ موفور الجزاء . فقد ذهب شعر بشار إلا أقله وذهب شعر دعبل إلا أقله وبقي ديوان ابن الرومي كله فلم يذهب منه إلا أقله ! وهذه محاباة من الشهرة لم يُرزقها في العربية شاعرٌ هجّاء ولم يُرزقها قبل عصر الطباعة إلا أفراد معدودون بين سائر الشعراء . ثم جاء عصر الطباعة فلم يكن الخمول هو الذي جنى على ابن الرومي وأخر طبع ديوانه بعد الدواوين التي في طبقته . لأنه ذُكر في كل كتاب متداول من كتب الأدب وحُفظت له مختارات كثيرة في حيثما وردت مختارات الشعراء المبرزين ، والذين أهملوه ـ كصاحب الأغاني ـ إنما تعمدوا ذلك حنقاً عليه لا إصغاراً لشأنه ، فتأخرَ طبعه في العصر الحديث لأسباب غير الخمول والاهمال : تأخر لأن ديوانه أطول ديوان محفوظ في اللغة العربية من جهة ، ولأن نسخته ـ من جهة أخرى ـ لم تكن ميسورةً في البلاد السورية حيث طبعت بعض الدواوين ، وربما كان الاقذاع في الهجاء سبباً ثالثاً مضافاً إلى ذينك السببين .

فليس من الصدق للتاريخ إذن أن يقال ان ابن الرومي كان خاملاً بذلك المعنى الشائع من الخمول ، ولكنه مع هذا كان خاملاً وكان خموله أظلم خمول يصاب به الأدباء ، لأنه الخمول الذي يحفظ ذكر الأديب ولكنه يخفي أجمل فضائله وأكبر مزاياه ، وهذا هو الحيف الذي أصاب ابن الرومي ولا يزال يصيبه عندنا بين جمهرة الأدباء والمتأدبين .

قال ابن خلكان يصفه ويقدره : « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقى فيه بقية » .

وهذا وصف صادق كله ، ولكنه ليس بكل الوصف الذي ينبغي أن يوصف به ويتَمَّم به تعريفه ، فهو تعريف ناقصٌ . والناقص فيه هو المهم وهو الأجدر بالتنويه . إذ هو هو المزية الكبرى في الشاعر ، وهو هو الطبيعة الفنية التي تجعل الفن جزءاً لا ينفصل من الحياة .

ما الغوص على المعاني النادرة ؟ وما النظم العجيب والتوليد الغريب ان لم يكن ذلك كله مصحوباً بالطبيعة الحية والاحساس البالغ والذخيرة النفسية التي تتطلب التعبير والافتتان فيه ؟ ان كثيراً من النظامين ليغوصون على المعاني النادرة ليستخرجوا لنا أصدافاً كاصداف ابن نباتة وصفي الدين أو لآلىء رخيصة كلآلىء ابن المعتز وابن خفاجة واخوان هذا الطراز ، وان الغوص على المعاني النادرة لهو لعب فارغ كلعب الحواة والمشعوذين ان لم يكن صادق التعبير مطبوع التمثيل والتصوير . وعلى الأوراق المالية رسوم ونقوش وأرقام وحروف ، ولكنها برسومها ونقوشها وأرقامها وحروفها لا تساوي درهماً ان لم يكن وراءها الذهب المودع في خزانة المصرف ! فالاحساس هو الذهب المودع في خزانة النفس وهو الثروة الشعرية التي يقاس بها سراة الكلام ، أما الرسوم والنقوش والأرقام والحروف فعلامة لا أكثر ولا أقل . وقد تغني عنها علامة أخرى برقم ساذج وتوقيع بسيط !

نعم ما النظم العجيب والتوليد الغريب واستغراق المعنى حتى يُستوفىَ إلى أخره ولا تبقى فيه بقيه؟ ان هذا بقضه وقضيضه ان هو إلا أدوات التعبير وليس هو التعبير المطلوب في لبابه . فاذا لم يكن عند الشاعر ما يعبِّر عنه فكل معانيه وتوليداته ونوادره لغو لا حاجة بنا اليه ، وإذا كان عنده ما يغبر عنه واستطاع التعبير بغير توليد ولا اغراب ولا استغراق فقد أدى رسالته وأبلغَ في أدائها أكمل بلاغ . وهذه هي الرسالة المقصودة وهذا هو الشعر الجيد وهذه هي الطبيعة الفنية ، أما المعاني والتوليدات فهي وسائلُ إلى غايةٍ لا قيمة لها إلا فيما تؤديه وتنتهي اليه ، ويستوي بعد ذلك من أدَّى اليك سريرة نفسه بتوليد واغراب ومن أداها اليك بكلام لا اغراب فيه ولا توليد .

وابن الرومي شاعر كثير التوليد غواص على المعاني مستغرق لمعانيه ، ولكننا لو سئلنا ما الدليل على شاعريته لكان غبناً له أن نحصر هذا الدليل في التوليد والغوص والاستغراق . فقد نحذف منه توليداته ومعانيه ولا نحذف منه عناصر الشاعرية والطبيعة الفنية ، فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه والشاعر في جيده ورديئه والشاعر فيما يحتفل به وفيما يلقيه على عواهنه ، وليس الشعر عنده لباساً يلبسه للزينة في مواسم الأيام ولا لباساً يلبسه للابتذال في عامة الأيام . كلا ! بل هو إهابه الموصول بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه . فللرديء منه مثلُ ما للجيد من الدلالة على نفسه والابانة عن صحته وسقمه . بل ربما كان بعض رديئه أدل عليه من بعض جيده وأدنى إلى التعريف به والنفاذ اليه ، لأن موضوع فنه هو موضوع حياته . والمرء يحيا في أحسن أوقاته ويحيا في أسوأ أوقاته ، ولقد تكون حياته في الأوقات السيئة أضعاف حياته في أحسن الأوقات .

هذا الجانب من شاعرية ابن الرومي هو الجانب الخامل المجهول ، وهو الجانب الذي وقفنا على التعريف به صفحات هذا الكتاب . وعندنا أننا ننصف كل شاعر ـ ولا ننصف ابن الرومي وحده ـ بتوضيح هذا الجانب من الشاعرية ، أو بتوضيح ما نسميه الطبيعة الفنية . لأنه هو المقياس الذي لا يتم لنا أن نقدر شاعراً بغيره ، والذي نجهل الشعر كله والشعراء كلهم اذا نحنْ أغضينا عنه والتفتنا الى سواه مما لا يستحق كبيرَ التفات .

الفصل الأول

عصر ابن الرومي
أو القرن الثالث للهجرة

« كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان ، كان عصر الحكمة وكان عصر الجهالة ، كان عهد اليقين والايمان وكان عهد الحيرة والشكوك ، كان أوان النور وكان أوان الظلام ، كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط : بين أيدينا كل شيء وليس بين أيدينا شيء قط ، وسبيلنا جميعاً الى سماء عليين وسبيلنا جميعاً الى قرار الجحيم . تلك أيام كايامنا هذه التي يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علاتها ، وألا نذكرها إلا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن آفات » .

هذا هو عصر الثورة الفرنسية ، وهكذا استهل وصفه الكاتب الانجليزي « شارلس دكنز » في بداية قصة المدينتين ، إلا أنك قد تنقل هذا الوصف إلى أمة غير الأمة الفرنسية وعصر غير القرن الثامن عشر للميلاد وأنت لا تخرج به عن زمانه ومكانه وفحواه ، إذ هو وصف صادق لكل عصر من العصور في تواريخ الانتقال والاضطراب ومن تلك العصور القرن الثالث للهجرة في دولة الاسلام الشرقية ، وهو القرن الذي لا يوصف في جملته إلا بمثل هذا الوصف الغامض الجلي الذي كأنما يصف لك عصرين مختلفين لا عصراً واحداً متناسق الأوضاع والأحوال ، لأنه في الحقيقة عصران مختلفان أو عدة عصور مختلفات ، وان اجتمعت في نطاق واحد من الزمان .

إن كان لكل دولة أوان للبذر وأوان للنماء وأوان للحصاد فالقرن الثالث للهجرة كان أوان

النماء للدولة العباسية جاء بُعيد التمهيد وقُبيل النضج والذبول . ففيه نما وأزهر كل ما بذره مؤسسو الدولة من جراثيم الخير والشر وعناصر الصلاح والفساد . وكانت الدولة في ابانه أشبه شيء بالمرج الأخضر الذي ينمو فيه الحب والفاكهة والشوك والعشب المسموم : خضرة زاهية ناضرة ولكنها وسيمة شائهة ومصلحة مهلكة ومرجوة مخشية ، ويختلط فيها الغذاء والسم اختلاطا لا سبيل فيه إلى التنقية والتمييز . فهو العصر الذي بلغ كل شيء فيه أقصاه وأثمر كل عمل فيه نتاجه المحتوم . أثمر فيه الخطأ كما أثمر فيه التوفيق وظهر فيه ما قدموا صالحاً أو طالحاً على السواء . فبدأ التمام وبدأ النقص في حين واحد ، واجتمع الخليط من حضارات العرب والفرس والروم إلى الخليط من عوامل القوة والضعف والبشارة والانذار ، فكان نسيجاً من ألوان الزمان لا تشبع منه عين الفنان ولا روية الحكيم .

وليس بنا أن نسهب في وصف هذا القرن واستقصاء تاريخه فانما يعنينا منه ما يحيط بفرد واحد هو الشاعر الذي نترجم لحياته . فحسبنا من تاريخ ذلك العصر ما نوضح به نواحي تلك الحياة ، والقليل الوجيز من ذلك التاريخ كافٍ لتوضيح ما نريده في هذا المقام .

حالة الحكومة والسياسة

ولد ابن الرومي في سنة إحدى وعشرين ومائتين وتوفي في سنة أربع وثمانين على قول بعض الرواة . فهو قد أدرك في حياته ثمانية خلفاء هم : الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد الذي توفي بعد ابن الرومي ببضع سنوات . فاذا أردنا أن نحيط بالحالة التي كانت عليها الحكومة وسياسة الدولة يومذاك فلعلنا لا نستطيع أن نعرض لذلك ببيان هو أوجز من الالمام بالمصير الذي صار إليه بعض أولئك الخلفاء . فمنهم واحد قتل وهو المتوكل وثلاثة خلعوا وقتلوا بعد خلعهم وهم : المستعين والمعتز والمهتدي ، وقيل ان من الآخرين من مات مسموماً . والبقية الذين ماتوا على سرير الملك لم يخل عصر أحدهم من فتنة أو انتقاض أو غارة خارجية ، ولم يكن حظ ولاة العهود والأمراء والوزراء بخير من حظ الخلفاء ولا مصير أكثرهم بأسلم من هذا المصير . فقلَّ بين هؤلاء من نجا من الخلع والسجن والتعذيب واستصفاء الأموال .

وكان الخلفاء عرضة للغضب والكيد من الجند والوزراء ونساء القصور ، أما الأمراء والوزراء فكانوا عرضة للغضب والكيد من جميع هؤلاء ويزيد عليهم الخلفاء كلما قدروا على البطش وأمنوا على أنفسهم دسائس المشاغبين والمنافسين .

ان اطّراد البطش بالخلفاء والوزراء لا يدل على أمان أو انتظام في سير الأمور ، ولكن هذا كله لا يزال ضعيف الدلالة على ما كانت عليه حقيقة الحال في حكومة تلك الأيام . فقد يعوزنا ان نعلم كيف كان المقتولون يقتلون والمخلوعون يخلعون لنعلم كيف كان الفساد يجري في خلائق النفوس كما كان يجري في سياسة الدولة وأعمال الدواوين . فقصارى ما يدل عليه اطّراد العدوان أن شريعة الحكم لا تُرعى وأن الحكام لا تتقى ، إلا أن الحكومة قد تهزل هيبتها وتبطل شريعتها ثم تبقى للناس بعد ذلك حرمات أخرى يتقونها وآداب أخرى يحرصون عليها : تبقى لهم حرمات المروءة وآداب العرف والدين . أما في ذلك العهد فقد بلغ التنكيل والتبشيع في بعض حوادث الفتك مبلغاً لا حرمةَ معه لشرع ولا لدين ولا لمروءة .

فمن أمثلة ما كان يصيب الخلفاء ما حدث للمعتز حين طالبه الجند الأتراك بأرزاقهم فلم يجدوا عنده ولا عند كتابه ووزرائه مالاً : قال الطبري في أخبار سنة خمس وخمسين ومائتين : « فلم يرعه الاصياح القوم من أهل الكرخ والدور وإذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا المعروف بأبي نصر قد دخلوا في السلاح فجلسوا على باب

المنزل . . . ثم بعثوا اليه أن اخرج الينا فبعث اليهم أني أخذت الدواء أمس وقد أجفلني اثنتي عشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف ، فان كان أمر لا بد منه فليدخل إلي بعضكم ، فدخل اليه جماعة من أهل الكرخ والدور من خلفاء القواد فجروا برجله الى باب الحجرة . قال : وأحسبهم كانوا قد تناولوه بالضرب بالدبابيس فخرج وقميصه مخرق في مواضع وآثار الدم على منكبه فأقاموه في الشمس . . فجعلت أنظر اليه يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي قد أقيم فيه . . ورأيت بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده . . فذكر أنه لما خلع دفع إلى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه ، ثم جصصوا سرداباً بالجص السخين ثم أدخلوه فيه وأطبقوا عليه بابه فاصبح ميتاً ، وكانت وفاته لليلتين خلتا من شعبان في هذه السنة . فلما مات أشهد على موته بنو هاشم والقواد وأنه صحيح لا أثر فيه » . . . ومن أمثلة ما كان يصيب الوزراء ما حدث لمحمد بن عبد الملك الزيات في أيام المتوكل وذكره الطبري في أخبار سنة ثلاث وثلاثين ومائتين . قال بعد أن ذكر مصادرة الأموال ونهب الدور وضم الضياع : « لم يزل أياماً في حبسه مطلقاً ثم أمر بتقييده فقيد وامتنع من الطعام وكان لا يذوق شيئاً ، وكان شديد الجزع في حبسه كثير البكاء قليل الكلام كثير التفكير ، فمكث أياماً ثم سوهر ومنع من النوم : يساهر ويُنخس بمسلّة . ثم ترك يوماً وليلة فنام وانتبه فاشتهى فاكهة وعنباً فأتي به فأكل ثم أعيد إلى المساهرة ثم أتي بتنور من خشب فيه مسامير حديد . . . وكان هو أول من عمل ذلك فعذب به ابن آسباط المصري حتى استخرج منه جميع ما عنده ثم ابتلي به فعذب به أياماً . وذكر عن الدنداني عن الموكل بعذابه أنه قال : كنت أخرج وأقفل الباب عليه فيمد يده إلى السماء جميعاً حتى يدق موضع كتفيه ثم يدخل التنور فيجلس ، والتنور فيه مسامير حديد وفي وسطه خشبة معترضة يجلس عليها المعذب إذا أراد أن يستريح فيجلس على الخشبة ساعة ثم يجيء الموكل به فاذا هو سمع صوت الباب يفتح قام قائماً كما كان ثم شدوا عليه . قال المعذب له : خاتلته يوماً وأريته أنـي أقفلت الباب ولم أقفله . إنما أغلقته بالقفل ثم مكثت قليلاً ثم دفعت الباب غفلة فاذا هو قاعد في التنور على الخشبة ، فقلت أراك تعمل هذا العمل ؟ فكنت إذا خرجت بعد ذلك شددت خناقه فكان لا يقدر على القعود واستللت الخشبة حتى كانت تكون بين رجليه فما مكث بعد ذلك أياماً حتى مات ، واختلف في الذي قتل به فقيل بطح فضرب على بطنه خمسين مقرعة ثم قلب فضرب على ظهره مثلها ، فمات وهو يضرب وهم لا يعلمون . فأصبح ميتاً قد التوت عنقه ومتخت لحيته ، وقيل مات بغير ضرب ، وذكر عن مبارك المغربي أنه قال :

ما أظنه أكل في طول حبسه إلا رغيفاً واحداً ، وكان يأكل العنبة والعنبتين قال : وكنت أسمعه قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه يا محمد يا بن عبد الملك ! لم تقنعك النعمة والدواب الفرة والدار النظيفة والكسوة الفاخرة وأنت في عافية حتى طلبت الوزارة ! ذق ما عملت بنفسك ، فكان يكرر ذلك على نفسه ، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عنه عتاب نفسه فكان لا يزيد على التشهد وذكر الله » والذي روي عن التمثيل بالمذنبين ـ ولا سيما في أيام المعتضد ـ أفظع من هذا وأعنف . وكأنما كان التفظيع بهم فرجة يتفننون في ابتداع أشكالها وأساليبها ليلهوا بها النظارة ويذكروها فيما يذكرون من مشاهدة المجون والفكاهة !

أساس هذا الشر كله سببان غالبان هما القطيعة بين بني العباس والعرب ، ونظام الاقطاع الذي تمادى فيه بنو العباس حتى انتهى الى تصدع العالم الاسلامي وتشعبه في مدى قرنين اثنين بضع عشرة شعبة .

فبنو العباس كانوا قوماً موتورين طال عليهم الظلم واحتمال المكاره وكانوا ينقمون على العرب انهم خذلوا آل النبي في نضالهم مع بني أمية وباعوهم بيع السماح لما استمالهم الأمويون بالعطايا والوعود . فلبثوا زماناً يسامون الذل ويُلعنون على المنابر ويشهدون قتل رجالهم وسبي نسائهم وهم آل النبي الذي لم يسأل قومه على الهداية أجراً إلا المودة فيهم ، وابتلوا بكل محنة في دولة الأمويين ولا من يغضب لهم أو يجنح إليهم . ولقد كان بنو العباس شركاء بني علي في الوتر وإن كان المصاب في معظمه مصاب هؤلاء ، لأنهم كانوا جميعاً من آل البيت ينالهم من الذل ما ينال كل منتمٍ اليه . ثم لما قامت لهم آخر الأمر دولة لم تقم على أيدي العرب وهم أولى الناس أن ينصروهم وتأخذهم الغيرة لهم ، وإنما قامت على أيدي الفرس الذين كانوا ينقمون مثلهم على الدولة العربية . فامتلأت نفوسهم حفيظة على العرب وانقطع ما بينهم وبينهم من صلة المودة والطمأنينة وشعروا لهم في نفوسهم بما يشعر به المظلوم لمن ظلموه أو أعانوا عليه ظالميه ، والموتور إذا خاب ظنه في انصاف الناس وساء رأيه في أمانتهم واخلاص طويتهم لم يعرف لهم حقاً ولم يرع لهم ذمة ولم يجر الأمر بينه وبينهم الا على المنفعة والرهبة دون الثقة والمودة ، ومن هنا كانت تلك السياسة النفعية الفاتكة التي اشتهر بها أساطين بني العباس ومضى عليها خلفاؤهم من بعدهم ، وجاء اتصالهم بأجلاف الاعاجم من قبائل الترك والديلم فنقلوا عنهم ضروباً من المثلات التي تعودها هؤلاء الأعاجم في وحشية البداوة .

قيل إن العباسيين إنما قربوا إليهم الفرس والأعاجم واتخذوا منهم الأعوان والقواد مكافأة

لهم على نصرهم إياهم وتأييدهم لهم على أعدائهم . . والحقيقة أن بني العباس كانوا يتوجسون من العرب قبل ان تقوم لهم دولة وتنتظم لهم عقدة ، وكان ابراهيم بن محمد بن علي صاحب الدعوة قبل السفاح يكتب إلى أبي مسلم : « إن استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » فهو الحذر من العرب الذي أبعد هؤلاء وأخملهم في دولة بني العباس ، وليست مكافأة الفرس ومن إليهم ، ثم توالت الحوادث بما باعد الشقة بين العرب وأصحاب الدولة الجديدة ، فلما كان الخلاف بين الأمين والمأمون ذهب العرب مع الأمين لأن أمه عربية وذهب الفرس مع المأمون لأن أمه فارسية ، وقتل الأمين وانتصر المأمون فحفظها للعرب وأمعن في إقصائهم وتقريب الأعاجم على تعدد أجناسهم ، ثم المعتصم ـ وكانت أمه تركية ـ فاعتمد على جنود الترك وكثر اختلاف الأجناس في جيش الدولة وولاة أمرها فضلا عن اختلاف الأجناس بين نساء القصور وأمهات الأمراء ، وتفاقمت أسباب الدسائس بين الملوك والأمراء والقادة والوزراء وحاشية القصور من رجال ونساء ، وبلغ من تفاقمها أن أشفق منها الجند والقواد الذين هم مساعير نيرانها فشغب الجند على قوادهم وتنازع القواد أمرهم فودوا جميعاً لو يملكهم خليفة قوي يخيفهم ويحسم أسباب النزاع بينهم كما قال بغا الكبير : « نجيء بمن نهابه ونَفْرَقه فنبقى معه وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضاً فقتلنا أنفسنا » ثم اشتد أشفاقهم من تحاسدهم حتى طلبوا أن يتولى القيادة أمير من بيت الخلافة ولا يتولاها أحد منهم ، ولكن أسباب الشقاق كانت أكبر وأوسع من أن يحسمها مثل هذا التدبير العاجل الذي لا يطول الاستقرار عليه .

كان أمر الدولة إذن قائماً على سوء الظن والدسيسة ، وقد ألف المؤرخون أن يذكروا إخلاص الفرس لبني العباس حتى خيل إلى بعض قراء التاريخ أن بني العباس كانوا خليقين أن يطمئنوا إلى جهة واحدة على الأقل من جهات الدولة ، وأن يسكنوا إلى شعب واحد من شعوبها الكثيرة ، وما كان الأمر كذلك إلا في الظاهر الذي لا ينخدع به رجال من المحنكين المتحذرين كرجال الدولة العباسية ، فما نظن أبا مسلم نصير الدولة الأكبر إلا كان طامعاً في الخلافة متربصاً بأوليائه الدائرة ، ولهذا طمح إلى مصاهرة بيت الملك وارتقى بنسبه إلى العباس وبدأ باسمه في مخاطبة الخليفة وأراد أن يؤم الناس في موسم الحج واستعد للملك استعداده الذي لا يخفى على أوليائه ، وما نظن البرامكة إلا كانوا يفعلون فعل أبي مسلم في شيء من التبصر وطول الأناة .

ولم لا يطمع هؤلاء وغيرهم وما كانت تعوز العظماء في أمة الفرس أسباب الدعوة والانتقاض ؟ فان كان الأمر أمر الطمع والقوة فهاهم الفرس أصحاب القوة التي وصل بها العباسيون إلى الخلافة ، وإن كان أمر الدين والغيرة على آل البيت فهاهم أبناء عليّ عندهم يدعون لهم إذا شاءوا ويجدون من الناس مستمعاً ومجيباً بعدما أصاب العلويين على أيدي بني العباس من قسوة وتنكيل وما أصاب العرب في دولتهم من إهمال واطّراح .

كان حكم بني العباس حكم الموتور المستريب ولا يكون إلا هكذا حكم الموتور المستريب . وأطبق نظام الاقطاع على هذه الآفة فتمت به البلية وتشعبت المقاصد حتى فشا سوء الظن ولم يبق موضع لثقة بين إنسان وإنسان من العاملين في الحكومة .

نظام الاقطاع

فنظام الاقطاع نظام معيب ولكنه يبقى مستور العيوب ما بقيت هيبة الدولة وسطوة القائمين عليها . فاذا ضعفت وضعفوا فهو الشر المستطير يشقى به الحاكم والمحكوم وينخر في اركان الملك فلا يدعه إلا وهو مفكك الأجزاء معتورٌ بأسباب الفناء .

فكان الولاة ـ والخلافة العباسية مرهوبة الجانب والأمور مستقرة في عنفوانها ـ يؤدون المال الذي عليهم ويتعهدون الأرض والمرافق بالاصلاح لتغزر عندهم موارد الجباية وتدوم لهم وللناس منابع الثروة ، فلما تقلقلت الخلافة وارتاب الولاة في امرها وفي أمرهم اهملوا الاصلاح وتهافتوا على جمع المال وحبسوا أرزاق العمال واغفلوا مرافق الرعية ، فخربت الأرض وعمَّ السخط وفسدت طاعة الجند على ما بها من فساد الشقاق والدسيسة ، ولجأ الخلفاء إلى اغتيال الولاة والكتاب وكل من بأيديهم مال الجباية . فأعملوا فيهم القتل واستصفاء الأموال واستخراج الدفائن والمخبآت ، واصبحت الكتابة والوزارة وما اليهما من وظائف الدولة كأنما هي رخصة بالظلم والغصب ريثما يحتاج الخلفاء الى ما جمعه الوزراء والكتاب فيحصلوا على المال من هذه الطريق ! وبلغ من شيوع الاختلاس أن الذين كانت بأيديهم خزائن الدولة شاركوا العمال واصحاب الوظائف في أرزاقهم فكانوا لا يؤدون رزق عامل او صاحب وظيفة الا إذا اقتطعوا منه أتاوة لانفسهم واستكتبوه توقيعه باستيفاء رزقه ، غير مستثنين من ذلك أحدا حتى اخوة الخليفة واهل بيته . بل قد بلغ من شيوع الاختلاس أن اصبح سراً مذاعاً لا يكتم في حضرة الخليفة نفسه ولا يبالي الوزير أو الكاتب أن يجهر بين يديه بفعله : فلما عرّض الخليفة المهتدي لسليمان بن وهب بما كان يأخذه هذا من العمال « معجَّلا ومؤجَّلا » قال له سليمان : « يا أمير المؤمنين ! هذا قول لا يخلو من ان يكون حقاً أو باطلاً ، فان كان باطلاً فليس مثلك من يقوله ، وان كان حقاً وقد علمت أن الأصول محفوظة فما يضر من يساهمني من عمالي على بعض ما يصل اليهم من غير تحيف للرعية ولا نقص للأموال »؟

وراجت تجارة الارتشاء من العمال وعمال العمال حتى بلغت أقصى ما عساها أن تبلغه في اواخر أيام الدولة ، فقيل عن الخاقاني فيما رواه الفخري انه ولَّى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً على الكوفة وقبض من كل واحد منهم رشوة ! فان كان قد بقي لحسن الظن بين ولاة الأمر بقية فهذه السرقات والرشاوى والمصادرات والنكبات قد اتت على هذه البقية ، فلم تدع بينهم الا علاقات الحذر والمساومة والتربص وفساد الطوية . ولا جرم تبيض الفتنة

وتفرّخ في بيئة كهذه بين جند يشغبون وعمال يدلسّون وعرب يحنقون وعلويين يتحفزون ورعية تمزقها براثن الرعاة وملوك لا يأمنون على الملك ولا على الحياة .

وقد حضر ابن الرومي في زمانه بعض هذه الفتن وسمع بما تقدمه وترك لنا في شعره مثلا مما حدث في واحدة منها وهي فتنة الزنج التي اختلطت فيها الأسباب السياسية والدينية والاجتماعية ، فقال يصف ما حل بأهل البصرة على أيدي الثائرين :

كم أغصوا من شارب بشراب	كم أغصوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجى	فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى اخاه صريعاً	تَرِبَ الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه	وهو يُعلى بصارم صمصام
كم مفدى في اهله اسلموه	حين لم يحمه هنالك حام
كم رضيع هناك قد فطموه	بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر	فضحوها جهراً بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوها	بارزاً وجهها بغير لثام
صبحوهم فكابد القوم منهم	طول يوم كأنه الف عام

ودرجت الأحوال على ذلك فلم يكن يهوّنها على الناس الا اتساع ارجاء البلاد الاسلامية وتفرق الفتن في تلك الأرجاء ، والا فترات من القوة يتاح فيها للدولة في الحين بعد الحين خليفة حازم الرأي نافذ العزيمة فتسكن غوارب الفتنة بعض السكون ويستقيم الولاة والعمال بعض الاستقامة ، وتعلو هيبته فيخشاه المغيرون على الدولة من داخلها وخارجها وتفيء الرعية إلى ظله زمناً حتى يحمّ اجله فتعود الأمور الى ما كانت عليه .

الحالة الاجتماعية

تنتهي الفوضى السياسية ـ اذا تطاول بها الزمن ـ إلى الخراب والعسر ونضوب الأرزاق بين جميع الطبقات عاليها وهابطها على السواء . ولكن الفوضى لا تمنع الترف إذا هي جاءت في البداية أو ترددت في الفترة بعد الفترة ولم يطل بها زمن التخريب والافساد . فلا يندر أن يجتمع الترف والفوضى في طبقات من الدول المتداعية التي ورثت السلطان القديم والثروة الواسعة ومظاهر الحضارة وافانين المعيشة الفاخرة . بل كثيراً ما تكون الفوضى من أسباب الترف والمغريات به ، لتعويدها النفوس أن تخلد إلى الدعة واغتنام اللذة وان تحجم عن المساعي الجليلة والآمال الرفيعة . يأساً من كل غاية وشكاً في مصير كل نعمة ، وعلماً بأن الحياة لا تجري على وتيرة ولا تنتظم في سياق .

وكذلك كان القرن الثالث للهجرة قرن الفوضى والترف أو قرن الخطر و« التسلية » بلغ فيه كلاهما مبلغه وسرت إلى العصر جرائر العصور الأولى فجنى ثمارها خللاً في السياسة وبذخاً في المعيشة وحياة كحياة الجند ليلة الحرب كلها قصف وكلها استسلام .

ورث القرن الثالث حضارات العرب والفرس والروم وأساليب اللهو في هذه الأمم وفي الأمم التي اتصلت بها من ترك وهند وصين ، وتجمعت الأموال المستحيرة في أيدي الأمراء وجباة الخراج وأصحاب التجارات الغادية الرائحة في البر والبحر بما تستدعيه ضرورات العيش ونوافل الشهوات ، فكثر المترفون المنعمون وشاعت فنون الخلاعة والمجون ، واصبح لكل ضرب من ضروب اللهو علم يعرفه علماؤه ويقرب اهله إلى الخلفاء وذوي الرئاسة حتى الرقص وما اليه فضلاً عن الغناء والسماع . نقل المسعودي في مروج الذهب أن الخليفة المعتمد قال لبعض من حضر من ندمائه : « صف لي الرقص وانواعه والصفة المحمودة من الرقاص واذكر لي شمائله » فقال المسئول : يا أمير المؤمنين ! أهل الأقاليم والبلدان مختلفون في رقصهم من اهل خراسان وغيرهم . فجملة الايقاع في الرقص ثمانية اجناس : الخفيف والهزج والرمل وخفيف الرمل وثقيل الثاني ومخفيفه وخفيف الثقيل الأول وثقيله ، والرقاص يحتاج إلى أشياء في طباعه وأشياء في خلقته وأشياء في عمله . فأما ما يحتاج اليه في طباعه فخفة الروح وحسن الطبع على الايقاع وأن يكون طالبه مرحاً إلى التدبير في رقصه والتصرف فيه ، واما ما يحتاج إليه في خلقته فطول العنق والسوالف وحسن الدل والشمائل والتمايل في الاعطاف ودقة الخصر وحسن أقسام الخلق . . . ومخارج النفس والاراحة والصبر على طول الغاية ولطافة الاقدام . . ولين المفاصل وسرعة الانفتال

في الدورات ولين الاعطاف ، واما ما يحتاج إليه في عمله فكثرة التصرف في ألوان الرقص واحكام كل جزء من حدوده وحسن الاستدارة وثبات القدمين على مدارهما ، واستواء ما تعمل يمنى الرجل ويسراها حتى يكون في ذلك واحداً . ولوضع القدم ورفعها وجهان أحدهما ان يوافق بذلك الايقاع والآخر ان يتثبط به . فاكثر ما يكون هو فيه أمكن واحسن فليكن ما يوافق الايقاع فهو من الحب والحسن سواء ، وأما ما يتثبط به فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الايقاع مترافعاً وما يتثبط به متسافلاً » .

وقس على ذلك سائر ضروب اللهو والترف . حتى انتهى القرن واقبل ما بعده وللقوم في آداب المجالس وآداب المائدة ما لم نسمع بمثله عن رومة وبيزنطة ، فكان من رؤسائهم من لا يأكل لقمتين بملعقة واحدة كما قيل عن الوزير المهلبي انه « كان من ظرفه في فعله ونظافته في مأكله انه إذا اراد اكل شيء بملعقة كالأرز واللبن وامثاله وقف في جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً ـ وكان يستعمله كثيراً ـ فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة ثم يدفعها إلى غلام آخر قام في الجانب الأيسر ثم يأخذ اخرى يفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية لئلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة ثانية » .

واقتدى الأوساط والفقراء بالعلية والأغنياء فكثرت بيوت القيان والخمر وأدمنت المعاقرة صبوحاً وغبوقا وشاع اقتناء الجوارى والغلمان واستبيحت اللذات على أنواعها مألوفها وغير مألوفها وطيبها وخبيثها ، فتكشفت الوجوه وقل الحياء وخف موقع الهجر والبذاء على الاسماع ، ولا سيما حين اصبح الحكام والولاة هم قدوة الناس في هذه الافانين وهم موضع النعمة التي تصبو إليها نفوس المحرومين ، وفي احدى قصائد ابن الرومي البائية وصف لعيش الكتاب والموسرين لا بأس بأن نلحقه بهذا الباب لدلالته على ذلك العصر وعلى موقع هذه اللذات من نفس الشاعر ، وذلك حيث يقول :

أتراني دون الأولى بلغوا الا ... مال من شرطة ومن كتاب
وتجار مثل البهائم فازوا ... بالمنى في النفوس والاحباب
خير ما فيهم ولا خير فيهم ... انهم غيرُ آثمي المغتاب
ويظلون في المناعم واللذ ... ات بين الكواعب الأتراب
لهم المسمعات ما يطرب السـ ... ـامع والطائفات بالاكواب

. . . .

من جوار كأنهن جوار ... يتسلسلن من مياه عذاب
لابسات من الشفوف لبوساً ... كالهواء الرقيق أو كالسراب

ومـن الجوهـر المضيء سناه شعـلا يلتهبـن اي التهاب

. . . .

لهف نفسي على منـاكير للنـ ـكر غضـاب ذوي سيوف عضاب
تغسـل الأرض بالدمـاء فتضحي ذات طهـر ترابهـا كالملاب[1]
من كلاب نأى بهـا كل نأي عن وفـاء الـكلاب غدر الذئاب
واثبـاتٍ على الظبـاء ضعاف عن وثـاب الأسـود يوم الوثاب
شرط خولـوا عقائـلَ بيضاً لا باحسابهـم بل الاكساب
ن ظبـاء الانيس تلك اللواتي تتـرك الطالبـين في انصاب
فاذا ما تعجـب النـاس قالوا هل يصيد الظبـاء غـير الكلاب ؟
أصبحـوا ذاهلـين عن شجـن النا س وان كان حبلهـم ذا اضطراب
في أمـور وفي خمـور وسمور[2] وفي قاقُـم وفي سنجاب
وتهـاويل غـير ذاك من الرقـ ـم ومـن سنـدس ومـن زرياب[3]
في حبـير منمنـم وعبير وصحـان فسيحـة ورحاب
في ميادين يخترقـن بسا • تـين تمس الـرؤوس بالاهداب
ليس ينفـك طيرهـا في اصطحاب تحـت اظـلال ايكهـا واصطخاب
من قرينـين اصبحـا في غناء وفـريدين اصبحـا في انتحاب
بـين أفنانهـا فواكه تشفي من تداوى بهـا من الأوصاب
في ظلال من الحـرور واكنا نٍ من القـر جمـة الحجاب
عندهـم كل ما اشتهـوه من الأ لات والاشربـات والاشواب[4]
والطروقـات والمراكب والولد ان مثـل الشـوادن الاسراب
واليلنجـوج[5] في المجامـر والند ترى نشره كمثـل الضباب
والغـوالي وعنبـر الهنـد والمسك على الهـام واللحـى كالخضاب
ولديهـم وذائـل الفضض البيـ ـض تباهـي سبائـك الاذهاب
لم أكن دون مالـكى هذه لأملا ك لو أنصف الزمـان المحابي

---

(١) طيب يشبه الزعفران
(٢) اسماء أنواع من الفراء
(٣) ماء الذهب
(٤) جمع شوب وهو ما يخلط بغيره
(٥) عود للتبخر به

ففي هذه القصيدة وصف واف لمناعم العيش في بيوت الطبقات الموسرة ومعظمها من « الموظفين » وفيها ـ مع هذا الوصف الوافي ـ تفسير واضح لتهالك الناس على العمالة والكتابة وسائر الوظائف التي يأتي رزقها من المرتبات والجبايات والرشى والاسلاب ، وفيها ـ مع هذا وذاك ـ تفسير لنقمة الطبقات المحرومة وللثورات التي كانت تهب من هنا وثم لرد الظلامات وانصاف الفقراء . واي شيء ادل على طلب الثورة والتلهف على قلب الأحوال والتأهب لتلبية الداعين إلى الشغب من قول شاعر وديع كابن الرومي :

لهف نفسي على مناكير للنـ ـكر غضاب ذوي سيوف عضاب
تغسل الأرض بالدماء فتضحي ذات طهر ترابها كالملاب
من كلاب نأى بها كل نأي عن وفاء الكلاب غدر الذئاب

لا جرم يكون ذلك العصر عصر الحيرة والانتظار ، ولا جرم تتأهب فيه النفوس لدعوة الجماعات السرية وتتعلق الآمال بالمهدي المنتظر والمصلح الأكبر الذي يغسل الأرض بالدماء . . ولا جرم يكون ذلك العصر هو عصر بابك الخرمي وداعية الزنج والقرامطة وغيرهم من الثوار واصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون المقاصد الاجتماعية بالمقاصد الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء المنزوفين بالدعوة الى المساواة والتمرد على الحكام ، وكان ذلك على اكثره في بلاد الفرس حيث بقي الفلاحون كما كانوا في عهد الاكاسرة يسامون سوم الانعام ويُستنزفون كما كان يستنزفهم الامراء والملوك المؤلّهون في غابر الزمان ، ثم كان ذلك على اكثره في المرافىء والثغور حيث تكثر الحركة ويزدحم العمال والصناع ويرتفع السعر ويشتد التنافس بين الطبقات .

على أن هذه الاحداث كانت تمر بالدولة وهي باقية سليمة منها بعض السلامة ، لانها ـ كما أسلفنا ـ كانت تتلقاها متفرقة في الأماكن والأوقات ، وكان شغب الشاغبين يوصم بالكفر والافساد في الأرض ويسمى القائم به تارة باسم الفاسق وتارة أخرى باسم المارق او الفاجر أو الخبيث ، فينسى اسمه الأول ولا يذكر الا بهذا الاسم المنتحل ، وكانت هذه الثورات بتراء ليست لها وجهة مرسومة ولا خطة معلومة . فكانت تعوزها عناصر الدعوة المشروعة المستجابة التي تلتف بها الجماهير وتستبسل فيها ، فلا توشك الثورة أن تستفحل حتى تفتر وتضمحل وتثوب الأمورُ الى نصاب .

هذا والقصور سادرة في غيها قلما تحس لهذه المشكلات الاجتماعية اثرا او تتحرك لعلاج أسبابها الدفينة الا في العهد بعد العهد والصحوة بعد الصحوة ، ولا تراها فيما عدا ذلك الا

غارقة في بذخها مفتنة في زينتها ولهوها : المهندسون والمزخرفون والمطربون والطهاة والندماء يستبقون في تجويد اساليب المعيشة وجلب الوان المسرة ، ومجالس الطرب تدخل على المجتمع العالي بعرف جديد من الآداب والأذواق ، فلا يكون الأدب الا أدبها ولا الذوق الا ذوقها ولا يحسب الوزير وزيراً ولا الرئيس رئيساً ان لم يكن مع ذلك نديماً يحسن المجالسة والمفاكهة ويصلح للمجلس قبل صلاحه لسياسة الدولة ، فأصبحت المنادمة باب السلوك الى الملوك وسلم الوصول الى الحظوة عندهم والدالة عليهم ، والنقض والابرام في شئون الدولة بالزلفى الى اهوائهم ، واحتاج الى علم هذه الصناعة كل ذي خطر في الدولة لما كان عسى أن يحتاج اليه من الترويح عن الخليفة وحسن المدخل عليه في ساعات صفوه وغضبه ونوبات اقباله واعراضه ، وكان أعلى ما يرجوه صاحب العلم والأدب والفضل والكياسة أن يصبح نديماً للملك او مربياً لابن ملك . وهما عملان متشابهان في الآلة والكفاءة . ولم يكن من السهل أن يحذقهما الأديب لانهما صناعة تجمع صناعات وفن يلم بشتى فنون واليك مثلاًمماكان يعرفه النديم الذي كان يرتقي به الحظ الى مجالسة الأمراء والخلفاء . نقل ياقوت في معجم الأدباء عن أمالي جحظة النديم أن يزيد ابن محمد المهلبي قال : « كنت أرى علي بن يحيى المنجم فأرى قبح صورته وصغر خلقته ودقة وجهه وصغر عينيه واسمع بمحله من الواثق والمتوكل فاعجب من ذلك واقول : بأي سبب يستظرفه الخليفة وبماذا حظي عنده والقرد املح من قباحته ؟ فلما جالست المتوكل رأيت علي بن يحيى قد دخل على المتوكل في غداة من الغدوات التي قد سهر في ليلتها بالشرب ، وهو مخمور يفور حرارة . يستثقل لكل أمر يخف دون ما يثقل ، فوقف بين يديه وقال : يا مولاي ؟ اما ترى اقبال هذا اليوم وحسنه واطباق الغيم على شمسه وخضرة هذا البستان ورونقه ، وهو يوم تعظمه الفرس وتشرب فيه لأنه هرمزروز (يوم هرمزد إله الخير) وتعظمه غلمانك واكرتك مثلي من الدهاقين ، ووافق ذلك يا سيدي أن القمر مع الزهرة فهو يوم شرب وسرور وتخل بالفرح ، فهش اليه وقال : ويلك يا علي ! ما أقدر أن افتح عيني خماراً ، فقال : ان دعا سيدي بالسواك فاستعمله وغسل بماء الورد وجهه وشرب شربة من رب الحصرم او من متنة مطيبة مبرداً ذلك بالثلج انحل كل ما يجد . فأمر باحضار كل ما أشار به فقال علي : يا سيدي وإلى أن تفعل ذاك تحضر عجلانيتان بين يديك مما يلائم الخمار ويفتق الشهوة ويعين على تخفيفه ، فقال احضروا عليا كل ما يريد . فأحضرت العجلانيتان بين يديه وفراريج قد صففت على اطباق

الخلاف ، وطبخ حماضية.وحصرمية ومطجنة[1] لها مريقة فلما فاحت روائح القدور هش لها المتوكل فقال له : يا علي أذقني . . فجعل يذيقه من كل قدر بجرف يُشرب فيها . فهش إلى الطعام وأمر باحضاره ، فالتفت علي الى صاحب الشراب فقال له : ينبغي أن يختار لأمير المؤمنين شراب ريحاني ويزاد في مزاجه الى ان يدخل في الشرب فيهنئه الله اياه ان شاء الله . قال : فلما أكل المتوكل وأكلنا نهضنا فغسلنا أيدينا وعدنا إلى مجالسنا وغنى المغنون فجعل علي يقول : هذا الصوت لفلان والشعر لفلان ، وجعل يغني معهم وبعدهم غناء حسناً إلى ان قرب الزوال ، فقال المتوكل : أين نحن من وقت الصلاة ؟ فأخرج علي اصطرلاباً من فضة في خفة ، فقاس الشمس وأخبر عن الارتفاع وعن الطالع وعن الوقت ، فلم يزل يعظم في عيني حتى صار كالجبل وصارت مقابح وجهه محاسن . فقلت لأمر ما قدمت : فيك الف خصلة ـ طبيب ومضحك وأديب وجليس وحذق طباخ وتصرف مغن وفكر منجم وفطنة شاعر . . . ما تركت شيئاً مما يحتاج اليه الملوك الا ملكته ».

وعلي بن يحيى هذا هو الذي ذكر ياقوت قبيل ذلك انه « كان بكركر من نواحي القفص ضيعة نفيسة لعلي بن يحيى المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة في ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى . فقدم أبو معشر من خراسان يريد الحج ، وهو اذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم ، فوصفت له الخزانة فمضى ورآها فهاله امرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها النجوم وأغرق فيها حتى ألحد ، وكان ذلك آخرة عهده بالحج وبالدين والاسلام ».

كذلك كانت مجالس المجتمع العالية وآداب جلاسها وندمائها . والحديث الذي نقله ياقوت مظنة للزيادة والتأليف في بعض اجزائه ، ولكنه يدل في جملته على المناقب والخصال التي كانت تطلب من النديم في ذلك الزمان ، وترى من هذا الحديث كيف كانت سنة الفرس غالبةً على مجلس الطرب وآدابها ومواعيدها وادواتها ، كما ترى ذلك من اوصاف المهرجانات والنواريز واعياد الطبيعة ومنازه الرياضة والالعاب والصيد والطرد وسائر

---

(١) يراجع كتاب الاطعمة الموجود منه نسخة فتوغرافية بالمكتبة المصرية لمعرفة معظم هذه الاصناف وطريقة تحضيرها

المراسم والأزياء .

* * *

إذا تلخصت الحالة السياسية في سوء الظن فقد تتلخص الحالة الاجتماعية في اغتنام الفرصة ، وان هذا وذاك في الحالتين لكالشيء وظله أو كالصوت وصداه .

الحالة الفكرية

قال ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » يصف حالة عصره من العلم والأدب :

« إني رأيت أكثر زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولأهله كارهين . أما الناشىء منهم فراغب عن التعلم والشادي تارك للازدياد والمتأدب في عنفوان الشباب ناس أو متناس ، ليدخل في جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين . فالعلماء مغمورون وبكرة الجهل مقموعون ، حين خوى نجم الخير وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع اهله وصار العلم عاراً على صاحبه ، والفضل نقصاً وأموال الملوك وقفاً على شهوات النفوس والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق ، وآضت المروءة في زخارف النجد[1] وتشييد البنيان ، ولذات النفوس في اصطفاق المزاهر ومعاطاة الندمان ، ونبذت الصنائع[2] وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر وسقطت همم النفوس . . فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب وينظر في شيء من القضاء ومن المنطق ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لا يعرف معناه ، وعلى حديث رسول الله بالتكذيب ، وهو لا يدري من نقله . قد رضي عوضاً من الله وماعنده بأن يقال فلان لطيف وفلان دقيق النظر : يذهب إلى أن لطف النظر قد اخرجه من جملة الناس وبلغ به علم ما جهلوه ، فهو يدعوهم الرعاع والغثاء والغثر وهو لعمر الله بهذه الصفات أولى وهي به أليق لأنه جهل وظن أن قد علم فهاتان جهالتان ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون . ولو أن هذا المعجب بنفسه الزاري على الاسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياه الله بنور الهدى وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وفي أخبار الرسول وصحابته وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها فنصب لذلك وعاداه وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولامثاله المسلمون وقل فيه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلا معنى واسم يهول بلا جسم . فاذا سمع الغمر والحدث الغر قوله : الكون والفساد وسمع الكيان والأسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والأخبار المؤلفة ـ راعه ما سمع وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة ، فاذا طالعها لم يحل منها

(١) الاثاث والفراش

(٢) جمع صنيعة وهي البر

بطائل ! انما هو الجوهر يقوم بنفسه والعرض لا يقوم بنفسه ، وراس الخط النقطة والنقطة لا تنقسم ، والكلام اربعة : أمر وخبر واستخبار ورغبة : ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهي الأمر والاستخبار والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ! والآن حد الزمانين ! مع هذيان كثير . . ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لعد نفسه من البكم ، او يسمع كلام رسول الله وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب . . فلما أن رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره جعلت به حظاً من عنايتي وجزءاً من تأليفي ، فعلمت لمغفل التأديب كتباً خفافاً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن وأعفيته من التطويل والتثقيل . . وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الانسانية اي بالجسم ومن الكتابة إلا بالاسم ولم يتقدم من الاداة الا بالقلم والدواة ، ولكنها لمن شدا شيئاً من الاعراب فعرف الصدر والمصدر والحال والظرف وشيئاً من التصاريف والأبنية وانقلاب الياء عن الواو والألف عن الياء وأشباه ذلك . ولا بد له مع كتبنا هذه من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية والمثلث الحاد والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار والمربعات المختلفات والقسي والمدورات والعمودين ، ويمتحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر ، فان المخبر ليس كالمعاين . وكانت العجم تقول : من لم يكن عالماً باجراء المياه وحفر فرص المشارب وردم المهاوي ومجاري الأيام في الزيادة والنقص ودوران الشمس ومطالع النجوم وحال القمر في استهلاله واقفاله ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه وحال ادوات الصناع ودقائق الحساب كان ناقصاً في حال كتابته . ولا بد له مع ذلك من دراسة اخبار الناس وتحفظ عيون الحديث ، ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلا اذا كتب ويصل بها كلامه اذا حاور ، ومدار الامر على القطب وهو العقل وجودة القريحة ، فان القليل معهما باذن الله كاف والكثير مع غيرهما مقصر »

هكذا كان حكم ابن قتيبة على عصره .

وابن قتيبة أديب لغوي فقيه ولد في أوائل العقد الثاني من القرن الثالث ومات في سنة ست وسبعين ومائتين ، ونشأ وعاش في بلاد العراق . فهو معاصر ابن الرومي في زمنه وقرينه في وطنه وشاهد عيان لذلك العصر يحدث عنه بما اختبر ورأى من صفات أهله .

فهل أصاب ابن قتيبة أو أخطأ في حكمه ؟

لم يصب كل الصواب ولم يخطىء كل الخطأ ، وأيّاً كان حظه من الصواب أو الخطأ فقد مثل عصره أحسن تمثيل ينظر إليه صاحب الأدب واللغة والفقه ، وغاب عنه ما وراء ذلك من نَظَرٍ لا يحيط به الذين يتحزبون لهذه العلوم على فروع العلم كافة .

فمن حسن تمثيله للعصر أنك تعرف من مقدمته كل ما كان يشتغل به أبناء عصره أو لا يشتغلون به من المعارف القديمة والحديثة ، وأنك تعرف منه أن العصر لم يكن عصر العلوم القديمة وحدها ، لأن العلوم الحديثة المنقولة والموضوعة أصبحت شرطاً في الكاتب والأديب لا تتم بغيرها كتابته وأدبه . حتى رأى مثل ابن قتيبة أنه في حاجة إلى إظهار مساهمته في هذه المعرفة وهو يدعو إلى علم اللغة والكتابة ، لئلا يستجهلَ ويُعرض عنه .

والمعاصر من بعض الوجوه أصلح الناس للحكم على عصره ، ولكنه من وجوه أخرى أقل الناس صلاحاً لانصافه والاحاطة بجميع نواحيه ، فهناك أشياء يراها القريب ولا تدخل في رؤية البعيد ، وهناك أشياء يحيط بها البعيد ولا يلمح منها القريب إلا اليسير . كالناظر إلى القمر في المنظار يرى جزءاً منه كبيراً مفصلاً ولكنه لا يراه كله ولا يقع نظره على ما حوله . ومثل هذا ما حدث لابن قتيبة حين كبر وصغر وتناول المقياس ليقدر فأخطا فيما قدّر .

أخطأ ابن قتيبة في شرح حالة العلم والتفكير بين أبناء عصره لأسباب متعددة : منها أن العلم لم يكن منهجاً واحداً في ذلك العصر ولكنه كان مناهج كثيرة تشتمل على منهج أهل السنة المتشددين في إنكار البدع ، ومنهج الفرق الاسلامية التي تدخل فيها فرق الشيعة وفرق المعتزلة على اختلافها وتباعد المسافة بينها ، ومنهج العلوم الحديثة من يونانية وفارسية وهندية وغيرها من مستحدثات الترجمة والابتكار ، ومنهج المتأدبين المتظرّفين الذين يقتبسون كل قبس ويستطرفون كل طرفة . إلى غير ذلك من المناهج التي تتقارب وتتباعد على نحو مما نعهد في زماننا الذي نحن فيه .

وقد كان الخلاف والتعصب بين هذه المناهج على أشده في العراق لأنه كان مجمع العواصم وملتقى العرب والعجم ومثابة العلماء والأدباء من جميع الطوائف والمذاهب ، فرأيُ ابن قتيبة هو رأي المتشددين أنصار العلوم العربية لا يرون غيرها إلا فضولاً أو كالفضول ولا يحسبون المنطق والفلسفة والرياضة وما إليها إلا لغواً قصاراه أن يلغط اللاغط بالكمية والكيفية والخط والنقطة والجوهر والعرض مع « هذيان كثير » .

ولكنه مع ازدرائه هذه العلوم الحديثة لم يلبث أن فَرِق من تهمة الجهل بها فذكر أطرافاً

من مصطلحاتها ودل بذلك على خطرها الذي لا يُزدرى ، ولكنها كما رأى القارىء أطراف مقتضبة كالتي نعاها على الاغرار المفتونين بظواهر تلك العلوم ، فلا يقولها القائل وله علم صحيح بما وراء تلك الأطراف .

ومن الأسباب التي باعدت بين الأديب اللغوي والاصابة التامة في تمثيل عصره أنه كان أديباً ولغوياً ، وكان سبيل العلم بالأدب واللغة أن يتحرى الطالب ما تقدمه وأن يرتقي في تحري القدم إلى أبعد عصوره . فلا ينظر إلى العصور التي خلفت بعد العرب الأسبقين إلا على أنها عصور نازلة منحدرة تمعن في الجهل والاسفاف بمقدار امعانها في البعد من العربية الجاهلية ! فعنده أن السلف قد ذهبوا بالخير كله ولم يبق للمتأخرين إلا أن ينعوا زمانهم وييأسوا على ما فاتهم ! وكل زمان هو شر الأزمنة في أوانه وخير الأزمنة - أو من خيرها - متى لحق بالماضي العريق ! وما برح ذمُّ الانسان عصره وانتقاصه إياه ديدن كل أديب فيما غبر وديدن بعض الأدباء في هذه الأيام . فابن قتيبة إنما جرى على هذه العادة التي لا تُستغرب في عهد البداوة العربية وفي عهد كل بداوة طبعت على تعظيم السلف والتفاخر بالأنساب والرجوع إلى القديم .

على أن الرجل لو تجرد من هذه العادة لبقي سبب آخر لعله كان يمنعه أن ينصف أبناء عصره أو يستجمع أخبارهم ويحسن المقابلة بينهم وبين من سبقهم ولحق بهم من أمثالهم فربما كان بعض الجهابذة في أيامه متباعدين متفرقين في أقطار ذلك الملك الواسع لا يسمع بهم إلا لماماً ، وربما كان القريبون منه في طريق العمل فلم يستووا بعد على غاية القمة ولم يلبسوا بعد هالة الخلود والشهرة ، وذلك فضلاً عن الذين جاءوا بعده بقليل . فهو لا يعرفهم ولا يطالب بأن يعرفهم .

والحقيقة أن ذلك العصر كان من أزهى عصور العلم في بلاد الاسلام قاطبة ، لأنه كان أول عصر تلقى علوم الثقافة الاسلامية كلها كاملةً مفروغاً من وضعها وترجمتها وتحضيرها غير مستثنى منها علوم السنة والعربية التي كان ابن قتيبة يتوفر عليها .

ففي القرن الثالث تمت المذاهب الأربعة في الفقه وظهرت آثار أقطاب الحديث كالبخاري ومسلم وأبي داود وابن ماجه والترمذي والنسائي ، ونزعت السياسة إلى تأييد أهل السنة أيام الخليفة المتوكل . ثم انتهى القرن بظهور أبي الحسن الأشعري الذي مال من مذهب المعتزلة إلى مذهب أهل السنة فقيل فيه « كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجزهم في أقماع السمسم » . ولم يخل علم من العلوم القديمة أو

الحديثة من أعلام نبغوا في القرن الثالث أو حضروا أوائله ، حتى العلوم العربية التي كان ابن قتيبة يتهم القوم باهمالها والجهل بفضائلها : وهي علوم الرواية والنحو واللغة والأدب . فمن رجالها المشهورين الذين حضروا ذلك القرن الفرّاء ، وابن السكّيت ، وقطرب ، وابن الأعرابي ونفطويه والجاحظ وأبو عثمان المازني وثعلب والزجّاج والمبرد وابن الأنباري وابن دريد والأخفش والسجستاني والصولي والرياشي وأبو سعيد البكري وقدامة بن جعفر وابن أبي الدنيا وابن العلاء السكري وكثيرون ممن يضارعون هؤلاء أو يقلون عنهم في الطبقة والشهرة . أما العلوم الأخرى فقد تأسس في ذلك القرن التاريخ والجغرافية وعاش فيه من المؤرخين والجغرافيين البلاذري واليعقوبي وأبو حنيفة الدينوري وأبو زيد البلخي والطبري وابن البطريق وابن خرداذبه وابن الفقيه وابن رسته وبُزُرك بن شهريار وآخرون ، وكان من فلاسفته الكندي والفارابي وابن سينا ، ومن أطبائه الرازي وابن سهل وابن ماسويه ، وراج علم النجوم حتى أوشك ألا يكون في ذلك الزمن إلا منجم !

ولم يقتصر الأمر على نبوغ هؤلاء الأعلام في مناهج العلم المختلفة بل تجاوزه إلى طوائف الناس من خاصة وعامة . فتحدثوا بالعلوم واشتغلوا بمحاوراتها ومناظراتها وأقبلوا على اقتناء كتبها ، فكان العصر عصر ثقافة عامة كثرت فيه المشاركة في مسائل البحث والمطالعة وشاع ذلك بين الناس أوسع شيوع ، حتى كان الرجل منهم يجمع بين أشتات الثقافة في زمنه كما رأيت فيما نقلناه عن علي بن يحيى المنجم أو كما ترى من قول ابن الرومي في رجل يصفه بدعوى العلم في معرض الهجو والتهكم :

قولا لطوط أبي علي ... بصريّنا الشاعر المنجم
المنذر المضحك المغني ... الكاتب الحاسب المعلم
الفيلسوف العظيم شأناً ... العائف القائف المعزّم
الماهن الكاهن المعادي ... في نصر إبليس كل مسلم

وبلغت هذه التهمة العلمية حداً أضجر الظرفاء كما أضجر المتشددين ، فكان الفتى المهذب يومئذ إما طالب علم قديم أو طالب علم حديث أو مشاركاً في هذا وذاك أو ظريفاً ضجراً من أكثر هؤلاء على حد وصف ابن المعتز :

قليل هموم القلب إلا للذة ... ينعّم نفساً آذنت بالتنقل
فان تطّلبه تقتنصه بحانة ... وإلا ببستان وكرم مظلل

يعب ويسقى أو يسقّى مدامه | كمثل سراج لاح في الليل مشعل
ولست تراه سائلاً عن خليفة | ولا قائلاً من يعزلون ومن يلي
ولا صائحاً كالعير في يوم لذة | يناظر في تفضيل عثمان أو علي
ولا حاسباً تقويم شمس وكوكب | ليعرف أخبار العلو مِنَ اسْفَلَ
يقوم كحرباء الظهيرة ماثلاً | يقلب في اصطرلا به عين أحول
ولكنه فيما عناه وسره | وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل

والظاهر أن علم النجوم والرياضات على الجملة كان أروج العلوم الحديثة وأكثرها طلاباً ، لطرافته وموافقته أحوال الزمن وتقلباته وشيوع الحضارة الفارسية التي كان أهلها يعبدون الكواكب وينوطون بها مقادير الخير والشر وطوالع السعود والنحوس ، ولم يكن الايمان بالسعد والنحس والزجر والقيافة غريباً عن العرب فقبلوا العلم الحديث غير متعسرين ، وأفرطوا فيه ذلك الافراط الذي لم يرض عنه ابن قتيبة ولم يرض عنه ابن المعتز ، وهما في هذا المقام طرفان !

وربما كان من تمام البيان عن آراء المتعلمين يومئذ في فنون العلوم المختلفة أن نأتي هنا على رأي « النجوميين » في أنصار القديم كما أتينا على رأي أنصار القديم في النجوميين . فقد كان هؤلاء يهزأون بالمتشددين كما كان المتشددون يهزأون بهم ، وكانت لهم في التنادر بالقوم دعابات ونكاتَ أظرفها ما وُضع فيما نظن على لسان أحمد بن ثوابة الكاتب المعروف في زمنه وجمعت فيه نكات العصر على كارهي الهندسة والرياضة وما اليها . قال أبو حيان في كتاب الوزيرين[1] : « . . . . أن صديقاً لابن ثوابة الكاتب أبي العباس يكنى أبا عبيدة قال له ذات يوم : انك بحمد الله ومنّه ذو أدب وفصاحة وبراعة ، فلو أكملت فضائلك بأن تضيف اليها معرفة البرهان القياسي وعلم الأشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء وقرأت أقليدس وتدبرته ! . . . » .

ثم نقل أبو حيان عن ابن ثوابة أنه كتب الى صديق له سأله عما حدث بينه وبين معلمه الهندسة فأجابه بعد تطويل وحوقلة واستعاذة بما يأتي :

« . . . فأخذ القلم ونكت نكتة نقط منها نقطة تخيلها بصري وتوهمها طرفي كأصغر من حبة الذر ، فزمزم عليها من وساوسه وتلا عليها من حكم أسفار أباطيله ثم أعلن عليها

(١) راجع معجم الادباء في ترجمة ابن ثوابه .

جاهراً بإفكه وأقبل علي وقال : أيها الرجل ! ان هذه النقطة شيء لا جزء له ، فقلت : أضللتنى ورب الكعبة وما الشيء الذي لا جزء له ؟ فقال:كالبسيط . . . فقلت أنا : وما الشيء البسيط ؟ فقال كالله والنفس ! فقلت له إنك من الملحدين . أتضرب لله الأمثال والله يقول فلا تضربوا لله الأمثال ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون ؟ . . فلما سمع مقالتي كره استعاذتي فاستخفه الغضب فأقبل علي مستبسلاً وقال : اني أرى فصاحة لسانك سبباً لعجمة فهمك ، وتدرعك بقولك آفة من آفات عقلك . فلولا من حضر والله المجلس واصغاؤهم اليه مستصوبين أباطيله ومستحسنين أكاذيبه وما رأيت من استهوائه اياهم بخدعه وما تبينت من توازرهم لأمرت بسل لسان اللكع الألكن وأمرت باخراجه الى حر نار الله وسعيره . . » .

ومضى ابن ثوابة يذكر كيف جاءوا له بمعلم مسلم بعد هذا المعلم النصراني وكيف إستعظم هذا المعلم المسلم عليه أن يدرك النقطة وقال له :

« وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة ؟ فقلت استجهلني ورب الكعبة ! . . وأخذ يخط وقلبي مروع يجب وجيباً وقال لي غير متعظم : ان هذا الخط طول بلا عرض ، فتذكرت صراط ربي المستقيم وقلت له قاتلك الله ! أتدري ما تقول ؟ تعالى صراط ربي عن تخطيطك وتضليلك ! انه لصراط مستقيم وانه لأحد من السيف الباتر والحسام القاطع وأدق من الشعرة وأطول مما تمسحون وأبعد مما تذرعون : أتطمع أن تزحزحني عن صراط ربي وحسبتني غراً غبياً لا أعلم ما في باطن ألفاظك ومكنون معانيك ؟ والله ما خططت الخط وأخبرت أنه طول بلا عرض الا ضلّة بالصراط المستقيم لتزلّ قدمي عنه وان ترديني في جهنم ! أعوذ بالله وأبرأ إليه من الهندسة ومما تدل عليه وترشد اليه . . . إني بريء من الهندسة ومما تعلنون وتسرون . . . » .

فهذا مثل بارع من السخرية التي كانوا يقابلون بها سخرية القوم من المنطق والنجوم . والكتابُ على ما فيه من الصورة الهزلية يدل بين سطوره على حقائق كثيرة : منها استفاضة تلك العلوم وجلالة خطرها بين المتأدبين حتى أن رجلا كابن ثوابة بلغ من المكانة والسن مبلغه يخف الى تعلمها ويحسب أن مروءته لا تكمل بين ذوي العلم بغير درسها ومنها أن اشياعها كانوا من الكثرة وأن أساتذتها كانوا من التجلة والهيبة بحيث كان يعز على ابن ثوابة أن يجد في مجلسه رجلا واحداً يؤازره ويرضى له أن يهين المعلم الذي جابهه بالقول الخشن واستطال عليه بالتقريع في داره . وليس يخفى ان الهزل كالغضب كلاهما مصوِّر مُبالغ

موكّل بالغلو في التكبير والتصغير ، فلا المتشدّدون كانوا كما مثلهم لنا أبو حيان في دعابته وهزله ولا المشغوفون بالحديث كانوا كما مثّلهم لنا ابن قتيبة في نكرانه وغضبه ، بيد أنّنا إذا حسبنا كل حساب لمبالغة الهزل ومبالغة الغضب بقيت المسافة طويلة بين الفريقين والبرزخ الفاصل بينهما متعذر العبور على تقارب الجيرة في الزمان والمكان :

وسكان دار لا تزاور بينهم على قرب بعض في المحلة من بعض

وليس بصعب على القارىء أن يتخيل هذه الحالة بجملتها لأنها أشبه شيء بما نحن فيه الآن من تباعد وتقارب واتصال في الثقافات وانفصال ، أو لعل الفرق الوحيد بيننا وبينهم أن عصرهم كان عصر الموالي الذين يدخلون العصبية الشعوبية في هذا الخلاف ويجتهدون في درس العلوم الحديثة لأنها تنافس العلوم العربية وتضيف اليها ما ليس منها ، وهم يودون ألا يحصروا الدين والعلم والسيادة جميعاً في العرب ، وألا يستأثر العرب دونهم بكل مأثرة وفضيلة . وقد يشعرون بهذا القصد أولا يشعرون . ولكنهم حريون أن تميل بهم ضمائرهم هذا الميل اذا وقع التنافس بين العرب والشعوبية والتمست المفاخر من الجانبين

الشعر

قد تكثر دراسة الآداب والعلوم ولا شعر ، وقد يكثر الشعر ولا دراسة للآداب والعلوم . أما القرن الثالث للهجرة فقد كان جامعاً لأشتات الثقافة بفروعها ، كثير الآداب والعلوم كثير الشعر كثير المعنيين بالأشعار .

عاش في ذلك القرن ـ ولا سيما أوائله وأواسطه ـ نخبة من جلة الشعراء النابهين كأبي تمام والبحتري والحسين بن الضحاك وعلي بن الجهم ودعبل الخزاعي وابن المعتز وابن الرومي ، وعاش فيه مع هؤلاء مئات من قالة الشعر المحسنين وغير المحسنين والمحترفين وغير المحترفين ، وأوشك أن يكون كل متعلم متأدب شاعراً ينظم الأبيات والمقاطع في بعض أغراضه . فالخلفاء كانوا ينظمون للغزل والغناء ، والأمراء والوزراء سواء منهم الفرس والعرب ـ كانوا يتطارحون الأشعار ويحفظون منها الشيء الكثير ، والمنتمون إلى الفرس والأعاجم كانوا أسبق إلى المنافسة في هذا المضمار لينفوا عنهم تهمة العجمة ويدخلوا مع العرب في ميدان الفصاحة : ومن الأمراء الفرس الذين مدحهم ابن الرومي من وضع كتاباً في الشكر صممه [illegible] وختمه بأماديح يطري بها صديقه العلاء بن صاعد على حروف المعجم ، ونعني به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عميد بيته العريق الذي تخرج منه كبار القواد والولاة .

لهذا كان ابن الرومي يقول وهو يشكو :

قد بلينا في دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعراء

لأنه كان يشعر بالمنافسة ولا يشعر بالعطف من جانب هؤلاء الزملاء .

***

وندر في ذلك العصر من خلا شعره من آثار الحضارة التي أجملنا وصفها فيما تقدم . فمن لم تظهر في شعره المعاني الفلسفية والآراء الطريفة التي سرت إلى المتأدبين من مذاكرة علم الكلام والعلوم المترجمة ظهرت فيه محسنات اللفظ والمعنى التي كشفها البحث في أشعار المتقدمين وأدت اليها المعارضة بين أقوال الفحول واستطلاع أسرار البلاغة فيما أجادوه ، ومن لم يظهر في شعره هذا وذاك ظهرت فيه تفخيمات الفرس وترصيعاتهم وجاءته العدوى من أساليب الكتّاب في النثر المنمّق وأساليب التحية في المجالس وأساليب المعيشة في القصور ، وربما عرضت الكلمة الفارسية في البيت العربي مما له المرادفات بالعشرات

كقول شاعرنا :

يا أيها الملك الذي في برده قمر وشير

يعتي الأسد .

وربما نظموا في أوزان الشعر الفارسية كالدوبيت والرباعية ، أو تفننوا في التسميط والتوشيح والازدواج على نحو ما نراه من كلف بعض الشعراء المعاصرين باختراع الأوزان والأعاريض

وامتاز هذا العصر على العصر الذي تقدمه بما يصح أن نسميه علم الشعر تمييزاً له من العناية بنظم الشعر نفسه . فقد كان الشعراء المولّدون يأتون بالمحسّنات البليغة عفواً أو محاكاة للأقدمين أو تصرفاً في الاختراع ، ولا يسمون هذه المحاسن بأسمائها أو يستخرجون منها علماً مرتباً على أقسام معززاً بشواهد ، وسبق في هذا المجال أمثال بشار ومسلم والعتابي وأبو نواس ، وتلاهم أبو تمام وتلامذته في أوائل القرن الثالث . ثم تمكّن حب التعريف والتقسيم والتخريج والتأويل من عقول الأدباء ، وكتب الجاحظ وقدامة بن جعفر وابن المعتز في هذه المعاني فاذا علم جديد مقيس على الشواهد معروف بالأسماء .

وما انتهى القرن الثالث حتى كانت لهم نظرة في الشعر كالنظرة التي رواها صاحب زهر الآداب عن الحاتمي إذ يقول :

« مثل القصيدة مثل الانسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخوّن محاسنه وتعفى معالمه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذا الحال احتراساً يجنبهم شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الاحسان ، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال وتأتي القصيدة في تناسب صدورها واعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم واعتمادهم البديع وأفانينه في أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ونهجوا دارسه . فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين فمذهبهم التعالم عن كذا إلى كذا وقصارى كل أحد منهم وصف ناقة بالعتق والنجابة والنجاء ، وأنه امتطاها فادّرع عليها جلبابِ الليل ، وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به إلى غرض لم يتعمده ، إلا أن طبعه السليم وصراطه في الشعر المستقيم

نضى تياره وأوقد باليفاع ناره » إلى أن يقول بعد أبيات أوردها للنابغة الذبياني :

« وهذا هو كلام متناسب تقتضي أوائله أواخره ولا يتميز منه شيء عن شيء . . . ولو توصل إلى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعاني وفتحوا أبواب البديع واجتنوا ثمر الآداب وفتقوا زهر الكلام لكان معجزاً عجباً »

فهذه النظرة تريك أثر البديع في كتابتهم وفي نقدهم القصيد ، فأما الكتابة فهذا نمط منها تكثر فيه الاستعارة مع القصد إلى معنى يراد ويُفهم ، وأما النقد فمذهبهم في وحدة الأغراض واتصال الأجزاء لا يخالف مذهب المعاصرين إلا باستحسان التلفيق بين المديح والنسيب ، وعذرهم أن المديح كان قوام حياة الشاعر يومئذ فما كان الاستغناء عنه والاعتماد على النسيب وحده بالمستطاع .

* * *

وغني عن القول بعد هذا أن « التَّنبُّه » كان هو السمة الغالبة على الشعر كله في ذلك العصر الدائب على التفتيش والانتقاد ، فكان شاعرهم ينظم القصيدة وهو واع لنفسه عامدٌ لترتيب أبياته عارفٌ بمواضع التجويد في لفظه ومعناه ، وتتابع الشعراء كبارهم وصغارهم على هذا فكان فيهم كلٌّ ما في هذه الطريقة من المآخذ والفضائل ومن عناصر الضعف والقوة .

* * *

وتغيرت أغراض الشعر فهذا الذي يقول فيه ابن قتيبة إنه لا يعدو مدح قينة أو وصف كأس . . ! وإنما كان هذا الإمام الناقد الذي درس الشعر ووازن بين أصوله وفصوله مستنكراً مستصغراً يرى الشوهة ويغمض عن الحسنة . ولولا ذلك لرأى أن الشعر قد كان يعدو مدح القيان ووصف الكؤوس إلى أغراض كثيرة تشمل كل وصف وتدخل في كل معرض من معارض الحياة في ذلك الزمان ، ولم يقلَّ فيها إلا ما كان وقفاً على أغراض البداوة وأيام الجاهلية الأولى . لأن هذه البداوة قلَّت فلم يكن لها نصيب من الشعر إلا القليل .

لكنا نخاله على حق فيما شكاه من شح الجوائز وكساد سوق أهل الأدب عامةً عند الملوك والأمراء ، فاشتغال هؤلاء الملوك والأمراء بالشعر ونظمه وحفظه وروايته شيء واجازتهم عليه الجوائز السنية شيء آخر . إنما كانوا في عصر ثقافة يود فيه كل امرىء كامل المروءة أن

يعرف كلٌ ما يُعرف من الآداب والفنون والملاهي ، فاذا تعلموا الشعر فكما يتعلم الرجل المثقف التوقيع على المعازف والشعوذة وطرائق التفكهة والاضحاك في مجالس السمر ، ولا يلزم من ذلك أن يكون لهذه الأشياء أو لأهلها المنقطعين لها خطر في نفسه .

ولا عجب أن يكثر الناظمون وحافظو الشعر في زمن كانت الوزارة فيه والكتابة ـ أو صناعة الأدب ـ فناً واحداً وشارة واحدة ، وكان معظم الوزراء والولاة من الأدباء الذين ظفروا بالحظوة عند الخلفاء ، ولكنَّ أموراً كثيرة طرأت في أواخر ذلك العصر كان من جرائها تطفيف أرزاق الشعراء وابتلاؤهم بكثرة النظراء وقلة النصراء : ومنها توزُّع العناية بين العلوم الحديثة والشعر الذي كان مستأثراً بجل عناية العرب في صدر الدولة الاسلامية ، ومنها غلبة المنادمة على الشعر وترجيح صفة النديم على صفة الشاعر إذا تعذر الجمع بين الصفتين ، ومنها قلة الاكتراث للمدح والذم حين استبحر العمران واستفاضت المناعم واللذات وشاعت الاباحة والمجون ، ومنها كثرة الشعر والشعراء فقد أصابه وأصابهم ما يصيب كل كثير من الرخص والبوار ، ومنها أن الدعوة السياسية خرجت كلها ـ أو أغلبها ـ من أيدي الشعراء إلى أيدي الدعاة الذين.تفرغوا لهذه الصناعة وبلغوا بها أيام العباسيين والعلويين شأواً من البراعة والاتقان قلّما يفاق في عهد من العهود ، ومنها اضطراب أمور الحكم واختلال أحوال الرعية في أواسط القرن الثالث بين عصرين سعيدين فات السابقُ ولم يأت بعده أوان اللاحق : ونعني بهما عصر الهيبة والثروة والعطايا والملك الموطّد المرجو المخوف ، وقد ذهب . وعصر الأمراء الذين تقسّموا المملكة واستقر كل منهم على جزء منها وتنافسوا بينهم في اجتلاب الشعراء والتشبه بالخلفاء ، ولم يأت بعد !

فكان الشعراء ضائعين من هنا وهناك ، وربما كان هذا سر خفوت الشعر وقلة الشعراء المجيدين في الربع الأخير من القرن الثالث ، والربع الأول من القرن الذي تلاه .

الدين والاخلاق

إذا عُرفتْ حالة السياسة وحالة الاجتماع وحالة التفكير فليس بالحالة الدينية ولا الخلقية خفاء .

لأن عقيدة المرء شديدة الصلة بتفكيره ومعيشته ومجرى الأحكام في زمانه ، وظاهرٌ بعد ما تقدم أن الدين في القرن الثالث لم يكن « دين الفطرة » الذي يؤمن به شعب لم يعرف الترف والفساد ، ولم يشهد من ولاته إلا العدل والاستقامة ، ولم يتعود أن يناقش نفسه في عقيدته وعقيدة غيره . فنشوء المذاهب واختلاف الآراء ضرورة لا محيد عنها في أمثال تلك الأحوال .

كتب ميسرة بن حسان السمّرى إلى أحمد بن سليمان بن أبي شيخ يسأله عن مذهبه ولم يكن أحد يقف على حقيقته :

دخلتنا الشكوك يا ابن أبي شـ ـيخ بأي الأديان أنت تدين
وإلى أيها تميل أبا جعفر كم ذا الهوى وذا التلوين ؟

فأجابه عنه ابن الرومي :

يا ابن حسان لا تشكّن في د ينـي ، ولا تقتسمك فيَّ الظنون
فهو توحيد ذي الجلال وتصد يق الـذي بلّغ الرسول الأمين
فاعْدُ عني وانظر لنفسك دوني ليس يجزى سواي عما أدين

وسؤال ابن حسان له مغزاه فما كان له من محل لو أنهم كانوا يصدّقون أن الرجل في زمانهم يبطن ما يظهر ويؤمن بالدين الذي يؤمن به الناس كافةً . فكأنما كان المفروض في طائفة من الناس أن يطووا سرائرهم على مذهب غير مذهب الاجماع وسر في الاعتقاد غير الذي يبدونه علانية من « توحيد ذي الجلال وتصديق الذي بلغ الرسول » . وليس بعجيب أن يكون الأمر كذلك والعهد عهد الملل والنحل والأحزاب والعصبيات والدعوات والبحث والتفسير . فما من نحلة كانت ولا شعبة من نحلة إلا كان لها أنصار ولأنصارها شأن ما في بعض الجهات . ولا سيما العراق ملتقى الأمم ومشتجر النزاع ومتوسط الرقعة الاسلامية ومثابة الحضارات القديمة والحديثة . وما كان أكثرها من نحل وأشده من لهج بالانتحال !! لكأنما كانت بلاد الدولة العباسية معرضاً للنِّحل ومستَبَقاً للمشاقّة بين المنتحلين !! ففيه التشيع بدرجاته والاعتزال بطوائفه والسُّنة باختلاف أقوال المجتهدين

فيها والفلسفة بمذاهبها والعلوم الحديثة بشعابها ، وفيه ما بين هذا وذاك أشكال من التدين يجيء بها دخول الفرس والروم والديلم في الاسلام عمداً أو على غير عمد . فبعضهم كان يُسلم وهو في الباطن على دين آبائه ، وبعضهم كان يخلص في إسلامه ولكنه ينقل إلى دينه الجديد موروثات دينه القديم ، وذلك فضلاً عن النصارى واليهود وعباد الأوثان . وكلهم على اختلاف في المذَاهب والعصبيات كهذا الاختلاف ، فغير مستغرب أن يُسأل المرء عن دخيلة رأيه وباطن اعتقاده في هذا المعرض الحاشد بالطوائف والأديان .

إلا أننا نخطىء أشد الخطأ إذا فهمنا من هذا أن الاباحةَ حلّت محل الدين في تلك الفترة فتعفّى أثره وبطل سلطانه . فان مداراة الآراء التي تخالف الاجماع لا تدل على ذلك بل لا تدل إلا على نقيض ذلك ، والمعهود في أمثال تلك الفترة أنها تقبل الغلو في التدين كما تقبل الشكوك وتعدد المذاهب ، كأن الاحساس بالخطر على العقيدة يحرّك بواعث الغيرة عليها ويزعج النفوس إلى المنافحة عنها ، فاذا رأيت الاباحة والترخص في جانب لم تلبث أن ترى الغلو والتشدد في الجانب الآخر ، ولا يخفى أن هذا الجانب الآخر هو الأقوى والأكبر لانه جانب العادة الخالدة والعدد الأكثر .

وربما لاح للناس أنهم نبذوا الدين فما يشعرون إلا وهم يلبون دعواته ويتعصبون لأهله ويظنون في أنفسهم أنهم غير متدينين ! ولقد كان مع الترخص في إباحة اللذات أناس غالون في النهي عنها يثورون على أصحابها في الحين بعد الحين ليقوّموا المنكر باليد واللسان . ومن هؤلاء فئة ببغداد خرجت ـ بُعيد مولد ابن الرومي ـ تهجم على البيوت فتريق الخمر وتضرب القيان وتكسر العيدان ، وكان يُنادَى في بغداد قبيل وفاته ـ أي في سنة تسع وسبعين ومائتين ـ « ألا يقعد على الطريق ولا في المسجد الجامع قاصٌّ ولا منجم ولا زاجر » وحلف الوراقون ألا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة .

بل كان ابن الرومي إذا ذكر الخمر في مديح أمير أسرع فاستدرك قائلاً إنها الشراب الحلال لا الشراب الحرام :

لا المدام الحرام لكن حلالا،	سؤر نار يحثها طابخان
شارك الخمر في اسمها ليس إلاّ	أن أداموه مثلها في الدنان
وحكاها في اللون والريح والطـ	ـعم ولطف الدبيب في الجثمان
فهو لا خمر في الحقيقة لكن	هو خمر في الظن والحسبان

ومثل هذا لا يقال إلا وللدين هيبة وللفرائض رعاية .

***

وهناك الضمائر التي لا تقوى على الشك لأنها تستريح إلى التسليم والاتكال ، فهي إما أن تهرب من الشكوك والأقاويل إلى إيمان بسيط لا لحاجة فيه ، أو تهرب منها الى اللهو والمؤانسة وما يعنيها في الحاضر بين يديها لحظة يعد لحظة ، كما قال ابن المعتز :

ولكنـه فيما عناه وسره وعـن غـير ما يعنيه فهـو بمعزل

وأصحاب هذه الضمائر هم ـ حين يحسبون ـ أقرب إلى المؤمنين منهم إلى المتشككين

***

وما يقال في الدين يقال في الأخلاق . فلا ريب في أن السياسة القائمة على السلب والغيلة ، والآداب القائمة على اغتنام الفرص وانتهاب اللذات ، والعقائد القائمة على ما رأيت من الشك والتشعب ـ قلّما تُبقي للنفوس بقية صالحة من الأخلاق ومسكة عاصمة من الغواية . ولكننا حريون أن نذكر أن نفوس الدهماء مطبوعة على العزاء ، وأن أكبر العزاء لها في هذه الفترات أن تحسب الغواية والرذيلة من مساوىء الغنى والجاه وتعتصم هي بالصبر والرجاء ، وفي بنية الأمة أبداً مثْل ما في بنية الحي من العوامل المكافحة للفساد التي لا تني تصون الجسم زمناً ولا تبرح تُلهم وظائفه السداد وإن ضل العقل وأنحى على الجسم بما ينهكه ويرديه . فتظل هذه العوامل ناشطة في بنية الأمة ولو تراءى للنظر من مشارفة بعض الطبقات أنها وقعت في الاضمحلال . فلا يحسن بنا أن نبالغ في تضخيم شأن الفوضى التي ابتليت بها العقائد والأخلاق في تلك الفترة الشاذة المتناقضة ، فهي ولا ريب كبيرة وبيلة ولكنها ليست أكبر ولا أوبل مما قد يعتري أمماً كثيرة وتؤاتيها بعده أسباب السلامة .

***

ذلك عصر ابن الرومي بخيره وشره وزيادته ونقصه . لقائل أن يقول في أطواره ما شاء أن يقول ، وأن يختلف في أوصافه ما شاء أن يختلف ، ولكنّ وصفاً واحداً من تلك الأوصاف لا يجوز فيه أقل اختلاف : ذلك أنه كان في خيره وشره عصراً حيّاً يصنع التواريخ

وليس بالعصر الميت الذي يطويه التاريخ في ثناياه .

وقد وضعنا له حدوداً من أرقام السنين لضرورة الحصر والتقريب ، ولكننا لم نرد بتلك الأرقام إلا أن تكون معالم في طريق الزمن يهتدى بها إلى البدايات والنهايات ، وليست هي البداية والنهاية ولا هي محور الابتداء والانتهاء .

الفصل الثاني

أخبار ابن الرومي

العصر والرجل

في تاريخ كل أمة عصر أو عصور اشتهرت بكثرة الذين ظهروا فيها من النوابغ والعبقريين في الشعر والأدب والعلم والفن والصناعة ، فيقول الذين يرجعون الفضل كله إلى العصر وحده إن أحوال العصر هي التي عليها المعوَّل في تكوين المواهب والعبقريات .

وفي تاريخ كل أمة أيضاً نوابغ وعبقريون ظهروا في مختلف العصور على تفاوت الأحوال بين عصر وعصر وبيئة وبيئة ، فيقول الذين يُرجعون الفضل كله إلى ملكة الفرد واستعداده أن العصر لا يغني شيئاً في تكوين المواهب والعبقريات ، أوأنه ـ إذا لم تسعف الموهبةُ والعبقريةُ ـ قليل الغناء .

ونحن يجب أن نحذر كلَّ فكرة يراد بها أن تخدم فكرة أخرى ، فهي تفقد استقلالها كلَّه أو بعضه كما يفقد استقلاله كلُّ من يخدم سواه . إنما تحترم الفكرة إذا أريدت لنفسها ولم تُرَد لتأييد فكرة هي مضافة إليها .

فيغلب على الذين يحصرون الفضل في العصر وحده أنهم يدعون إلى الاجتماعية والاشتراك في مرافق الأمة ، فيقللون من شأن الأفراد في الوصول إلى حظ من حظوظ العلم والمال بغير مساعدة المجتمع ومؤ اتاة الحوادث .

ويغلب على الذين يحصرون الفضل في الفرد وحده أنهم ينازعون أصحاب ذلك الرأي وينظرون إلى تفنيده وتوهينه لابطال ما يدعو إليه .

فهم مخطئون وأصحابهم أولئك مخطئون . ولا يرجى الاخلاص وصدق التحري في فكرة مسخرة تساق في ذيل مذهب تعتمد عليه أو يعتمد هو عليها . فلا العصر هو كل شيء ولا الموهبة الفردية هي كل شيء ، والأمر الذي لا مراء فيه هو أن العصر لا يخلق الموهبة إذا هي لم توجد في صاحبها ، وأن بعض العصور من الجهة الأخرى أصلح لاظهار المذاهب والعبقريات .

ثم أن العصر إذا لم يخلق الموهبة خلقاً فهو بلا ريب يوجهها ويهيء لها أسباب تمامها واستوائها ، بحيث يسهل علينا أن نفهم كيف أن عبقرية من العبقريات تهتدي على وجهتها في زمن ولا تهتدي إليها في زمن آخر ، وكيف أن رجلاً يكون صانعاً في هذا العصر أو ذاك وهو لو ولد في غيره لكان من الأدباء أو السواس .

ولا فائدة هنا من البحث في مصير ابن الرومي ماذا كان يلقى وماذا كان يصبح لو أنه ولد في غير القرن الثالث للهجرة . فقد ينبغ أو لا ينبغ ، إلا أن المحقق عندنا أنه في أي عصر ظهر لا يكون الا شاعراً أو صاحب عمل فني بسبيل من الشاعرية . فقد نتخيل أبا تمام ـ مثلا ـ قاضياً والبحتري عاملاً والمتنبي وزيراً والمعري فقيهاً والشريف خليفة أو إماماً من أئمة الطريق ، وقد نتخيلهم جميعاً ظاهرين بارزين في غير هذه الأعمال التي يزاولها أبناء الدنيا ويفلحون فيها على درجات من الفلاح ، فهم يصلحون لها ولغيرها بعض الصلاح وان كانوا مع هذا شعراءً وذوي قدم في مناهج الشاعرية . أما ابن الرومي فهو لا يصلح إلا للشعر وما إليه ولا ينفعه العصر إن لم ينفعه في هذا المجال . فاذا تمهَّد له الشعر فقد استوى على نهجه ، وإذا لم يكن شاعراً فهو لا شيء .

والعصر الذي عاش فيه كان صالحاً لظهور ابن الرومي أيما صلاح : كان صالحاً لظهور ابن الرومي ـ الشاعر ـ لأنه كان عصراً حيّاً حافلاً بأشتات الحياة وألوان الاحساس مشغولاً بالشعر والعلم وكل ما تشتغل به قريحةٌ أو سليقة ، وكان فيما عدا ذلك عصر الموالي أو عصراً للموالي فيه نصيبٌ وافر من التعلم والتأدب والتربية التي تُعِد صاحبها للسبق في كل مضمار .

كان لهذا عصراً صالحاً لظهور ابن الرومي الشاعر الذي لا متقدم له في غير الشاعرية .

ولكن أتراه كان كذلك عصراً صالحاً لظهور ابن الرومي ـ الرجل ـ الذي لم تبق منه الشاعرية بقيةً لمسعاة ولا لتصرف ؟

لا ! لمْ يكن ذلك العصر صالحا لابن الرومي الرجل كما كان صالحاً لابن الرومي الشاعر . بل لم يكن ذلك العصر إلا عصر مضيعة له ولأمثاله الذين خلقوا في هذه الدنيا وكأنهم أطفالٌ في حجر الفن ، لا يكفلون أنفسهم ان لم تلحظهم من الدنيا كفالة ساهرة .

فكانت قسمته تلك من غرائب القسم التي تتنازع الانسان بين النقيضين ، كأنه جسم مشدود للتعذيب بين قطبين متجاذبين .

فمن جهةٍ هو في زمنه الذي لم يخلق لغيره ، ومن جهة هو في الزمن الوحيد الذي لم يخلق له ولم يتزود له بآلة : ابن الرومي الشاعر في عصر الحياة والاحساس والدراسة والموالي فهو بخير . . . وابن الرومي الرجل في عصر الدهاء والخبث والصراع الجهنمي فهو بشرّ ما يكون عليه مثله . . . ولا سبيل إلى الافتراق بين الشخصين ، ولا سبيل كذلك إلى التوفيق بينهما على حال !

لو كان ابن الرومي شاعراً وشيئاً آخر لكان قميناً أن يرضى بعصره وأن يرضى به عصرهِ : لو كان شاعراً ورجلا يحسن الخوض في معترك العيش بين تلك الفتن والمغامرات لاتّقى بعض الفشل على الأقل وارتجى بعض النجاح . لكنه كان شاعراً وحسب ولم يكن له زاد آخر غير السليقة الفنية ! فجنى الشاعر على الرجل ولم يسعد الشاعر بما جناه . ومن هنا ذلك التفاوت بين نصيب شعره ونصيب شخصه ، وذلك الخطأ في تقدير مكانه وسمعته . فهو خامل وليس بخامل وهو نابه وليس له نصيب النباهة ! شعره نافق وقائل الشعر كاسد . . . وربما عابوا شعره في حياته وأكثروا من عيبه . ولكنك بيسير من النظر قد ترى انهم لم يقصدوا بالعيب الشعر كما قصدوا القائل . . . وإن كان في الشعر ما يعاب !

فالذين تبادر اليهم أن ابن الرومي كان مجهول القدر في حياته وبعد مماته انما نظروا إلى احدى صفحتيه ولم ينظروا إلى الصفحة الأخرى . انما كان خمول الرجل انه لم ينتفع بمعرفة الناس إياه لا أنه لم يُعرف ، وربما كان له خمول آخر وهو أنه لم يُعرف بأحسن مزاياه . أما انه قد عرف فذلك حق لا شك فيه .

وقد ازداد الناس معرفة به بعد موته كما اتفق كثيراً لمعظم الادباء والعلماء . فقال العميدي صاحب الابانة المتوفّى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وهو يذكر المتنبي . « ولا أقيسه في امتداد النفس وعلم اللغة والاقتدار على ضروب الكلام وتصوير المعاني العجيبة والتشبيهات الغريبة والحكم البارعة والآداب الواسعة بابن الرومي » . . . وقال ابن رشيق

صاحب العمدة المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة : « أكثر المولدين اختراعاً وتوليداً فيما يقول الحذاق أبو تمام وابن الرومي » . . . وقال ابن سعيد المغربي المتوفى سنة ثلاث وسبعين وستمائة في كتابه عنوان المرقصات والمطربات : « ويقولون انه أحق الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن توليده » . . . وذكر وفاته ابن الأثير المتوفى سنة ثلاثين وستمائة فقال ان « ديوانه معروف » . . . أي ان هذا الديوان كان متداولا في أيدي الأدباء إلى أيامه . ونظر إلى معانيه كثير من فحول الشعراء والأدباء منهم المتنبي وبديع الزمان والمعري والشريف ، وشاعت مختاراته في كتب الأدب فلم يخل منها إلا قليل .

أما أخباره فقد عُنى بكتابتها وروايتها اثنان من أدباء عصره ، وهما عبيد الله بن المسيّب وأبو عثمان الناجم . وثالث هو أحمد بن عمار قال ابن المسيّب انه لما مات ابن الرومي « عمل كتاباً في تفضيله ومختار شعره وجلس يمليه على الناس » .

ويظهر أن أبا عثمان سعيد بن هاشم الخالدي من أدباء القرن الرابع توسع في ترجمته إما في كتابه حماسة المحدثين أو في كتاب مقصور عليه ، ولكن أخباره هذه ذهبت كلها ولم يبق منها أثر إلا متفرقات في الكتب لا تغني في ترجمة وافية ولا شبيهة بالوافية ، وهي على قلتها لا يسعنا إغفالها ولا يسعنا كذلك أن نعتمد عليها ونقبلها على علاتها .

فنحن ننقلها كما هي فيما يلي ثم نعقّب عليها ونستخرج منها ما في الوسع أن نستخرجه من ترجمة للرجل تدل عليه وتستحضر للذهن صورةً لعبقريته ، ومثلنا في ذلك كمثل المنقبين في المحفورات إذ يعثرون ببعض العظام المهشمة من جسم مدثور ، فهم يقيسون المفقود على الموجود ويضنون بما وجدوه على الضياع ولو لم يكن به قوام .

أخبار ابن الرومي

ولد ابن الرومي كما جاء في ابن خلكان : يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد في الموضع المعروف بالعقيقة ودرب الختلية في دار بازاء قصر عيسى بن جعفر بن المنصور » .

وبحثنا كثيراً في الكتب التي عثرنا على شيء من أخباره فيها فلم نجد ذكراً لأبويه وأهله ولا لأيام حداثته وتعليمه ، وانقطعت أخباره في هذه الفترة فلم تقع لنا الا النوادر التي رويت عنه وهو شاعر لا تعرف سنه إلا بالنظر الى تواريخ الوقائع التي وردت في شعره . فجاء في معجم الأدباء لياقوت الحموى أثناء الكلام على أحمد بن عبيد الله بن محمد بن عمار :

« . . . ووجدت في كتاب ألفه أبو الحسن علي بن عبيد الله بن المسيّب الكاتب في أخبار ابن الرومي ، وكان ابن المسيب هذا صديقاً لابن الرومي وخليطاً له قال : كان أحمد بن محمد بن عبيد الله بن عمار ـ هكذا قال في نسبه بتقديم محمد على عبيد الله ـ صديقاً لابن الرومي كثير الملازمة له ، وكان ابن الرومي يعمل له الأشعار وينحله اياها يستعطف بها من يصحبه ، وكان ابن عمار محدوداً فقيراً وقّاعة في الأحرار وكان أيام افتقاره شديد السخط لما تجري به الأقدار في آناء الليل والنهار . حتى عرف بذلك فقال له علي بن العباس بن الرومي يوماً : يا أبا العباس ! قد سميتك العزير . قال له : وكيف وقعت لي هذا الاسم ؟ قال لأن العزير خاصم ربه بأن أسال من دماء بني اسرائيل على يدي بختنصر سبعين ألف دم ، فأوحى الله لئن لم تترك مجادلتي في قضائي لأمحونّك من ديوان النبوة ! وقال فيه :

وفي ابن عمار عُزيرية ... يشارك الله بها في القدر
لمْ كان ما كانَ ولِمْ لَمْ يكن ... ما لم يكنْ ، فهو وكيل البشر

الخ الخ . . .

وكتب ابن الرومي الى أحمد بن محمد بن بشر المرثدي قصيدة يمدحه بها ويهنئه بمولود ولد له ويحضه على بر ابن عمار والاقبال عليه يقول فيها :

ولي لديكم صاحب فاضل ... أحب أن يرعى وأن يصحبا

الخ الخ . . .

قال : « وصار محمد بن داود بن الجراح يوماً الى ابن الرومي مسلماً عليه فصادف عنده أبا العباس أحمد بن محمد بن عمار وكان من الضيق والاملاق في النهاية ، وكان علي بن العباس مغموماً به فقال محمد بن داود لابن الرومي ولأبي عثمان الناجم : لو صرتما الي وكثرتما بما عندي لأنس بعضنا ببعض . فأقبل ابن الرومي على محمد بن داود فقال : أنا في بقية علة وأبو عثمان مشغول بخدمة صاحبه - يعني اسماعيل بن بلبل - وهذا أبو العباس بن عمار له موضع من الرواية والأدب وهو على غاية الامتاع والايناس بمشاهدته ، وأنا أحب أن تعرف مثله ، وفي العاجل خذه معك لتقف على صدق القول فيه فأقبل محمد بن داود على أحمد بن عمار وقال له تفضل بالمصير اليّ في هذا اليوم وقبله قبولاً ضعيفاً ، فصار اليه ابن عمار في ذلك اليوم ورجع الى ابن الرومي فقال : اني أقمت عند الرجل وبت وأريد أن تقصده وتشكره وتؤكد أمري معه ، ومحمد بن داود في هذا الوقت متعطل ملازم منزله . فصار اليه وأكد له الأمر معه وطال اختلافه اليه الى أن ولي عبيد الله بن سليمان وزارة المعتضد واستكتب محمد بن داود الجراح وأشخصه معه وقد خرج الى الجبل ورجع وقد زوجه بعض بناته وولاه ديوان المشرق ، فاستخرج لابن عمار أقساطاً أغناه بها وأجرى عليه أيضا من ماله ، ولم يزل يختلف اليه أيام حياة محمد بن داود ، وكان السبب في أن نعشه الله بعد العثار وانتاشه من الاقتار ابن الرومي ، فما شكر ذلك له وجعل يتخلفه ويعيبه ، وبلغ ابن الرومي ذلك فهجاه باهاجٍ كثيرة . . . قال ابن المسيب : ومن عجيب أمر عزير هذا أنه كان ينتقص ابن الرومي في حياته ويزري على شعره ويتعرض لهجائه . فلما مات ابن الرومي عمل كتاباً في تفضيه ومختار شعره وجلس يمليه على الناس » .

وجاء في الجزء الأول من العمدة لابن رشيق :

« وهجا ابن الرومي البحتري وابن الرومي من علمت فأهدى اليه تحت متاع وكيس دراهم وكتب اليه ليريه أن الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه ، وأنه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط .

شاعــر لا أهابه   نبحتنسي كلابه
ان من لا أعزه   لعــزيز جوابه

وروى المرزُباني في الموشح أن عبد الله بن يحيى العسكري أخبره عن أبي عثمان سعيد بن الحسن الناجم أن البحتري قال له :

« أشتهي أن أرى ابن الرومي » قال فوعدته ليوم بعينه وسألت ابن الرومي أن يصير إلي فيه ، فأجابني إلى ذلك . فلما حصل ابن الرومي عندي وجهت إلى البحتري فصار إلي ، فقال له البحتري : قد أقرأني أبو عيسي بن صاعد قصيدة في أبيه وسألني عن الثواب عنها ، فقلت أعطوه لكل بيت ديناراً . ثم تحدثا ، فقال البحتري : عزمت على أن أعمل قصيدة على وزن قصيدة ابن الرومي الطائية في الهجاء . فقال له ابن الرومي : إياك والهجاء يا أبا عبادة ، فليس من عملك وهو من عملي . فقال له : نتعاون . وعمل البحتري ثلاثة أبيات ، وعمل ابن الرومي ثمانية فلم يلحقه البحتري في الهجاء . وكان اجتماعهما عندي سبباً للمودة بينهما .

وروى المرزباني أيضاً في الموشح .

« أخبرني محمد بن يحيى قال كنت يوماً عند عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فذكرنا قصيدة ابن الرومي في أبي الصقر التي أولها : « أجنت لك الوجد أغصان وكثبان » فقال عبيد الله ؛ هي دار البطيخ ! فضحك الجماعة ، فقال : اقرأوا تشبيبها فانظروا ، هي كما قلت ! قال محمد : وقد ملح عبيد الله وظرف ، وهذه القصيدة أكثر من مائتي بيت مر له فيها إحسان كثير ، ومن تشبيبها مما يدل على قول عبيد الله :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان
وفوق ذينك أعناب مهدلة ... سودٌ لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عناب يلوح به ... أطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليها الدهرَ فاكهة ... وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات ساري الطل يضربه ... وأقحوان منير النور ريان
ألفن من كل شيء طيب حسن ... فهن فاكهة شتى وريحان

فلما سمع أبو الصقر قوله :

هذا الذي حكمت قدماً بسؤدده ... عدنان ثم أجازت ذاك قحطان
قالوا أبو الصقرْ من شيبان قلت لهم ... كلا لعمري ولكن منه شيبان

قال : هجاني والله ! قيل له : هذا من أحسن المديح ، اسمع ما بعده :

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف ... كما علا برسول الله عدنان

فقال أنا بشيبان ليس شيبان بي ؛ قيل له : فقد قال :

ولـم أقصر بشيبـــان التـــي بلغت بهـــا المبالـــغ أعـــراق وأغصان
لله شيبـــان قوم لا يشيبهم روع إذا الروع شابت منـه ولدان

فقال « والله لا أثبته على هذا الشعر وقد هجاني فيه . قال الشيخ أبو عبيد الله المرزباني رحمه الله تعالى : وهذا ظلم من أبي الصقر لابن الرومي وقلة علم منه بالفرق بين الهجاء والمديح » .

وجاء في الجزء الثاني من زهر الآداب أن علي بن العباس الرومي كان « مفرط الطـيرة شديد الغلو فيها . قال علي بن عبد الله بن المسيب : وكان يحتج لها ويقول إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة أفتراه كان يتفاءل بالشيء ولا يتطير من ضده ؟ ويقول إن النبي صلى الله عليه وسلم مر برجل وهو يرجل ناقة ويقول يا ملعونة ، فقال لا يصحبنا ملعون ، وأن علياً رضي الله عنه كان لا يغزو وغزاة والقمر في العقرب ، ويزعم أن الطيرة موجودة في الطباع قائمة فيها ، وأن بعض الناس هي في طباعهم أظهر منهـا في بعض ، وأن الأكثر في الناس إذا لقي ما يكرهه قال : على وجه من أصبحت اليوم . . فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين وقد أهدي إليّ عدة من جواري القيان ، وكانت فيهن صبية حولاء وعجوز في احدى عينيها نكتة ، فتطير من ذلك ولم يظهر لي أمره وأقام باقي يومه ، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت لي ابنة من بعض السطوح وجفاه القاسم بن عبيد الله فجعل سبب ذينك المعنيين المغنيتين وكتب الي :

أيهـــا المحتفـــى بحُـــولٍ وعُور أين كانت منك الوجـوه الحسان ؟
قد لعمـــري ركبـــت أمـــراً مهيناً ساءنـــي فيك أيهـــا الخلصان
فتحـك المهرجـــان بالحـــول والعو ر أرانـــا ما أعقـــب المهرجان
كان من ذاك فقـــدك ابنتـــك الحر ة مصبوغـــة بهـــا الأكفان
وتجـــافى مؤمـــل لي جليل لج فيه الجفـــاء والهجران
قلَّما غاب من أمـــورك عنوا ن مبـــين ، وللزمـــان لسان
لا تكن بالهـــوى تكّذب بالاخبا ر حتـــى تهـــين ما لايهان
لا يقـدك الهـــوى إلى نصرةٍ الاخبا ر حتـــى يقـــدَّم البرهان
ان عقـــب الهـــوى هويٍ وعقبى طول تلك المهوّنـــات هوان
لا تصـــدق عن النبيين إلا بحـــديث يلـــوح فيه البيان
خبّـــر الله ان مشأمـــة كا نت لقـــوم وخبّـــر القرآن

أفـزور الحـديث تقبـل أم ما | قالـه ذو الجـلال والفرقان
أتـرى من يرى البشـير بشيراً | يمتـري في النـذير ياوسنان
فدع الهـزل والتضاحـك بالطيـ | ـرة والنصـح مثْمـن مجاّن

وجاء في ذلك الجزء بعد ذلك :

« وكان أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش غلام أبي العباس المبرد في عصر ابن الرومي شابا مترفا ومليحاً مستظرفاً ، وكان يعبث به فيأتيه بسحر فيقرع الباب ، فيقال له من ؟ فيقول قولوا لأبي الحسن مُرة ابن حنظلة ، فيتطير لقوله ويقيم الأيام لا يخرج من داره وذلك كان سبب هجائه اياه . . . فاعتذر اليه وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد ، وكان الأخفش أكثر الناس اخواناً فقبل عذره ومدحه بقصيدته التي يقول فيها :

ذكر الاخفش القـديم فقلنا | ان للأخفش الحـديث لفضلا

الخ الخ . . .

ثم عاد علي بن سليمان إلى أذاه واتصل به ان رجلاً عرض عليه قصيدة من شعره فطعن عليها فقال قصيدته التي يقول فيها :

ما بلغـت بي الخطـوب رتبـة من | تفهـم عنـه الـكلاب والقرده
ولا أنـا المفهـم البهائـم والطـ | ـير سليمان قاهـر المرده
فان يقـل انـني حفظـت فكالد | فتـر جهـلا بكل ما اعتقده
سأسمـع النـاس ذمـه أبداً | ما سمـع الله حمـد من حمده

. . . . »

وفي الوقائع بينه وبين الأخفش يقول الزبيدي تلميذ أبي علي القالي وهو صاحب طبقات النحويين المتوفى سنة تسع وسبعين وثلثمائة : « حدثني أبو علي قال : كان علي بن العباس الرومي لا يدع التطير والتفاؤل في جميع حركاته وتصرفه وكان علي بن سليمان الأخفش قد أولع باعتراضه في مخارجه فيما يتطير به ، فربما صرفه بذلك عن وجهه وربما دق عليه الباب فاذا قال من أنت ؟ قال الشؤم والبلاء ! فلا يبرح علي بن العباس يومه ذاك ، فلما شق عليه ذلك هجاه فأقذع في هجائه ، فكان الأخفش يستعمل حفظ هجائه ثم يمليه فيما يملي من الأخبار والأشعار على أصحابه ، فلما رأى علي بن العباس أن الأخفش لا يألم لهجائه أقصر عنه » .

يقول صاحب العمدة في هذه الوقائع بينه وبين الأخفش :

« وقد مزقه بالهجاء كل ممزق وجعله مثلة بين أصحابه . على أن الأخفش كان يتجلد عليه ويظهر قلة المبالاة به وهيهات وقد وسمه وسمة الدهر وسامه سوم الخسف والقهر » .

والأقوال في طيرة ابن الرومي كثيرة منها ما استطرد إلى ذكره صاحب زهر الآداب حيث قال بعيدَ ما أسلفنا نقله :

« ولابن الرومي في الأخفش إفحاشٍ صُنت الكتب عنه ، قال علي بن إبراهيم كاتب مسروق البلخي : كنت بداري جالساً فاذا حجارة سقطت بالقرب مني ، فبادرت هارباً وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح والنظر إلى كل ناحية ، من أين تأتينا الحجارة ، فقال : امرأة من دار ابن الرومي الشاعر قد تشوفت ، وقالت . اتقوا الله فينا واسقونا جرة ماء وإلا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشاً . فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد اليها وتخاطبها ، ففعلت وبادرت بالجرة واتبعتها شيئاً من المأكول ، ثم عادت إلي فقالت : ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومي ، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ثم يصير إلى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فتقع عينه على جار له كان نازلا بازائه ، وكان أحدب يقعد كل يوم على بابه ، فاذا نظر إليه رجع وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب . فعجبت لحديثها ، وبعثت بخادم كان لي يعرفه ، فأمرته بأن يجلس بازائه وكانت العين تميل إليه ، وتقدمت إلى بعض أعواني أن يدعو الجار الأحدب ، فلما حضر عندي أرسلت وراء غلامي لينهض إلى ابن الرومي ويستدعيه الحضور ، فاني لجالس ومعي الأحدب إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسي ومعه برذعة الموسوس صاحب المعتمد ، ودخل ابن الرومي فلما تخطى عتبة باب الصحن عثر فانقطع شسع نعله : فدخل مذعوراً ، وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغير حال فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه ، فقلت له يا أبا الحسن أيكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال قد لحقني ما رأيت من العثرة لأني فكرت أن به عاهة وهي قطع أنثييه ! قال برذعة : وشيخنا يتطير ؟ قلت نعم ويفرط ، قال ومن هو ؟ قلت علي بن العباس . قال : الشاعر ؟ قلت نعم . فأقبل عليه وأنشده :

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه	بتفريق ما بيني وبين الحبائب
رجعت إلى نفسي فوطنتها على	ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها	فايامه محفوفة بالمصائب

فخــذ خلســة من كل يوم تعيشه وكن حذراً من كامنــات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر واطرح تطير جارٍ أو تفاؤ ل صاحب

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظر إليه ، ولم أدر أنه شغل قلبه بحفظ ما أنشده ، ثم قام أبو حذيفة وبرذعة معه ، فحلف ابن الرومي لا يتطير أبداً من هذا ولا من غيره ، وأومأ إلى جاره ، فقلت ، وهذا الفكر أيضاً من التطير ، فأمسك . وعجب من جودة الشعر ومعناه وحسن مأتاه ، فقلت له ليتنا كتبناه ! قال اكتبه فقد حفظته وأملاه لي .

ومن شدة حذره وعظيم تطيره قوله لأبي العباس بن ثوابة وقد ندبه إلى الخروج إليه وركوب دجلة :

حضضت على حطبي لناري فلا تدع لك الخير تحـذيري شرور المحاطب
ومــن يلـق ما لاقيت في كل مجتنى من الشوك يزهـد في الثمار الأطايب
إذ اقتنــي الأسفــار ما كره الغنى إليّ وأغرانــي برفض المطالب
ومــن نكبــة لاقيتهــا بعــد نكبة رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب
فصبــريِ على الاقتــار أيسر مطلباً علي من التغــرير بعــد التجارب

. . . .

الخ الخ . . .

وهي طويلة وفيما مرّ كفاية تنبيء عنه وتدل عليه ، ولو مددت أطناب الاختيار لتتبع هذا النحو من شعره لخرجت عن غرض الكتاب .

وفي الجزء الأول من العمدة أنه : « كان كثير الطيرة ربما أقام المدة الطويلة لا يتصرف تطيراً بسوء ما يراه ويسمعه ، حتى أن بعض إخوانه من الأمراء افتقده فأعلم بحالـه في الطيرة ، فبعث اليه خادماً اسمه اقبال ليتفاءل به ، فلما أخذ أهبته للركوب قال للخادم : انصرف إلى مولاك ! فأنت ناقص ومعكوس اسمك لابقا . . . وابن الرومـي القائـل : الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثان ، وله فيه احتجاجات وشعرٍ كثير » .

وقال علي بن عبد الرحمن العباسي صاحب معاهد التنصيص المتوفّى سنة ثلاث وستين وتسعمائة : « كان كثير التطير جداً وله فيه أخبار غريبة ، وكان أصحابه يعبثون به فيرسلون اليه من يتطير من اسمه فلا يخرج من بيته أصلاً ، ويمتنع من التصرف سائر يومه ، فأرسل اليه بعض أصحابه يوما بغلام حسن الصورة اسمه حسن ، فطرق الباب عليه فقال من ؟

قال حسن . فتفاءل به وخرج ، وإذا على باب داره حانوت خياط قد صلب عليها درفتين كهيئة اللام ألف ورأى تحتها نوى تمر ، فتطير وقال : هذا يشير بأن لا تمر ، ورجع ولم يذهب معه ، وكان الأخفش علي بن سليمان قد تولع به فكان يقرع عليه الباب إذا أصبح ، فاذا قال من القارع ؟ قال مرة بن حنظلة ! ونحو ذلك من الأسماء التي يتطير بذكرها ، فيحبس نفسه في بيته ولا يخرج يومه أجمع ، وكتب اليه ينهاه ويتوعده بالهجاء » .

وجاء في هذا الكتاب قبل ذلك : « . . . حكى ابن درستويه ان لائماً لامه فقال له : لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال ألا تنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتنى عن مثله ؟ فأنشده قوله في الهلال :

انظـر إليه كزورق من فضة قد أثقلتـه حمولـة من عنبر

فقال له زدني ، فأنشده قوله في الآذريون الأصفر وهو زهر أصفر في وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة ، والفرس تعظمه بالنظر اليه وفرشه في المنزل :

كأن آذريونها والشـمس فيه كالية
مداهـن من ذهب فيهـا بقـايا غالية

فصاح واغوثاه ! تالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ! ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا أنا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس ؟ هل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام .

وسـاق صبيح للصبـوح دعوته فقـام وفي أجفانـه سنـة الغمض
يطـوف بكاسـات العقـار كانجم فمـن بـين منقض علينـا ومنفض
وقـد نشرت أيدي الجنـوب مطارفاً على الجو دكناً والحواشي على الأرض
يطرزهـا قوس السحـاب باخضر على أحمـر في أصفـر اثـر مبيض
كاذيال خود أقبلـت في غلائل مصبغـة والبعض أقصر من بعض

(وبعضهم ينسبها لسيف الدولة بن حمدان منهم صاحب اليتيمة) .

وقولي في صانع الرقاق :

ان أنس لا أنس خبـازاً مررت به يدحو الرقاقة مثـل اللمـح بالبصر
ما بـين رؤيتهـا في كفـه كرة وبـين رؤيتهـا قوراء كالقمر
إلا بمقـدار ما تنـداح دائرة في صفحـة الماء يُلقـى فيه بالحجر

وقولي في قالي الزلابية :

ومستقـر على كرسيه تعب | روحي الفداء له من نَصَب نصب
رأيتـه سحـراً يقلي زلابية | في رقة القشر والتجويف كالقصب
كأنما زيتـه المقلي حـين بدا | كالكيمياء التي قالـوا ولـم تُصب
يُلقـي العجـين لجينـاً من أنامله | فيسـتحيل شبـابيكاً من الذهب

وفي الجزء الثاني من زهر الآداب : « كان ابن الرومي منهوماً في المآكل ، وهي التي قتلته . وكان معجباً بالسمك فوعده أبو العباس المرثدي أن يبعث اليه كل يوم بوظيفة لا تنقطع . فبعث اليه يوم سبت ثم قطعه ، فقال :

ماالحيتاننـا جفتنـا وأنَّى | اخلف الزائـرون منتظريهم
جاء في السبـت زورهـم فأتينا | من حفـاظ عليه ما يكفيهم
وجعلنـاه يوم عيد عظيم | فكأنـا اليهـود أو نحكيهم
وأراهـم مصممـين على الهجـ | ـر فَلِمْ يسخطـون من يُرضيهم ؟
قد سبتنـا ومـا أتتنـا وكانوا | يوم لا يسبتـون لا تأتيهم

فاتصل ذلك بالناجم فكتب الى ابن الرومي

أبـا حسـن أنـت من لانزا | ل نحمـد في الفضـل رجحانه
فكم تحسـن الظـن بالمرثد | ي وقـد قلل الله احسانه
ألـم تدر ان الفتـى كالسرا | ب اذا وعـد الوعـد اخوانه
فبحـر السراب يفـوت القلو | ب فقـل في طلابـك حيتانه !

وخرج ابن الرومي الى بعض المتنزهات وقصدوا كرماً رازقياً فشربوا هناك عامة يومهم ، وكانوا يتهمونه في شعره ، فقالوا ان كان ما تنشدنا لك فقل في هذا شيئاً ، فقال لا تريموا حتى أقول فيه وأنشدهم لوقته :

ورازقـيٍّ مخـطَف الخصورِ | كأنـه مخـازن البلورِ

الخ الخ .

وفي الجزء الأول من هذا الكتاب : « وكان ابن الرومي لا يزال مُعْتَماً وكان يغضب اذا سئل عن ذلك ، وسأله بعض الرؤساء : لم تعتم ؟ فقال بديهاً :

يأيهـا السـائلي لأخبره | عنّـى : لم لا أراك معتجرا
أستـر شيئـا لو كان يمكنني | تعريفـة السائلـين ماستُرا

وقد بين العلة التي أوجبت اعتمامه في قوله :

تعممـت احصانـاً لرأسي برهة | من القر يومـاً والحرور اذا سفع
فلما دهـى طول التعمـم لمتي | وأودى بهـا بعـد الاطالـة والفرع

عزمت على لبس العمامة حيلة	لتستر ماجرت علي من الصلع
فيالك من جان علي جناية	جعلت اليه من جنايته الفزع
وأعجب شيء كان دائي جعلته	دوائي على عمد ، وأعجب بأن نفع !

وفي الجزء الثالث من هذا الكتاب : « قالوا : وكان الناس يتشوقون الى أوطانهم ولا يفهمون العلة في ذلك حتى أوضحها علي بن العباس الرومي في قصيدة لسليمان بن عبد الله ابن طاهر يستعديه على رجل من التجار يعرف بابن أبي كامل أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرها بقوله :

ولي وطن آليت ألا أبيعه	وألا أرى غيري له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعماً	بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا
وحبب أوطانَ الرجال إليهم	مآربُ قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم	عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه	لها جسد إن بان غودر هالكا

الخ الخ . . .

وقال علي بن عبد الكريم النصيبي : أتاني أبو الحسن بن الرومي بقصيدته هذه وقال : انصفني وقل الحق . . أيهما أحسن قولي في الوطن أو قول الأعرابي :

حب بلاد الله ما بين منعج	الي وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها نيطت على تمائمي	وأول أرض مس جلدي ترابها

فقلت : بل قولك ، لأنه ذكر الوطن ومحبته وأنت ذكرت العلة التي أوجبت ذلك . . . .

وتخلف سليمان عن نصرة ابن الرومي فذاك الذي هاجه على هجائه ، فمن ذلك قوله وقد خرج في بعض الوجوه فرجع مهزوماً :

جاء سليمان بني طاهر	فاهتاج معتز بني المعتصم
كأن بغداد وقد أبصرت	طلعته نائحة تلتدم
مستقبل منه ومستدبر	وجه بخيل وقفا منهزم

وقال

قرن سليمان قد أضرّ به	شوق إلى وجهه سيتلفه
كم يعد القرن باللقاء وكم	يكذب في وعده ويخلفه
لا يعرف القرن وجهه ويرى	قفاه من فرسخ فيعرفه

. . . .

وقال المعري في رسالة الغفران : « أما ابن الرومي فهو أحد من يقال ان أدبه كان أكثر من

عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة ، واستعار من أبي بكر بن السراج كتابا فتقاضاه به فقال ابن الرومي لو كان المشتري حدثاً لكان عجولا ، والبغداديون يدعون أنه متشيع ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية . وما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء ، ومن أولع بالطيرة لم ير فيها من خيرة » .

أما وفاته ففيها يقول المسعودي في كتابه مروج الذهب . « وممن أهلك القاسم بن عبيد الله على ما قيل بالسم في خشكنانجة علي بن العباس بن جريج الرومي ، وكان منشؤه ببغداد ووفاته بها ، وكان من مختلقى معاني الشعراء والمجودين في القصير والطويل متصرفاً في المذاهب تصرفاً حسناً ، وكان أقل أدواته الشعر . . . . وكان ابن الرومي الأغلب عليه من الأخلاط السوداء ، وكان شرهاً نهماً وله أخبار تدل على ما ذكرناه من هذه الجمل مع أبي سهل اسماعيل النوبختي وغيره من آل النوبخت » .

واختلفت الروايات في قتله فقال الشريف المرتضى في أماليه :

« أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الكاتب قال حدثني محمد بن يحيى الصولي قال حدثني الباقطاني قال : اتصل بعبيد الله بن سليمان بن وهب أمر علي بن العباس الرومي وكثرة مجالسته لأبي الحسين القاسم ابنه ، وسمع شيئاً من أهاجيه فقال لأبي الحسين : قد أحببت أن أرى ابن روميّك هذا . فدخل يوماً عبيد الله إلى أبي الحسين وابن الرومي عنده فاستنشده من شعره فأنشده وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلاً ، فقال لأبي الحسين بينه وبينه : ان لسان هذا أطول من عقله ومن هذه صورته لا تؤمن عقاربه عند أول عتب ولا يفكر في عاقبته . فأخرجه عنك ! فقال أخاف حينئذ أن يعلن ما يكتمه في دولتنا ويذيعه في تمكننا . فقال يا بني ! اني لم أرد باخراجك له طرده ، فاستعمل فيه بيت أبي حية النميري :

فقلن لها سراً : فدينـاك لا يرحْ سليماً ، وإن لا تقتليه فالممى

فحدث القاسم بن فراس بما جرى ، وكان أعدى الناس لابن الرومي وقد هجاه باهاج قبيحة . فقال له : الوزير أعزه الله أشار بأن يُغتال حتى يستراح منه ، وأنا أكفيك ذلك ، فسمه في الخشكنانج فمات . . . قال الباقطاني والناس يقولون ما قتله ابن فراس وإنما قتله عبيد الله . قال ابن الرومي لما رجع إلى داره وقد دب السم في أعضائه شعراً :

اشرب الماء إذا ما تلتهب نار أحشائي لاطفاء اللهب
فأراه زائداً في حرقتي فكأن الماء للنار حطب

هذه رواية

واعتمد ابن خلكان رواية أخرى فقال : « توفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى

الأولى سنة ثلاث وثمانين وقيل سنة أربع وثمانين ، وقيل ستة وسبعين ومائتين ببغداد ، ودفن في مقبرة باب البستان وكان سبب موته رحمه الله تعالى أن الوزير أبا الحسين القاسم ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الامام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش فدس عليه ابن فراش (هكذا) فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو في مجلسه ، فلما أكلها أحس بالسم فقام ، فقال له الوزير إلى أين تذهب ؟ فقال إلى الموضع الذي بعثتني إليه ، فقال له سلم على والدي ! فقال له ما طريقي على النار ! وخرج من مجلسه وأتى منزله وأقام أياماً ومات ، وكان الطبيب يتردد إليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم فزعم أنه غلط في بعض العقاقير ، وقال ابراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي المعروف بنفطويه : رأيت ابن الرومي يجود بنفسه فقلت له : ما حالك ؟ فأنشد :

غلط الطبيب عليّ غلطة مورد ... عجزت موارده عن الاصدار
والناس يلحون الطبيب وإنما ... غلط الطبيب إصابة المقدار

وقال أبو عثمان الناجم الشاعر : دخلت على ابن الرومي أعوده فوجدته يجود بنفسه فلما قمت من عنده قال لي :

أبا عثمان أنت حميد قومك ... وجودك للعشيرة دون لومك
تزود من أخيك فما أراه ... يراك ولا تراه بعد يومك

وللناجم قصة عن وفاة ابن الرومي رواها ابن القارح في رسالته الى المعري وفيها يقول :

« دخلت عليه في علته التي مات فيها وعند رأسه جام فيه ماء مثلوج وخنجر مجرد لو ضرب به صدر خرج من ظهر . فقلت : ما هذا ؟ قال : الماء أبل به حلقي ، فقلما يموت إنسان إلا وهو عطشان . والخنجر إن زاد على الألم نحرت نفسي ، ثم قال : أقص عليك قصتي تستدل بها على حقيقة تلفي : أردت الانتقال من الكرخ إلى باب البصرة ، فشاورت صديقنا أبا الفضل وهو مشتق من الافضال فقال : إذا جئت القنطرة فخذ عن يمينك وهو مشتق من اليمن ، واذهب إلى سكة النعيمة وهو مشتق من النعيم ، فاسكن دار ابن المعافى وهو مشتق من العافية . فخالفته لتعسي ونحسي . وشاورت صديقنا جعفرا وهو مشتق من الجوع والفرار فقال : إذا جئت القنطرة فخذ عن شمالك وهو مشتق من الشؤم ، واسكن دار ابن قلابة . وهي هذه ، لاجرم قد انقلبت بي الدنيا . وأضرّ ما عليّ العصافير في هذه السدرة تصيح « سيق سيق » فها أنا في السياق . ثم أنشدني :

أبا عثمان أنت قريع قومك ... وجودك في العشيرة دون لومك
تمتع من أخيك فما أراه ... يراك ولا تراه بعد يومك

وألح به البول ، فقلت له : البول ملحٌ بك . فقال :

غداً ينقطع البول ويأتي الويل والغول
ألا ان لقاء الله هول دونه الهول

ومات من الغد . . »

***

وروى صاحب زهر الآداب اتفاقاً أن ابن الرومي فُصد في مرض وفاته من سياق قصته عن بعض معانيه المأخوذة حيث يقول في الجزء الأول من الكتاب :

« دخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتدأت حاله في التغير فأخبر أنه مشغول فرجع ، فبعث إليه الرشيد . خنتنى فاتهمتنى ، فقال إذا انقضت المدة كان الحتف في الحيله . والله ما انصرفت إلا تخفيفاً . أخذه ابن الرومي فقال وقد فصده بعض الأطباء فزعم أن الفصد زاد في علته . غلط الطبيب إلى آخر البيتين . . ولهذه القصة قيمتها فيما يلي من البحث في أسباب وفاته .

***

هذه أنفع الأخبار التي وردت في ترجمته . أما ديوانه فقد جاء عنه في الفهرست لابن النديم أن شعره « كان على غير الحروف . رواه عنه المسيبي ثم عمله الصولي على الحروف وجمعه أبو الطيب ورّاق ابن عبدوس من جميع النسخ فزاد عن كل نسخة مما هو على الحروف وغيرها نحو ألف بيت » .

ثم ذكر أسماء رواته وعدة الأوراق التي كتبوها من شعره وهم :

مثقال غلام ابن الرومي مائة ورقة ، ورواه أبو الحسن على بن العصب الملحي عن مثقال عن ابن الرومي ،

ابن الحاجب غلام ابن الرومي مائة ورقة ، أحمد بن أبي قر الكاتب مائة ورقة ، خالد الكاتب وعمله الصولي مائتا ورقة » .

والصولي هو أبو بكر الصولي الحافظ الراوية المشهور .

الفصل الثالث

حياة ابن الرومي
كما تؤخذ من معارضة أخباره على شعره

ذلك كل ما عثرنا عليه من أخبار ابن الرومي متفرقاً في كتب الأدب والتاريخ ، لم نترك منه الا نبذاً قليلة تجيء في مواضعها من فصول هذا الكتاب ، والا الفضول الذي لا ينتظم في مادة الترجمة ولا يزيدنا علماً بالرجل أو بأدبه وشعره .

وكل هذا الذي عثرنا عليه وما يشابهه في مادته لا يجزىء في ترجمة وافية أو فيما يقرب من ترجمة وافية . لأنه مفرط الزيادة في مواضع ومفرط النقص في مواضع أخرى ، وبين أجزائه فجواتٌ بعيدة لا تُترك خلواً ، ولا حيلة لنا الآن في ملئها . فلا خبر عن صباه ولا عن دراسته ولا عن أهله ولا عن أمر مفصل موثوق به من أمور معيشته ، وبغير هذه العناصر الجوهرية لا تقوم ترجمة ولا يكمل تصوير رجل . وعلى هذه القلة في الأخبار التي بين أيدينا لا نراها تسلم من الخطأ حيناً ومن المبالغة أحياناً . فنحن ـ على حد المثل الذي اخترناه ـ كمن يؤتى له بعظام ناقصة ليبني منها بنية جسم كامل ، وفيها مع هذا عظام مدسوسة لا تدخل في بنية الجسم الذي يراد تركيبه !

إلا أن ابن الرومي يعوضنا بعض العوض من ذلك النقص الكبير بخاصة فريدة فيه ليست في غيره من الشعراء : هي مراقبته الشديدة لنفسه وتسجيله وقائع حياته في شعره .

فما من أحد كان له شأن في حياته إلا وجدت اسمه في ديوانه ممدوحاً أو مهجواً أو موصوفاً

أو مردوداً عليه ، وما عاب أحدٌ مشيته آو أكله أو لبسه العمامة أو طريقته في النظم إلا كان لذلك خبر مقيد في ديوانه ، ولم يعرف عنه أنه كان يشتهي طعاماً أو فاكهة إلا وذلك معروف من شعره قبل أن يُعرف من نوادر المتحدثين عنه ، وما خامر طويتَه خلق محمود أو مذموم إلا شهد به على نفسه كأنه في حرج من أمر كتمانه :

أقـر على نفسي بعيبـي لأنني — أرى الصدق يمحو بيّنات المعايب
لؤمـت لعمـر الله فيما أتيته — وان كنـت من قوم كرام المناصب
ولا بد من أن يلـؤم المرء نازعاً — إلى الحمأ المسنون ضربـة لازب

على أنه يشهد بخلة الكذب على نفسه كما يشهد لها بهذا الصدق المقرون باظهار العيوب ، فيقول في أصرح عبارة :

وأنـي لذو حلَف كاذب — إذا ما اضطررت وفي الأمر ضيق
وهـل من جنـاح على مرهق — يدافـع بالله ما لا يطيق ؟!

ويقول في تسجيل حرصه وجبنه :

وأصبحت في الاثـراء أزهـد زاهد — وإن كنت في الاثراء أرغب راغب
حريصـاً جبانـاً اشتهـي ثم انتهي — بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب
أخـاف على نفسي وأرجـو مفازها — واستـار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غايتـي قبـل مذهبي — ومن أين ؟ والغايات بعد المذاهب

ويتوهم أن اناساً سيعيبون مجونه في مجلس الشراب ويرون انه لا يليق بما يدعي من العلم والوقار فيسبقهم إلى ذاك ويقول :

وأرى أن معشراً سيقولو — ن سخيف من الرجـال لعوب
أين عنـه وقـار ما يدعيه — من علـوم لحامليهـا قطوب
ولعمـري ان الحـكيم وقور — ولعمـري ان الـكريم طروب

ويحس دبيب الشيخوخة في مآرب نفسه وخلجات قلبه فيخشى أن يفوته تسجيل ذلك كأنه محاسب عليه معاقب على تفويته ، فيقول لقرائه :

إكتهلت همتي فأصبحـت لا أبهج — بالشيء كنـت أبهـج به
وحسـب من عاش من خلوقته — خلوقـة تعتـريه في أربه

وهكذا في الصغائر والكبائر ، وفي وقائع العيش وخواطر السريرة ، وفيما يلقى به الناس ويلقى به الله .

وقد تجد في الشعراء من تتعرف بعض وقائعه من قراءة شعره ، ومن تستطلع خلائقه من ثنايا كلامه ، ولكن ابن الرومي لا يحوجك إلى التعرف والاستطلاع لأنه يغنيك عن الملاحظة بما يقوم به هو من ملاحظة نفسه وتقييد شوارد فكره وهمسات فؤاده وسبحات أحلامه . فكأنما هو رقيب على بواطنه وظواهره ، وكأنما أعطى نفسه ليجربها ويقيد تجاربه فيها ! فكان ديوان شعره كنّاشة الرقابة أعدها ليحصي فيها كل ما يحصيه الرقيب الحسيب .

هذه الخصلة في الشاعر تعوضنا كثيراً مما ضيعته التواريخ من حوادثه وأوصافه . فعلى ما جاء في ديوانه نعتمد في تصحيح الأخبار المسطورة وتكميلها على وجهٍ نستوفي به الترجمة جهد المستطاع ، فهو حسبك من مترجم لحياته وصافة لحقيقته ، ولولا أن الشعر لا يسجل الأرقام ولا يتقصّى كل ما فات الشاعر قبل أن يصبح شاعراً لكان هو حسبك من راوية لا تحتاج بعده إلى تدوين رواية .

أصله ونشأته

« ولد أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد في الموضع المعروف بالعقيقة ودرب الختلية في دار بازاء قصر عيسى بن جعفر بنِ المنصور » .

وقد رجعنا إلى كتب المضاهاة بين التاريخ الهجري والتاريخين الميلادي والقبطي فوجدنا في كتاب « التوفيقات الالهامية » لصاحبه محمد مختار باشا أن أول رجب من تلك السنة يوافق يوم الثلاثاء الذي يقع في العشرين من شهر يونيو سنة ٨٣٥ ميلادية ، وفي السادس والعشرين من شهر بؤنة سنة ٥٢٢ قبطية . فاليوم الثاني من رجب هو يوم أربعاء وهو مما يحقق صحة تاريخ المولد الذي لم يختلف فيه مؤرخوه .

وكان ابن الرومي مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور ، وجعفر هو الابن الثاني للمنصور لم يتول الملك ولم تكن له ولاية عهد ولا كانت بعده لأحد من ولده الذين نشأ فيهم الشاعر .

ولا يدع ابن الرومي مجالا للشك فى أصله الرومي فانه يذكره ويؤكده في مواضع شتى

من ديوانه كقوله :

ونحن بنو اليونان قوم لنا حِجًى ... ومجد وعيدان صلاب المعاجم

وقوله في مدح بعض مواليه من بني العباس :

ومتى اختل ابن روميكم ... فأياديكم حرَى منه قمن

وقوله فيهم :

مولاهمُ وغذي نعمتهم ... والروم ، حين تنصني ، أصلي

وغير ذلك كقوله :

قد تحسن الروم شعراً ... ما أحسنته العريب
و : آبائي الروم توفيل وتوفلس ... ولم يلدني ربعي ولا شبث
و : يا بني السمري قد لزمتكم ... حرمة الروم ويحكم.فاحفظوني
و : إذا ما حكمتُ والروم أهلي ... في كلام معرب كنت أهلا
و : إذا الشاعر الرومي أطرى أميره ... فناهيك من مطرى وناهيك من مطر
و : إن لم أزرملكاًأشجى الخطوب به ... فلم يلدني أبو الأملاك يونان
بل ان تعدت فلم أحسن سياستها ... فلم يلدني أبو السواس ساسان

وكقوله وهو كما تقدم في نسب أبيه وأمه :

كيف أغضى على الدنية والفر ... س خؤ لي والروم أعمامي

واسم جده مع هذا جُرَيج أو جورجيس وهو اسم يوناني لا شبهة فيه . فلا معنى إذن للشك في أصله ولا ينبغي الالتفات إلى من قال إنه سمي ابن الرومي لجماله في صباه .

* * *

أبوه

ولم يرد لأبي الشاعر ذكر خاص في ديوانه إلا حيث يقول من قصيدة بائية يذكر فيها مناقبه ومناقب آبائه :

وكم من أب لي ماجد وابن ماجد ... له شرف يربَى على الشرف المربي
إذا أمطرت كفاه بالبذل نوَّرَت ... له الأرض واهتزت رباها من الخصب

والا حيث يقول :

شاد لِي السـور بعـد توطئـة الأ   س أب قال : أنـت للشرفِ

والبيتان الأولان فخرٌ يراد به وقع الكلام واستيفاء باب من أبـواب الشعـر التـي كان الشعراء ينظمون فيها من نسيب ومدح ورثاء وهجو وفخر ونحوها ، فليس فيه خبر ولا رواية . ولكنه معالجة فنية كهذه الموضوعات التي يعالجها الشاعر المعاصر لتصوير الأطوار النفسية ووضع الأماثيل على لسان الحال ثم لا يعني بها الاخبـار عن نفسـه وإن جاءت بضمير المتكلم . وقد كان الشاعر القديم يأبى أن يخلو ديوانه من باب من أبواب الشعر المعروفة ويأنف أن يُظن به التقصير في واحد منها ، فهو لهذا يشبب ويفخر ويقـول في الفخر ما يهول وقعه لا ما يصدق خبره ! والفخر على هذا الاعتبار عمل فني يؤخذ على هذا المعنى ولا يُستمد منه التاريخ أو يرجع اليه في تقرير الوقائع .

والبيت الثالث يلحق بهذين البيتين في الفخر والاشادة بالنسب من ناحية « الفن » لا من ناحية « التاريخ » . إلا اننا نستخلص منه أن أباه كان يتوسم فيه الذكاء ويرجو أن يشرف بعلمه وأدبه كما شرف بالعلم والأدب كثيرون من ابناء الموالي ارتفعوا إلى مناصب الوزارة من طريق الكتابة والمساجلة ومعاشرة العظماء المتأدبين ؛ وكان أبوه صديقاً لبعض العلماء والأدباء منهم محمد بن حبيب الراوية الضليع في اللغة والأنساب ، فكان الشاعر يختلف اليه لهذه الصداقة وكان محمد بن حبيب يخصه لما يراه من ذكائه وحدّة ذهنـه ، وحـدث الشاعر عنه فقال « انه كان إذا مر به شيء يستغربه ويستجيده يقول لي يا أبا الحسن ضع هذا في تامورك »[1]

ونرجح أنه فقد أباه وهو صغير لم ينفعْ . لأنه لم يرثِهِ حين وفاته مع أنه قال الشعر وهو صبي في المكتب[2] ، ولأنه كان يسمى أخاه « والدا » كأنما كان عليه فضل تربية وكفالة .

(١) معجم الادباء الجزء السادس ص ٤٧٤

(٢) جاء في ديوانه انه قال الابيات الآتية في هجو غلام هاشمي يسمى جعفر وهي اول ما قاله

اجعفـر حزت جميع العيو   ب فما فيك من خلـة تمدح
كلامـك اكذب من يلمع   بخيلـه بالضحـى صحصح
وحلمـك اطيش من ريشة   وروحـك من هضبـة ارجح
ووجهـك من وجـه يوم الفر   اق في مقلتـي عاشـق اقبح
فما في حياتـك لي مفرح   ولا في مماتـك لي مترح

ونستغرب نحن ان تكون هذه الابيات اول ما قال ولكننا لا نستغرب ان يقولها في المكتب لانهم كانوا يمكثون فيه حتى يحفظوا القرآن وكان ابن الرومي شاعراً مجيداً وهو دون العشرين .

أمه

وقد علمنا أن أمه كانت فارسية من قوله « الفرس خؤ لي والروم أعمامي » وقوله « فلم يلدني أبو السواس ساسان » بعد أن رفع نسبه الى « يونان » من جهة أبيه ، ولا يخفى أن انتماءه الى ساسان لا يُقصد به أنه من أبناء الملوك الساسانيين وانما هو كقول المصري اليوم أنه من ابناء الفراعنة ، ولا علاقة في النسب بينه وبينهم .

وربما كانت أمه من أصل فارسي ولم تكن فارسية قُحّاً لأبيها وأمها وهذا هو الأرجح ، لأن علمه بالفارسية ـ كما سيأتي ـ لم يكن علم رجل نشأ في حجر أم تتكلم هذه اللغة ولا تحسن الكلام بغيرها .

وماتت أمه وهو كهل أو مكتهل كما يقول في رثائها :

أقول ـ وقد قالوا : أتبكي كفاقدٍ ... رضاعاً ، وأين الكهل من راضع الحلْم
هي الأم يا للناس جُرّعت فقدها ... ومن يبك أمّاً لم تُذم قط لا يُذم

وكانت تقية صالحة رحيمةً كما يؤخذ من أبياته في رثائها :

لقد فجعت فيك الليالى نفوسها ... بمحيية الأسحار حافظة العتم
ولم تخطىء الأيام فيك فجيعة ... بصوّامة فيهن طيبة الطعم
وفات بك الأيتام حصن كنافة ... دفيء عليهم ليلة القر والشبم
جعنا وأفردناك غير فريدة ... من البر والمعروف والخير والكرم
فلا تعدمي أنس المحل فطالما ... عكفت فآنست المحاريب في الظُّلم

وجزع عليها جزعاً شديداً ينم عليه قوله :

ألا من أراه صاحباً غير خائنٍ ... ألا من أراه مؤنساً غير محتشم
ألا من تَلينني منه في كل حالة ... أبر يد برت بذي شَعَثٍ يُلِم
ألا من إليه اشتكي ما ينوبني ... فيفرج عني كلَّ غم وكلَّ هم
نبا ناظرى يا أم عن كل منظر ... وسمعي عن الأصوات بعدك والنغم
وأصبحت الآمال ـ مذ بنتِ ـ والمنى ... غوادر عندي غير وافية الذمم
وصارمتُ خلاّني وهم يصلونني ... وقد كنت وصّال الخليل وإن صرم

وآنسنـــي فقـــد الجليس وأوحشت	مشاهده نفسي ، ولم أدر ما اجترم

وكانت لها أخت ماتت قبلها ، فهو يقول إذ يرثيها انه كان له جناحان من عطفها وعطف أمه :

أرانـى وأمـي بعـد فقـدان أختها	وان كنـت في رَفْـه بهـا وصلاح
كفـرخ قطـاة الـدوّ بان جناحه	فبـاء إلى حصـن بفـرد جناح

أخوه :

ويظهر أن أبويه لم يعقبا من البنين غيره وغير أخيه محمد المكنى أبا جعفر ، وهو أكبر منه لأنه يقول « بأخى بل بوالدى بل بنفسي » وهو يتفجع بذكراه ، وشقيقه لأنـه يقـول في موضع آخر :

بأخ شقيق بعــد أم برة	بالأمس قطّـع منهما أقرانه

ويذكره بمثل ذلك في غير موضع .

وكل ما وصل الينا عن هذا الأخ قصة جاءت في ديوان الشاعر نعلم منها أنه كان أديباً « وكان يكتب لرجل فعزل بعد مدة ، فعبث به آل أبي شيخ أصدقاؤه وقالـوا : عزلـه شؤمك ، وكان بين آل أبي شيخ وابن سعد ان مؤدب المؤيد مودة فخرجوا إليه في أيام المؤيد فأقاموا مدة ، وكان من المؤيد ما كان وتشتت أصحابه فكتب إليهم أبو جعفر يولّع بهم ويقول : أنا شؤمي عزّال وشؤمكم قتّال وسيأتيكم في هذا نظم علي بن العباس ، يعني أخاه ، ومن ذلك النظم قوله :

أنـا شؤمـي فيما تقولـون عزّا	ل ولـكن شؤمـكم قتّال
بالـذي أدرك المؤيد منكم	وابـن سعـدان تضرب الأمثال
زرتمـوه والصـالحـات عليه	مقبـلات فأدبـر الاقبال
. . . .	. . . .
ان شومـاً حلـت به عقـدة المـ	ـلك لشـؤم تزول منـه الجبال

ونعلم من هذه القصة أن محمداً عاش إلى سنة اثنتين وخمسين ومائتين وهي السنة التي قتل فيها المؤيد ، وكان ابن الرومي في تلك السنة قد بلغ الحادية والثلاثين . فالأرجح أن محمداً قد عاش بعدها بضع سنوات ، لأن الشاعر ذكره في رثاء أمه حيث قال : « أقاسي

وصنوي منه كل شديدة » أي ذكره وهو كهل جاوز الحادية والثلاثين . لأنه كان كهلاً حين ماتت أمه كما مر بنا في رثائها ، والحادية والثلاثون ليست بسن كهولة إلا أن يكون الذين لاموا الشاعر لفرط جزعه على أمه قد تعمدوا تكبير سنه لاستيجاب الملام .

ونرى في موضعين من الديوان أبياتاً يستعطف بها الشاعر لأخيه رئيساً غضب عليه ، وكأن أخاه مات وهو يعمل في خدمة عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أحد أركان بيت بني طاهر المشهور في دولة بني العباس . فان الشاعر يقول من قصيدة يخاطب بها عبيد الله ويذكر أخاً شقيقاً مات بعذ أم برة :

فليحيه الملك الهمام فلـم يفت	محياه قدرتـه ولا سلطانه
وحياتـه لي أن أقـوم مقامه	وأسـدّ من دار الأمـير مكانه

فالشاعر يتكلم عن نفسه على ما نرجحه كثيراً ويطلب أن يحل في دار عبيد الله محل أخيه[1] . والمجزوم به بعد هذا كله أن محمداً مات بعد موت المؤ يد وأنه كان على شيء من الأدب ومعرفة الكتابة وحب العبث والدعابة .

وقد حزن عليه ابن الرومي حزناً طويلاً ملحاً بقي يعاوده إلى آخر أيامه ، فلم يفتأ يذكره ويعيد ذكره في شعره إذا مدح أو عتب أو استعبر ، ومن ذاك أنه قال يرثيه :

وتُسْلينـيَ الأيام لا أن لوعتي	ولا حَزنـي كالشيء يُنسى فيعزُب
ولـكن كفانـي مسْـلياً ومعزّياً	بأن المدى بينـي وبينـك يقرب

وقال لصاحب كان يحسده ويغري به :

---

(١) نقول هذا ترجيحاً لا تحقيقا لان القصيدة مبدوءة بهذا البيت :

امسى دمشقـي الامـير ودهره	ملـق عليه بركه وجرانه

فما معنى تلقيب ابن الرومي نفسه بالدمشقي في مطلع القصيدة ؟ اكان ذلك لقباله عند الامير ؟ يجوز .

وتكرر النسبة الى الدمشق وهو الرحل السريع اليدين المنجز عمله ، ولكننا لا نعلم من اخباره ما يؤ يد هذا التلقيب ، وهناك دمشقي صديق لابن الرومي هو الاديب « ابو العباس احمد بن القاسم بن الخليل الدمشقي » عاتبه الشاعر لتعاليه عن معونته فقال

يا ايهـا المتعـالي عن معونتنا	غنـى بمـا فيه من ذهـن ومـن أدب
لو استعنـت بنفـس غـير انفسنا	او غـير نفسـك قابلنـاك بالعتب
لكن غنيت بنفـس لا كفـاء لها	في النظـم والنثـر من شعـر ومـن خطب
ولا ملام على مرتـاد مصلحة .	باع اللجـين بضـعفيه من الذهب

فهل القصيدة موضوعة على لسان هذا الدمشقي ؟ يجوز كذلك . ولكنه جد بعيد .

أيها الحاسدي على صحبتي العسـ ... ـر وذمـي الزمـان والاخوانا

. . . .

ليت شعرى ماذا حسدت عليه ... أيهـا الظـالمي إخائـي عيانا
أعلى أننـي ظمئـت وأضحى ... كلٌ من كان صادياً ريّانا

. . . .

أم على أننـى ثكلـت شقيقي ... وعدمـت الثـراء والأوطانا

وقال وهو يعاتب القاسم بن عبيد الله :

أنـا ذاك الـذي سقتـه يد السقـ ... ـم كؤسـاً من المرار رواءَ
ورأيت الحمام في الصـور الشنـ ... ـع ، وكانـت لولا القضـاء قضاءَ
ورمـاه الزمـان في شقـة النفـ ... ـس فأصمَـى فؤاده إصماءَ

وقد مرض واشتد مرضه بعد موته فهو يقول حين أجليّ عن مسكنه :

فيه عافانـي الالـه من الشـ ... ـكو وفـكّ البـلاء عنـي كبولهْ
بعـد جهـد حملـت منـه ضروباً ... ليس اثقالهـن بالمحموله
ومصـاب بشقـة النفس مني ... ضمّـن الجسـم سقمـه ونحوله

ولم يبق لابن الرومي بعد موت ذلك الأخ الوحيد أحد يعوّل عليه من أهلـه أو مَن يحسبون في حكم أهله ، إلا أناس من مواليه الهاشميين العباسيين كانـوا يبرونـه حينـاً ويتناسونه أحياناً ، وكان هو لعهد الهاشميين الطالبيين أحفظ منه لعهد الهاشميين العباسيين كما يظهر مما يلي . أما ابن عمه الذي آشار إليه في قوله :

ليَ ابـن عم يجـر الشرمجتهداً ... إليَّ قدْمـاً ، ولا يصلى له ناراً
يجني ، فأصلى بما يجني ، فيخذلني ... وكلما كان زنـداً كنـت مسعارا

فلا ندري أهو ابن عم لحّ أو ابن عم كلالة . ومبلغ ما بينهما من صلة المودة ظاهر من البيتين .

* * *

أولاده وزوجته

ورزق ابن الرومى ثلاثة أبناء : هم هبة الله ومحمد وثالث لم يذكر اسمه في ديوانه ، ماتوا جميعاً في طفولتهم ورثاهم بأبلغ وأفجع مارثى به والدٌ أبناءه ، وقد سبق الموت إلى أوسطهم ـ محمد ـ فنظم في رثائه الدالية المشهورة التي يقول منها :

توخّى حمام الموت أوسط صبيتي ... فللّه كيف اختار واسطة العقد
على حين شمت الخير في لمحاته ... وآنست من أفعاله آية الرشد

ومنها في وصف مرضه :

لقد قل بين المهد واللحد لبثه ... فلم ينس عهد المهد إذ ضَم في اللحد
ألح عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد
وظل على الأيدي تساقط نفسه ... ويذوي كما يذوي القضيب من الرند

ويذكر فيها أخويه الآخرين :

محمد ماشيءٌ تُوهّم سلوةً ... لقلبي ، إلا زاد قلبي من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما ... يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا في ملعب لك لذّعا ... فؤادي بمثل النار عن غير ما عمد
فما فيهما لي سلوة بل حزازة ... يهيجانها دوني وأشقى بها وحدي

فابنه محمد إذن قد مات منزوفاً في حياة أخويه الصغيرين وهو فيما بين الرابعة والخامسة ، لأنه يقول فيه « لقد قل بين المهد واللحد لبثه » ويقول « وظل على الأيدى تساقط نفسه » وإنما يحمل الطفل المريض على الأيدي في مثل تلك السن ، ولا يحتمل أن يكون أصغر من ذلك لأن أخاه الصغير كان في سن اللعب ، وهي لا تكون قبل الثالثة ونحوها

أما ابنه هبة الله فقد ناهز الشباب على ما يفهم من قوله في رثائه :

يا حسرتا فارقتني فنناً ... غضّاً ، ولم يثمر ليَ الفنن

والبيت من قطعة مريرة دفينة الحزن أشبه بالنشيج منها بالنحيب يقول فيها :

أبنيَّ إنك والعزاء معاً ... بالأمس لُف عليكما كفن
تالله لا تنفك لي شجنا ... يمضي الزمان وأنت لي شجن
ما أصبحت دنياي لي وطناً ... بل حيث دارك عندي الوطن

....

أولادنـــا أنتـــم لنـــا فتن وتفارقــون فأنتـــم محن

وكأنها لم تشف لوعته أو كأنه لام نفسه على حزنه الصامت . فعاد يقول وهـو موزع القلب بين الصبر والجزع :

شجيٌ أن أروم الصبر عنك فيلتوي عليّ ، ولـؤم أن يساعدنـي الصبر
فياحَزنـــي ألاّ سلـــوّ يطيعنى وياسوأتى من سلوتي ، إنهـا غدر

وفي الديوان أبيات بائية يرثي بها ابنا لم يذكر اسمه ، وهي هذه الأبيات :

حمـــاه الـــكرى همٌ سرى فتأوّبا فبات يراعي النجـم حتـى تصوبا
أعينيّ جودا لي فقـد جدت للثرى بأكثـــر ممـــا تمنعـــان وأطيبا
بُنـيٌّ الـــذي أهديتـــه أمس للثرى فلله ما أقـــوى قناتـــي وأصلبا
فان تمنعاني الدمع أرجـع إلى اسى إذا فتـــرت عنـــه الدمـــوع تلهبا

ويبعد أن تكون رثاء لابنه الأكبر هبة الله ، فهي على الأرجح رثاؤه لأصغر أبنائه الذي لم يذكر اسمه ، ولا ندرى هل مات قبل أخيه أو بعده . ولكن يخيل إلينا بالمقابلة بين هذه المراثي أن الأبيات البائية كانت آخر ما رثى به ولداً لأنها تنم عن فجيعة رجل راضه الحزن على فقد البنين حتى جمدت عيناه ولم يبق عنده من البكاء إلا الأسى المتلهّب في الضلوع وإلا العجب من أن يكون قد عاش وصلبت قناته لكل هذه الفجائع . وقد كان رثاؤه لابنه الاوسط صرخة الضربة الأولى ففيها ثورة لاعجة تحس من خلل الأبيات ، ثم حل الألم المرير محل الألـم السوّار في مصيبته الثانية فوجم وسكن واستعبر ، ثم كانت الخاتمة فهو مستسلم يعجب للحزن كيف لم يقض عليه ويحس وقدة المصاب في نفسه ولا يحسه في عينيه .

ولقد غشيت غبرة الموت حياته كلها وماتت زوجته بعد موت أبنائه[1] جميعاً فتمت بها مصائبه وكبر عليه الأمر وقل فيه العزاء فهو يقول :

عينَـــى سحّـــا ولا تشحّا جلّ مصابـــي عن العزاء

ورثاها في موضع آخر يقول فيه :

---

(١) نكاد نجزم بهذا لانه لم يتر في رثائه اياها الى ولد تركته مع استقصائه كل معنى يقال في موضوع ، وذلك احق شيء بأن يذكر في رثاء زوجة .

فاستغــزرا درة الشــؤ ن على بدركما ، بل على قضيبكما

ويلوح منه أنها ماتت وهي فتية توصف بما توصف به الفتيات ويغلب أنه هجر الزواج بعدها زمناً فلم يتزوج إلا في أواخر عمره إذا صح ما استخلصناه من بعض أبياته .

ونقول ما استخلصناه لأننا لا نعتمد على خبر صريح في أمر زواجه الآخر ، ولكننا لا بد أن نقف في هذا الصدد عند أبيات قالها للقاسم بن عبيد الله وهي :

وهبْ خادماً لم يوف نعماك شكرها فبــدل عرفٌ عنــده بنكير
فما ذنـب طفـل كان تسـبيب كونه رجــاؤك ، يا مرجـوّ كل فقير
أيحســن أن جر العيالَ رجاؤكم وخـاب نداكم ، وهـو خـير خفير
غياثــكم يا آل وهــب فانني ، وإن لم أكن أعمـى ، أضر ضرير

وأبيات أخرى لعل المخاطب بها هو القاسم أيضاً وهي :

منعــت الكفــاف الــذي لم تزل تجــود به كفــك الموسعه
فان كنــت مسلــم ذي حرمة لقــول أعــاديه . ما أضيعه !
فعجلــه بالسيف كي يستر يح ، إن كنـت من مثلـه في سعه
أتسلمنــا للــردى ستة وقــد كنــت ترحمنــا أربعة ؟

لا بد أن نقف عند هذه الأبيات ولا بد أن نفهم منها أنه تزوج في أواخر عمره ورزق ولداً فأصبح أهل بيته ستة بعد أن كانوا أربعة ، ولا يمكن أن تكون الاشارة في الأبيات الرائية إلى طفله الأول وزوجته الأولى . لأن الابيات قيلت للقاسم بن عبيد الله ، والقاسم ولد حوالي سنة خمس وخمسين ومائتين ، فلا يبلغ من السن المبلغ الذي يرجى فيه ويمدح إلا حوالي سنة خمس وسبعين ، ولا يعقل ان ابن الرومي بقي عزباً إلى تلك السنة ثم تزوج زواجه الأول ورزق أولاده الثلاثة .

وكيفما كانت جلية القول في هذه الأبيات فقد كانت له زوجة عندما هجا عمراً حاجب القاسم ، لأنه قال فيه :

أيركب عمــرو حولــه من يحفّه ويعوزني قوت أعـول به عرسي ؟

ولا يكون ذلك قبل سنة خمس وسبعين ونحوها . كذلك لا شك في أنه لما قارب الستين لم يكن متزوجاً لأنه يقول في قصيدة نظمها في نحو تلك السن :

ومبيتـــي بلا ضجيع لدى القـ ـــر ، وللوغـــد شادن مخضوب

ولم يذكر أحد من مؤ رخيه ـ ولا الناجم الذي حضر وفاته ـ أنه ترك ولداً بعده . فاذا صح ما استخلصناه من أمر زواجه الثاني فهناك فجيعة أخرى أصيب بها في ولد جديد[1] قبل وفاته ، فمات ولا زوج له ولا بنون .

تعليمه :

ذلك كل ما استطعنا أن نجمعه من الأخبار النافعة عن نشأة الشاعر وأهله . ولا محصِّل للبحث في المصادر التي بين أيدينا عن أيام صباه وتعليمه ومن حضر عليهم وتتلمذ لهم من العلماء والرواة . فان هذه المصادر خلو مما يفيد في هذا المقام ، إلا ما جاء عرضاً في الجزء السادس من الأغاني حيث يروى ابن الرومي عن « أبي العباس ثعلب عن حماد بن المبارك عن الحسين بن الضحاك » وحيث يروي في موضع آخر « عن قتيبة عن عمرو السكوتى بالكوفة عن أبيه عن الحسين بن الضحاك » فيصح أن تكون الرواية هنا رواية تلميذ عن أستاذ ، لأن ثعلباً ولد سنة مائتين فهو أكبر من الشاعر باحدى وعشرين سنة ، أما قتيبة (والمفهوم أنه أبو رجاء قتيبة بن سعيد بن جميل الثقفي المحدث العالم المشهور) فجائز أن يكون ممن أملوا عليه وعلموه لأنه مات وابن الرومي يناهز العشرين .

وقد مر بنا أنه كان يختلف إلى محمد بن حبيب الراوية النسابة الكبير ، وسنرى هنا أنه كان يرجع اليه في بعض مفرداته اللغوية فيذكر شرحها في ديوانه معتمداً عليه : قال بعد هذا البيت :

وأصـــدق المدح مدح ذي حسد ملآن من بغضـــة ومـــن شنف

---

(١) قضى ابن الرومي زمنا لا يتزوج حتى كان يسأل « . . . لم لا اتزوج » كما جاء في ابيات له حيمية ، ومن اقواله في هذا المعنى

أنــا غــيران ولا زوجــة لي بل على النعمـة عنــد ابــن خلف

ومنها :

كيف ترضى الفقــر عرســا لامرىء وهــو لا يرضى لك الــدنيا امه

ومنها ما كتب به صديق له يسمى ابراهيم

يا سمـى الخليل اياك ادعو دعــوة يمــت سميعــا مجيبا

امـة من .امــاء طولك اجمعـ ـت على نقلهــا الى قريبا

ما تزوجتهــا على غـير تاميل ك فانظــر اجائــز أن اخيبا

وقليل النــوال في هذه الحا لة ممــا اراه شيئــا عجيبا

يكون بعض هذا الزمن مضى قبل زواجه الاول ، ولكننا رأينا كذلك انه قضى زمنا في اواخر عمره وهو اعزب

« قال لي محمد بن حبيب : الشنف ما ظهر من البغضة في العين » وأشار اليه بعد آخر وهو :

بانوا فبان جميل الصبر بعدهم | فللدموع من العينين عينان

إذ فسر كلمة « عينان » فروى عن ابن حبيب أنه قال : « عان الماء يعين عيناً وعين ساح » .

فهؤلاء ثلاثة من أساتذة ابن الرومي على هذا الاعتبار ، ولا علم لنا بغيره راجعناه . وحسبنا مع هذا أن الرجل ـ كيفما كان تعليمه وأياً كان معلموه ـ قد نش نصيب واف من علوم عصره وساهم في القديم والحديث منها بقسط وافر في شعره ، ف يقل المعري انه يتعاطى الفلسفة والمسعودي أن الشعر كان أقل آلاته لعلمنا ذلك من ش شتى في كلامه . فهي هناك كثيرة متكررة لا يُلم المتصفح ببعضها إلا جزم باطلاع على الفلسفة ومصاحبة أهلها واشتغاله بها حتى سرت في أسلوبه وتفكيره ، وما كان د الفلسفة في تلك الأيام يصنع أكثر من ذلك ليتعلمها أو ليعد من متعلميها . فأنت لا لرجل غير مشتغل أو ملم بالفلسفة والقياس المنطقي والنجوم كلاماً كهذا الكلام :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها | يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وانها | لأرحبُ مما كان فيه وأرغد .

أو : سأمدح بعض الباخلين لعله | إذا اطّرد المقياس أن يتسمحا

أو : غاب تحت الحس حتى | ما يرى إلا قياسا

أو : إذا احتج محتج على النفس لم | تكد على قدر يمنى ها تتعتب

أو : يا باطلا أوهمتْنيه مخايله | بلا دليل ولا تبييت برهان

أو : رجوْت صلاح القبل بالبعد فانبرى
لنا ظلمكم فاستفسد القبل بالبعد

أو ما قاله في أصحاب الجدل :

لذوي الجدال إذا غدوا لجدالهم | حجج تضل عن الهوى وتجور
وهنُ كآنية الزجاج تصادمت | فهوت ، وكل كاسر مكسور

فالقاتل المقتول ثم لضعفه ولوهْيه ، والآسر المأسور

أو ما قاله في هجاء صاعد وابنه أبي عيسى ومنه :

وثنى بابنه السفيه المعنّى بأساطير ! رسطَطا ليس
والذي لم يصخ بأذنيه إلا نحو ذو ثوريوس أو واليس[1]
عاقداً طرفه ببهرام أو كيو ان أو هرمس أو البرجيس
أو بشمس النهار والبدر والزهـ ـرة عند التثليث والتسديس
واجتماعاتهن في كل قيد وافتراقاتهن عن كل قيس

فهو في الأبيات الأخيرة يذكر الفلاسفة والرياضيين بأسمائهم المعروفة في الكتب المنقولة ، ويذكر أكثر الكواكب بأسمائها الفارسية ، ويذكرها في غير الأبيات بأسمائها المعروفة عند العرب وخصائصها التي كانت معروفة عند الكلدانيين والفرس الأقدمين ونقلها منهم اليونان ولا تزال مشهورة إلى اليوم في آداب الغربيين . فيقول في مدح إسماعيل بن بلبل وكان كاتباً قائداً :

وافى عطاردُ والمريخ مولده فاعطياه من الحظَّين ما اقترحا

لأن عطارد كان رب الكتابة والحكمة والفنون عندهم والمريخ كان رب الحرب والشجاعة :

ويقول في مدح عبيد الله بن سليمان بن وهب :

إذا صَبت زهرته صبوةً قال له هيرمسه : هندس
وإن عدا هرمسه حده قالت له زهرته : نفِّس

والزهرة هي ربة الجمال واللهو ، وهرمس هو اسم عطارد عند الفرس وهو رب الكتابة والحكمة كما تقدم . يعني أن ممدوحه يميل مع اللهو والجمال فتهيب به الحكمة والمعرفة ، ويرهق نفسه بهذه فتدعوه الزهرة إلى التنفيس :

وربما أعطاك شواهد مساهمته في معارف زمانه كلها من أساطير مأثورة وعلوم قديمة وحديثة في بيت واحد ، كقوله يداعب المرثدي حين أخلف وعده في هدايا السمك :

---

(١) راجع اسمى ذروثيوس وواليس في اخبار الحكماء للقفطي

أألحـوت حوتَ الأرض أم حوت يونس لك الخـير أم حوتَ السماء أروم ؟

فحوت الأرض هو الحوت الذي تزعم الاساطير انه يحمل الثور الكبير الذي يحمل الأرض ، وحوت يونس هو الحوت الذي ابتلع النبي يونس وجاء نبأه في القرآن ، وحوت السماء هو البرج المعروف باسم الحوت .

وبين أيدينا خبران عن اقتناء الكتب إذا لاحظنا قلة اخباره في كل شأن من شؤونه علمنا أنهما يدلان على شيء كثير : أحدهما أتى به المعري في رسالة الغفران وفيه أنه « كان يتعاطى الفلسفة واستعار من أبي بكر السراج كتاباً فتقاضاه به ، فقال ابن الرومي : لو كان المشتري حدثاً لكان عجولاً » .

والخبر الثاني مأخوذ من ديوانه إذ يعاتب أبا الحسين محمد بن المعلى لتضييعه كتاباً استعاره منه فيقول له من قصيدة :

منحتك مصباحاً فاعشاك ضوءه وقد كان ظني أنه سيريكا

وخبران من هذا النوع في حياة قليلة الأخبار يشفّان ـ مع شواهد شعره الكثيرة ـ عن شغف دائم بالتحصيل ومدارسة العلوم الى ما بعد سن الكهولة ، فانه لا يقول « لو كان المشتري حدثاً لكان عجولا » إلا وهو كهل أو شيخ جاوز الكهولة .

***

ومن الحق له وللتاريخ ألا نهمل أخباره عن نفسه في هذا الباب للابانة عن منزلته من العلم والدراسة كلما كانت هذه الأخبار مطابقة لما نعرف من مجمل حاله . ففي بعض شعره يقول عن نفسه أنه أدمن الدرس ورفض المكاسب في سبيل ادمانه كما جاء في هذه الأبيات :

أن امرأ رفض المكاسب واغتدى يتعلم الآداب حتى أحكما
فكسا وحلّى كل أروع ماجد من حُرّ ما حاك القريض ونظما
ثقة برعي الاكرمين حقوقه لأحق ملتمس بألا يحرما

وأظهر من ذلك قوله في الهمزية الكبيرة للقاسم :

ان أكن غير محسن كل ما تطلـ ـب إني محسنٌ اجزاءَ
فمتى ما أردتَ صاحب فحص كنتُ ممن يشارك الحكماء
ومتى ما أردت قارض شعر كنت ممن يساجل الشعراء
ومتى ما خطبت مني خطيبا جل خطبي ، ففاق بي الخطباء

ومتى حاول الرسائل رسلي   بلغتني بلاغتي البلغاء

وأظهر من هذا وذاك أبياته التي يمدح بها أبا سهل النوبختي ويذكره فيها مودة آل النبي واشتغالهما معاً بالتفكير في ادحاض شبهات الفلاسفة والمتكلمين ، ومنها :

ويدمج أسبابَ المودة بيننا   مودتنا الأبرارَ من آل هاشم
واخلاصُنا التوحيد لله وحده   وتذبيبنا عن دينه في المقاوم
بمعرفة لا يقرع الشك بابها   ولا طعنُ ذي طعن عليها بهاجم
وإعمالنا التفكير في كل شبهة   بها حجة تُعيي دهاة التراجم
يبيت كلانا في رضى الله ماحضاً   لحجته صدراً كثير الهماهم

وهذه الأبيات احجى أن نعتمد عليها في هذا الباب ، مذ كانت تتعدى فخر الانسان بنفسه إلى التذكير بوقائع معهودة ومدارسات طويلة ، جرت بينه وبين رجل من صفوة أهل العلم والدراية في أيامه .

وقد وردت في أبياته الهمزية السابقة إشارة إلى حذقه الكتابة ومشاركته في البلاغة المنثورة تعززها اشارة مثلها في هذا البيت :

ألم تجدوني آل وهب لمدحكم   بشعري ونثري أخطلاً ثم جاحظاً

فلابد أنه كان يكتب ويمارس الصناعة النثرية . إلا أن ما استجمعناه من منثوراته لا يعدو نبذاً معدودة موجزة ، منها رسالة إلى القاسم بن عبيد الله يقول فيها متنصلاً :

« ترفع عن ظلمي ان كنت بريئاً ، وتفضل بالعفو ان كنت مسيئاً ، فوالله اني لأطلب عفو ذنب لم أجنه ، وألتمس الاقالة مما لا اعرفه ، لتزداد تطولاً وازداد تذللاً ، وأنا أعيذ حالي عندك بكرمك من واش يكيدها ، واحرسها بوفائك من باغ يحاول افسادها . وأسأل الله تعالى ان يجعل حظي منك بقدر ودي لك ، ومحلي من رجائك بحيث استحق منك ، والسلام » .

ومنها رسالة كتبها يعود صديقاً : « أذن الله في شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسح بيد العافية عليك ، ووجه وفد السلامة اليك ، وجعل علتك ماحيةً لذنوبك مضاعفة لثوابك » .

وكتب إلى صديق له قدم من سيراف فأهدى الى جماعة من اخوانه ونسيه :

« أطال الله بقاءك وأدام عزك وسعادتك وجعلني فداءك . لولا انني في حيرة من أمري

وشغل من فكري لما افترقنا ، وشوقي علم الله فغالب وظمأي فشديد . والى الله الرغبة في أن يجعل القدرة على اللقاء حسب المحبة ، إنه قادر جواد ».

« ومكاننا من جميل رأيك أيدك الله يبعثنا على تقاضي حقوقنا قبلك ، وكريم سجاياك وأخلاقك يشجعنا على امضاء العزم في ذلك ، وما تطولت به من الايناس يؤنسنا بك ويبسطنا اليك ، وآثار يديك تدلنا عليك وتشهد لنا بسماحتك ، والله يطيل بقاءك ويديم لنا فيك وبك السعادة ».

« وبلغني أدام الله عزك أن سحابة من سحائب تفضلك أمطرت منذ أيام مطراً عم اخوانك بهدايا مشتملة على حسن وطيب ، فأنكرت على عدلك وفضلك خروجي منها مع دخولي في جملة من يعتدك ويعتقدك وينحوك ويعتمدك ، وسبق إلى قلبي من ألم سوء الظن برأيك أضعاف ما سبق إليه من الألم بفوت الحظ من لطفك ، فرأيت مداواة قلبي من ظنه وقلبك من سهوه ، واستبقاء الود بيننا بالعتاب الذي يقول فيه القائل : ويبقى الود ما بقي العتاب ، وفيما عاتبت كفاية عند من له اذنك الواعية وعينك الراعية ».

وقال في تفضيل النرجس على الورد : « النرجس يشبه الأعين والمضاحك والورد يشبه الخدود ، والأعين والمضاحك اشرف من الخدود . وشبيه الأشرف أشرف من شبيه الأدنى ، والورد صفة لأنه لون والنرجس يضارعه في هذا الاسم لأن النرجس هو الريحان الوارد اعني أنه أبدا في الماء . والورد خجل والنرجس مبتسم ، وانظر أدناهما شبها بالعيون فهو أفضل ».

هذه نماذج من منثوراته لا نعرف غيرها فيما بين أيدينا ، وخليق بمن يكتب بهذا الأسلوب أن يعد في بلغاء الكتاب وان لم يعد في ابلغهم . على أن ابن الرومي لم يكن يحسب نفسه الا مع الشعراء اذا اختلفت الطوائف . فانه يقول عن نفسه وهو يمدح أبا الحسين كاتب ابن أبي الاصبع :

ونحن معاشر الشعراء نمى ... إلى نسب من الكتاب دان
وإن كانوا أحق بكل فضل ... وأبلغ باللسان وبالبنان
أبونا عند نسبتنا أبوهم ... عطاردٌ السماوي المكان

ولا عجب في هذا . فقد كان للشعر كل ما درس الشاعر من فلسفة وعلم وأدب ، وكانت هذه المعارف عنده كالروافد للشعر لا نفع لها ان لم ينته بها المصب الى النهر الكبير . ولم يكن له عقل فيلسوف ولا عقل عالم . وقد رأيت قياسه المنطقي في تفضيل

النرجس على الورد ، فهل قياس فيلسوف هو أو قياس فنان ؟ انه لقياس فنان نظر الى الدنيا كأنها متحف للناظر ومسرح للشعور ، وقليلاً ما نظر إليها كأنها معمل للتحليل او قضية مبهمة للتأمل والتفكير .

***

أما حظه من علوم العربية والدين فمن الفضول أن نتعرض لاحصاء الشواهد عليه في كلامه ، لأنه أبين من أن يحتاج الى تبيين . وندر في قصائده المطولة او الموجزة قصيدة تقرأها ولا تخرج منها وأنت موقن باستبحار ناظمها في اللغة واحاطته الواسعة بغريب مفرداتها وأوزان اشتقاقها وتصريفها ومواقع امثالها وأسماء مشاهيرها وما يصحب ذلك من أحكام في الدين ومقتبسات من أدب القرآن . فليس في شعراء العربية من تبدو هذه الشواهد في كلامه بهذه الغزارة والدقة غير شاعرين اثنين احدهما صاحبنا والثاني المعري : وقد كان يمدح الرؤساء والأدباء امثال عبيد الله بن عبد الله وعلي بن يحيى واسماعيل بن بلبل فيفسر غريب كلماته في القرطاس الذي يثبت فيه قصائده ، كأنه كان يشفق أن تفوتهم دقائق لفظه وأسرار لغته ، ثم يعود الى الاعتذار من ذلك اذا انس منهم الجفوة والتغير :

لم أفسر غريبها لك لكن ... لامرىء يجهل الغريب سواكا
لغيرك لالك التفسير ، أنى ... يفسر لابن بجدتها الغريب

وكانوا لشهرته باللغة وعلم أسرارها ولطيف نكاتها يختلقون له الكلمات النافرة يسألونه عنها ليعبثوا به أو يعجزوه ، وقصة « الجرامض » احدى هذه المعابثات التي تدل على غيرها من قبيلها . فقد سأله بعضهم في مجلس القاسم بن عبيد الله : ما الجرامض ؟ فارتجل مجيباً :

وسألت عن خبر الجر ... مض طالبا علم الجرامض
وهو الخزاكل ! والغوا ... مض قد تفسر بالغوامض
وهو السلجكل شئت ذ ... لك ، ام أبيت بفرض فارض

وكلها كلمات من « مادة » الجرامض لا معنى لها ولا وجود .

واذا صح استقراؤنا وكان من اساتذته امثال ثعلب وقتيبة فضلاً عن الأستاذية الثابتة لابن حبيب فلا جرم يصير ذلك علمه بالغريب والانساب والأخبار وهؤلاء كلهم من نخبة النخبة في هذه المطالب . ولا سيما اذا أعانهم تلميذ ذو فطنة متوقدة الفهم وذاكرة سريعة الحفظ كهذا التلميذ ، فقد مر بك أنه كان يحفظ الأبيات الخمسة من قراءة واحدة . فهب

في الرواية بعض المبالغة التي تتعرض لها أمثال هذه الروايات فهو بعد سريع الحفظ وهذا ما يعينه على تحصيل اللغة وتعليق المفردات .

* * *

أفكان مع هذا العلم بالعربية يعرف لغةً غيرها ؟ إن جده كان رومياً ولكن كثيراً من الناس اجدادهم غرباء عن أوطانهم وهم لا يعرفون غير لغة الوطن الذي ولدوا فيه .

وإن امه كانت تنتمي الى فارس ولكننا لا نعلم أفارسية هي أم من أصل فارسي قد يرتفع الى الأجداد ، وفرقٌ بين الحالتين كما لا يخفى . لأنها قد تجهل الفارسية وهي حفيدة فارسي أو يغلب أن تجهلها في هذه الحالة ، وقد تتكلمها وهي بنت فارسي وفارسية فيلقنها ابنها وينشأ على التكلم بها من صباه .

وفي أشعار ابن الرومي كلمات فارسية غير قليلة كالبنفشا (البنفسج) والدستبند (ضرب من الرقص) والبذبخت (سيء الطالع) والشير (الأسد) والبرشوجة (طائر) والدستنبوية (الشمامة) والكذخذاة (القهرمانة) وأشباه هذه الألفاظ ، ولكن العلم بألفاظ كهذه وبأضعافها لا يكثر على ساكن بغداد في ذلك العصر الذي تقاربت فيه الأمتان الفارسية والعربية وامتزجت فيه الحضارتان ونفذ فيه الفرس إلى كل فرع من فروع المعيشة الرفيعة والوضيعة . فمن أبناء القاهرة اليوم من يتلقف أضعاف هذا العدد من الكلمات الفرنسية والانجليزية والايطالية ويجريها في مخاطباته اليومية ، وهو لا يتكلم بغير لسان وطنه .

بل هناك ما يكاد يدنو بنا إلى الجزم بجهل ابن الرومي اللغة الفارسية وهو قوله في هجاء اسماعيل بن بلبل يتهمه في عربيته :

أإسماعيل من رجل تعرب بعد ما شاخا
واصبح من بني شيبا ن ضخم الشأن بذاخا
وصار أبوه بسطاماً وكان أبوه قيباخا
وصار يقول « قم عنا » وكان يقول « قوهاخا »

فأول ما يتبادر إلى الذهن أن « قوهاخا » هذه ترجمة « قم عنا » باللغة الفارسية . ولكننا سألنا من يعرفونها بيننا فلم يعرفوا للكمة هذا المعنى ولا غيره ، وأكبر الظن عندنا أنها ليست الا حكاية صوتية لبعض المخارج الفارسية يحكيها ابن الرومي على سبيل التهكم بالعجمة في تلك المخارج . وقد تكون تصحيفاً من « قوماخا » وهي قريبة من نطق

الأعجمي لقم عنا . . ولو كان حظه من العلم بالفارسية اكثر من حظ الحكاية الصوتية لكان أحرى به ان يظهر في هذا المقام .

***

مزاجه واخلاقه

أي خبر من الأخبار التي تسربت الينا عن حياة ابن الرومي لا نتركه مختارين غير آسفين لو استطعنا أن نستبدل به صورة لوجه الرجل وشخصه ؟ بل أي خبر من هذه الأخبار لا فتركه مختارين غير آسفين لو استطعنا أن نستبدل به وصفاً دقيقاً لملامح الرجل وقسماته وشارته وسائر ما يتصل بشكله ؟ فقد تعودت النفوس أن تشتاق الى رؤ ية من تتحدث به وتسمع عنه ولم تتعود ذلك عبثاً ،ولكنها تعودته لأن الرؤ ية تزيدها معرفة بمن تريد أن تعرفه ، او لأن المعرفة لا تكمل بغير رؤ ية .

وليس من مجرد المصادفة ـ فيما نعتقد ـ ان تشيع الصور الشمسية والترجمة التحليلية والدراسة النفسية في عصر واحد ، ولا أن تكون الأمم المعروفة قديماً ببراعة الترجمة وكتابة السير أمماً معروفة كذلك بتقييد الملامح والسمات في الصور والتماثيل . فان فراسة الظاهر جزء من فراسة الباطن . وكلتاهما لازمة لفهم السيرة واتقان الدراسة النفسية .

ونحن نؤمن بالفراسة كل الايمان ولا نشك إلا في المتفرسين أو في بعض المتفرسين . فالذي فاتنا من ترجمة ابن الرومي بفوات صورته قسم ليس بالقليل ، وتعويض هذا القسم بما بقي لنا من الوصف العرضي والأخبار المنزورة من أصعب الأمور .

فها نحن اولاء نكتب سيرة ابن الرومي ولا نعرف ما الفرق مثلاً بين سحنته وسحنة شاعر من شعرائنا الآخرين ، نعم ان ابن الرومي كان كما نعلم سليل أبوة يونانية وامومة فارسية ، ولكن ألم يكن من الجائز أنه كان اقرب إلى ملامح الأمومة منه الى ملامح الابوة ؟ أو أقرب إلى ملامح الأبوة منه إلى ملامح الأمومة ؟ اكان له وجه فارسي أو وجه يوناني او وجه رجل فيه مسحة من سمات الشعبين أو مسحة فيه من هؤلاء ولا هؤلاء ؟ ما نظن ذلك مما يستغنى عنه في ترجمة شاعر أو صاحب ترجمة كائناً ما كان .

فاذا كنا سنرجع إلى ذخيرتنا التي نعتمد عليها من شعر الشاعر وإلى القليل من اخباره التي تسربت الينا فلا ندحة لنا في هذا الصدد ولا حيلة ، وعزاؤ نا بعض العزاء اننا قد نهتدي من شعره واخباره إلى صورة له تعين على تخيله وتمثيله وأن لم تغن عن صورته

الحقيقية ولا عن وصفه الدقيق كل الغناء .

* * *

كان ابن الرومي صغير الرأس مستدير اعلاه ، أبيض الوجه يخالطلونه شحوب في بعض الأحيان وتغير ، ساهم النظرة بادياً عليه وجومٌ وحيرة : وكان نحيلاً بيّن العصبية في نحوله ، اقرب إلى الطول أو طويلا غير مفرط ، كث اللحية اصلع بادر اليه الصلع والشيب في شبابه ، وأدركته الشيخوخة الباكرة فاعتل جسمه وضعف نظره وسمعه ، ولم يكن قط قوى البنية في شباب ولا شيخوخة ولكنه كان يحس القوة اليسيرة في الحين بعد الحين كما يحس غيره العلل والسقام . فكان إذا مشى اختلج في مشيته ولاح للناظر كأنه يدور على نفسه أو يغربل ، لاختلال اعصابه واضطراب اعضائه . وكان على حظ من وسامة الطلعة في شبابه معتدل القسمات لا يأخذ الناظر بعيب بارز ولا حسنة بارزة في صفحة وجهه ، اما في الشيخوخة فقد تبدلت ملامحه وتقوس ظهره ولحق به ما لا بد أن يلحق بمثله من تغيير السقام والهموم .

* * *

هذه خلاصة الصورة التي استخرجناها من شعر الشاعر واخباره ، وقد كان ينبغي أن نكتفي بها ونقف عندها لو كانت « الترجمة لذاتها » هي الغرض الوحيد من هذا الكتاب . ولكن « الترجمة » ليست هي كل ما نقصد اليه ولا اهم ما نقصد اليه ، لأن الطريق المؤدي إلى الترجمة غرض كبير من أغراض الكتاب لا يقل عن بيان الترجمة لذاتها ، ووسيلة الوصول إلى النتيجة كالوصول إلى هذه النتيجة ، والصيد مقصود هنا كما تقصد المائدة والطعام الذي على المائدة . فمن الواجب علينا أن نبين مكان هذه الترجمة من شعر ابن الرومي وحاجة الأخبار التي بين أيدينا الى التكميل من كلامه في وصف نفسه عامداً وغير عامد ، وان نبين كيف ان ديوان شعره قد تجاوز حد الترجمة الباطنية الى الترجمة التاريخية ، لاشتمال وجدان الرجل عليه وفرط استيعابه لنفسه في شعره ، وشدة الامتزاج بين حياته وفنه :

* * *

فأما أنه كان صغير الرأس مستدير اعلاه فيؤخذ من رده على من عاب صغر رأسه :

إذ تنقصتني بصعلكة الرأ س ، سفاها واذمت غير ذميم
ما تعديت أن وصفت خشاشاً لوذعياً كالحية المشهوم . . .

. . . . .

وقديمــاً ما جرب النــاس قبلي　　ثقــل الهــام في الخفــاف الحلوم
واعتبر ، ان أفشل الطـير في الطـ　　ـير ، وفينــا ، كروســات البوم

فهو يقول لعائبه إن صغر الرأس لا يزري به لأن الحية المشهوم ـ وهي موصوفة بالحكمة واليقظة ـ صغيرة الرأس ، والبومة كبيرته ، وهي مضعوفة فاشلة بين الطير والناس .

وأما أنه كان أبيض اللون فذلك غير عجيب في رجل له جدّ من الفرس وجدّ من الروم ، وقد قال هو يصف ديباجة وجهه في نضرة العمر :

يا هل تعــود سوالف الأزمان　　اولا ؟ فمنصرف الى السلوان
كيما أروح وللشبيبــة حبرة　　أرنــي العيون بفاحــم فتان
وبمشرق صافي الأديم كأنما　　فيه ائتــلاق من صفيح يمان

والاشراق والصفاء والائتلاق أشبه بالبياض منها بأي لون من ألوان الوجوه .

وأما أنه كان « يخالط وجهه شحوب في بعض الأحيان وتغير ، وأنه كان ساهم النظرة بادياً عليه وجوم وحيرة » فيفهم من قوله وقد لاحظت عليه بنت صغيرة لعبيد الله بن عبد الله انه كان كثير السكون والتفكير :

وشقيقــة قالــت اراه مفكراً　　حتــى أراه من السكينــة نائما
فأجبتهــا انــي امــرؤ هيامة　　في كل واد ما أفيق همَاهِما
امسي واصبــح للشــوارد طالباً　　بهــواجسي ، حول الأوابــد حائما

وهي ملاحظة صادقة بسيطة كأكثر ملاحظات الاطفال ـ ولا سيما البنات ـ على الرجال الذين يرونهم عند آبائهم فيتفرسون فيهم ويطيلون النظر اليهم . ثم أن اناسا كانوا يعيبون عليه انقباضه كما يؤخذ من قوله في هجاء بعضهم : « يعيب انقباضي معجباً بانبساطه » وكما قال علي بن ابراهيم كاتب مسروق البلخي « كان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغير حال » . ولو لم يكن هذا واضحاً في شعره واخباره لتوسمناه من اعتلال صحته وخيبة أمله وكثرة شكواه .

وأما نحوله « العصبي » المعروق فالدلائل عليه في شعره كثيرة منها قوله :

أنــا من خف واستــدق فما يثـ　　ـقــل ارضــاً ولا يســد فضاء
. . . .　　. . . . .
أنــ ليث الليوث نفســاً وان كنـ　　ـت بجسمــي ضئيلــة رقشاء

ومنها :

يقول القائلون ضويتَ جداً ... ولم تنضجك ارحام النساء
ومن انضاجها اياي اعرت ... عظامي من لحومهم الوطاء
إذا ما كنتُ ذا عود صليب ... فيكفيني القليل من اللحاء

ومنها :

وزارية علي بأن رأتني ... من الهزلى حقيراً في السمان

وذلك فضلا عن مدحه النحافة فيمن كان يمدحهم وتفضيله شأو الخماص على شأو البطان لأن العصب جُعل في الرجال قديما و« كذا الجدل في الحبال المتان ».

ونعلم انه كان أقرب إلى الطول او طويلاً غير مفرط من شعره وحده لا من خبر روي عنه . فقد كان شديد السخر بالقصار شديد النكاية في هجائهم ، ومن قوله في شيخوخته :

أقول وقد شابت شواتي وقوست ... قناتي واضحت كدنتي[1] تتخدد

ومنه :

وأرى قوامي لج في تقويسه ... ولقد يلج اللين في تعطيفه

والقوام والقناة والتقويس بالطوال اشبه ، ولا سيما حين يلج التقويس ولا يقف عند الانحناء اليسير . ويتوسم فيه الطول من أبيات كثيرة كهذا البيت :

وكم مثلها من ظبية قد تفيأت ... ظلالي وأغصانُ الشبيبة مُيَّد

ومثله :

وظبية من ظباء كان مسكنها ... في ظل غصني ، اذا ظل الضحى التهبا

ومثله :

اذ للشبيبة صبوة تصبو بها ... وبشاشة تصبي بها وتروق
يهتز منك لأريحيات الصبا ... غصن تفيؤه الظباء وَريق

---

(١) بنية الجسم من شحم ولحم

ولا يكون الاهتزاز والتشبيه بالغصن الذي تتفيؤه الظباء الا لقوام فيه امتداد وطول .

وقد طلب مرة ثوباً فكتب يقول ويذكر نفسه بضمير الغائب :

فأنجز الوعد بثوب له ... من الجياد المرتضاة الحسان
وفي القوافي ثمن مربح ... فلا يقصر ذرعه عن ثمان

فاذا حسبنا كل حساب للطمع فلا نظن ثماني أذرع تُطلب لرجل قصير أو فوق القصير بقليل .

إلا أنه لم يكن مفرط الطول لأنه كان يهجو من في طوله أفراطٌ كما قال في عمرو الحاجب :

فَلِلقدّ منه طول نهر معوَّج ... وللأنف منه نفخة البوق في الكفر

ونحسب هذه الشواهد كلها كافية في تخيل قوامه ، وانه لم يكن بالطويل المفرط ولا بالقصير .

* * *

وكان ملتحياً ولا شك في اوائل كهولته لأنه يقول :

رأيت جليسي لا يزال يروعه ... بياض القذى في لحيتي فيميطه
فكيف به عما قليل اذا رأى ... قذى الشيب قد عفى عليها سفيطه[1]

فهو قد التحى في سن يتوقع ما بعدها من زيادة الشيب وعمومه .إلا انه كان كث اللحية قصير شعرها كما قال :

ولم أزل سَبط الأخلاق واسعها ... وان غدوت امرءاً في لحيتي كثث

وكأنما جعل من ذلك النقص فخراً لانه نقصٌ لا يد لهُ في استدراكه ، فكان يسخر من اللحى الطوال ويسميها اذناباً ومخالي ومذبات ويشك في أدب كل غزير اللحية بل يجعل غزارتها دليلاً قاطعاً على نزارة ادبه حتى البحتري ! لأن :

البحتري ذنوب الوجه نعرفه ... وما رأينا ذنوب الوجه ذا ادب

ومغالطته في هذا باديةٌ من دخيلة احساسه بهيبة اللحية وانها علامة التذكير حيث يقول لصاحب لحية طويلة :

---

(١) شيره .

ارع فيهـا الموسى فانـك منها يشهـد الله - في أثـام كبير
أيمـا كوسـج يراهـا فيلقى ربـه بعدهـا صحيح الضمير
هو أحـرى بان يشـك ويغرى باتهـام الحـكيم في التقدير
. . . .
لحية اهملـت فسالـت وفاضت فاليهـا تشـير كف المشير
ما رأتهـا عـين امـرىء ما رآها قط الا أهـلٌ بالتكبير
روعـة نستخفـه لم يرعها من رأى وجـه منـكر ونكير
فاتـق الله ذا الجـلال وغير منـكراً فيك ممـكن التغيير
او فقصر منهـا فحسبـك منها نصف شبـر علامـة التذكير

والرغبة في غزارة اللحية معقولة من زجل اصلع كان يفرق من الصلع ويخفيه جهده - ويود أن يداريه بغزارة الشعر في وجهه الذي لا يستطيع مداراته كما كان يداري رأسه .

أما الشيب والصلع فحديثه عنهما طويل وشهرتـه بما قال فيهما مضرب الامثـال بـين الأدباء .

شاب رأسه في غضارة الشباب فقال :

شاب رأسي ولات حـين مشيب وعجيب الزمـان غـير عجيب
قد يشيب الفتـى وليس عجيباً أن يرى النور في القضيب الرطيب

ولم يدع لنا أن نسأل عن السن التي شاب فيها لأنها هي الحادية والعشرون من عمره كما عينها لنا تعييناً في قوله :

فظلـم الليالي انهـن أشبنني لعشرين يحدوهـن حول مجرَّم

ثم والى ذكر السنين مرحلة بعد مرحلة ، فقال فيا دون الثلاثين

وأنـىً تفـرع رأسي المشيـ ـب ، ولـم اتفـرع ثلاثـين عاما

وبلغ الاربعين فعد نفسه من الموتى الا احلاماً تذكره الحياة :

متّ إلا حشاشـة وادكار مثـل أحـلام حالـم النوام
ومتى ما انقضـت اجـاري طرف مات الا صيامـه في المصام
. . . .
وقضيت الرضاع عن درة الكر ملتجـريم اربعـين تمام

وهكذا في الخمسين والخامسة والخمسين والستين ، كأنه عابر طريق يحصي ما عبر منها

وما بقي له ان يعبر . وما وخط الشيب شعره حتى آلى له من البداية « يمينا لاخفينك جهدي » ووالى اخفاءه بقية عمره . واخفى الصلع حين اصابه في شبابه كما اخفى المشيب ، فكان لا يرى في مكان الا لابساً عمامة ، وعز عليه ان يمنى بهذا التشويه في نظره وهو الذي أولع بكل تشويه يتضاحك به ويفتن في تمثيله ويعرق اصحابه في المزح والدعابة . فلزم العمامة لا يخلعها واخفى سر ذلك عن جلسائه وجليساته ، فكان اثقل شيء عليه ان يتعرض متعرض لهذا السر المصون !

يا أيها السائلي لاخبره عني : لم لا اراك معتجرا ؟
أستر شيئاً لو كان يمكنني تعريفه السائلين ما سترا

ومن عيره هجاه وقال فيه :

يعيرني لبس العمامة سادراً ويزعم لبسيها لعيب مكتَّم

وتلا ذلك ما لا بد منه في هجاء صاحبنا من عوار الكلام .

ثم انكشف الأمر ولم تُغن الحيلة في لجاج الفضوليين والمتشوفين فعاد إلى العمامة يحيل عليها اللوم ويتهمها بجريرة الصلع ويقول انه لم يكن اصلع قبل أن يلبسها وانما كان يتقي بها البرد والحر فدهاه طول التعمم في لمته ، فهو يلبسها الآن لستر هذا التشويه . . الحديث !

تعممت احصاناً لرأسي برهة من القر يوما والحرور اذا سفع
فلما دهى طول التعمم لمتي واودى بها بعد الاصالة والفرع
عزمت على لبس العمامة حيلة لتستر ما جرت علي من الصلع
فيالك من جان عليّ جناية جعلت اليه من جنايته الفزع

ولا يبعد ان يكون هذا صحيحا بعض الصحة ، وان خوفه البرد والحر كان من اسباب ملازمته العمامة وان لم يكن هو كل السبب ، فقد كان يكابد في الصيف نصباً كما قال لبعض ممدوحيه « يا عليا بما اكابد فيه[1] » . . . وكان مرهف الحس جداً فكان أهون مس يهيج أعصابه ويستفز خلقه ، بل كانت الرائحة إذا قويت تؤذيه وتصدعه ، فلهذا كان يذم الورد ويمدح النرجس كما جاء في فصل التلطف من كتاب الصناعتين . ومن بلغ منه

---

(١) قد مضى اكثر الشتاء وجاء الصيف يعدو فلا تزده التطاء
يا عليا بما اكابد فيه لا تعاونه ، ان فيه اكتفاء

التقزز هذا المبلغ لم يبعد أن يلبس العمامة لاتقاء الحر والبرد ، ولم يبعد كذلك أن يكون ضعيف الشعر فطرة وان يصيبه الشيب والصلع لاضعف سبب .

أما مشيته فقد تولى هو وصفها لنا على طريقته التي لا تدع شيئاً من تمثيل الشكل والحركة ، فعلمنا منه أنه كان يختلج في مشيته كأنه يحمل بين يديه غربالا يديره :

ان لي مشية اغربل فيها   آمنا أن اساقط الاسقاطا

وهذه المشية معروفة تدل عليها حركة الغربلة وتكثر فيمن بهم خلل في العصب أو العضل . وفي ديوانه أبيات يهجو بها اخا نضر الجهبذ لأن نضراً أراد أن يزوجه بنته فمنعه من ذلك أخوه وقال له : أما تنظر إلى مشيته مثل مشية المخنثين ؟

ونحسب أننا في غنى بعد هذا عن شواهد اخرى على حظه من الصحة وقوة التركيب في شبابه ومشيبه ، ولكننا لا نحب أن نحدس إذا امكن أن نجزم ، فالرجل يقول في صباه :

واني للقوي على المعالي   وما أنا بالقوي على الصراع

وكان يشكو مرض العينين قبل الشيخوخة ، ففي ذاك يقول من قصيدته الدالية في صلح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر واخيه سليمان ، وهي مما نظم حوالي الاربعين :

شغلت عنك بعوار اكابده   لا بالملاهي ولا ماء العناقيد
ولو قعدت بلا عذر لمهد لي   جميل رأيك عذري أي تمهيد
قاسيتُ بعدك لا قاسيتَ مثلهما   نهار شكوى يباري ليل تسهيد
أمسي واصبح في ظلماء من بصري   فما نهاري من ليلي بمحدود
كأنني من كلا يومي وليلته   في سرمد من ظلام الليل ممدود
إذا سمعت بذكر الشمس آسفني   فصعدت زفراتي اي تصعيد

وذلك إلى شكاية من المتطببين واعتذارات كثيرة بالمرض تدل على بنيه مصابة وحظ من العافية قليل .

فلما أدركته الشيخوخة لا جرم برحت به واشتدت وطأتها عليه فرجفت اعضاؤه وتعاورته الأسقام واحتاج إلى العصا وزاغ نظره وثقل سمعه .

ودب كلال في عظامي ادبني   جنيب العصا ، أناد أو اتأيد
وبورك طرفي فالشخوص حياله   قرائن من ادنى مدى وهي فرّد

او كما قال في قصيدة اخرى :

واحدث نقصان القوى بين ناظري وسمعي بين الشخص والصوت برزخا

وجماع ذلك قوله :

أنـا ذاك الـذي سقتـه يد السـ ـقم كؤوساً من السقـام رواء
ورأيت الحِمام في الصـور الشـ ـنـع فكانـت لولا القضـاء قضاء

وقد اختلفت أقوال ابن الرومي في حظه من القسامة قبل أن تجور عليه السن وتعصف السقام بما كان له من صباحة في ضحوة عمره . فهو اذا أراد ان يمزح أو يهون على نفسه فقد الشباب العزيز ـ قال :

من كان يبـكي الشبـاب من جزع فلسـت ابـكي عليه من جزع
فان وجهـي بقبـح صورته ما زال لي كـالشيب والصلع

او قال :

جزى الله عني قبـح وجهـي سعادة كما قد جزاه ، والالـه قدير
دعـوت به قومـاً فأدوا اتاوةً كأنـي عليهـم عنـد ذاك امير

وهو اذا أراد أن يرثي الشبب ويتفجع عليه قال :

وكنـت جلاء للعيون من القذى فقـد جعلـت تقـذَى بشيبـي وترمد

أو قال :

ومـا يرجـى من البيض ابتسام لمن امسى لمفرقـه ابتسام
كأن محاسنـي لم تضـح يوما وفي لحظاتهـن لهـا اقتسام
كأنـي لم ار اللمحـات نحوي. وفي اللمحـات لثـم والتزام

والمرء يبالغ اذا اراد أن يتهكم أو يتفجع ،ويبالغ اذا اراد التهوين أو التهويل ،فالصورة الأولى ادخل في باب الصور الهزلية التي فيها ما في جميع هذه الصور من التحريف والمسخ والمبالغة ، والصورة الثانية ادخل في باب الصـور المحسنة التي يكثر فيها التنوق والاصلاح ، ولكننا نرجح انه كان كما قلنا « على حظ من وسامة الطلعة في شبابه معتدل القسمات لا يأخذ الناظر بعيب بارز ولا صفة بارزة في صفحة وجهه ». لأنه كان يتناول بالسخر كل عيب في وجوه الذين هجاهم من خصومه ومازحهم من اصحابه ، فلو كان فيه مثل هذه العيوب البارزة التي لا تدارى ولا يغالط بها لما تناولها ولا حول الانظار الى مثلها في وجهه، أو هو لو كانت فيه هذه العيوب وتناولها بالهجو والدعابة لتعرض له المهجوون بمثل فعله فرد عليهم شعراً كما رد عليهم حين تعرضوا له في العيوب الأخرى من مشية أو صلع

أو هزال . فالأقرب الى الترجيح انه لم يكن ذا عيب بارز ولا حسنة بارزة ، وانه لم يكن ظاهر الحسن ولا ظاهر التشويه . على انه كائناً ما كان حظه من القسامة في صباه قد فقد ولا ريب ذلك الحظ الذي كان له حين شاخ وجاوز الخامسة والخمسين ، فاننا لا نتخيل الجمال لشيخ نحيل معروق تقوس ظهره وشحب وجهه وانطفأ وميض عينيه وطال عليه السقم والغم ولم تزينه الشيخوخة بذلك التاج الفضي الذي تسبغه على رؤوس الشيوخ ولا بتلك الحلية الناصعة التي تحيط بها وجوههم بالوقار والجمال .

***

على أن ضعف البنية لم يكن ليضير ابن الرومي كثيراً في شبابه او في شيخوخته لو أنه اعتدل في عيشه وقوي على ضبط نفسه ، فان ضعاف البنية قد يعمرون ويبلغون فوق الستين التي بلغها ابن الرومي وهم في عشة سوية وحالة من الصحة مرضية ، وربما نيَّف الهزيل على الثمانين وهو معافى الجسد موقى من الامراض التي لا يتقيها الاقوياء ولا يحجمون من مواقعة اسبابها ، ولكن ابن الرومي كان هزيلاً وكان مع هزاله قليل التصون والاحتراس ، فجنى على بدنه فوق ما جناه عليه هزاله ولج به الحس المتوفز فتهافت على لذات الحياة واطايبها تهافت من لا يحب ان تفوته متعة او تفلت من يديه نهزة ، وكبّر له الخيال لذات الحس ومباهجه فاكب على مائدة الحياة كالطفل على مائدة الحلوى لا تمنعه كظة ولا تقمع شهوته حمية . وراح منهوماً كذلك بكل لذة عقلية يلتهم المعرفة كما يلتهم اللهو والنعمة التهام من يخشى أن يذاد عنها ولما يستوف شبع شهوته منها . فجار على بنيته الضاوية وانطلق مسرفاً في درسه مسرفاً في اشتهائه مسرفاً في طعامه وشرابه ، وروي له الشعر حتى في اصناف الطعام والشراب بل روي له الشعر في هذه الأغراض حيث لا يروى له شعر غيره . قال محمد بن يحيى الصولي فيما نقله المسعودي في مروج الذهب :

« أكلنا يوما بين يدي المكتفي بعد هذا بمقدار شهر - أي بعد أكلة روي فيها شعر لابن الرومي - فجاءت لوزينجة فقال : هل وصف ابن الرومي اللوزينج ؟ فقلت نعم . فقال أنشدنيه ، فأنشدته :

لا يخطئنّي منك لَوْزِينجُ — إذا بدا أعجب أو عجّبا
لم تغلق الشهوة أبوابها — إلا أبت زُلفاه أن يحجبا
لو شاء أن يذهب في صخره — لسهّل الطيب له مذهبا
. . . . — . . . .

مستكثف الحشو ولكنه ... أرق جلداً من نسيم الصبا
كأنما قُدَّتْ جلابيبه ... من أعين القطر الذي طنّبا[1]
يخال من رقة خِرشائه[2] ... شارك في الأجنحة الجندبا

إلى آخر الأبيات . فحفظها المكتفي فكان ينشدها » .

وأخبر نفطويه عن أحمد بن حمدون : « تذاكرنا يوما بحضرة المكتفي فقال : أفيكم من يحفظ في نبيذ الدوشاب شيئاً ؟ فأنشدته قول ابن الرومي :

إذا أخذتَ حبه ودبسه ... ثم أجدتَ ضربه ومرسه
ثم أطلت في الاناء حبسه ... شربت منه البابليّ نفسه

فقال المكتفي : قبحه الله ما أشرهه ! لقد شوقني في هذا اليوم الى شرب الدوشاب »

وإنا لنقرأ هذه الأبيات وأمثالها الكثيرة في ديوان ابن الرومي فيخطر لنا عصره المترف ويخطر لنا ان الاسهاب في وصف الطعام والشراب لم يكن في ذلك العصر معيباً ولا مخلاً بالمروءة ، لأنه كان عصر الشهوات جميعها وأولها شهوة المآكل والمشارب ، بل كان عصراً يصح أن يُسمى بعصر الموائد والولائم لأنها كانت وصلة الاجتماع في الجد واللهو وملتقى طلاب اللقاء في مواعد الوجبات اليومية وغير مواعدها المألوفة ، وكان من مقاييس مروءة الرجل أن ينظر إلى مطعمه في بيته وبراعة طهاته ونفقته على أكله ، فغضب المتوكل على عافية بن شبيب وأقصاه من مجلسه ونفاه إلى البصرة لأنه رأى له طعاما لا يليق بمن يجالس الخليفة وينال صِلاته ، ونحن لا نتصفح أخبار المجالس في ذلك العصر إلا صادفنا الحديث عن الولائم والمهارة في اتقانها والسخاء في النفقة عليها . فربما كان الخليفة وجلساؤه يتواعدون إلى الموعد ومع كل منهم طعامه يتفكهون باستعراض ألوانه ، والمقابلة بين صناعاته وطعومه ، وكان من تمام ظرف الأديب والنديم أن يحذق شأن الطعام ويخبر صنعه وما قيل في وصفه ، فظهرت في ذلك العصر كتب الأدباء في فن الطهو ككتاب الطبيخ لابراهيم بن العباس الصولي وكتاب الطبيخ وكتاب فضائل السكباج لجحظة البرمكي ، وخفت مذمة النهم لأنه أصبح كأنه قدرة وعلم وظرف ! وكأنه في ذلك كله أقرب إلى الفخر منه إلى الملامة !

---

(١) اذا انفتحت قطرة الماء كان لها قبة رقيقة هي المقصودة هنا .
(٢) الخرشاء قشرة البيض العليا .

يخطر لنا ذلك العصر المترف ونحن نقرأ هذه الأبيات الكثيرة في ديوان ابن الرومي فنسأل أنفسنا : ما نصيب العصر في تلك الأوصاف وما نصيب الرجل ؟ وما حظ العين من لون وشكل وما حظ المعدة من شبع وامتلاء ؟ فمن شاء أن يحسب نهم ابن الرومي على النحو المتقدم باباً من الأدب لا باباً من الشره فله ذلك وحجته في هذا الحسبان غير ضعيفة ! ولكنه هو لا يدعنا نحار في خليقة كهذه الخلائق التي تحكي عنه ويكون لها دخل في حياته ، فاذا تطرق الشك إلى جانب فلا بد له من جانب آخر يقطع ذلك الشك ويردّك الى اليقين فيه ، ومن شعره المحفوظ ما يَروي لك كيف كان يعاب في أكله وكيف كان رده على من يعيبونه ، فتارة يقر بالذنب ويزعم أنه هفوة لا جريمة :

أإن اصطبغت ولقمتي معضوضة[1] أنشأت تهجوني بذلك ظالما ؟
عيبٌ لعمرك غير أن لم آته عمداً ! فهبني هافياً لا جارما

وتارة يقول لقسطنطين جارية أم حبيب وكأنها ضحكت من أكله :

ذريني قسطنطين آكل شهوتي وتبشمني ؛ اني بذلك راض
فأكثر ما ألقى من الزاد كظةً مدى يومها واليوم أسرع ماض

ثم لا ينسى أن يعرّض كدأبه بغير ذلك ، وأن يذكر الكظة التي لا تنصرف إلا بعد تسعة شهور !

وتارة يصف الطعام ويعقب الوصف بالتشوق اليه واللهفة عليه :

لهفي عليها وأنا الزعيم بمعدة شيطانها رجيم

بل هو لا يدعنا نحار حتى في « الأصناف » التي كان يحبها ويؤثرها على سواها . فقد علمنا مثلاً أنه كان يحب الموز من الفاكهة لأنه غذاء القلوب لا غذاء المعدات !

يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلع إلى القلوب

وأنه كان يعاف المشمش لأنه دواء لا غذاء :

إذا ما رأيت الدهر بستان مشمش فأيقن بحق إنه لطبيب

وعلمنا أنه كان يشتهي السمك ويمعن فيه :

---

(١) اصطبغ ولقمته معضوضة اي وضع اللقمة في الطعام وفي فمه لقمة يمضغها .

فيا حبــذا إمعاننــا فيه ناضجاً   كما جاء من تنــوره المتوقد

وعلمنا أن ابن أبي بشر المرثدي غلط مرة فوعده أن يوافيه أيام السبت بالهدية منه بعد الهدية . فوقع المسكين في شباكه فما كانت تنقضي فترة إلا على تذكير له ومناوشة ، وجعل ابن الرومي هذا الوعد هجّيراه ودعابته التي لا يفرغ منها . وما كان يفرغ من دعابة ولا غير دعابة وفيها بقية ، فحيناً يقول إنه قد تهود في انتظار السمك ويسأل ابن أبي بشر !

ما لحيتاننــا جفتنــا وأنّى   أخلف الزائــرون منتظريهمْ !
قد أزحنــا اعتلالهــم وجعلنا   سبتهــم جمعــة ، فما يُشكيهم ؟
جاء في السبــت زَورهــم فأتينا   من حفــاظ عليه ما يكفيهم
وجعلنــاه يوم عيد عظيم   فكأنــا اليهــود أو نحكيهم
واحتملنــا مقالــة النــاس فينا   ولهــم كلٌّ ما احتملنــا وفيهم
. . . .
قد سبتنــا ، وإنمــا كان قومٌ   يوم لا يسبتــون لا تأتيهم

يشير إلى المائدة التي كانت تأتي بني إسرائيل يوم يسبتون . . !

وحيناً يحمد الله الذي نجّى السمك حين تعلقت به شهوة ابن الرومي ووعد المرثدي :

الحمــد للـه الـذي نجّى السمكْ   من الشصوص الجائـلات والشبكْ
علّمــه يونس من تسبيحه   ما كان أدنــاه الى تسريحه
فهــو من الصياد في أمان   ما دمــت أبغيه ، وفي ضمان

وحيناً يسائل المرثدي مسعظماً لابطائه .

أألحــوت حوت الأرض أم حوت يونس   لك الخــير ، أم حوت السماء أروم ؟

وحيناً يسأل السمك :

أيا سمــكاً بــين السماكين عزةً   إلى كم يرانــا اللــه عنــك نصوم

وحينا يُعلم المرثدي أن دجلة قريبة من قصره وأنه قليل العذر في اخلاف وعده :

إعلــم وُقيتَ الجهــل أنــك في   قصر تليه مطــارح السمك
. . . .

وبنـاتُ دجلـة في فنائكم مأسـورة في كل معترك

. . . .

بيض كأمثـال السبائـك بل مشحونـة بالشحـم كالعلك
تُغْنـي عن الـزيات قاليَها وتبخَّـر الشـاوين بالودك

. . . .

فليصطـد الصياد حاجتنا تصطـد مودتنـا بلا شرك

وهكذا وهكذا مما يغريه به حب السمك وحب الدعابة ، وكلاهما شهي اليه !

وكان هذا ديدنه في كل أمر من أموره : اسراف واستقصاء لا يمسكهما ضابط ولا تعقدهما عزيمة ، اسراف واستقصـاء في النكتـة وفي المعنـى وفي الـدرس وفي الطعـام والشراب والشهوات ، لا حدّ لهما إلا البشم والامتلاء واستنفاد ما بين يديه من مادة مادة في ساعتها حتى لا سؤ ر ولا صُبابة :

ان يكن عنـدك لي نُصـ ـح فما عنـدي انتصاح
لا تلمنـي فالهـوى فيـ ـه جمـاح وطماح
ما على المفتـون في ما غلـب الصبـرَ جُناح
كل شيء غُلـب الصبـ ـر إليه فمباح
انمـا الـدنيا ملاهٍ واغتبـاق واصطباح
والمزاح الجـد ، إن فكـ ـرت ، والجـد المزاح

وتختلف نزعات هذا الاسراف وسببها كلها واحد : سببها كلها توفر الحس ومطاوعـة الرغبة الحاضرة والاندفاع معها وقلة الصبر عنها ، ولو أن هذه الأشواق الجامحة شفعـت بمسكة من العزم المتين لاعتدلت حاله ولـو بعض الاعتـدال وسلـم جسمـه ولـو بعض السلامة ، ولكن أنى له العزيمة وهو أسير إحساس اللحظـة التـي هو فيهـا لا يتـرك له استغراقه في مؤثراتها الحاضرة منفذاً إلى التفكير في قابل أو غابر ، ولا يعدل بما يزينه الحس والخيال حظاً تزينه له الحكمة والحصافة ؟

وصاحب هذا المزاج إذا خلا من الاحساس الثائر والرغبة الجامحة يثوب لا محالة إلى وجوم يجثم على صدره وانقباض يثقل على وجدانه . كالنشوان لا يفيق من أحلام الكأس حتى يرين عليه السأم فيسرع إلى النشوة ، فهو أبداً بين النقيضين من ثورة الاحساس وشدة الوجوم .

وليس التناقض بين ثورة الاحساس والوجوم في الحقيقة إلا ظاهراً لا يتعمق إلى البواطن الدخيلة ، إذ ان فرط الاحساس كثيراً ما يؤدي بصاحبه إلى فرط الوجوم اتقاء الألم أو شعوراً بالوحشة التي تنتابه حين يرى التفاوت بين شعوره وبلادة من حوله ، أو مضيّاً مع عادة التفكير والخلو بالنفس التي ينميها التفات الانسان الى موارد الاحساسات المتوالية على وجدانه وحسه ، وإذا لم يتوجه الاحساس الى العمل والحركة فسبيله التي لا محيد عنها أن يتوجه الى التأمل ومناجاة السريرة ، وندر أن يوجد الخجل والاحتجاز الا مع شدة الوعي والتنبه لكل حركة يتحركها الانسان وكل كلمة ينبس بها وكل أثر يكون لحركته وكلامه في نفوس غيره ، فالسكون أدل على الحس المتوفز في بعض الأحيان من الحركة والاضطراب .

ولعل الأصوب أن نقول ان ابن الرومي وقع من مزاجه واسرافه في حلقة موبقة لا يُدرى أين طرفاها . فمزاجه أغراه بالاسراف والاسراف حتى على مزاجه ، فان هذا الاسراف الموكّل بالاستقصاء في كل مطلب ورغبة خليقٌ ولا غرو أن يسقم جسمه وينهك أعصابه ويتحيّفَ صوابه ، بيد أنه لا يسرف هذا الاسراف الا وفي جسمه سقم وفي أعصابه خلل وفي صوابه شطط لا يُكبح جماحه ، فالعلة هي سبب الاسراف والاسراف هو سبب العلة ! وهو من هذه الحلقة الموبقة في بلاء واصب ومحنة لا قبل بها للضليع الركين فضلاً عن المهزول الضئيل ، وعلاقة كل ذلك باختلال الأعصاب وشذوذ الأطوار بدءاً وعوداً ثم عوداً وبدءاً علاقة من جانب الجسد ومن جانب التفكير .

ولا تعوزنا الأدلة على اختلال أعصاب ابن الرومي وشذوذ أطواره من شعره أو من غير شعره ، فان أيسر ما تقرأه له أو عنه يُلقي في روعك الظنة القوية في سلامة أعصابه واعتدال صوابه ، ثم يشتد بك الظن كلما أوغلت في قراءته والقراءة عنه حتى ينقلب إلى يقين لا تردد فيه . وكل ما نعلمه عن نحافته وتقزز حسه وشيخوخته الباكرة وتغير منظره واسترساله في الوجوم واختلاج مشيته وموت أولاده وطيرته ونزقه وشهوانيته الظاهرة في تشبيبه وهجائه ، وإسرافه في أهوائه ولذاته ثم كل ما نطالعه في ثنايا سطوره من البدوات والهواجس ـ قرائنُ لا تخطىء فيها الدلالة الجازمة على اختلال الأعصاب وشذوذ الأطوار ، بل لا تخطىء فيها الدلالة على نوع الاختلال ونوع الشذوذ .

ونقول « نوع الاختلال » لأن هذه الكلمة عنوانٌ واسع يشمل من الحالات النفسية والجسدية مثلَ ما تشمله كلمة « الصحة » أو أكثر ، فهذا صحيح وهذا صحيح ولكن

البون بينهما جد بعيد ، وهذا مختل الأعصاب وذاك مختلها ولكن الخلاف بينهما في الأخلاق والمشارب كأبعد ما يكون بين فردين مختلفين من بني الانسان . فتختل أعصاب المرء فاذا هو جسور عنيد معتسف للأخطار هجام على المصاعب لا يبالي العظائم ولا يحذر العواقب ، وتختل أعصاب المرء فاذا هو وديع مطيع حاضر الخوف متوجس من الصغائر يبالغ في تجسيمها أو يخلقها من حيث لم تخلق ولم يكن لها وجود في غير وهمه . وبين الحالتين - لا بل في كل حالة من الحالتين - نقائض وفروق لا تقع تحت حصر ولا تطّرد على قياس .

وبديهي أن ابن الرومي لم يكن من الفريق الأول في « نوع اختلاله » ولكنه كان من الفريق الثاني الذي يستحضر الخوف ويكثر التوجس ويختلق الأوهام .

ومن أصحاب هذا المزاج من يخاف الفضاء أو يخاف الماء أو يخاف حيوانات منزلية لا قوة لها ولا ضراوة كالقطط والكلاب والجرذان ، فابن الرومي واحد من هؤلاء نحسب أنه كان مستعداً لهذه الهواجس طول حياته في صحته ومرضه وفي شبابه ومشيبه ، ونحسب أن استقصاءه للمعاني الشعرية والالحاح في تفريعها وتقليب جوانبها إنْ هو إلا علامة خفيفة من علامات هذا الوسواس الذي لا يريح صاحبه ولا يزال يشككه ويتقاضاه التثبت والاستدراك ، فيمعن ثم يمعن حتى لا يجد سبيلاً إلى الامعان .

ولكنه مع استعداده للهواجس في شبابه ومشيبه قد تمادى به الوسواس في أعوامه الأخيرة حتى أصبح آفة متأصلة غلبت على أقواله وأفعاله جميعاً فليس له عنها محيص ، فأفرط في الطيرة واشتد خوفه من الماء لا يركبه ولو أدقع ودعاه إلى ركوبه من يمنونه الأرفاد وحسن الضيافة ، وصور لنا ما يعتريه من خوف الماء تصويراً لا يدل إلا على حالة مرضية ولو كان التشبيه فيه من مجاز الشعر وتهويل الخيال ، وهذا بعض ما قاله في مخاوفه وأهوال ركوبه :

ولو ثاب عقلي لم أدع ذكر بعضه ... ولكنه من هوله غير ثائب

. . . .

أظل إذا هزته ريح ولألأت ... له الشمس أمواجاً طوال الغوارب
كأني أرى فيهن فرسان بهمة ... يليحون نحوي بالسيوف القواضب

والماء الذي يصفه هنا هو ماء دجلة لا ماء البحر ولا ماء المحيط !

***

هذه الوساوس هي التي عناها الذين قالوا - في رواية المسعودي - « انه كان الأغلب عليه -

من الاخلاط السوداء » والذين روى عنهم المعزي أنه « كان أدبه أكثر من عقله » . وهي التي وسمته في نظر أبناء عصره بسمة الركاكة والجنون .

***

بين أصحاب هذا المزاج أناس من نوابغ الشعر والفنون عرفوا بسرعة الملاحظة وسرعة الخاطر ، أو عرفوا ـ على الأصح ـ بسرعة انتقال الخواطر وتعاقب الأفكار واستحضار المناسبات الخفية والمشابهات البعيدة التي تدركها سرعتهم ولا تدركها عقول السواد في بطئها وأخذها بالسير المألوف .

وقد تتفاقم هذه الخصلة فتصل إلى الجنون الذي يقول عنه القائلون انه يخلط بين الشرق والغرب ويقحم الأحاديث في غير مواضعها ومناسباتها لسرعة وثبه من كلام إلى كلام ومن معرض إلى معرض ، ولخفاء أوجه المناسبة بين موضوعات تفكيره على الذين يستمعون إليه .

ولكنها إذا هي لم تبلغ إلى حدها الأقصى المشاهد في أعراض الجنون كانت خصلة نافعة للشعراء والمصورين بما تقرّب لهم من المشابهات البعيدة وتبرز لهم من فوارق الأفكار الدقيقة وظلال الأشكال المستسرة ، إذ لا يلزم من سرعة تفكيرهم أنهم يخطئون التفكير ويجيئون به مقتضباً أو مشوهاً على غير استواء . فانهم في هذه الخصلة كالآلة التي تنطلق بالصور المتحركة فتعرض لك في لمحة ما يعرض في برهة ، والمناظر بعد واحدة والنسبة بينها كلها على استواء واحد . أو هم كالمجهر المكبر الذي يُري الأشياء كلها أكبر مما تراه العين المجردة وهي بعد صحيحة الابعاد مستقيمة الاوضاع ، والعلم يحتاج إلى التكبير في درس الأشياء ويحتاج إلى مثل هذا التكبير في درس النفوس فليس كل ما دق الشعور به عن الناس عامةً باطلاً معيباً ، وإلا كل ما خفي على العين حقيقاً بالتجاهل والاخفاء .

إنما يدرك الخطأ أصحاب هذا المزاج في الغالب من ناحية واحدة هي ناحية ضبط الاحساس أو ناحية التفريق بين الخواطر وإحساساتها التي تناسبها .

فقد زعموا في الأساطير أن السحرة الأقدمين كانوا إذا فكروا في جنّي يريدونه حضر بين أيديهم بغير استدعاء ولا انتظار إشارة .

فلك أن تقول أن ما زعموه حقيقةٌ لا أسطورة ، وأن السحرة الأقدمين موجودون في كل

زمان لأنهم هم بأعينهم سحرة الفن من أصحاب ذلك المزاج .

يخطر لهم أن صديقاً مات فما هو إلا أن يومض في ذهنهم هذا الخاطر حتى يثب معه الحزن الذي يحزنه الصديق على صديقه ، أو بعبارة أخرى يثب معه الجنّي الملازم لخاطر الموت بغير استدعاء ولا انتظار إشارة .

وقد تسنح لأحدهم الفكرة فما هي إلا أن تتراءى في خياله حتى يقترن بها الاحساس الذي يناسبها من خوف أو غضب أو فرح أو اغتباط ، ثم لا يستطيع أن يضبط حركة إحساسه ولا أن يصرف عنه الخالجة النفسية التي أيقظتها فيه هذه الفكرة ، فكل شر مظنون فهو عنده كالشر المحقق على حد قول شاعرنا :

وإذا ما ظننت شيئا فخفه رُب شر يقينه مظنونه

وربما كان أحدهم على قمة جبل فيسنح له خاطر السقوط منه فسرعان ما يهب في نفسه شعور الوجل والاضطراب كأنه قد سقط فعلا ، ثم لا يستطيع دفع شعوره ولا يهدّىء من روعه علمه بأنه مستقر على الأرض ناج من خطر الوقوع الموهوم ! وربما سنح له شبح الأفعى فتفاجئه الرهبة من سمها الناقع ولو لم يكن في موضع تطرقه الأفاعي أو يظن بها طروقه . لأن هذا التنبيه الصغير كاف لتحريك الاحساس وجيشانه وتمثيله لخياله في مثل لمح البصر ، ثم لا توجد عنده القدرة على رد إحساسه إلى نصابه والهيمنة على حركات نفسه . فهو كأولئك السحرة في قوة الاستدعاء لولا أنه ينسى الاشارة التي يصرف بها الشياطين فتلتوي عليه وترديه !

وهذا هو مورد الخطأ على أصحاب ذلك المزاج .

ولكنك ترى أنه ليس ثمة خطأ في الخاطر ولا في الاحساس الذي يلازمه ، فالخاطر صحيح والاحساس كذلك صحيح وإنما الخطأ أن الاحساس يجيء قبل الأوان أو في غير الأوان . وقد يعد ذلك عيباً في العلم أو في تدبير المعاش ، أما في الفن فلا عيب فيه . لأن الفنان أحوج ما يكون إلى استحضار الشعور في غير موعده وتمثيل العاطفة كلما دعته حاجة عارضة إلى تمثيلها . فهذه الخصلة قد تؤذيه في معاشه وقد تؤلمه وتشقيه ، ولكنها لا تستلزم الخلل في تفكيره وصنعته إلا من حيث التكبير والتجسيم ، وقد يكون التكبير والتجسيم ألزم لاظهار الخفي وتقريب البعيد من نظرة القسط والهدوء ، ولا سيما في الفنون .

ومع كل هذا يجب أن نذكر أن آمن شيء في الحكم على هذه الأمزجة وأشباهها هو ألا

تركن كل الركون إلى قاعدة مقررة في تقدير أعمالها وأحوالها ، وألا تزال مترقباً منها للمفاجآت والغرائب في كل لحظة . فقد يجتمع العنف العصبي والوداعة العصبية في اهاب واحد ، وقد يعنف اللطيف ويلطف العنيف حسبما يطرأ عليهما من الطوارىء ، وهذا الذي تراه اليوم يتوقد ذكاء وفطنة قد تراه في بعض حالاته خابي الذهن كليل الفهم لا يعي عنك ما تقول ، وهذا الذي يقيم القيامة للصغائر التوافه قد تراه وقتاً ما وهو مستخف بالعظائم لا يبالي ما كان منها أو ما يكون . . . وأنت تسأل : أفي تركيبهم تناقض ؟ فلك أن تقول نعم ولك أن تقول لا . لأن التناقض موجود في ظواهر الأفعال غير موجود في بواطن المزاج ، فمن كانت تقيمه الهنة الضعيفة وتقعده إذا هي لمسته وبلغت منه حري ألا يبالي الحوادث الجسام إذا هي لم تلمسه ولم تبلغ منه ، فالمعول في ثورته وسكينته على ما يباشر حسه ويلامس أعصابه . لا صغير إلا وهو خطير مثير إذا أزعجه وملأ إحساسه ، ولا خطير إلا وهو هين طفيف إذا غاب عن وهمه وأعفاه من رؤ يته ، فهو الدهر بين تبرم وفزع من توافه الأشياء وطمأنينة وسخر من فوادح الخطوب .

ويحتاج الأديب أحياناً إلى هذا التناقض كما يحتاج إلى استحضار الاحساس في غير أوانه ، أو يحق لنا أن نقول إن شاعرنا خاصة قد استفاد من هذا التناقض مضاءً وحدةً في ملكة السخر التي اشتهر بها وبلغ فيها أوجه ، فان النقائض والمفارقات ألزم لوازم هذه الملكة بعد دقة الملاحظة . وها هنا معدن النقائض والمفارقات التي يعانيها الساخر في نفسه وقد يستغني بها عن مراقبة غيره .

كان ابن الرومي ساخراً ولا جرم ، كان شاعر النقائض في عصر النقائض ، وكان شاعر الفطنة الوحيّة في عصر الرياء المضحك أو عصر الاختلاف بين الظواهر والبواطن والبعد الشاسع بين ما هو كائن وبين ما يُدّعى ويُستوجب . فلا جرم يسخر وعناصر السخر في نفسه وفي زمنه ! وقدرة السخر في قلبه وفي عقله . ! ولا جرم يسخر وهو مهيّأ للسخر فيما عدا ذلك بتعدد أصوله وتوزّع أهوائه وعصبياته . فان صاحب العصبية الواحدة خليق أن يتحيز ويتنطس ويغلو في الجد والمرارة ، ولكن صاحب العصبيات الكثيرة لا يستطيع أن يفعل ذلك ولا يسعه إلا أن يستخف ويضحك من تلك الدعاوىٰ وتلك المظاهر التي يضعها غيره من الناس موضع الجد والقداسة .

وها هنا شاعر ينتمي أبوه إلى الروم وتنتمي أمه إلى الفرس ويدين هو بدين العرب وينتسب في ولائه إلى أبناء النبي العربي ويتقاسم ولاءه عدوان لدودان من العباسيين

والطالبيين فأين تكون العصبية وأين تكون المطاعن والمثالب ؟ ثم أين يكون التصديق الأعمى وأين يكون التكذيب الأعمى ؟ لن يسعه هو إذا اشتجرت مفاخر الروم والفرس والعرب والطالبيين والعباسيين واختصمت بينهم العصبيات والمنافسات إلا أن يبسم في كل صوب بسمة العطف والدعابة ، وأن يصبح على عبر قصد منه عظيم الاستعداد للتسامح والفكاهة : كالذي يختصم اليه بنوه ويدعي كلهم ما يدعي من فضله وعيوب اخوته ، وكل ما فيهم من فضل وعيب هو من لحمه ودمه ووشائج حبه وحنانه .

فقد اجتمع لابن الرومي اذن من عناصر السخر ما لم يجتمع لأحد في عصره : اجتمعت له دقة الملاحظة والاحساس وعمق الشعور بالمناقضات في نفسه وفي زمنه ، وسعة النظر إلى الفوارق وسماحة العطف التي تقابل مرارة العصبية . فهو ساخر لا يبارى في سخره ، وعابث مطبوع على العبث بكل شيء حتى صَحبه ونفسه . يستخدم السخر في الهجاء والمديح والمطايبة والمعاتبة ، ويعرض لك في متحفه الكبير تلك الصور الهزلية التي لا مثيل لها في شعر شاعر واحد من شعراء العالم كله ، ثم لا يأنف أن يريك بينها صورة له بل صوراً شتى لا يعوزها حظ من العناية وأمانة الصناعة .

فهذا الوجه الذي فصل للصلاة والتعبد في الفلاة وجه من هو ؟ انه وجه ابن الرومي فيما صوره لنا حيث يقول :

شغفت بالخرد الحسان وسا يصـ ـلح وجهي إلا لذى ورع
كي يعبد الله في الفلاة ولا يشـ ـهد فيها مشاهد الجمع !

ومن هذا الغائص الذي تعلم السباحة ليغوص لا ليسبح ، أو هذا الخائف المراقب الذي يمر بالماء في الكوز مر المجانب ؟ انه هو ابن الرومي أيضاً حيث يقول عن نفسه :

وكيف ؟ ولو ألقيت فيه وصخرة لوافيت منه القعر أول راسب
ولم أتعلم قط من ذي سباحة سوى الغوص والمضعوف غير مغالب
فأيسر اشفاقي من الماء انني أمر به في الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب فكيف بأمنيه على نفس راكب ؟

وابن الرومي أيضاً هو ذلك المنهوم الذي يشره إلى الطعام حتى في الأحلام ، ويأسف على أن يذاد عنه ولو في المنام :

ولقـد منعـت من المرافـق كلها ... حتـى منعـت مرافـق الأحلام
من ذاك انـي ما أرانـي طاعماً ... في النـوم أو متعرضـاً لطعام
الا رأيت من الشقـاء كأنني ... أثنـى وأكبـح دونـه بلجام !

وابن الرومي كذاك هو الشيخ الفاني الذي لا ينسيه هم الشيخوخة آن يتهكم بنفسه ويحمد الله على زيغان بصره ، لأنه بركة تجعل الشخص شخصين في نظره :

وبـورك طرفي فالشخـوص حياله ... قرائـن من أدنـى مدى وهـي فُرَّد

هذا مثاله من سخره بنفسه . أما سخره بغيره فله في أفانينه الكثيرة ومعانيه الغريبة ما يقوم بديوان كامل ، وبراعته فيه طبقة لا تعلوها طبقة في نوعها وينـدر أن يدانيها فحـول الساخرين في المشرق والمغرب ، فله في أحدب كان يضايقه ويترصد له أمام داره ليتطير منه :

قصرت أخادعـه وطـال قذاله ... فكأنـه متـربص أن يصفعا
وكأنمـا صفعـت قفـاه مرة ... وأحس ثانية لهـا ، فتجمعا

وهي براعة لا نظير لها في وصف الشكل والحركة ولا في تضمينهما هيئة السخر التي عمل فيها الشاعر عمله المركب ليتم فيها نصيب العين والضحك والخيال . فصورة الرجل وهو يتهيأ لأن يصفع ثم يتجمع ليتقى الصفعة الثانية هي صورة الأحدب بنصها وفصها لا يعوزها الاتقان الحسي ولا الحركة المهينة ولا الهيئة الزرية ولا التأمل الطويل في ضم أجزاء الصورة بعضها إلى بعض حتى يتفق التشبيه هذا الاتفاق .

وله في معلم صبيان مغن :

أبـو سليمان لا ترضى طريقته ... لا في غنـاء ولا تعليم صبيان
له إذا جاوب الطنبـور محتفلا ... ضرب بمصر وصـوت في خراسان
عواء كلـب على أوتـار مندفة ... في قبـح قرد وفي استكبـار هامان
وتحسـب العـين فكّيه إذا اختلفا ... عنـد التنغـم فكّي بغـل طحان

وله في جحظة وكان مغنياً جاحظ العينين :

تخالـه أبـداً من قبـح منظره ... مجاذبـاً وتـراً[1] أو بالعـاً حجرا

(١) وتر القوس لا وتر العود .

كأنــه ضفــدع في لجــة هرمٌ　　إذا شدا تغماً أو كرر النظرا

وله فيه :

نبئــت جحظــة يستعـــبر جحوظه　　من فيل شطرنـــج ، ومـــن سرطان
وارحمتــا لمنـــادميه تحملوا　　ألـــم العيون للـــذة الآذان

وله في مغن :

إنـــك لو تسمـــع ألحانه　　تلك اللواتـــي ليس يعدوها
لخلـــت من داخـــل حلقومه　　موسوســـاً يخنــق معتوهاً[٢]

وله في مغنية :

تضغـط الصـوتَ الـذي تشـدو به　　غصــةٌ في حلقهــا معترضة
فاذا غنـــت بدا في « جيدها »　　كل عرق مثـــل بيت الأرضة

وله في مغنية أخرى :

صوتهـــا بالقلـــوب غــير رفيق　　بل له بالقلـــوب عنف وبطش
فاذا رققتـــه بالجهـــد منها　　خلـــت في حلقهـــا شعـــيراً يجش

وله في صاحب لحية :

لو غاص في الماء بهـــا غوصة　　صاد بهـــا حيتانـــه أجمعا
أو قابـــل الـــريح بهـــا مرة　　لم ينبعـــث فى خطـــوه أصبعا

وله في أبي حفص :

ان أبـــا حفص وعثنونه　　كلاهما أصبـــح لي ناصبا
قد اغـــريا بي يهجوانـــي معا　　وحـــدي وكان الأكثـــر الغالبا
إن كان كفـــؤاً لي في زعمه　　فليعتـــزل لحيتـــه جانبا ؟!

وله في رجل له منظر ولا أدب عنده :

طولَ وعـــرض بلا عقـــل ولا أدب　　فليس يحســـن الا وهـــو مصلوب

---

(٢) البيتان غير موجودين في الديوان المخطوط .

وله في أكول مضّاغة :

بعض أضراسه يكادم بعضاً فهي مسنونة بغير سنون
لا دؤوبٌ إلا دؤب رحاها أودؤوب الرحى التي للمنون
لا تعطل رحاك يا ابن سليما ن فليس الثواب فيها بدون
قسماً لو وقفتها للمساكيـ ـن لما مسهم غلاء الطحين
ما ظننت الانسان يجتر حتى كنت ذاك الانسان عين اليقين

وله في قصير أعور أصلع :

أقصر وعورٌ وصلع في واحد
شواهد مقبولة ناهيك من شواهد
تنبئنا عن رجل مستعمل المقافد
أقمأه القفد فاضـ ـحى قائما كقاعد

وله في قصير :

على أنه جعد البنان دحيدحٌ إذا ما مشى مستعجلا قيل : يدرج

رله فيمن هجاه :

رقادك لا تسهر لي الليل ضلةً ولا تتجشم فيَّ حوك القصائد
أبي وأبوك الشيخ آدم تلتقي مناسبُنا في منسب منه واحد
فلا تهجني حسبي من الذم أنني وإياك ضمتنا ولادة والد

وله في بخيل :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفّسَ من منخر واحد

وله في أصلع :

فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله

وله من أمثال ذلك ما يطول بنا احصاؤه ولا نرى هنا فائدة من الاسهاب في تكرار شواهده

وأبرع ما يكون سخره كما ترى إذا هو شبه لك صورة محسوسة أو خلق لك من خياله صورة معنوية ، فانه يحكم التشبيه ويحكم خلق الصورة فيُضحك بالمقابلة بين الشيء وشبيهه ويُضحك بما تتخيله من المنظر الغريب حين يعمد إلى خلق الشكول المعنوية ، كصورة الأحدب مثلا أو كصورة الرجل « المستعمل المقافد » . . . الذي يضرب في كل مكان صالح منه للضرب ، فيصلع لقفده في موضع شعره ويقصر لكثرة الطرق على رأسه ويعور لضربه على عينه ، وحركة الأبيات نفسها حين تتلى على عجل كحركة الصفعات ما تني نازلة صاعدة كما أنبأ عنها في تلك الأبيات .

أو كصورة الرجل الذي لا نفع له إلا أن يصلب لأنه بذاك يظهر أحسنُ ما فيه وهو عرضه. وطوله ، أو كصورة المغني الذي تتراءى عيناه الجاحظتان كعيني الضفدع « الهرم » في لجة يكرر النظر ويغني وفمه في الماء !

وكان فضلاً عن هذا لا تفوته من الأغراض فائتة في اللفظ ولا في المعنى ولا في التصوير : ألقِ بالك مثلا الى كلمة « جيدها » في هذا البيت :

فاذا غنت بدا في جيدها   كل عرق مثل بيت الارضة

فلو أن ساحراً غير مطبوع على السخر أراد هذا المعنى لاختار كلمة غير « جيدها » للمبالغة في التقبيح والتشويه ، ولكنك تنظر فترى أصلح الكلمات في هذا الموضع هي الكلمة التي توهمك الحسن وتحضر لك المناقضة التامة بين الوهم والصورة المشهودة ، فيستوي طرفا النكتة ويبدو لنا الفرق المضحك بين الجيد وبيت الارضة ، كما نضحك من الفرق الذي يبدو لنا إذا وقف القزم الى جانب العملاق .

وتأمل كلمة « طحان » في هذا البيت .

وتحسب العين فكيه إذا اختلفا   عند التنغم فكّي بغل طحان

فليس تمام القافية وحدها بهذه الكلمة بل الصورة المعنوية هي التي تمت بها أحسن تمام . لأن السخر لن يُستوفى في هذا التشبيه إلا إذا تمثلنا في موقف الغناء الممتع بغلاً من بغال الطحانين العجاف الجياع يتنغم ويستكبر بأنغامه استكبار هامان ، ولو كان بغلاً من البغال الفارهة المترفة لنقصت الصورة وفترت فيها قوة السخر وقوة التشبيه . وقس على ذلك « الشيخ » آدم ، أو قس عليه سائر الأبيات والصور .

وسيأتي تفصيل الكلام على ملكة التصوير في شعره عند الكلام على عبقريته والصلة بين فنه وبين الطبيعة والحياة .

* * *

وليس يكفي ان نقول إن ابن الرومي كان ساخراً بارع التصوير لنعلم كل شيء نحب أن نعلمه عن سخره . فان السخر يتنوع حتى لا ينفق في الباعث الذي يوحيه ولا في العبارة التي تؤديه . وأدباء « النفسيين » يقسمونه الى التهكم والعبث والمجانة والفكاهة ، ويجعلون كل قسم منها جميعاً نوعاً من « الضحك » قائماً بمفرده مستقلا بصبغته وغرضه . والأقرب الى فهم الموضوع عندنا أن نوحد الضحك ونجعل الاختلاف في الخلائق والحالات النفسية . فنفرق بين ضحك الخليقة الكريمة وضحك الخليقة اللئيمة ، وبين الضحك في حالة الرضى والعطف والضحك في حالة الغضب والجفاء ، ثم نفرق بين العبث في الحالين المختلفين من النفس الواحدة : فعبث النبيل الأريحي غير عبث الوضيع الخبيث ، وتهكم الصارم الأبي غيرتهكم الرخو الذليل . وفي الدنيا من التهكم بمقدار ما فيها من المتهكمين ، نعني بذلك أن التهكم ليس « نوعاً » واحداً من الضحك ولا شكلاً واحداً من الملكات ، ولكنه أنواع تختلف باختلاف الحالات والخلائق والأساليب . فخير لنا أن نرجع الى اختلاف هذه الحالات من أن نجمع التهكم كله في باب واحد وصبغة واحدة ، وهو ليس كذاك .

وما من ضاحك إلا وهو قابلٌ لجميع هذه الحالات في مختلف الأطوار ، فهو متهكم حيناً وعابث حيناً ومازجٌ بين هذين الشعورين في بعض الأحيان ، كما يتفق كثيرا أن يمتزج الشعوران المتغايران .

فاذا قلنا إن ابن الرومي ساخر فقد بقي أن نعرف نوع السخر لنعرف نوع الطبيعة التي توحيه ، فان المرء ـ كما تقدم ـ يكون ساخراً وهو طيب سليم الطوية وساخراً وهو خبيث مظلم السريرة . فمن أي فئات الساخرين كان ابن الرومي وأي خليقة من الخلائق كانت تهيمن على سخره ؟ أنسلكه في الطيبين أو في الخبثاء وفي الخلائق الشفافة القويمة أو في الخلائق الكدرة العوجاء ؟

إننا نسأل هذا السؤال ونبتسم .

نبتسم كما قد نرى الطفل اللعوب يعدو وراء مضحكة من المضاحك أو فرجة من الفُرَج ثم يسألنا السائل في جد ورزانة : ما هي العداوة التي يكنها ذلك الطفل لمن يعدو خلفهم

ويلهو بمعابثتهم . . ! فأي عداوة وأي صداقة ؟ وأي خباثة وأي طيبة ؟ هنا مضحكة وكفى . . ! ولن يفهم الطفل في منطقه إلا أنه يستطيع هنا أن يضحك ، فلم لا يضحك ؟ إي نعم لم لا والضحك لذيذ والاغراء به حاضر ؟!

فابن الرومي هو ذلك الطفل في سخره وضحكه وتهكمه وهجائه ، لسنا نفهمه حق فهمه إلا إذا تمثلناه أبداً في جدة الاحساس واخضراره على هيئة الطفولة النامية التي لا تجف ولا تشيخ وإن جفت المفاصل وشاخت الأوصال ، وستمر بنا عقد كثيرة من عاداته ومواهبه لا تُدرَك ولا تفسر إلا على اعتبار واحد وهو أنه طفل كبير لا يفرغ من الطفولة طول حياته . فسل ما شئت عنه ولكن سؤ الك عن الطفولة النامية بمزيتها ونقصها وطيبها وخبثها ورضاها وغضبها ، وانتظر منه سوء الأدب إذا غضب أو احتدم غيظه واختنق صدره ولكن لا تنس أن الأدب السيء خلة غير خلة الطبيعة السيئة ، وان ليس الكظم والسكوت علامة على الكرم والصفح الجميل في كل حال .

وأجهل الناس بالطبائع الانسانية من يصف امرأ كابن الرومي بالحسد والضغينة لأنه كان يألم ويتحسر لحرمانه ويعجب لحظوة الجهلاء بالخير دونه ، إذ ليس الحسد أن يألم الانسان لأنه محروممزؤود عن النعم التي يشتهيها ويتذوقها ويعرف معنى المتعة بها ، ولا أن يرى ـ مصيباً أو مخطئاً في رأيه ـ أنه أجدر وأليق بتلك النعم ممن لا يحسبهم انداده في الفضل والذكاء وأقرانه في المناقب والمآثر ، كلا ! ليس هذا هو الحسد المذموم المعدود في رديء الصفات ، وانما الحسد المذموم هو خلق كريه يبتلي به المرء فلا يطيق النعمة عند غيره وان كانت عنده ولا يستريح إلى شعور الناس بالسعادة لانقطاع ما بينه وبينهم من رحم العطف والمشاركة في الأفراح والآلام .

فالحسد نضوب في العاطفة ، وابن الرومي أبعد انسان من نضوب العاطفة ، وتحجر في الشعور وليس للتحجر في خلائق ابن الرومي وأمثاله مكان ، والحاسد لا يجعل الخير مقروناً بالفضل والنعمة مرهونة بالمناقب ، ولا يطلب المتعة والجاه لأنه أقدر وأجدر ممن ينعمون بها في الدنيا بغير حق ولا معرفة ، إذ التفكير على هذا النمط غريب عن جبلة الحاسد الذي إنما يريد الخير لأنه يريده وكفى ! ثم لا يكلف عقله أن يدلي له بحجة في طلبه غير حجة الأثرة الحيوانية التي لا تسأله سبباً والأنانية الصماء التي لا تعقل ولا توازن ولا تتدبر ، ويسوءه أن ينعم الناس لأنه يرى النعمة وقفاً عليه ويرى أن كل ما سر غيره مسلوب منه ، وليكن ذلك السرور علماً وهو لا ينافس العلماء أو صلاحاً وهو لا يتشبه

باهل الصلاح أو شرفا وهو لا يطمح الى الشرف ، فحسبه أنه سرور في عرف أحد من الناس وحظٌ ينعم به غيره ويتملاّه ليكون ذلك السرور ثأراً عنده ويكون تنغيص المسرور به من همه وأربه . وهذا هو الحسد الذي ليس في طبيعة ابن الرومي ذرة منه ، بل ليس ما عنده إلا نقيضه وضده .

فقد كانت ألذُّ متعهِ التي وصفها تلك المتع التي غنمها مع صحبه وسعد بها كما سعد غيره ، وربما كان لا يلح ذلك الالحاح في طلب السمك الذي يحبه إلا ليسرع به إلى صديق يدعوه اليه ويشركه فيه :

متى عهدك بالكرخ وبالشبوط والفرخ
وبالبكر التي لم تشق بالنار ولا الطبخ

وقد كان شعوره بحرمان غيره كشعوره بحرمان نفسه ولو لم تكن بينه وبين المحروم صداقة ولا علاقة . فكان يرثي للحمال المكدود إذا بصر به فيصف حاله وصف مشفق عليه يألم لجميع ألمه :

رأيت حمالا مبين العمى يعثر في الأكم وفي الوهدِ
محتملا ثقلاً على رأسه تضعف عنه قوة الجلد
بين جمالات وأشباهها من بشر ناموا عن المجد
وكلهم يصدمه عامداً أو تائه اللب بلا عمد
والبائس المسكين مستسلم أذل للمكروه من عبد
وما اشتهى ذاك ولكنه فر من اللؤم إلى الجهد
فرَّ إلى الحمل على ضعفه من كلحات المكثر الوغد

وما كان بينه وبين ذلك الحمال من صلة حركت فيه ذلك الاشفاق عليه والعجب من صبره إلا أنه كان يؤثر مقاساة الجهد على مقاساة اللؤم ، وبرح العناء على التكسب بمدح البخلاء ، ويريح نفسه مما يعانيه الشاعر ويفتقر إليه من استجداء النوال وذل السؤال ، وهي صلة لا تتحرك بها العاطفة إلا في نفس مجبولة على العطف والتأسي بأحوال الكبير والصغير والرفيع والوضيع .

« وكان هو وصديق له متصلين برجل جليل من حاشية السلطان فكان المتصل به يسرف على صديقه في الاستخفاف به » فقال ابن الرومي يلوم ذلك الرجل الجليل على استخفافه بصديقه :

أحـــب أن تشتمني ... بوزن ما تشتمه
أو توقــع الاكرامَ لي ... وللــذى أكرمه
فان ما تفعله ... بحضرتــي يحشمه
. . . .
وانــي يظلمني ... كل امــرىء يظلمه

ولو رجلٌ غيرُ ابن الرومي في موضعه كان بنفسه حسد أو دخيلـة سوء لسره أن يخص بالحفـاوة دون زميلـه والتمس الزلفـى عنـد ذلك الرجـل الجليل بموافقتـه على مزاحـه واستخفافه لكنه كان في الواقع كأبرأ الناس من حسد وأعظمهم سروراً بعطف صديق ، بل كان الصديق مقدماً عنده على الحبيب :

عرج على ذكر الصد ... يق وعــدٌ عن ذكر الحبيب
كم مكثـر لي مخبث ... ومقــل قول لِي مطيب

لان العطف حاجة من حاجات قلبه وضرورة من ضروراته ووقاءٌ له مما كان يرهقـه ويشتد على صبره . فكان عطف الصديق يحيي نفسه ويخلقه خلقاً جديداً كما قال :

خليل اظــل اذا زارني ... كأنّــي انشــا خلفــا جديدا
أرانــي وان كثــر المؤنســ ... ـون ما غاب عنــي وحيداً فريدا

فما كان الرجل حاسداً ولا شبيهاً بالحاسد ، وما كان الا انساناً كسائر الناس يحب الخير لنفسه ولا يكرهه لغيره ، بل ما كان الا ذلك الطفل الكبير الذي كأنه في حدة طمعه وقلة حيلته وقد فتح عينيه وفغر فاه الى قطعة الحلوى في يد غيره فبلع ريقـه وصـاح في براءة وصراحة لا تعرفهما طبائع الحاسدين :

لا تلومــن حاســداً . ألــم النفـ ... ـس من البخس يا أخــيّ شديد !

وما حيلة المسكين في شهوة قلبه وفي قلة حيلته وحوله ؟ وكيف الصدوف عن النعمة وما هو بزاهد فيها ولا بجاهل لقدرها ولا بغافل عن لذاتها ؟ أهو معصوم من الفتنة كما قد حرم نصيبه من النعمة ؟ لا ! بل ان فتنته لأشد وأضرى وانه بالغبن لأحس وأدرى :

يا ليت أهــل العقــل اذ حرموا ... عصمــوا من الشهــوات والفتن
لكنهــم حرمــوا ومــا عصموا ... فقلوبهــم مرضى من الاحن
وهـــمُ أحَس على بليتهم ... من غيرهــم بمــرارة الغبن

فمبلغ القول في حسده انه كان شديد الرغبة في متع الحياة قليل الحيلة في احتجانها ، فاذا سميت هذا حسداً فقل ان ابن الرومي حاسد وقل ان الطفل الذي يتطلع الى الحلوى في يد رفيقه الصغير حاسد . وأضف الى الحسد بهذه التسمية معنى جديداً لم يكن من معاني هذا الخلق البغيض الذميم .

***

ويقال في حقده ما يقال في حسده . فقد كان ساخطاً ولم يكن حاقداً ، والبون بعيد بين السخط والحقد . وان التبست أعراض هذين الخلقين على طلاب الظواهر .

فهما خلقان متباينان وقد يكونان في بعض الأحيان متناقضين ، فيسخط الانسان بل يدوم سخطه وليس في قلبه من الحقد أثر ، وقد تكون كثرة سخطه لكثرة استجابته للمؤثرات الجديدة الطارئة التي تتعاقب على حسه ، أي لقلة حقده وقلة اصراره على البغض القديم .

والحقد توأم الحسد في خلة الأثرة الحيوانية والانانية الصماء ، فلهذه الخلة يستكبر الحاقد الاساءة الصغيرة الى نفسه كما يستكثر الحاسد النعمة القليلة على غيره ، والسبب في الحالتين واحد . وهو أنه لغلوه في حب نفسه واستغراقه في الأثرة الحيوانية لا يريد أن يساء هو ولا ان يُسر غيره ، وليس يعنيه أن يُساء بالحق أو بغير الحق وان يكون عادياً في هذه الاساءة أو معدواً عليه . فان ذلك كله من وراء تفكيره وحسابه ، ولا فرق عنده بين أن يظلمه الناس في الاساءة اليه أو ينصفوه وبين أن يسيئوا اليه بالعدوان عليه او بصده هو عن العدوان ، فمن الحاقدين من يحقد على الناس لأنهم أبوا عليه ان يضرهم ليستفيد من ضررهم ووقفوا بينه وبين مصلحته ولو كان وقوفهم هذا من حقهم ولانقاذ حياتهم !! وهو لا يفكر بالعدل ولا يكره العدوان لأنه جور وعسف ولا يعرف من الكراهة الا أن يكره ما يسوءه كائناً ما كان وبالغاً ما بلغ فيه العذر والاضطرار ، وهذا غير الشعور الذي يشعر به المرء حين يعتدى عليه بغير الحق فيسوءه ذلك ثم يتوالى العدوان فيتوالى الاستياء ويطول السخط والامتعاض ، فان من النبل أن يغضب المرء للعدوان وقع به أو وقع بغيره فان لم يرتفع بغضب العدوان إلى مقام النبل فهو لا يهبط بصاحبه إلى ما دون منزلة العذر المعقول والطبع المستقيم .

من هذا القبيل كان شعور ابن الرومي حين توالت عليه أسباب السخط فتوالى سخطه وغضبه وتواصلت شكواه وضجره ، فكل سبب كان يثيره فهو سبب « أخضر » لا مشابهة

فيه لأسباب الحقد التي يطول ثواؤ ها بالضمير حتى تفسد وتتعفن أو تيبس وتتحجر .

وما كان لطبيعة مهتاجة كطبيعة ابن الرومي طاقة بضرب من الاحساس غير ذلك الذي نسميه « بالأخضر » لجدته وحرارة نبضه وسرعة أثره وسرعة زواله ، وأنىَّ لمثل هذه الطبيعة إصرار الحقد وتدبيره وثباته على ما فيه بين تقلب الحوادث وتجدد المسرات والمصائب ؟ كل ما تطيقه هذه الطبيعة من الشعور هو ذلك الشعور الذي تحضرها أسبابه وتلح عليها مؤ ثراته ، فاذا كانت الأسباب ما تزال مؤلمة مغضبة فالألم دائم والغضب لازم والناس يقولون حينئذ انه الحقد وانه الضغينة وإنه خلق ذميم وطبيعة رديئة ، لأن الحقد هو الاسم الذي يطلقه العامة على الاستياء إذا دام واتصل وتوالت موارده فتوالى وجوده ، ولأنهم ربما بلغوا من بلادة الأنانية وقلة الاحساس بمعنى العدل أن يسيئوا إلى المستضعف المخذول ولا يتوقعوا منه الألم والاستياء . . . . ولِمَ لا ؟ ألا يسرهم أن يعبثوا به ويتماجنوا عليه ؟ فما باله إذن لا يُسر بما به يُسرون ولا يضحك هو كما هم يضحكون ؟!

فكل ما كانت تطيقه طبيعة ابن الرومي من الشعور هو ذلك الذي تحضرها أسبابه وتلح عليها مؤ ثراته ، فاذا غابت الأسباب وفترت المؤ ثرات نسي شعوره في لمحة عين وانقلب إلى نقيضه ، وفي قصته مع الأخفش عبرة لمن شاء أن يعرف ما وراء سخطه من الطيب والغفران والمودة ، فقد صمد الأخفش ما صمد من الزمن يعبث به ويثقل عليه في العبث حتى منعه أن يبرح بيته ويتصرف لمعاشه ، فعاتبه ابن الرومي فلم يرعو وأنذره فلم يحفل وقال له يتوعده :

لا يأمنن السفيه بادرتي ... فانني عارضٌ لمن عرضا
عندي له السوط إن تلوم في السـ ... ـير وعندي اللجام إن ركضا

وما توعده إلا بعد لجاج ومحال وصلح واعتذار ، فلما لم ينفعه ذلك هجاه وأقذع في هجائه كعادة أهل الزمان في كل هجاء ، فعاد الأخفش اليه يسترضيه ويستعطفه فرضي وعطف ، وأسرع فنسي تثقيله ونسي الهجاء وأقبل يقرظه ويطريه ويبالغ في تقريظه وإطرائه غير تارك لنفسه بقيةً لوتر قديم ولا لوتر مستأنف :

ذكر الأخفش القديم فقلنا ... إن للأخفش الحديث لفضلا
وإذا ما حكمت والروم أهلي ... في كلام معرب كنت عدلا
أنا بين الخصوم فيه غريب ... لا أرى الزور للمحاباة أهلا
ومتى قلت باطلاً لم القَّب ... فيلسوفاً ولم أسوم هرقلا

بدأ النحــو ناشئـاً فغذاه أحــدث الأخفشــين فانقاد رسلا

. . . .

يا ظماء إلى الصــواب ردوه يسقكم بالصواب علا ونهلا

هو بحر من البحــور فرات ليس ملحاً ، وليس حاشـاه ضحلا

وأطنب في ذلك حتى دعاه مقومه وخدينه :

قل له يا مقومــي وسميي وكَنِيــي ومــن غدا لي شكلا
قد اردت الاطنــاب فيك فقالت ليَ غاياتــك البعيدة مهلا
ورأيت اليســير يكفــي من الحـ ـلي إذا النصــل كان مثلك نصلا

إلا أن الأخفش لم يصفُ هذا الصفاء ولم يكن إلا عابثاً في صلحه كما كان عابثاً في خصامه ، فعاد إلى شنشنته معه وعاد ابن الرومي إلى سلاحه الذي نبـذه حتـى حسـب صاحبه انه حطمه ، فقال يذكره :

حذار عُرامــي أو نَظــارِ فانما يظلكم قطــع من الرجــز مر سل
ولا تحســبن الصلــح أنصــل آلتي ولا أننــي في هدنــة السلــم أغفل
ولكننــي مستجمــع الحلــم مغبر أفــوّق نبلي تارة وأنصّل
فان هاجـت الهيجـاء أو عاد عودها على بدئهــا لم يُلــق منــي أعزل

وليس يُغر الحاقد هذا الغرور ولا الناس يصنعون هذا بمن يعلمون حقده ويحذرون منه تصميم نيته .

وانقلب ابن عمار على ابن الرومي وابنُ الرومي كما عرفت من أخباره هو الذي أعانه بما في وسعه وقرّبه من الرؤ ساء أصحابه وجعل له سبباً إلى رزقه ، فجزاه انقلاباً بانقـلاب ومسبة بمسبة ، ولم يفعل ذلك إلا بعد أن تحيّل جهده على عطفه واستلال حقده وحسده فلم يفلح ، وكتب إليه يستعيده إلى سالف مودته :

أيها الحاسـدي على صحبتي العسـ ـر وذمــي الزمــان والاخوانا
حســداً هاجــه على ثلــب شعري ولقائــي معبّســاً غضبانا
وانتقــاصي مع العــدو وقــد كا ن يرى لي نقــائصي رجحانا
ليت شعــري ماذا حســدت عليه أيهــا الظــالمي اخائــي عيانا

أعلى أنني ظمئت وأضحى كلٌّ من كان صاديا ريانا
أم على انني أمشي حسيراً وأرى الناس كلهم ركبانا
أم على أنني ثكلت شقيقي وعدمت الثراء والأوطانا
عد كريماً إلى كريم كما كنـ ـت وإلا لقيتَ مني هوانا
لا عقاباً بما تقول ولكن بجفاء أردفته هجرانا
وتيقن أني مقيم على العهـ ـد حياتي ، وخذ بذاك ضمانا
لا أعد الذنوب منك ذنوباً بل هدايا مقبولة وحنانا

فلم يجدِ ذلك في استعطاف ابن عمار ولم يثنه عن عدائه وثلبه . . . ثم تقرأ في ديوان ابن الرومي فترى فيه قصيدة قالها قبل موته بخمسة أيام أو ستة يمدح الجراح على لسان ابن عمار هذا لتيسير منفعة كان يرجوها لديه .

ونظن أننا في غنية عن سرد القصص والأمثلة على عطف ابن الرومي وغرارته وطيب قلبه ، فقد كان العطف كما أسلفنا حاجة من حاجات طبعه وضرورة من ضرورات حياته ، وآيةُ ذلك بينة في شعره كله وفي تفجعه على أحبابه وشدة فقده لأهله ، وقناعته منهم باليسير من المودة يأخذها حيث وجدها ويأسى عليها حيث لا يجدها ، وهو القائل وقد صدق :

وإني لبرٌّ بالأقارب واصل على حسد في بعضهم وعلى بغض

***

ولقد آن أن ننبذ تلك الطريقة العتيقة التي كان بعض الأقدمين يعتمدونها في نقد الأخلاق وتسمية أسمائها والمقابلة بين المتشابه والمتخالف منها ، فانهم تعودوا أن يأخذوا فيها بالأعراض دون الجواهر وبالظواهر دون المخابر ، وكانوا ينظرون الى السمات البادية ولا ينظرون الى ما وراءها من بواعثها . . . فالغضب الدائم والحقد سمة واحدة فهما اذن خلق واحد ! ومتى كان الشاعر كثير الذم والانحاء على الناس فهذه حجة جديدة تضاف إلى سمات وجهه ، فلا جدال اذن في حقده ولا شك في قبح سريرته وجنوحه الى الشر دون الخير والعداوة دون المودة . . . فاذا اتفق مع هذا انه شهد على نفسه بالحقد فقد بطل الجدال وحقت عليه الكلمة ونفذ فيه القضاء . ألا تراه ناقماً مغتماً ؟ ثم ألا تراه هاجياً لا يكف عن الذم والشتيمة ؟ ثم ألا تراه يقر بذنبه ويصارح الناس بدفين بغضه ؟ فماذا بقى بعد من أسباب الحكم غير أن يوصم وأن يدان ؟!

لا يا قضاة . ! بقى من أسباب الحكم كل شيء ولم يحصل لدينا بعد هذا كله سبب واحد يجوز لنا أن نعتمد عليه ! بقي البحث في أسباب نقمته وذمه وشهادته على نفسه ، فان هذه هي العناصر التي تتألف منها الأخلاق وليست ملامح الغضب ولا كلمات الشفاه . فاذا نحن عرفناها فذاك ، أما إذا ظلت مجهولة فقد جهلنا كل سر ولم نعرف إلا ألوان الطلاء .

علامَ تدل النقمة ؟

ثم علامَ يدل الاعتراف ؟

إن الانسان لينقم وهو من أشرف الناس في نقمته ، وانه ليرضى وهو من أخبث الناس في رضاه ، وإن اعتراف المعترف لأحجى أن يبرئه من رذيلة المواربة والنفاق ، وهي رذيلة لا تخلو منها طبيعة الحاسد أو طبيعة الحقود .

ويلوح لنا ان نقّاد الأخلاق على هذا النمط لا يختلفون كثيراً من قضاة الزمن الغابر الذين كانوا يضربون « المتهم » ليقر بالذنب ثم يأخذونه بشهادته على نفسه . . . . فغاية الفرق بينهم أن نقادنا لا يضربون ولكنهم كذلك لا يسألون عن المنقود المسوق اليهم هل هو مضروب أو غير مضروب ؟ ونخالهم يغتبطون بأن يساق اليهم مضروباً معترفاً ليغنيهم عن البحث ويعفيهم من مؤ نة السؤ ال والجواب !

وشهادة الانسان على نفسه بالشر كشهادته لها بالخير كلتاهما لا قيمة لها ما لم يكن لهما مصداق من الطبيعة والواقع . فابن الرومي قد شهد على نفسه بالحقد فقال وهو يتحدث بأخلاقه :

شكري عتيد وكذاك حقدي ... للخير والشر مكان عندي

وقال :

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى ... وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذي إساءة ... فثم ترى شكراً على حسن القرض
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع ... من البذر فيها فهي ناهيك من أرض
ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها ... بل العيب أن تَدّان ديناً فلا تقضي

فهذا اعتراف صحيح يتلهف عليه القضاة : قضاة المحكمة العتيقة ، ولكنه بعدُ ليس بالمهم في البحث عن أخلاق الرجل لأن وراءه سراً هو الأهم في هذا الصدد وهو الحقيق بأن يدار البحث اليه .

فيجب أن نعلم أولا لماذا شهد ابن الرومي على نفسه بالحقد هذه الشهادة ، فان الحقود لا يشهد على نفسه بحقده والمطبوع على الصراحة لا يكون مطبوعاً على الحفد . وصراحة ابن الرومي هنا تلفت النظر إلى أمر شاذ في هذا « الاعتراف » وتدعونا إلى السؤ ال عن سره ، وسره ليس ببعيد .

فالرجل كان يدعي الحقد ليخيف الذين يستوطئون جانبه ويستسهلون إرضاءه بعد اغضابه ، فما كان يذكر الحقد الا وهو ينذر ويتوعد من طرف خفي أو ظاهر ، ويخير الناس بين شكره وحقده ليغنموا شكره ويجتنبوا حقده . فهذه الدعوى عنده كتلك السحنة البغيضة التي ينتحلها بعض الحيوان للاخافة والتهويل حين لا يكون مخيفاً ولا هائلاً في الحقيقة . . . وهو محتاج إلى دعواه حاجة الحيوان الى سحنته البغيضة في معترك الحياة .

وسبب آخرُ لاعترافه بالحقد أنه كان يتفلسف ويدرس الجدل ويتعاطى صناعة البرهان ويحب أن يمتحن قوته في المنطق والفلسفة بتقبيح الحسن وتحسين القبيح حسبما يبدو له من وجهيه ومن تنازع الأقوال فيه ، وتلك سنة كانت معروفة في ذلك العصر يقيسون بها البلاغة ويقيسون بها قوة البرهان . فمدح ابن الرومي الحقد وذمه ولم يقصر بحجة الذم عن حجة المديح ، وهو القائل في ذم الحقد والرد على مادحيه :

يا مادح الحقد محتالاً له شبها	لقد سلكت اليها مسلكاً وعثا
لن يقلب العيب زيناً من يزيّنه	حتى يرد كبيراً عاسياً حدثا
قد أبرم الله أسباب الأمور معاً	فلن ترى سبباً منهن منتكثاً
يا دافن الحقد في ضعفي جوانحه	ساء الدفين الذي أمست له جدثا
الحقد داء دويٌ لا دواء له	يَرى الصدور اذا ما جمره حرثا
فاستشفِ منه بصفح أو معاتبة	فانما يُبرىء المصدور ما نفثا
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت	ولا تكن لصغير الأمر مكترثا
والعفو أقرب للتقوى وانْ جرمٌ	من مجرم جرح الألباب أوفرثا[1]
يكفيك في العفو أن الله قرّظه	وحياً إلى خير من صلّى ومن بُعثا
شهدتَ أنك لو أذنبتَ ساءك ان	تلقى أخاك حقوداً صدره شرثا[2]

(١) فرث شق وفرث الرجل ضرب كبده وهو حي .
(٢) الشرث من السيوف والاسنة المحدد وشرث الرجل غلظ ظهر كفه .

نعم وسرك أن ينسى الذنوب معاً — وان تصادف منه جانباً دمثا
إنـي إذا خلط الأقوام صالحهم — بسيء الفعل ، جداً كان أو عبثا
جعلت قلبي كطرق السبك جسد — يستخلص الفضة البيضاء لا الخبثا
ولست أجعله كالحوض أمزجه — بحفظ ما طاب من ماء وما خبثا

وهو القائل في هذا المعنى :

يا ضارب المثل المزخرف مطرياً — للحقد لم تقدح بزند وار
أصبحت خصم الحق تهدم ما بنى — والحق محتج ، وأنت تماري
أطريتَ غشك لا سمينك ضلةً — واخترت من خلقَيك غير خيار
شبهت نفسك والأولى يولونها — آلاءهم بالأرض والعمار
ورأيت حفظك ما أتوا من صالح — أو سيء - كرماً وعتق نجار
وزعمت فيك طبيعة أرضية — يا سابق التقرير بالاقرار
ولقد صدقت وما كذبت فانه — لا يدفع المعروف بالانكار
لكنَّ هاتيك الطبيعة في الفتى — مما يلظ عليه بالأستار
ولصمته عن ذكرها أولى به — من عدها في الفخر يوم فخار
فينا وفيك طبيعة أرضية — تهوي بنا أبداً لشر قرار
هبطت بآدم قبلنا وبزوجه — من جنة الفردوس أفضل دار
فتعوضا الدنيا الدنية كاسمها — من تلكم الجنات والأنهار
بئست لعمر الله تلك طبيعة — حرمت أبانا قرب أكرم جار
واستأسرت ضَعْفَى بنيه بعدها — فَهُمُ لها أسرى بغير أسار
لكنها مأسورة مقسورة — مقهورةُ السلطان في الأحرار
فجسومهم من أجلها تهوي بهم — ونفوسهم تسمو سمو النار

. . . . — . . . .

عرفوا لروح الله فيهم فضل ما — قد اثرت من صالح الآثار
فتنزهوا وتعظموا وتكرموا — عن لؤم طبع الطين والأحجار،
نزعوا إلى النَّجْر الذي منه أتت — أرواحهم ، وسموا عن الأغوار

فابن الرومي القائل هذا هو ابن الرومي القائل ذاك . . . وكأننا بقضاة المحكمة العتيقة يتحفزون للادانة المبرمة ويبحثون بين أيديهم عن المجرم الذي دانوه فلا يجدون هنالك إلا

متفلسفاً يقلب القضية على وجهيها ، أو هراً مستضعفا يزأر لأنه خائف لا لأنه مخيف . . أو يعلمون أن الرجل قد يستجمع سمات الغضب الدائم ولهجته ويعترف على نفسه بحقده ولا يكون بعد ذلك على شيء من الحقد كثير ولا قليل .

وجميع أخلاق ابن الرومي تنتهي عند البحث فيها إلى مثل هذه النهاية ، فهو كما أسلفنا لا يعرف من الأخلاق إلا « الأخضر » الذي يجري فيه الماء لوقته ، أو هو لا يعرف من الأخلاق إلا ما يحضره سببه وتختلج في صدره دواعيه :

أيندم ويتوب عن المعاصي ؟

نعم ! وجبت التوبة والندم . إذ :

حتى متى نشترى دنيا بآخرة سفاهةً ، ونبيع الفوق بالدون
معللين بآمال تخادعنا وزخرف من غرور العيش موضون

أيلهو ويقصف ؟

نعم ! يلهو ويقصف ويقول لمن يتوب ويندم :

لا تخلط الحب بالنقوى فتعطفنا على المُقاسي عذابَ الهجر والبين
ولم نبع قط دنيانا بآخرة ومثلنا لا يبيع النقد بالدَّين

أيسكر بعد اقبال المشيب وادبار الشباب ؟

نعم :

فأعذرُ شراب المدامة شارب لتقصير أيام المشيب الأطاول

أو :

فالآن حين أجدّ الشيب يطلبني أبادر الشيب باللذات عجلانا

أم يقلع عن السكر بعد اقبال المشيب وإدبار الشباب ؟

قد يكون ذلك خيراً :

فدع شربها إذ أصبح الرأس مشرقاً محاذرةً أن يصبح القلب مظلما
ولا تَرِيثْك السن والله والنهى على الشيب والاسلام واللوم مقدما

أيشح ويحرص على ماله ؟

نعم ، فانه :

إذا لم يكن عندي سوى ما يكفّني ... فشحّي عليه مثل شحي على عرضي
لأني متى أتلفته احتجت حاجةً ... تُذيل مصون العرض في طلب القرض

أيجود ويسرف ؟

نعم ، و :

لا تحملنّ همـوم أيام على ... يوم لعلك أن تقصر عن غده

بل هو يسأل الله أن يقيه الشح ويلهمه الجود :

قني يا إلهي شح نفسي فانني ... أرى الجود لي حظاً وشيمتي البخل

وربما تعاورته الحالتان في لحظة واحدة ، فتراه حائر النفس بين الحرص والتوكل لا يطمئن إلى هذا حتى يثوب إلى ذاك :

وقضاء الآله احـوط للنا ... س من الأمهات والآباء
غير أن اليقين أضحى مريضاً ... مرضاً باطناً شديد الخفاء
ما وجدتُ امـرءاً يرى أنه يو ... قن إلا وفيه شوبُ امتراء
لو يصح اليقين ما رغب الرا ... غب إلا إلى مليك السماء
وعسيرٌ بلوغ هاتيك جداً ... تلك عليا مراتب الأنبياء

أو قد يدركه الحذر أو الأريحية فيحجم عن هجاء السلطان ويعلن سر احجامه كأنه مطالب بهذا الاعلان :

لا أقذع السلطان في أيامه ... خوفاً لسطوته ومر عقابه
وإذا الزمان أصابه بصروفه ... حاذرت رجعته ووشك مثابه
وأعد لؤماً أن أهم بعضه ... إذ فلّت الأيام من أنيابه

ذلك حين يساوره الخوف ويذكر الأريحية . فأما إذا ثارت بلابله واضطرمت لواعجه وملكه الغيظ فاجتاح حزمه وخوفه فهو أهجم هاجم على سلطان حديد نابٍ أو مفلوله ؟ وهو الجسور في هجائه على ما يخافه الجسور الذي لا يخاف .

فهو ابن ساعته وطوع الحاضر من احساسه ، و« النوبة الطارئة »هي المفتاح الذي يُفض به كل ما استغلق من أسرار نفسه على الجملة ، وما كان في نفسه من سر مغلق الا وجدته هو معنى منهوماً بالغوص عليه والكشف عنه لقارئي شعره !

معيشته :

عاش ابن الرومي حياته كلها في بغداد ، لا يفارقها قليلا حتى يعود سريعاً وقد نازعه اليها شوق وغلبه نحوها حنين ، وكانت بغداد يومئذ عاصمة الدنيا غير مدافع : فيها كل محاسن العمار الواسع وعيوبه وكل رفاهة العمار الواسع وشقائه . قصور تبلغ النفقة على بنائها وتأثيثها الوف الألوف ، ومتاجر يؤمها أصحاب القوافل من أقصى المشرق وأقصى المغرب ، ومدارس ومكاتب وحلقات للمذاكرة يجلس فيها الأئمة في كل فرع من فروع العلم والأدب ، وإلى جانب ذلك بيوت في كل منزه ومرتاد على النهر أو في الخلاء للهو والمعاقرة والسمر يغني فيها القيان ويرقص الجواري ويغشاها العلية والسواد ، ويسكت عنها الخلفاء حينا فتكثر وتعمر أو يغضبون عليها فيبعدونها إلى حيث تغيب عن الأنظار ولكنها لا تغيب عن الطلاب والرواد ،ومن وراء ذلك أحياء منبوذة يكمن فيهااللصوص والمغتالون يتألبون على نقب الدور وحمل الخزائن واستدراج الموسرين على نحو ما نقرأ عن عصابات الاثم والجريمة في عواصم هذا الزمان ، فاذا تصفحت أخبار بغداد بما اشتملت عليه من جمال وشناعة وبذخ وفاقة واحتيال على طلب المال والمتعة من كل مطلب وانصراف إلى السرور والرغد في كل وجهة فكأنك تتصفح أخبار الغرائب في عواصم الدنيا التي تسمى اليوم باريس وبرلين ولندن وشيكاغو ونيويورك .

وهذه العواصم كافة لا تطيب فيها اقامةٌ إلا بمال ، أما بغداد خاصة فكان ساكنها أحوج إلى المال من ساكن العواصم الحديثة ، لأنها كانت عرضة للغلاء في القرن الثالث لاضطراب الأمور في الجهات التي كانت تميرها وانقطاع الوارد عنها حيناً بعد حين . فاذا وقع فيها الغلاء ندر الخبز وارتفع سعر الدقيق وكان ما وصفه ابن الرومي في بعض شكاياته

أحسن ما كان الدقيق مَوقعا ... من رجل أفلس حتى أدقعا

....

وأصبح القوم البطان جوَّعا ... وخشي الجائع ألا يشبعا

وهي إذا لم تغلُ لم ترخص ولم يستغن طالب المعيشة فيها عن بعض اليسار كما قال بعض الشعراء :

سقى الله بغداد من جنة ... غدت للورى نزهة الأنفس

على أنها منية الموسرين ... ولكنها حسرة المفلس

وابن الرومي لم يكن طالب معيشة وحسب ، بل كان طالب معيشة ومتعة ومسرة ، وكان منهوماً في مطالبه كلها قليل الصبر على غواية المناعم واللذات أنّى كانت وحيث أمكن منها الحول والحيلة :

فبادرِ الدهر بالمناعم واللذ ات واحذر من وشك مزتَحَل
فان تعذرنّ ان يجتنك بالقو ة فاحتلْ لطائف الحيل

وكان كثير الألفة لبيوت القيان يعاشرهن ويسمعهن ولا يسمع فيهن لوم لائم :

ولاحٍ في القيان فقلت مهلاً رميت بنبل أوتار القيان
. . . .
شبيهات الرماح قنا مُتونٍ وكلماً في القلوب بلا سنان
وهل من حربة أو من سنان كعين أو كثغر أو بنان ؟

وربما كان الشعر من حيله التي كان يحتال بها على ود القيان وحضور مجالسهن فيثني عليهن حيناً ويهجوهن أحياناً وينال بذلك ما يناله غيره بالدنانير والدراهم ، بيد أنها حيلة تغنيه في هذا الغرض قليلاً ولا تغنيه كثيراً ، ثم هي لا تغنيه عن المال كلما احتاج اليه في سائر وجوه عيشه ولهوه .

فصاحبنا في مدينة الغلاء قد عاش وعلى غير التقشف والزهد قد فطر ، فهل كان ميسور الحالة مكفي المؤنة ؟ وهل كان الشعر كفيلاً له بمال يغنيه في ضروراته ونوافله ؟ أو هو كان فقيراً محروماً لا يصيب من فرص العيش إلا ما يُغبه على موائد الأمراء أو يحتال له « لطائف الحيل » حيثما أسعفت وأفادت ، وقلما تسعف وتفيد ؟

ان قصائد ابن الرومي في جملتها لا تدع إلا أثراً واحداً في ذهن القارىء من هذه الوجهة ، وهو أنه كان في ضنك وفاقة كثير الحرمان كثير الشكاية . ولكنها لا تخلو هنا وهناك من أبيات تدل على كفاف أو حظ من اليسر ، وعلى أن بعض ممدوحيه كانوا يحرمونه عطاياهم لذلك اليسر الذي يرونه عليه :

أتحرمني لأني مستقل وأني لست كالرَّحى السغاب
فما تحمي ذواتُ الدَّر دَراً إذا صادفن ملآن الوطاب

ومن أبياته ما يدل على أنه كان صاحب ضيعة وصاحب دارين وثراء وتحف موروثة منها قدحٌ زعم أنه كان للرشيد وقال في وصفه وقد أهداه إلى علي بن يحيي المنجم :

وبـديع من البدائـع يسبي | كل عقـل ويطبـي كل طرف
وُفِّي الحسـنَ والملاحـة حتى | ما يوفِّيه واصف حق وصف
قدح كان للـرشيد اصطفـاه | خلفٌ من ذكوره غـير خلف
كفـم الحـب في الحـلاوة بل أحـ | ـلى ، وإن كان لا يناغـي بحرف
صيغ من جوهـر مُصفًّى طباعاً | لا علاجـاً بكيمياءِ مُصفٍّ
تنفـذ العـين فيه حتـى تراها | أخطأتـه من رقـة المستشف
كهـواء بلا هبـاء ، مشوب | بضياء ، أَرقـقْ بذاك وأَصف
وسـط القـدر لم يكبَّـر لجرع | متـوال ، ولـم يصغّـر لرشف

فعلى هذا يلوح لنا أنه كان ميسر المعيشة ولو بعض التيسير ، وأنه كان في وقت من أوقاته « مستقلاً » ليس « كالرزحى السغاب » غير أننا لا نعلم بخبر تلك الضيعة إلا لنعلم أنها مجدبة تطيل عناءه ولا تغل عليه :

أعانـي ضيعـة ما زلـت منها | بحمـد اللّـه قدمـاً في عناء

وأنها كانت تصاب بالجراد فيأتي على زرعها في بعض السنين :

لي زرع أتـى عليه الجراد | عادنـي مذ رزئتـه العواد
كنـت أرجـو حصـاده فأتاه | قبـل أن يبلـغ الحصـادَ الحصاد

وأنه كان يستعفي من دفع خراجها ويكتب إلى وهب بن سليمان يشكو إليه ضيقه وسلب الخطوب ما في يديه :

هب لراجيك ما عليه فانٍ اسـ | ـمك وهـب وسمُـك الوهاب
أنـت بحـر ومـن له تجتبـى الأمـ | ـوال بحـر لجـانبيه عباب
فارغبـا عن مداد شِعبـي فليست | فيه الا صبابـة ، بل سراب
وارثيا لامـرىء ألـح عليه | للزمـان الصئـول ظفـر وناب
سلبتـه الخطـوب ما في يديه | ولـه من تجمـلٍ أثواب
. . . . | . . . .
غير أن ليس في خراجـي وحدي | ما بأعلاقـه يسـوغ الشراب

لك في مُكثـري الـرعية دوني حلَـبٌ كيف شئـت بل أحلاب

كذلك لا نعلم « بثرائه » الا لنعلم أنه أصيب فيه بحريق و :

حدوث حوادث منهـا حريق تحيّف ما جمعـت من الثراء

وأنه أصبح يستطعم بعد أن كان من المطعمين :

أمـن بعـد منزلـة المطعمين أعـدم منزلـة الطاعم

وكذاك لا نعلم بخبر داريه الا لنعلم أنهما غصبتا منه كما زعم أو خرجتا من يده بحق أو بغير حق على أية حال ، فلما كان في نحو الثلاثين جار على دارٍ له تاجرٌ يعرف بابن أبي كامل ـ في رواية زهر الآداب ـ فاغتصب بعض جدرها وأجبره على بيعها وفزع ابن الرومي الى سليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه ويذكر تلك الدار أو ذلك « الوطن » :

ولي وطـن آليت ألا أبيعه وألا أرى غـيري له الدهـرَ مالكا
عهـدت به شرخ الشبـاب ونعمة كنعمـة قوم أصبحـوا في ظلالكا
وحبـب أوطـانَ الرجـال اليهمُ مآرب قضاهـا الشبـاب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهـم ذكّرتهم عهـود الصبـا فيهـا فحنـوا لذلكا
فقـد ألفتـه النفس حتـى كأنه لهـا جسـدٌ ان بان غودر هالكا

. . . .

وقـد ضامنـي فيه لئيم وعزّني وهـا أنـا منـه معصـم بحبالكا
وأحـدث احداثـا أضرت بمنزلي يريغ الى بيعـه منـي المسالكا
وراغمنـي فيما أتـى من ظلامتي وقـال ليَ أجهـد فيّ جهـد احتيالكا
فما هو الا نظمـك الشعـر سادراً ومـا الشعـر الا ضلـة من ضلالكا
مقالـة وغـد مثلـهُ قال مثلها ومـا زال قوالاً خلاف مقالكا
صدوفـاً عن الخيرات لا يرأم العلا ولا يحتـذي في صالـحٍ بمثالكا
من القـوم لا يرعـون حقـاً لشاعر ولا تقتـدي أفعالهـم بفعالكا
يعيرنـي سؤ ل الملـوك ولـم يكن بعـارٍ على الأحـرار مثـل سؤ الكا
مدلاً بمـال لم يصبـه بحلة وحـق جلال اللـه ثم جلالكا
وحسبـي عن إثـم الألية زاجر بمـا امتـلأت عينـي به من جمالكا
وانـي وان أضحـى مدلاً بماله لآمـل أن ألفـى مدلا بمالكا
فان أخطأتنـي من يمينـك نعمة فلا تخطئنـه نقمـة من شمالكا

فلم يصغ اليه سليان بن عبد الله .

وهذه هي قضية الدار الأولى التي غُصبت وسليان وال على بغداد وابن الرومي يومئذ في نحو الثلاثين . وهي قضية كما ترى مفصلة لم يسقط منها حرف مما قيل بين الخصمين المتنازعين . ! تقرأ الأبيات حتى تنتهي منها فلا يسعك الا أن تنسى الدار وتنسى يسر ابن الرومي وعسره التفاتاً الى هذا الاستقصاء الدقيق في سرد وقائع المشكلة والمشاجرة التي نشبت بين صاحب الدار والتاجر الباغي عليه في زعمه ، فما من كلمة قيلت في تلك المشاجرة أو تقال في أمثالها الى اليوم الا جاء بها ابن الرومي وأبرأ بها ذمته كما يبرىء الذمةَ حالف اليمين الغموس : يجور التاجر على دار الشاعر فينقض جدارها ويتلفها ليجبره على بيعها ، فيقوم الشاعر ويقعد ويرغي ويزبد وينذر خصمه الويل والثبور وعظائم الأمور ، فيهزأ التاجر المعتز بثروته الساخر بكل شيء غير ذهبه وفضته ويقول له : وماذا عساك أن تفعل ؟ قصاراك أن تنظم قصيدة ! . . فاذهب وانظم ما بدا لك ودع الشعر ينفعك ! فما هو الا ضلّة من ضلالك وبلاء لك يضرُّ بك ولا يجدي عليك ، فيغضب الشاعر لشعره ويذكر الأدب والعلم والملوك والأمراء فيستخف التاجر بفخره ويقول له : وما أنت من ذاك كله . . ما أنت الا متسول مسترفد تمد يديك الى مال غيرك !! فيرتد عليه الشاعر مزرياً بما لم يجمع إلا من السرقة والخداع والسحت والحرام ، ويذهب يشكو ويستعدي ويرجو ويستجدي ، وهكذا تدور الملاحاة والمنابزة في القصيدة وتُسجَّل القضية كلها في الشعر على نمط لا يخرم حرفاً ولا يزيد فيها ولا ينقص . كأن الشاعر مشغول بالرواية عن الدار والمنازعة عليها !! ومن الطبيعي أن يحدث جميع ما حدث ولكن ليس من الطبيعي أن يثبت الشاعر جميع ما حدث في قصيدة . إذ لا فرق بين أقدر الشعراء وأضعفهم إلا ان أقدر الشعراء يجيء في شعره « بالطبيعي » البسيط وأضعفهم يهمل « الطبيعي » البسيط وينقص منه أو يزيد عليه .

وللدار الثانية قضية نعرف تفصيلها كما عرفنا تفصيل هذه القضية ، فقد نازعته فيها امرأة ونزعتها منه عنوة فكتب إلى الوزير عبيد الله بن سليان يعرض عليه القضية ويستغيث :

تَهضَّمُني أنثى وتغصب جهرةً	عقاري ،وفي هاتيك أعجب معجب
لقد أذكرتني لامرىء القيس قولة	« فانك لم يغلبك مثل تعلب »

وكانت آخر قصيدة قالها ـ كما في الديوان ـ لامية يقول فيها :

أقــول إذ غصبتنــي كف جارية | اللــه أكبــر من ود ومــن هُبل[1]
ان الغوانــي بمــا أمّلن من أمل | فما يبالــين ما لاقــين من أجل
متـى غلبـن رجــال الجــد في زمن | كما غلبــن رجــال اللهــو والغزل
وان أعجــب شيء أنــت مبصره | في كل ما حملتــه الأرض من ثقل
كف خضيب من الحنــاء غاصبة | كفاً خضيبــاً من الايطــال والعضل
يا حسرتـا لي ! ويالهفـا ! ويا عجبا | إنْ هذه الحـال لم تنكَر ولــم تزل
في دولتـي أنـا مغصــوب وفي زمني | عُودي ظمــيء بلا رِي ولا بلل

يريد دولة بني وهب أنصاره وممدوحيه .

ومن الواضح أن هذه الدار أخذت منه قبيل موته بزمن قليل ، لأنه يطلب رجعهـا في أواخر شعره ويقول انه لم يكن يومئذ « من رجال اللهو والغزل » . وقد يحتمل ان هذا الشعر كله قيل في دار واحدة لا في دارين وأنه تشبث بتلك الدار بعد ما أحدث فيها التاجر الأحداث ورام أن يضطره الى بيعها فلم يبعها وظل مالكاً لها حتى ضاعت منه في أخريات عمره ، وهو احتمال يرد على الخاطر ولكننا نستبعده لأن زهر الآداب صريح في أن التاجر « أجبره » على بيع داره ولأن ابن الرومي لا ينسى أن يذكر الصبا وطول العهد بسكنىٰ الدار لو كانت هي الدار الأولى التي ملكها وعاش فيها من صباه الى هرمه .

وثم قصة أخرى « لدار » كان ابن الرومي يسكنها ويخاطب في شأنها والي الشرطة احمد ابن محمد الواثقي الذي بقيت له الولاية إلى ما بعد موت ابن الرومي ببضع سنوات ، فعن تلك الدار يقول :

بينما النفس وَيْبَهــا بك ترجو | ملك دار معمــورة مأهولة
وتراعــي آمالهــا منــك انجا | ز مواعيد للمنــى ممطولة
اذ اتانــي الرســول منــك بأمر | يشبــه الموت نفســه أو رسوله
وهــو ازعاجهــا بأعنف عنف | عن محــل قد استطابــت حلوله
أنــا إن لم تذد بيمنــاك عني | عــير شك فريســة مأكولة

ونظن أن البيتين الآتيين مما قاله في هذه الدار بعينها :

---

(١) رباد من أرباب العرب في الجاهلية .

يا ويح من أصبح في غمة ليس له من كربها مخرج
فروحه تزعج عن جسمه وجسمه عن بيته يزعج

وقد تكون هذه الدار هي التي نزعتها منه المرأة ، وقد تكون داراً مأجورة وهو الأرجح عندنا ، لأن الشاعر لا يقول في مزاياها إلا أنها « محل قد استطاب حلوله » و « منزل أحب نزوله » وأنها مكان :

فيه عافانيَ الاله من الشكـ ـو وفك الاله عني كبولهْ
بعد جهد حملت منه ضروباً ليس اثقالهن بالمحموله

وهو كلام أشبه بأن يقال في مكان جرّب بعد تجربة غيره ، وكان فيه معنى للاستطابة والاختيار ، وله على غيره من الأماكن المأجورة مزية الموافقة والاستحسان . ويزيد في ترجيح ذلك أن الشاعر يقول انه كان يرجو « ملك » دار معمورة مأهولة فما كفاه أن تفوته الدار المملوكة حتى أزعجوه عن مسكنه . . . وذلك بما تقدم أشبه .

وأيا كان الخلاف فيما سبق فالأمر الذي لا خلاف فيه أنه مات في دار مأجورة . فان الناجم يقول حين قص علينا قصته في مرض وفاته انه انتقل من الكرخ إلى باب البصرة فسكن في دار ابن قلابة ولم يسكن في دار ابن المعافى كما أشار عليه بعض أصدقائه .. وهو يصف حاله قُبيل ذلك فيقول من قصيدته البائية إلى القاسم بن عبيد الله حين عزم على الشخوص إلى « آمد » مع الخليفة المعتضد :

ثوبيَ الرث والثياب طراء وطعامي برغميَ المجشوب
ومحلي عاريّة وجدارا ت بيوتي فكلها منقوب
ومقيلي في الصيف سخن بلاخيـ ـش ، فعظمي يكاد منه يذوب

فالذي يُفهم من هذه الأخبار حين يجمع بعضها إلى بعض انه ورث داراً من أبيه هي التي يقول إنه قضى فيها أيام صباه ، فلا تكون على هذا إلا إرثاً نشأ فيه قبل أن يدرك السن التي يُكسب فيها ثمن الدور ، وورث تحفاً تُقتنى كتلك الكأس التي زعم أنها كانت للرشيد ، وقد تكون الضيعة بعض إرثه من أبيه وقد تكون مما اقتناه في بعض حالات وفره ، ولكنه كان يحتاج إلى الدين فيعرّض عقاره للضياع وتقوم عليه الحجة فلا يقدر الولاة على دفع خصومه وقبول دعواه ، وشكاياته من الديون كثيرة تؤيد هذا التفسير . فمنها :

على دين ثقيل أنت قاضيه يا من يحمّلني ديني رَجائيه
وقد حمانيَ اخواني مواردهم ووكلتني إلى بحر سواقيه

ومنها :

أقول لما رأيت عرسى تسترزق الله باليدين
سيجعل الله بعد عسر يسراً بجدوى أبي الحسين
. . . .
من حسن حال ورفه بال ورفع قدر وحط دين

ومنها :

وارتكاب الديون إياي في ظلـ ـك يهجوك باللسان الفصيح

ففي هذه الديون ضاع عقاره واستبد به دائنوه .

ومثل ابن الرومي لا يُستغرب منه أن يسرف ويستدين وإنما يستغرب منه أن يقصد في نفقته ويعتدل في تصرفه ، فهو إما مضياع متلاف واما شحيح مقتّر حسبما يتعاوره من المغريات بالانفاق وهواجس الخوف من الفاقة ، وقد كان هو مضياعاً متلافاً وشحيحاً مقتراً في نوبات نوبات لا يُدرى لها سبب ولا يضبط لها ضابط ، فكان مضياعاً متلافاً على الكره منه وشحيحاً مقتراً على الكره منه كذلك ، وكثيراً ما أنحى على نفسه باللوم لحرصه وضعف ايمانه وشكاها إلى الله كأنما يغالبه على الحرص مغالب شديد المراس كما قال :

الى الله أشكو شح نفسي لأنني أرى الجود لي حظاً وشيمتي البخل
وقد كان حق الجود بذل ذخائري الى أن يراني الله يُعوزني الأكل
ولكن نفسي آثرت نبل مالها وما حيث نبل المال ما يوجد النبل

أو كما قال :

وفيم اجتهادي في محاولة الغنى وما للغنى عند الجواد به قدر

وحينا يثقل عليه الصراع بين حرصه وسرفه ويخلد الى العجز عن المغالبة فيلتمس المعاذير لنفسه ويجعل الشح من المكارم المحمودة لأنه يصونه عن الحاجة ويعصمه من السؤال والاقتراض :

اذا لم يكن عندي سوى ما يكفّني فشُحي عليه مثل شحي على عرضي
لأني متى أتلفته احتجت حاجة تذيل مصون العرض في طلب القرض

فهو لا يزال أبداً شديد الزهد شديد الرغبة :

وأصبح في الاثـراء أزهـد زاهد وان كان في الاثراء أرغـب راغب

فلا جرم يضطرب في عيشه ويخرج عن القصد في حالتي شحه وسرفه ، ويظل مدخراً لا ينتفع بما ادخرَ أو مبدداً لا يبقي من ماله ولا يذر .

على أنه لو بقي له كل ما ورث من أبيه وكل ما علمنا أنه ملكه لما أغنانا ذلك عن البحث في مورد رزقه وسبب اتصال عيشه . اذ كان البيت الذي يسكنه مالكه لا يحسب من موارد الكسب ، والضيعةُ التي « ما زال منها في عناء » لا تبلغ أن تدر عليه رزقا يكفيه ، ومن أخباره ما يقطع بعثور جده وبؤسه الغالب عليه معظم حياته ، فلولا هذا البؤس لما لزمه ميسم النحس ولا عيروه الخيبة والخصاصة ، ولـولا عسره وافتقـاره لما وقـع بينـه وبـين البحتري ما وقع . إذ هجاه « فأهدى اليه تحت متاع وكيس دراهم وكتب اليه لـيريه أن الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه ، وانه لم يحمله على ما فعـلْ إلا الفقـر والحسـد المفرط » ! ! فاذا خطر لنا أن مطالبه الكثيرة لا تدل على حقيقة فقره وانها عادة جرى عليها كما جرى الشعراء في عصره فاشتهاره بالنحس والتخلف وردُّ البحتري عليه دليل على عسر حقيقي ما فيه ريب ، أو دليل على حاجة دائمة الى المدائح والصـلات يعـوّل عليهـا في ضرورات معاشه فضلا عن نوافل لهوه .

فسؤ النا الذي ينبغي أن نسأله في هذا المعرض هو : ماذا كان نصيبه من المدائح وكيف كانت حظوته عند ممدوحيه ؟ والجواب الذي لا تردد فيه ان لم يكن نصيباً جزيلاً ولا حظوة مغبوطة . إذ هو لـم يتصل بالخلفاء ولـم يأخذ جوائزهـم الكبيرة التـي تغنـي الشاعـر عن السؤ ال زمناً أو تغنيه عنه بقية حياته ، وانما كانت مدائحه كلها للولاة والوزراء والقواد والكتاب ومن يضارعهم ويقل عنهم في الرتبة والثروة ، فلم يمدح خليفة قط إلا لعلاقة بين هذا الخليفة وبين رئيس أو نديم من الذين يعرفهم وينتمي اليهم ، فمدح المستعين وهجا المعتز حين تنازعا الخلافة بينهما لأن محمد بن عبد الله بن طاهر كان من حزب المستعين وكان مقيماً في بغداد وابن الرومي يمدحه ويقيم معه في المدينة ، ومدح المعتمد لأن بنانـاً المغني اقترح عليه مدحه ـ وهو يكتب لبنان ـ فأجابه إلى ما اقترح وذكر اسمـه في ختـام القصيدة :

فلا يزل في نعيم عيش مزاجـه الخفض والليان
حتـى يرى فيه كل سؤل ومنية عنـده بنان

ومدح المعتضد بالمقاطيع الكثيرة لأنه كان صديق آل وهب وكالئهم من لدن تولى العهد إلى أن بويع بالخلافة .

وقس على ذلك سائر مدائحه للخلفاء وولاة العهود وما هي بالكثيرة في عددها ولا هي بالكثيرة في عدد أبياتها ؟ فقد كان لا يعنى بتطويلها كما كان يطول مدائح الولاة والوزراء لأنها مدائح لم تقصد لذاتها ولم ينظمها إلا مرضاة لأصحابه وتلبية لاقتراح المقترحين عليه ، وكأنهم كانوا يطمعونه بذلك في تقريبه من الخلفاء وإزلافه لعطاياهم ، ولكنهم لا يفعلون . فظل محجوباً عن الخلفاء لا يستدعونه ولا يسألون عن شعره حتى مات وجاء المستكفي يسأل عما قاله في الطعام والشراب !

ونعود إلى الوزراء والرؤساء لنبحث عن نصاب الجائزة عندهم وغاية ما يصلون به الشاعر إذا رضوا عنه وبالغوا في عطائه . وليس يطول بنا البحث في هذا لأنه واضح من الحديث الذي جرى بين البحتري وابن الرومي حيث يقول البحتري : « اقرأني أبو عيسى ابن صاعد قصيدة لك في أبيه وسألني عن الثواب عنها فقلت : أعطوه لكل بيت ديناراً » فكأن هذا غاية ما يرتقي إليه الموصي بجائزة وغاية ما كان ينتظره ابن الرومي من شفاعة متشفع يتودد إليه ، وابن الرومي نفسه قد عين نصاب هذه الجوائز تعييناً في بيت يخاطب به علي بن يحيى المنجم يقول فيه :

وما المائة الصفراء منك ببدعة   ولا من أخيك الأريحي أبي الصقر

يعني مائة دينار . فهي إذن غاية الغايات من جوائز الأمراء ، ولا بد أن يحسب في هذا التقدير حساب مبالغتين مفروضتين في هذا المقام هما مبالغة الطمع ومبالغة الثناء ، بل حساب مبالغة أخرى صريحة في البيت وهي أن لانعام بمائة دينار كان أقصى ما تسمو إليه الأريحية وكان بدعة في ذلك العصر من غير هذين الممدوحين . فمن الرؤساء ـ على هذا ـ من كان يجيز الشاعر إن أجازه بعشرين ديناراً وعشرة دنانير وما فوق ذلك وما دونه ، وكانت هذه هي السنة الشائعة والنصاب الذي جرى عليه العرف بين معظم الرؤساء ومعظم الشعراء .

وأنت تقلب ديوان ابن الرومي فتقرأ فيه عشر قصائد في الشكوى والتذكير والاستبطاء والالحاح والانذار والهجاء إلى جانب قصيدة واحدة في المدح الخالص من العتاب والاستنجاز ، فلنقدر أنه نجح في مائة قصيدة وأخذ عليها مائة جائزة فمحصل ذلك كله لا

يزيد على ألفي دينار مع التسهل في عدد الجوائز ومقدار الدنانير ، وألفا دينار يتلقفها الشاعر في نحو أربعين سنة ليست بالرزق الرخيّ ولا بالوقاء من العوز والدين في مدينة الغلاء وعصر البذخ والاسراف ، ودع عنك أنها تجيء متقطعة ممنونة لا يعرف لها موعد ولا توافق أوقات الطلب والحاجة .

ذلك نصاب الجوائز عند الرؤساء والوزراء إذا رضوا وسمحوا بالعطاء ، فأما الحظوة عندهم فلم تكن من قسمة ابن الرومي في أكثر الأوقات وإن أكثر وإن أجاد وإن أفرط في التزلف والاسترضاء : فما أكثر ما كانوا يتجنون عليه ويستخفون به ويتمحلون العلل الواهية لحرمانه وجفائه والقدح في شعره ! فهذا اسماعيل بن بلبل مدحه بقصيدة معدودة في شعر المدح العربي من أقدم أزمانه إلى أحدثها فتجهم له وضن عليه ، ولأي ذنب ؟ لأنه قال فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم　　كلا لعمري ولكن منه شيبان

وأي شيء في ذاك ؟ فيه كما زعم أنه هجاه وأنكر عليه ما ادعاه من نسبه . ! فقيل له هذا من أحسن المديح ، فاسمع ما بعده :

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف　　كما علا برسول الله عدنان

فتجنى وتعلل وقال : أنا بشيبان ليس شيبان بي . فقيل له إنه لم يبخس شيبان وقد قال فيها :

ولم أقصر بشيبان التي بلغت　　بها المبالغ أعراق وأغصان
لله شيبان قوم لا يشيبهم　　روع إذا الروع شابت منه ولدان

فأصر على التجني والتعلل وأقسم لا أثابه ، ورجع الشاعر مغضوباً عليه فوق حرمانه وطرده . . . وقد كان رجاؤه بما جوّد وأطال أنه يُرضى عنه ويثاب . ولم يكفه هذا حتى جنى على نفسه انحراف الوزراء الآخرين عنه لأنهم لم يمدحوا بتلك القصيدة ، فراح منهم من يقول إنها دار الطبخ !

ومدح محمدبن عبد الله بن طاهر مرة فانقلب ناقداً منافساً للشاعر وهجا شعره ولم يجزه بشيء :

مدحت أبا العباس أطلب رفده　　فخيبني من رفده وهجا شعري

فهبنـــي قد أعفيّتــه من مثوبتي   أيغضي له شعــري على مضضالوتر ؟

ومن اهمالهم إياه أنه كتب قصيدة عتاب إلى أبي سهل النوبختي فنظر إليهـا والـرياح تلعب بها في جانب الدار وقد خُطط في ظهرها بالمداد ! فثارت ثائرته وأقبل يعاتب لاهمال العتاب بعد أن كان يعاتب لاهمال الثواب :

رقعــة من معاتــب لك ظلت   ولهــا في ذراك مثــوى مهانُ

. . . .

سطّــر العابثــون فيهــا أساطـ   ـير عفــت متنهــا فما يستبان
خط ولدانــكم أفانــين فيها   أو رجــالٌ كأنهــم ولدان

. . . .

وقبيح يجــوز كل قبيح   رقعــةٌ من معاتــب لا تصان

ويتماجنون فيقولون اذا مدحهم أنه ينظم الشعر كأنه نائم . . فيرى المسكين فرضاً لزاماً أن يسلم لهم العيب الذي عابوه وأن يستخرج معنى جديداً من معاني الثنـاء على ذلك الممدوح الذي تماجن عليه :

مدحتـك مدح المستنيم إلى امرىء   كريم فقلت الشعـر وسنـان هاجعا

ولا ترى له شعراً في أحد من الذين انقطع لهم وأكثرَ من قصدهم إلا رأيته يشـكو في خطابه له أنه يظلمه حقه ويخصه بالحرمان دون أمثاله ومن هم أقل منه . فهو يقول لبني وهب :

فاز الــورى من ريحــكم بسحائب   هطلــت ، وفـزتُ بســافيات تراب

ولبني طاهر :

أرى الشعــراء حَظُــوا عندكم   سواء عيِيُّهُــمُ واللسِنْ
سواي ! فانــي أرانــي امرأً   هزلــت ، وكلهــمُ قد سمن

ولبني هاشم :

بنــي هاشــم مالي أراكم كأنكم   تجــورون أحيانـا وأنتـم أولـو عدل
كما لو هجــاكم شاعــر حل قتله   كذاك فأوفـوا مادحـا دية القتل

ولاسماعيل بن بلبل :

أبــا الصقــر لســت أرى مهدياً   لك المدح - غــيري - إلا مُثابا

ولعل قربه منهم وحسبانه عليهم هو الذي أنزر نصيبه من جوائزهم وحفاوتهم ، لأنهم كانوا يحسبون عليه حضور مجالسهم وموائدهم وإسهامه أحيانـا فيما يسهـم فيه الجلسـاء والندمان من ألطافهم وهداياهم ، ويوجبون عليه بذلك أن يظل لهم وحدهم شاعرهم وأديب بيتهم يطرفهم بالملح الأدبية ويواليهم بالتهنئة في مناسبات التهنئة والثناء في معارض الثناء ثم لا ينتظر منهم الخلع والصلات على كل قصيدة ولا في كل موسم كما ينتظرهـا الشاعر الطارىء الذي يلقي قصيدته ويذهب لطيته . وهم فوق هذا يمنون عليه أنْ قبلوه في مجالسهم وأحضروه موائدهم ويفرضون عليه وفاء العبد للسيد والصنيعة لولي النعمة ، ويظنون أنهم كفلوه بالعيش الرغيد والظل والظليل :

اذا امتاحهــم أكلــة عبّدوه   تعبيد رب لمربوبه
يخالــون أنهــم بلّغوه   بالقــوت أفضــل مطلوبه
وأنهــم حرســوا نفسه   به من غوائــل مرهوبه
يذيل مضيفهــم ضيفه   كملبوســه أو كمركوبه

والأغلب عندنا انهم كانوا يقبلونه في مجالسهـم ويحضرونـه موائدهـم غرامـاً بضروب الشذوذ والشهرة وكلفاً بالطرائف والملح كما هو دأب أصحاب المجالس في كل أمة ، فكانوا يأنسون به في بعض حالاتهم ويقربونه لغرابة أطواره ووفرة محفوظه من الأشعار والنوادر والأمثال وسرعة ارتجاله للتشبيه والمحاكاة ، فكأنهم اصطنعوه للاغراب لا للمودة وتخيروه للمظهر لا للثقة والكرامة ، ولهذا كانوا يحضرونه مجالس الاحتشام وينحونه عن خلوات الحفاوة والتبسط ، وكان يعلم بهذا فتسوءه فوق مساءته بالحرمان ويُعْجله الغيظ الذي لا يقوى على كظمه أن يسكت عن العتاب في مثل هذا الأمر ، فيعتب كلما حُجب كما قال في مرة من هذه المرات للقاسم :

في جلّنــار وأختهــا دبسيةٍ   يا ابــن الــوزير لعاتــب متعتبُ
احضرتمونــي جلنــار وأحضرت   دبسية الكبــرى لغــيري تحجبُ

وكان يحار في هذا الحجب ولا يدري ما علته ولا ما النقص الذي استوجبه ، ويسائل الأمير عن نفسه :

هل ترى الغفلــة شابــت حلمه   أم ترى النــكراء شابــت فطَنَهْ

هل ترى العي يؤاخي صمته | أم ترى الغي يؤاخي لسنه
هل ترى الشك عليه غالباً | عند حق ، أم تراه يقنه
هل رأى منك قبيحاً بثه | أم رأى منك جميلاً دفنه
هل لديه لك سر ذائع | أم أمانات غدت محتجنة

لكنّ حيرةَ ابن الرومي هذه قد ترشدنا الى أسباب حجبه لأنها ترشدنا الى بضاعته التي أعدها للمنادمة وحسبَ انه مستحق بها التقريب والمصاحبة ، وهي أدوات العلم والبحث والشك في موضع الشك واليقين في موضع اليقين ! وما هي بألزم ما يلزم النديم في مجالس الخلوة فضلا عن مجالس الاحتشام ، فقد يستغني النديم عنها كلها بالقدرة على المصانعة ومسايرة الأهواء ، في حين أن العلم لا يغنيه عن تلك القدرة ولا يسد مسدها في مجالس الاحتشام ولا مجالس الاباحة .

بقي حفظ السر وما نظن دعواه فيه مطابقة للحقيقة أو لرأي جلسائه المحتجزين عنه في خلوات الاباحة : لأن من كان مثله مطبوعاً على « الاعتراف » بعيوبه لا نخاله يمسك لسانه ويحفظ سراً رآه ساعة لهوه . . . فاذا حجبه الأمراء عن مجالس الخلوة فلأنه لا ينفعهم في تلك المجالس ولا يؤمَن عندهم على أسرارها وما يقع فيها من فلتات اللسان وبوادر رفع الكلفة وارسال النفس على السجية .

لكنهم كانوا يحجبونه أيضاً عن المجالس العامة ولا يقتصرون على حجبه عن المجالس الخاصة ، وكانوا يقطعون ما بينه وبينهم حتى تضيق به الدنيا ويتنمر له كل من ينتمي إليه أو ينتمي اليهم :

تعرفت في أهلي وصحبي وخادمي | هواني عليهم مذ جفاني قاسم

فيعود يسأل الاذن في المقابلة ويكتفي به عن سائر المطالب :

بل أنت معفىً من جميع حوائجي | إلا لقاءك في السواد الأعظم
لا أبتغي ما كنت أسأل مرةً | حسبي بوجهك ، فهو أفضل مغنم

قال هذا وقد حجبه القاسم عن لقائه وأمر الخدم برده ، وكان القاسم وأمثاله يمنعونه بعض المنع وفي نفوسهم بعض الرعاية له وبعض الرضى عنه ، فأما إذا غضبوا عليه وصرحوا له بالجفاء فقد كانوا ينبذونه ويوصدون دونه كل باب ويخلون بينه وبين الحجاب يدّعونه ويتصلفون عليه ، والحجابُ لا يُعوزهم التصلف على مستأذن يأمنون العواقب فيه

ويأنسون من سادتهم الرضى بايذائه ، فان الحاجب منافسٌ لكل جليس ينزل من سيده منزلة الخليل والسمير وهو قائم على الباب مقام الخادم ، وهو يود أن يدل عليه بقدرته على الرد والاذن والاقصاء والتقريب والتمييز في الحفاوة والتعظيم ، فكان ابن الرومي في فترات الاقصاء والاعراض يقاسي شديداً من غلظة الحجاب ويسرع كدأبه إلى شرح ما يلقاه منهمْ على أبواب الرؤساء المعرضين عنه ، وهو شبيهٌ بما يلقاه كل طارق مهيض الجانب من كل حاجب غاضب أو متغاضب :

وكم حاجب غضبان كاسرٍ حاجب ... محا اللّه ما فيه من الكسر بالكسر
عبوس ، إذا حييته بتحية ... فيالك من كبر ! ومن منطق نزر !
يظل كأن اللّه يرفع قدره ... بما حطَّ من قدري وصغّر من أمري
إذا ما رآني عاد أعمى بلا عمى ... وصُم سميعاً ما بأذنيه من وقر

ولقد كان يحمد الله أحياناً أنه نجا من تعجرف الحجاب عليه بغير أذى في جسده :

عمّ الأذين بأذنه وتخلفت ... حالي ، فلم أذكر ولم أتوهم
لكن نبذت مع اللفيف بمسمع ... وبمنظر للشامتين ومعلم
بل ما أصابتني هناك شماتة ... لكن غُبطت لأنني لم ألطم !!

فلم يكن رزق الرجل إذن متصلاً من الجوائز ولا من ألطاف المجالس . ولم تكن حاجته إلى ضرورات العيش بالحاجة المصطنعة التي لا تنم عن فاقة حقيقية في معظم أيام حياته ، فسؤاله الدقيق والطعام والملبس سؤال محتاج إلى ما يطلب معتمد على ما يجمع من النوال . ولنا أن نشك في حاجته إلى الشيء حين يطلبه ويلح في طلبه ، ولكن ليس لنا أن نشك في حاجته عاجلاً أو آجلاً الى ذلك الشيء من طريق السؤال كما كان يصنع عامة الشعراء في الأزمان الماضية ، ولا سيما في ذلك الزمان الذي اضطربت شؤونه وقل ضمانه وتلاحقت طوارئه ، فمن مسائل ابن الرومي ما يصعب الشك في صدقه كقوله يستعطف وهو يكاد ييأس :

إن لله غير مرعاك مرعى ... يرتعيه وغير مائك ماء
وتيقن متى جنيت على عبد ... ك ضيماً وضيعة وعناء
أن لله بالبرية لطفاً ... سبق الأمهات والاباء
. . . .
لي خمسون صاحباً لو سألت الـ ... قوت فيهم ألفيتهم سمحاء

أتـرى كل صاحـب لي منهم   يمنـع الشهـر بلغتـي اجراء
لي في درهمـين في كل شهر   من فئـام ما يطـرد الحوجاء

وكثيراً ما ألم لهذه الحاجة الدائمة وتوصل الى الرؤساء أن يجربوه في ولاية او جباية أو يتخذوه لعمل في الديوان يريحه من ذل السؤال وعذاب القلق والانتظار ، فكانوا يضنون عليه بما سأل ويأبون ان ينقذوه من سوء تلك الحال ، ولزم آل وهب ما لزمهم وهو يترقب أيام دولتهم ويترجى الخير الجزيل على أيديهم ، فلما صارت اليهم الوزارة لم يصنعوا شيئاً وزادوا انهم قطعوه بعد صلة ومنعوه ما كان يناله قبل الوزارة ! وكثر زوارهم وقصادهم فتأخر مقامه بينهم وربما رأوه حيناً وهو مقدم على سواه .

أنـا من عراك وبـاب دارك موحش   من كل مؤتنف عليّ مقدّم

وكان أسمح الرؤساء معه من كان يلهيه عن العمل في الديوان بوظيفة صغيرة يشاهرها عليه ولا يثبتها في سجل الأرزاق المرصـودة المضمونـة بعض الضمان ، ومـن شأن هذه النوافل أن تحتاج ابداً إلى التذكير والتنبيه فما لا بد أن يجر اليه التذكير والتنبيه من السأم والجفاء ، فاذا حصل ذلك ـ ولا بد من حصوله ـ خسر الوظيفة وصاحب الوظيفة وباء إلى شر مما كان .

والعمل الوحيد الذي ذكر في ديوانه هو عمله في الكتابة عند آل بنان المغني الذي كان ينادم الخليفة المعتمد ويغنيه ويسأل ابن الرومي ان يمدح الخليفة بلسانه ، وكأنه لبث في هذا العمل عشر سنين على ما يجوز أن يؤخذ من قوله :

والغنـاء الشـديد شدواً وضرباً   سحنـة قد ملأت منـه الاناء
ظلـت عشراً كوامـلاً في مغانيـ   ـه أغنـي واسمـع الانحاء

ولن يكون ذلك العمل الا ضئيل الاجر مغبونه كما يظن بأجر يتناوله كاتب مغن ، وكما يدل بيتاه المشهوران في بنان :

تعـالى جد دينـاري بنان   فحـلا حيث حل الفرقدان
ولـو أن النفـوس بحيث حلاّ   غدون من الحـوادث في أمان

فان قلنا ان « الدينارين » هنا للتطفيف لا للحصر فاقصى ما يرتقي اليه الدينـاران ان يكونا عشرة ! وعشرة دنانير ليست بالرزق الطيب في عصر كعصر المعتمد بمدينة بغداد .

فمعيشة الرجل في جميع أدوارها كانت معيشة عارف بالحياة متذوق لها وهو مع المعرفة والتذوق ملدد محروم طويل الهم بأمر الرزق مشتت الفكر بين القلق والخيبة والمطل والحرمان ، وهي معيشة مزعجة مكهربة تهد القوى وتنهك الفكر والجسد ولا تكون الا وخيمة الاثر في نفس رجل مثله كثير المخاوف عليل الاعصاب .

لماذا فشل

فشل لأنه كان قليل الحيلة صفراً من الدهاء ، ذلك أوجز ما يقال في أسباب فشله ، فما من عمل كان يحتاج إلى حيلة الا كان ابن الرومي فيه مخفقاً أو كان مصدوفاً عنه حتى اللعب ، ومن ثم كراهته للعبة الشطرنج التي راجت في ايامه وكثر التفنن في طرائق لعبها بين ممدوحيه حتى كان احدهم يلعبها وظهره الى رقعتها ، وهو الذي يقول فيه :

تقتل الشاه حيث شئت من الرقـ ـعة طباً بالقتلة النكراء
غير ما ناظر بعينك في الدسـ ـت ولا مقبل على الرسلاء
بل تراها وأنت مستدبر الظهـ ـر بقلب مصور من ذكاء
ما رأينا سواك قرناً يولي وهو يرذي فوارس الهيجاء

ولكنه هو كان يجهلها ويحاول البراعة فيها فلا تساعده الحيلة ، فينقلب هازئاً بها ويقضي عليها بأنها من تعلات الفراغ والجوع .

أرى لعبة الشطرنج ان هي -حُصّلت أحق امور الناس ألا تحصلا
تعلة بوابين جاعا وارملا بباب قليلٍ خيره ، فتعللا

او يقول :

تفرست في الشطرنج حتى عرفتها فان صح رأيي فهي بالوعة العقل

وحسب الرجل أن تقل حيلته في أواسط القرن الثالث ليكون مقضياً عليه بالهلاك أو بالفاقة وان اتصل بذوي الاخطار والعاملين في سياسة الدولة ، بل يقضي بالهلاك والفاقة لانه اتصل بميدان هو احوج الميادين إلى المكر وسعة الحيلة ، فمدائح ابن الرومي نفسه أدل شيء على ضرورة الدهاء في ايامه وشيوع هذه الخصلة بين أبناء عصره .

فانه مدح أشتاتاً من ذوي المقامات بينهم الوزير والقائد والنديم والكاتب والفيلسوف فكان الدهاء صفة تتكرر في مدح كل واحد منهم وثناء مشتركا بين من يُطلب منه الدهاء بحكم عمله ومن لا يُطلب منه ولا يعيبه ان يفوته ، واليك امثلة قليلة نكتفي بها عن احصاء كل ما جاء على هذا المعنى في مدائحه الكثيرة

قال في علي بن يحيى النديم :

فلّ بالحجة الخصوم وبالكيـ ـد زحوف العدى ذوي التأليب

وقال في ابن ثوابة الكاتب :

وبسكيده يروي القنا علقاً ويختضب اختضابَه

وقال في القاسم بن عبيد الله الوزير :

يرمي بدهياء من فلائقه في وجه دهياء من فلائقها

وقال في عبيد الله بن عبد الله القائد :

يصاول القرن او يخاتله جلداً اريباً بعيدةً سربه
كالليث في بأسه وآونة مثل الشجاع الخفي منسربه

وقال في الجنود الأتراك :

ترى شبه الآساد فيهم مبيناً ولكنهم ادهى دهاء وانكر

وقد صدقت في هذه المدائح فطنة ابن الرومي الى صفة عصره والخلق الذي لا بد منه للمتقدمين فيه من ندماء أو كتاب أو قادة أو وزراء او جنود ، فلم يكن لواحد من هؤلاء غنى عن الكيد والختل والدهاء ، ولم تكن للعصر كله صفة بارزة بروز هذه الصفة التي اشتدت الحاجة اليها بين القلاقل والدسائس والاضطرار الدائم إلى اتقاء الشر ومداراة الاقوياء والحيطة لما تأتي به طوارىء الاحداث ، واحجى أن تشتد الحاجة اليها حيث تعشش الفتنة وتبيض وتفرخ بين رجال الدولة ومن يعاشرهم ويلحق بهم من الشعراء والندمان ومغتنمي الفرص من صعود هذا وهبوط ذاك واقبال هذه الدولة وادبار تلك ، فقد كان هذا هو عمل كل يوم وشاغل كل ساعة في البيئة التي عاش فيها ابن الرومي خاصة ، فما كانت ايامهم تنقضي على غير خليفة يعزل او يدبر له العزل وولي عهد يخلع أو يدبر له الخلع ووزير يُكاد له او يُكاد لخصمه وصاحب مال يُصادر او يَسعى لمصادرة غيره ، وهذا واشباهه شغلٌ يفتقر من يزاوله ويعيش في بيئته الى الدهاء افتقاره الى اداة المعيشة الاولى وسلاح الحرب الألزم له من كل سلاح .

في ذلك العصر عاش ابن الرومي وهو اعزل لم يستعد له بعدة ولم يحسن قط ان يتداهى على أحد ولا أن يحترس من دهاء أحد . وراح يتقلب فيه باحساس طوع الحوادث ولسان طوع الاحساس ! فكان نقيض الرجل الذي يصلح لمثل زمنه . إذ كان ألزم ما يلزم ذلك الرجل ان يملك احساسه ولا يطيعه ، وان يجعل بين احساسه ولسانه سداً منيعاً من الرياء يستتر خلفه ، فاخطر ما يجر الخطر على المرء في عصور القلق ان يرسل نفسه وأن يُطلق لسانه وأن يلهو بما بين يديه عما حوله ، كما كان يفعل ابن الرومي ومن طبعوا على غراره . وما نظنه كان يكرر صفة الدهاء في ممدوحيه الا وهو يشعر بخلوه منه وحاجته اليه ، غير أن الشعور بالحاجة إلى الدهاء لا يعطيه الدهاء ! كما أن شعور المريض بالحاجة إلى القوة لا

يعطيه القوة ، وغاية ما يستطيعه أن يأسى ويتكلف ما ليس في خلقه ، فلا يفيده الأسى ولا التكلف إلا أن يبدي من ضعفه ما هو أولى باخفائه .

***

ذلك أول الفشل أو ذلك أوجز ما يقال في اجمال اسبابه .

وهو مع هذه الغرة التي تعد من اكبر الجنايات في عصر الدسيسة والمداورة ـ كانت له جناية اخرى تعد من أكبر الجنايات في جميع العصور وبين جميع الأمم وعند جميع الأفراد . كان غريب الاطوار ولا أضر على الضعيف الحيلة من غرابة الأطوار . لأنها تفرده بين الملأ فتنصبه وحده هدفاً لكل ما في الطبائع الانسانية من لؤم وسفاهة وسوء ظن ومجانة . و« الشيء مستوحش اذا غربا » كما يقول ، فحسب المرء ان يشتهر بهذه الغرابة وأن يسجلها عليه من يعرفه ومن لا يعرفه حتى تبطل دعواه وتسقط حقوقه ويكون « المجتمع » قد أصدر عليه حكماً سرمداً كذلك الحكم الذي كان يصدره السلطان في غابر الأزمان باهدار دم الطريد الهارب من عقوبته وسخطه . فلا ينصفه احد ولا يتحرج متحرج من العدوان عليه والتعرض لغضبه ، فانما أساس الانصاف ان يعرف للانسان حق الرضى والغضب وحق الشكوى والملام ، فاذا سلب هذا الحق واشتهر عنه انه يألم لغير ما يوجب الألم ويفرح لغير ما يوجب الفرح ويعجب والناس لا يعجبون ويثور والناس لا يثورون ويطرق وهم لا يعرفون فيم يطرق ويهلل وهم لا يشعرون فيم يهلل ـ فهم اذن في حل من اسخاطه واهتضام حقه ! وهو إذن طلبة السلطان الأعظم سلطان المجتمع الذي أهدر دمه وأباح أمنه وماله ، فلا يشكو الا وهو متهم ولا يُشكى الا وللشاكي عليه حجة . .
وكل ذنبه بين الناس انه من معدن غير معدنهم وذو شعور بالحياة غير شعورهم ، وقد يكون خيراً منه واجدر بالانصاف .

بل حسب المرء أن يشتهر بالغرابة حتى يصبح المألوف من عمله غريباً يفعله هو فيلاحظ ويتبعه الناس بالغمزات ، ويفعله غيره فلا يلاحظ ولا يتغامز احد عليه . لأن سمعة الغرابة هي المهم في هذا الصدد ، وليست الحوادث التي توصف بالغرابة .

وقد يُعفى الغريب الاطوار من « هذا الاهدار » اذا كان مع غرابة اطواره له سطوة أو ثروة أو عصمة يعتصم بها من عشيرة تغار عليه أو جار يميل اليه ، فربما أساغوا منه غرابته في هذه الحالة وعدوها حليةً تزينه وظريفةً ترغبهم فيه . فاما ان يكون ضعيفاً لا حول له ولا حيلةً وغريباً في خلقه وشعوره فذلك هو الجرم المضاعف الذي لا شفاعة فيه ولا نجاة

من عقوبته ، وقل في عقوبة مشدد فيها كما يشاء لؤم من لا يخاف عاقبة لؤمه ، مبالغ فيها كما يُبالغ في ايذاء كل معدوم النصير .

***

عاش ابن الرومي في ذلك العصر قليل الحيلة فهو أعزل ، غريب الأطوار فهو مستهدف لكل من يرميه ، دقيق الحس فهو معذب بما يصيبه . وثقلت عليه صدمات الخيبة وساء ظنه بانصاف الناس فوهن ما فيه من بقية عزم الشباب ـ وعاف السعي وانطوى على اليأس ووجدت نفسه لذلك وجداً تعرغه من صرخته :

لا عذر لي في أسفي بعدها ... على العطايا . عفتها ! عفتها !

فكان هذا مع ضعفه واعتلاله وحذره المغروس في تركيبه وحاجته الى من يرأمه ويعينه صارفاً له عن السعي في طلب الرزق والنزوح عن الوطن ، جانحاً به الى القعود حيث قعد لا يرى إلا أن البلاد كبلده وأن الأخيار والأشرار سواء في قلة انصافه :

ذقت الطعوم فما التذذت كراحة ... من صحبة الأشرار والأخيار

وما كان الرجل مخلوقاً للجلد والمشقة في أيام الشباب بله المشيب ، ولكنه كان ربما رحل في تلك الأيام الى الأبلة او سامرا « سر من رأى » او بعلبك ، وهي فيما نظن ابعد ما وصل اليه في رحلاته . فلا يلبث أن ينكرها وتنكره ويعود منها وما لقي فيها الا مثل ما لقي في وطنه :

لقد أنكرتني بعلبك واهلها ... بل الأرض بل بغداد صاحبة البتل

ويرسل الى أصحابه في بغداد يتشوف ويقسم لا ازمع بعدها سفراً ولا آثر على قربهم مطمعاً :

وان يقض لي الله الرجوع فانه ... علي له الا افارقكم نذر
ولا أبتغي عنكم شخوصاً ورحلة ... مدى الدهر ، الا أن يفرقنا الدهر
فما العيش الا قرب من انت إلفه ... وما الموت الا نأيه عنك والهجر

و« طول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه » كما قيل . فاذا احصينا أسباب الجفاء الذي كان يشكوه من ممدوحيه وأسباب فشله بعبارة اخرى ، فلا شك أن طول مقامه ببغداد واحد من تلك الأسباب التي رجحت عليه غيره من انداده الشعراء ومن هم أقل في الطبقة ، لانهم كانوا يغيبون ويحضرون فلا يضن عليهم الأمراء بالعطاء في السنة بعد

السنة او بعد السنوات ، ولأنه كان مقيماً امام اعينهم في كل يوم فلا يلقى عندهم حفاوة الطارق بعد غياب .

وهو لم يرحل تلك الرحلات القصيرة التي كان يظنها غربة طويلة الا وهو في ابان القوة والطمع في الولاية والجوائز . فلما طال عليه الأمر ووطن نفسه على اليأس قعد في بغداد لا يريمها وقنع بما يتفق له وهو وادع في بلده وابى أن يجيب من يستدعيه اليه ويحضه على « الحطب لناره » . . . لأنه يكلفه ركوب البحر وهو اخوف ما يكون من ركوبه :

حضنضت على حطبي لناري فلا تدع لك الخير تخويفي شرور المحاطب

. . . .

ايعزب عنك الرأي في ان تثيبني مقيماً مصوناً من عناء المطالب

وما هي بعد الا دعوة فيما نظن لم يكن بالمنظور أن تتكرر ، إذ قل في الولاة من كان يعنى بشأنه وشأن رزقه في حالي شبابه ومشيبه ، وقل فيهم من كان يرعى حقه ويخلص في مودته :

وربما اغتر هو ببعض المجاملة منهم وخيل لنفسه حقاً عندهم فتشفع اليهم في اتباعهم كما تشفع لمهندس القاسم الأسير المغضوب عليه « وما ضيف باضعف من اسير » . . . او كما تشفع لكتابه الذين « اضحوا وهم أسوأ الكتاب احوالا » . . . اوكما تشفع فيما هو أكبر وأجل وهو شكاية الحسن بن عبيد الله الى ابيه من تقديم أخيه القاسم عليه وترشيحه لعظيم المراتب دونه . الا أنها شفاعات لا نعرف ماذا اوجبها على ابن الرومي ولا نعرف ماذا كان مصيرها عند المشفوع لديهم ، فهي ان دلت على شيء قاطع فانما تدل على ان قوماً ذوي حوائج كانوا يقصدون فيها من يقبل تبليغها ويأنسون من ابن الرومي تلبيةً لا يأنسونها في صحابة الامراء غيره ، وربما أغراهم به سذاجة طبعه وسرعة استمالته . ولا سيما في وساطة الحسن عند ابيه والتماسه منه أن يسوي بينه وبين اخيه القاسم ، لانه :

ليس يوهي اخاه شدك ايا ه ، ولكن يزيده في اشتداده

ولا يبعد أن تكون هذه الوساطة علة اعراض القاسم عنه ومجافاته اياه تلك المجافاة التي قيل إنها انتهت بقتله . فغير ابن الرومي لا يقدم على هذه الوساطة وهو جليس القاسم المطالب في شريعة تلك الأيام بنصرته على كل من ينافسه ولو جاءت المنافسة من اخيه ، اذ يرى الحزم والحكمة أن يتبع الدولة حيث كانت والا يعرض نفسه لغضب صاحب الحظوة من اجل أخ له مهجور ضعيف الأمل في النجاح ، فاستشفاع الناس بابن الرومي لا يدل

على اكثر من هذا ولا على اكثر من انهم ارادوه للتبليغ والتـذكير عسى أن ينبهـوا غافـلاً ويسمعوا من لم يسمع .

وقد يدل على أنه أصيب بسبب هذه الشفاعة في رزقه وحياته كما يلوح لنا من جرائـر الوساطة بين الحسن وابيه ، فأما أن تدل هذه الشفاعات على حق مرعي له عند الأمراء وعناية منهم بأمر رزقه وصيانته في قربه وبعده فذلك احتمال بعيد تناقضه اخباره واشعاره على السواء .

وما نخال أن احداً من ممدوحيه كان بينه وبين ابن الرومي من المؤاخاة في الأدب مثل ما كان بينه وبين أبي سهل بن نوبخت سليل البيت الفلكي المعروف ، فقد كانـت بينهما مساجلات كثيرة تلمح فيها مخاطبة الند للند والصديق للصديق في بعض الأبيات ، فابن الرومي يغرب في مدحه ويقول :

اعلـم النـاس بالنجـوم بنَو نوَ ... بخت علماً لـم ياتهـم بالحساب
بل بأن شاهـدوا السماء سمواً ... ورقياً في المكرمـات الصعاب

وأبو سهل يجيبه وهو يعتذر من قلة اضطلاعه بجوابه :

هـكذا يجتنـي الـودود من الاخو ... ان اهـل الاذهـان والآداب
نظـم شعـر به ينظـم شمـل المـ ... ـجـد كالعقـد فوق صدر الكعاب
قد سمعنـا مديحـك الحسـن الفـ ... ـرض ولـكن لم نضطلـع بالجواب

ومثل هذا الخطاب لا يكون إلا بين رجلين صديقين أو كالصديقين فيما توجبه العلاقة بينهما من الولاء والمعونة . فانظر مع هذا كيف كان ابو سهل في رعايته لحقه وعنايته بامره وصيانته لقدره ؟ كان كما قال فيه :

لي صديق اذا رأى لي طعاماً ... لم يكد أن يجـود لي بشراب
فاذا ما رآهما لي جميعاً ... كفيانـي لديه لبس الثياب
فمتـى ما رأى الثلاثـة عندي ... فهـي حسبـي لديه من آرابي
لا يرانـي اهـلا لملك الظها ... ري ولا موضـع العطـايا الرغاب
وكأنـي في ظنـه ليس شأني ... لهـو ذي نهية ولا مُتَصاب
فيَّ طبـعٌ ملائـكي لديه ... عازف صادف عن الاطراب
او حمـارية ! فمقـدار حظي ... شبعـة عنـده بلا اتعاب
انمـا حظـي اللقـاء لديه ... مع ما فيه بي من الاعجاب

ليس ينفسك شاهــداً لي بفهم وبيان وحكمــة وصواب
ومتــى كان فتــح بـاب من اللـ ـه توقعــت منــه اغــلاق باب

نعم ! مع ما فيه من الاعجاب به والشهادة له بالفهم والبيان . فقد كان قصارى حقه عند صاحبه هذا وعند اصحابه الموسرين جميعاً ان يعجبوا به او يتعجبوا لفطنته وغرائب احواله ، او يساجلوه في الشعر مساجلةً يظهرون بها قدرتهم على مجاراة شاعر قدير منقطع للشاعرية ، أو يسامروه سمراً يلهون فيه بحديثه ونوادره ثم يستأدوه الثمن غالياً من صبره وماء وجهه . فأما ما وراء ذلك من نفع ومبرة فليس من حقه عندهم وليس له منه كما قال الا نصيب الملائكة او نصيب الحمير . . وما كان واحد من كبار ممدوحيه عاجزاً عن اغاثته واصلاح امره وتدبير عمل له يناسبه لو صححوا النية ولم يساوموه مساومة التاجر الشحيح لياخذوا منه أكثر مما يعطوه . وليأبوا أن يهبوه ما دام في وسعهم أن يمنعوه . ففي قدرتهم كانوا أن يستحضروا النية في اصلاحه وجبر نقائصه وتلافي عيوبه . وفي قدرتهم كانوا أن يجدوا سبباً واحداً على الأقل يوجب هذا الحق عندهم من باب الوفاء أو من باب الرحمة ، بيد انهم لم يجدوه ولا حاولوا ايجاده . . ووجدوا اسباباً شتى لحرمانه واهماله والاعتذار من توجيه الأعمال اليه واتخاذه للكتابة أو النظر في بعض مرافق الديوان :

ونحن نقرأ قوله لابي سهل الذي تقدم ذكره :

أتزعم اني إن توليت قرية
رأيت ازوراري عن صديقي من الفرض؟

وقوله للقاسم :

أركيكاً رأيت عبــدك صفراً لا جنــى فيه ؟ ام جنــى شنعاء ؟

فنفهم جملة هذه العلل التي كانوا يعتلون بها عليه ، نفهم انهم كانوا يكرهون توليته لئلا يستقل عنهم ويعرف له مورداً غير موردهم او أنهم كانوا يحسبون عليه غرارته ذنباً يحرمه الولاية كما حرمه العطاء وكفالة الرزق من جراية لا يكدرها المن والتسويف ، وهي - ولا مراء - اسبابٌ طبيعية للحرمان في الحياة نفهمها حين نبحث عن سر حرمانه ، ولكنها لا تصلح عذراً للمتفضل الذي يريد الافضــال ولا تعــد ميزانــاً رفيعــاً للمــروءة ومكارم الاخلاق . فمن الطبيعي ان ياكل الذئب الحمل وأن يعبث اللئيم بالغرير وان ينهب المحتال مال الطفل اليتيم والمغتال مال الاعزل الضعيف ، الا أن البون بعيد جدا بين هذه الأسباب الطبيعية في الدنيا وبين معالي الهمم ومكارم الاخلاق ، وان هذا البــون البعيد

جدا هو مناط الحمد واللوم والشرف والضعة والفضل والقصور .

***

وكان لفشل ابن الرومي وحرمانه سبب آخر هو فشله وحرمانه . نعم كان فشله وحرمانه سبباً لنفرة الناس منه واتهامهم اياه ، فكانوا يلومونه على بلواه ويعدونها من ذنوبه وخطاياه : وكان لومهم هذا بلاء فوق بلاء وحسرة فوق حسرة ، وشكايةً أشد عليه من سائر الشكايات لانها تحرمه حق الشكاية :

يا رب ما اطول البلاء وما أكثر في أن بليت لوّامي
يلومني الناس ان حُرمت وما الزمني الله غير احرامي

فاذا شكا فهو مذنب ، واذا سكت فالرزئية عنده أعظم من السكوت وهذا آلم ما يُبتلى به المنكوب وأظلمه وأدعاه الى المزيد من نكبته وظلمه . . . ولكنه كذلك طبيعي مألوفٌ في الناس ، لأنهم لا يكلفون أنفسهم الرأفة بأحد اذا استطاعوا أن يحيلوا عليه جريرة خطاياه ! فاذا حُرم فما ذاك الا لأنه محروم مستحق للحرمان بما جناه على نفسه أو بما جناه عليه القضاء ، واذا كان كذلك فهم أولى بالاجفال منه والهرب من عدوى شقائه ! والا فماذا يصنعون له وهو الجاني على نفسه ؟ ثم ماذا يصنعون للقضاء ولا طاقة لهم برد القضاء ؟ فمن حُرم وفشل فليحرم أبداً وليفشل أبداً ، وليكن مصابه حجةً للمزيد من مصابه ودليلا على شقاء مكتوب عليه ، لا خلاص منه ولا للناس فيه حيلة !

وتضاف الى ذلك الحرمان نكبات متواليات لا يد لمخلوق فيها ولا هي مما يجنيه انسان على نفسه أو يرده انسان عن حوزته ، فتحق عليه تهمة الشؤم وتثبت عليه مطاردة الاقدار . ! فلا رأي للعاقل الا أن يفرّ منه ويلتمس العصمة والأمان بالبعد عنه . . وقد أطبقت على ابن الرومي النقمتان نقمة الفشل والحرمان ونقمة الفجائع في أهله وولده والتلف في زرعه والحريق في ثرائه والضياع في عقاره . فالرجل لا ريب مشؤوم يستعاذ منه ، وطريدة للأقدار لا يجيرها مجير وهو آمن على سربه ، فمن غرر بنفسه وعالج خلاص الطريدة من القدر الذي يتعقبها فهو مبتلى لا محالة بمثل بلائها ، ثم لا يلومنّ الا نحسه ورأياً سخيفاً سوّل له التورط في المهالك وخيّل اليه أنه مجير من قدرة الله وَرادّ لما لا مردَّ لحكمه .

وحقٌ لابناء القرن الثالث أن يخافوا المشؤومين وطرداء القدر لأنه كان عصر السعد والنحس والقلاقل والمفاجآت ، مع الايمان بما يصحب ذلك من الخرافات والاوهام ، ولأنه العصر الذي تمت فيه ترجمة الكتب الهندية والفارسية وشاعت بين المسلمين أحاديث النجوم

والطوالع ما كان منها خرافياً كاذباً وما كان من قبيل العلم الصحيح ، وزاد في شيوع تلك الأحاديث أن الدولة كانت يومئذ للفرس وأن آداب المجالس في قصور الملوك والشرفاء كانت آداب الفارسية والناشئين في البلاد الفارسية ، وكانت لهؤلاء ساعات للسعود وساعات للنحوس ومقارنات بين الأفلاك يطيب معها الطعام والشراب تارة ولا يطيبان تارة أخرى ، بل كان لكل شيء في الأرض والسماء حسابه وأرصاده وبشائره ونذره ، فلا يسافر المسافر ولا يتحرك العامل إلا بعد استشارة للنجوم وموافقه لارصاد الطوالع ، ولا عجب أن يدرج الفرس على ذلك وهم أمة عبدت الكواكب زماناً وجعلت لها صفات الخير والشر وأسندت اليها تدبير الحوادث وتحويل الدول وتقدير المقادير .

وكأنما شاءت الأقدار أن تهيء للقرن الثالث كل أسباب العناية بالنجوم فظهر في أوائله مذنب « هالى » الذي رأيناه هنا في دورته الأخيرة قبل نحو عشرين سنة ، والذي قال فيه أبو تمام في تلك الأيام .

وخوّفوا الناس من دهياء داهمة	إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الأبرج العلياء مرتبة	ما كان منقلبا أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة	ما دار في فلك منها وفي قطب

وليس يصعب علينا أن نتمثل كيف يكون أثر ذلك المذنب المرهوب أولَ ظهوره في زمان كذلك الزمان وبين أناس كأولئك الأناس قد غلب عليهم الاشتغال بالتنجيم صادقه ومكذوبه وكثر بينهم جداً من يعلقون حوادث الأرض بأنباء النجوم .

ولقد تردد ذكر السعود والنحوس وأسماء الكواكب في كلام شعراء القرن الثالث والقرن الذي بعده من أثر هذه العوامل كلها فألم اليها أبو تمام والبحتري مراراً وافرط ابن الرومي في الاشارة اليها لأنه كان أعلم من صاحبيه بهذه المطالب . وتمادى الأمر بمن بعدهم حتى أصبح درس النجوم فريضة على كل رجل مثقف مطلع على آداب زمانه ولو كان كالمعري مكفوف البصر غير صالح للتوسع في هذا الباب . فكان رهن المحبسين يذكرها في سقط الزند واللزوميات ويصف مواقعها ويتكلم عن مقارناتها كأنه فلكي مشتغل بصناعته وليس بأديب ضرير واضح العذر في جهل هذه الصناعة .

ثم اتفق أن راجت عقيدة النجوم في الأسرتين اللتين علق بهما ابن الرومي وكان لهما نصيب من شعره ومدحه وعتابه أكبرُ من نصيب سائر ممدوحيه : نعني أسرة بني طاهر وأسرة

بني وهب ، وهما أقوى وأغنى من حكم في ذلك الزمان من الأسر التي تصرفت في الدولة وتصدى أبناؤ ها للمدح والعطاء وتولية الأنصار وعزل الخصوم ، فلما مات محمد بن عبد الله بن طاهر وخسف القمر تحدث أهله وتحدث الناس أن القمر خسف لموته ، وكتب ذلك المؤ رخون فيما كتبوا من تاريخه ، وذكره ابن الرومي في بعض شعره فقال :

بات الأمير وبات بدر سمائنا هذا يودعنا وهذا يكسف
قمر رأى قمراً يجود بنفسه فبكى عليه بعبرة لا تذرف

وكسفت الشمس مرة فخاف القاسم بن عبد الله (بن سليمان بن وهب) أن يكون كسوفها مؤ ذنا بموت عظيم في الدولة وهلع لذلك فكان ابن الرومي هو الذي هدأ روعه ونصح له باللهو والسماع للتسرية عن نفسه وكتب اليه :

لا تهولنّك شمس كسفت دون أن تطلع من مغربها
هان ذاك الرزء فيها مثلما هان ما عزّك من مطلبها
هي نار وافقت مطفئها لست بالآيس من ملهبها
فابك من تشفق من معطبه فلقد أُومنت من معطبها
ضل باك أن أبيخت جمرة سوف تذكيها يدا مثقبها
ليس للشمس إذا ما كسفت غير شمس تخلف الشمس بها
من بنات الروم لا يكذبنا لونها المشرق عن منصبها

وإنها لفكاهة مضحكة من فكاهات الخطوب أن يكون ابن الرومي مهدّىء روع في هذا وهو أحوج إنسان إلى من يهدئ روعه ويذهب عنه الوجل من نذر الزمان وعلاماته ! !

فالخوف من شؤ م صاحبنا كان من أقوى أسباب فشله واجتنابه ، وفي بعض معاتباته إشارة صريحة إلى تطير أبناء طاهر وأبناء وهب من هذا الشؤ م واجتنابهم إياه بعد أن جاءتهم الدولة وزخرت لهم النعمة ، مخافةً على سعودهم أن يدركها طائف من شقائه ونحسه ، فكان يقول لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر يدفع عن نفسه هذه التهمة :

نحن ميامين على أننا على أعاديك مشائيم
لما دخلنا دخلت نعمة كان لها حولك تحويم
ولم يفخمك الذي نلته بل للعطايا بك تفخيم

وكان يقول للقاسم بن عبيد الله :

طلعت بأيمن ما طائر عليكم وأسعد ما طالع
فجاءتكم دولة غضة تفيأ في ثمر يانع

وكأنما كان حاسدوه ومزاحموه يعرضون بشؤمه لبني وهب وينسبون اليه ما يكره الوهبيون من رحلة أو مشقة ، فكان يبرأ اليهم ويسرع إلى تفنيد ما نسبوه اليه قبل أن يحسب عليه ، وما هو في حاجة عندهم إلى اختلاق الذنوب :

ولقد خفت والبريء ملقّى كل ذنب برأسه معصوب
أن يقول الوشاة بي إن شؤمي قاد هذا الشخوص، والافك حوب
وجوابي أن لم يغيبوا وشاهد تُ فزالت مخاوف ونكوب
أنا من لا يُشك في اليمن منه أو يمينُ ابن فجرة ويحوب
جئت والدولة السعيدة خلفي رأسها في مقادتي مجنوب

فحسب الانسان في ذلك العصر أن تلوح عليه شبهة من السعد أو النحس فيقال إنه مسعود أو منحوس ، ثم تلزمه التهمة وتلصق به طول حياته وتشتد لصوقاً به إذا كان في أحواله وأخلاقه ما يغري الناس بالالحاح فيها والاصرار عليها . وهل كان شيء من ذلك ناقصاً عند ابن الرومي ؟ كلا ! بل عنده كل شبهة النحس لأنه كان عالماً ذكياً ولا حظوة ولا جاه ، فما الذي يحول بينه وبين حظوة أمثاله إلا أن يكون الجد العاثر والطالع المشؤوم ؟ ولأنه فقد أباه وأمه وأخاه وزوجته وأبناءه وعاش بعدهم كئيباً حزيناًمستهدفاً للبلاء من الأيام والناس . وهل يفقد كلٌ هؤلاء ويعيش بعدهم في تلك الحال الا المنكود المرزأ المنحوس ؟ ولأنه مني كما رأينا بالجراد في ضيعته والحريق في ماله والضياع في عقاره . وهل يمنى بذلك ـ مع مصائب الموت والضنك ـ إلا من شمله النحس في شبكة لا نجاة منها لمشبوك ؟

ثم هل كان ابن الرومي مبرأ من تلك الخلائق التي تغري به أهل العبث والمجون فيلحون عليه بتهمة الشؤم ويتفكهون بما يؤلمه من ذلك ويؤذيه ؟ لا ! بل كان الرجل أول المتفائلين المتشائمين وأول من يسوغ للناس التباشر والتطير ، ولزمته الحجة من ذكائه وإدبار حظه ومن مصائبه في ذويه وصحبه ، فكان الذكاء نكبة عليه تعد في النكبات ، والمصائب ضعفين ما يصيبه من شرها وما يصيبه من سمعة نحسها وولع العابثين بالسخر منها ، وانه لمصاب عظيم . . .

ولقد رأينا أن أخاه أبا جعفر كان يكتب لرجل فعزل الرجل بعد مدة فعبث به أصدقاؤه آل أبي شيخ وقالوا له : « إنما عزله شؤمك » كأن حديث الشؤم والسعد كان حديثهم في كل نكبة وفي كل نعمة ، ولو أنصف القوم لكانوا كلهم مشؤومين منحوسين إذ كانوا كلهم قد فجعوا في الأصحاب والأنصار وشهدوا نكبات الأخيار والأشرار . وإذ كان ابن الرومي قد فقد أعداءه كما فقد أحبابه فلا فضل لشؤمه على سعده ولا رجحان لطوالع الخيرات فيه على طوالع الشرور . ولكنها الحظوظ التي لا تعرف القسط في الموازين !! ومن الحظوظ التي ألممنا بأسبابها أن يكون ابن الرومي منفرداً بسمعة الشؤم في ذلك العصر دون سائر المشؤومين !!

وسواد الناس لا ينصفون مختارين ، ثم هم لا ينصفون إذا كان الانصاف يكلفهم واجباً أو يحرمهم فكاهة يضحكون منها ! فليس لابن الرومي إذن إلا أن يبوء وحده بجريرة ضعفه وعقائد زمنه ، فغاية الحكم فيه أنه ولد مقضياً عليه بالفشل وعاش في زمن لا رحمة فيه لمثله ، ووجب أن يترك لقضائه يصنع به ما لا حيلة في دفعه .

إن من الباحثين من يرى أن رجال الفنون في الجماعة الانسانية كالأطفال في الأسرة لا بد لهم من رعاية تكتنفهم وأمداد قومية تغنيهم عن السعي لأنفسهم ، لأنهم لا يحسنون حيل السعي ولا يجيدون عملهم إذا تفرغوا لممارسة العيش وإتقان حيله ، فاذا التمس هؤلاء الباحثون مثلا يدعمون به رأيهم فما نخالهم يجدون في تاريخ الآداب مثلا أصلح من شاعر كابن الرومي في زمان عجيب متناقض كأواسط القرن الثالث للهجرة .

طيرته :

الطيرة شعبة من مرض الخوف الناشيء من ضعف الأعصاب واختلالها الذي أشرنا إليه في الكلام على مزاج الشاعر ، إلا أنها خوف خاص له بواعثه وأعراضه ، وهي في ابن الرومي خلة خاصة قد بلغت مداها ولبست ألواناً غير ألوانها في أكثر المتطيرين ، بحيث وجب أن نفردها بالبحث في هذه الكلمة ببعض التفصيل . .

فأصل البواعث التي أصابت ابن الرومي بداء الطيرة هو اختلال الأعصاب قبل كل شيء .

فالرجل السليم لا يتطير ولا يتشاءم ، لأنه ينتظر من الدنيا خيراً ولا يحس النفرة بينه وبينها ، ومن ثم لا يحس الخوف والتطير منها .

وقد تصادفه الحوادث كما تصادف الناس كافةً فتقع على نفسه موقعاً خفيفاً يملك معه عزمه ويضبط معه شعوره ، فهو في غنى عن الحذر والتوجس مذ كان يلقى الخطر ـ حين يلقاه ـ بعدة كاملة ونفس مطمئنة ، لا يتسلف الفزع منه قبل وقوعه ولا يفرط في الفزع منه متى وقع واستحال عليه دفعه . وقد تؤدي به هذه الطمأنينة إلى نقيض الطيرة ، فيحتجب عنه الخطر الصحيح والمتوهَّم على السواء ، ويستسلم للأمن الصادق والكاذب استسلام المتطير لكاذب الخوف وصادقه وظاهر الوهم ومكنونه ، فهو أبداً في حالة سلم وأمان ، إذ يكون المتطير أبداً في حالة حرب وارتياب .

هذه طبيعة السليم من حيث التطير خاصة والخوف من الطوارىء عامة

أما مختل الأعصاب فالصغائر مكبّرة في حسه والأشباح والأطياف كثيرة في وهمه ، يتخيل ويتوهم ، ثم يفزع مما يتخيل ويتوهم ، ثم يزيده الفزع من الأخيلة والأوهام . فان كان إلى ذلك شاعراً وكان خياله قوياً فللطيرة فيه مَعين لا ينضب من الخلق والابتكار والطوارق .

وتتوارد عليه المنبهات ـ وكل طارق في الدنيا منبه لأصحاب هذا المزاج ـ فيتيقظ فيه الشعور بالخطر ويلمح المخاوف حيث لا يلمحها الآخرون . كما هو الشأن في كل مستحضر للحذر متوقع للمفاجأة .

فأنت تسير في الطريق المأمون فلا تزعجك نبأة ولا يلفتك ما قد يوجب التلفت . ولكنك

إذا أدلجت في الأجمة المرهوبة واستحلك الليل حولك خيِّل إليك أنك تسمع في كل همسة فحيح أفعى وفي كل نفخة همهمة أسد وفي كل خبطة تليك هجمة عدو ينتحيك بمكروه ، وما اختلف على حسك بين الطريق المأمون والاجمة المرهوبة إلا اختلاف التوقع واستحضار الحذرَ من كل مجهول غير منظور ، وذلك هو موضع الاختلاف بعينه بين المتطيرين وغير المتطيرين .

ولقد كان ابن الرومي أوعى لنفسه من أن تخفى عليه طبيعة الحذر المركبة فيه : فهو يشعر من دخيلة طبعه بأنه حذور ، ويعلم ألا مفر له من الحذر فيتخذ من الضرورة فضيلة ـ كما يقولون ـ ويزعم أن الحذر باب الأمان :

فآمــن ما يكون المرء يوماً إذا لبس الحــذار من الخطوب

ويحتج لذلك بحجج كثيرة من القرآن والحديث والمنطق والروايات كما مر بك في أخباره ، ثم لا يشك في أنه محق مصيب ضعفت حجته أو قويت وصدقت محاذيره أو كذبت . لأن الحجة في العقائد الشعورية تلحق العقيدة ولا تسبقها ، وتؤكدها إذا وافقتها ولكنها لا تفندها إذا عارضتها .

ومن روافد الطيرة في ابن الرومي ذوق الجمال وتداعي الخواطر فالنفس المطبوعة على ذوق الجمال تفرح وتتهلل للمناظر الجميلة السوية وتنفر وتنقبض من المناظر الدميمة الشائهة . ويصاحب الفرحَ الاقبالُ والاستبشار والرغبةُ ، ويصاحب النفورَ الحزن والانكارُ والتشاؤمُ والكراهةُ ، وليس أقرب من المسافة بين النفور والطيرة إذا دق الحس وغلب عليه الحذر وأصبح الانقباض عنده نذيراً يثنيه ويقتضب عليه طريق أمله .

أما تداعي الخواطر فصاحبه أبداً يستخرج من الكلمة أو الفكرة غاية ما تؤدي إليه وتتقلب عليه : ومتى كانت طبيعته الحذر ومزاجه مركباً على التشاؤم فليس أسهل من اتجاهُ خواطره السريعة إلى حيث ألفت طبيعته واستمر مزاجه .

فلكل كلمة عنده سر ولكل سر مخافة ! ويسير عليه أن يعرف ذلك السر ويكشف تلك المخافة لأنه سريع حركة الذهن يتنقل كومضة البرق بين المعاني ومشابهاتها ومناقضاتها وبين الكلمات وما يجانسها ويشاكل حروفها وأوزانها ، فلا يشق عليه أن يعثر بطلبته الموافقة لنزعة طبعه ومتوجهٌ ذهنه عند معنى من تلك المعاني ومشاكلة من تلك المشاكلات .

وذوق الجمال وتداعي الخواطر كانا في ابن الرومي على أدق وأيقظ ما يكونان في إنسان . كانت له عين خاطفة تلتهم الألوان والأشكال التهام الجائع المنهوم الذي لا يشبع . وقد

عرفنا أمثلة من ذلك في دقة تشبيهاته وإحكام صوره وغرابة التفاته إلى مواقعَ للنظر لا يلتفت إليها شاعر غيره. وسنعرف أضعاف ذلك عند الكلام على عبقريته وفنه وأسلوبه في تناول الحس وتصويره .

ثم كان مع هذه النظرة الخاطفة يشنأ القبح ويحسبه ذنبا يُعاف ويُستر ، وكان يبالغ في إخفائه من نفسه إذا ابتلي به كما كان يبالغ في إخفاء صلعه والسخط على من يسألونه عنه ! فالقبح عنده شر أو نذير بالشر ، ولا يرى الأحدب أو الأعور أو الخصيّ او الأشقر الذي يحكي لون وجهه لون الجلد المسلوخ أو غيرهم من المشوهين الخارجين عن سواء الخلقة إلا انقبضت نفسه وأسرع إليه ما يلازم الانقباض من التوجس والحذر والوجوم .

وتداعي الخواطر ملحوظ في جميع شعره لا يستدل منه بغرض دون غرض ولا بقصيدة دون قصيدة ، فهو يُسلسل المعنى ويشعّبه حتى يُستنفد ، وكلما عنَّ له خاطر لحق به ما يقاربه وما يناسبه حتى تبطل المناسبة ويضطر إلى الوقوف . هذا في المعاني . أما في الألفاظ فانه يغوص في تصحيف حروفها مثل هذا الغوص ويستخرج البعيد والقريب من رموزها وقراءتها ويستنبط منها ما يشاء من ملامح اليمن والشؤم ودفائن المدح والذم . . فجعفر عنده تساوي « جاع وفر » والخان يذكره بالخيانة .

فكم خان سَفـر خان فانقض فوقهم
كما انقض صقـر الدَّجـن فوق الأرانب

ويلعب بتصحيف الكلمات في السمع والخط أحياناً لينقلها إلى المدح أو الهجاء فيقول في القيان :

لا تلـح من تفتنـه « قينةٌ » فان تصـحيف اسمهـا « فتنة »

ويقول فيمن اسمه ابن « هرثمة » .

عائـذٌ دهـرَه إذا سطـع النقـع بمعنـى مصـحّف اسـم أبيه

وتصحيف هرثمة هو « هزيمة » .

ويجعل عمر « عيراً » بقوله :

يا عمـرو لو قلبـت ميم مسكنة ياء محـركة لم تخطـىء الفقر

أو يفعل ذلك في الاسم الواحد ممعناً أشد الامعان في استخراج التصحيف للمدح والذم

كما فعل في اسم اسحاق مادحاً وهاجياً فقال وهو يمدح :

واسلم أبا اسحاق لابس غبطة ... وعداك للابعاد والاسحاق

وقال وهو يهجو وأبعدَ جداً في تصحيفه :

يا أبا اسحاق واقلب نظم اسحاق وصحف
واترك الحاء على حا ل فما للحاء مصرف
يشهد الله لقد أصبحـ ـت عين المتخلف

فتبدلَ اسم « اسحاق » بعد قلبه وتصحيف قافه فاء وسينه شينا واثبات حائه على حالها فخرج من هذه العملية الطويلة « فاحشا » . . . وليس بينه وبين الأصل صلة كما ترى إلا ما عرض له من التصحيف والتحريف من أبعد طريق .

وقد يذهب ذهنه إلى الصورة التي تنقلب إليها الأسماء بعد اللثغ المضاعف كما قال في أبي علي بن أبي قرة :

أنت عندي وشيخك السيد الما ... جد لا شك صادقا الكُنيتين
ليس في منطق الفصيح ولكن ... حين يحكيكما أخو لثغتين
مبدلٌ لام كل لفظ بياء ... مبدلٌ قاف كل لفظ بغين

فيصبح علي بن أبي قرة في لغة الألثغ وهو عَيِي بن أبي غية بكسر الغين ! ولولا السرعة في تداعي الخواطر وخلق المناسبات لما وصل إلى هذا التصحيف في الاسمين .

وقد يعكس اللفظ ليستخرج منه فألا لغيره كما صنع بكلمة « سكّان » حين انحدر العلاء ابن صاعد يريد واسطاً فتحركت ريح الجنوب حركة عظمت معها الأمواج فانكسر السكان فرجع . فقال ابن الرومي :

رأيت منكسر السكان ظاهره ... هول وتأويله فأل لمنجاكا
. . . .
لأن لفظة « سكان » اذا قلبتْ ... حروفها « ناكس » لا شك في ذاكا

وان عقلاً كهذا العقل المطبوع على سرعة التنقل بين المعاني والالفاظ وما يتفرع عليها ويتسلسل منها ليس بالغريب أن يهتدي إلى مكامن الطيرة والشؤم في كل معنى وكل كلمة ، ولا سيما إذا رانت على نفسه الخيبة وقدّر الفشل في كل خطوة واقترن ذلك

بالاحساس المتوفز المتربص الذي لا تضبطه عزيمة ولا تحكمه صرامة في الفطرة .

وتداعي الخواطر بهذه السرعة من الحالات التي تتقارب فيها العبقرية والجنون كما تقدم في الكلام على مزاج الشاعر ، فيثب العبقري في لمحة عين من المعنى الى شبيهه أو نقيضه ويصل بين القطبين البعيدين بسلسلة من المشابهات والمناقضات دقيقة الحلقات لا يتبينها الناظر الا بعد التوضيح والجهد الجهيد في التنبه لمداخلها وتعقب أوصالها والجري معها جرياً يتعبه ولا يسره لأول وهلة . وتسمع المجنون يتكلم فاذا هو يخلط ويأتي بالمفارقات ولكنه في داخل ذهنه يجمع بينها بمناسبات تقرب منها ما نأى وتؤلف ما تبعثر ، غير أن الجنون عقيم منبت والعبقرية مثمرة نافذة . وهذا هو الفرق الكبير بين الشذوذين المتناقضين أي بين أسمى ما يرتقي اليه الذهن وأوضع ما ينحدر إليه .

واليك مثلا هذه الأبيات التي قالها ابن الرومي في هجاء ابن طالب الكاتب :

أزيرق مشؤوم أحيمر قاشر ... لأصحابه ، نحسٌ على القوم ثاقب
وهل أشبه المريخَ الا وفعله ... لفعل نذير السوء شبهٌ مقارب
وهل يتمارى الناس في شؤم كاتب ... لعينيه لون السيف والسيف قاضب
ويدعي أبوه طالباً وكفاكم ... به طيرة ان المنية طالب
ألا فاهربوا من طالب وابن طالب ... فمن طالب مثليهما طار هارب

فبهذا المثل نستطيع أن نتتبع مداخل الطيرة الى نفس ابن الرومي من جانب « ذوق الجمال » ومن جانب « تداعي الخواطر » في وقت واحد ، ونستطيع أن نراقب ذهنه وهو يعمل في حركته السريعة بين الأشكال والألوان والألفاظ والمعاني كما نراقب البنية الحية وهي تعمل من وراء المجاهر والكواشف . فانظر الى لون الوجه « الاحيمر » القاشر والى نذير السوء والبلاء أين هما وماذا يجمع بينهما من الصلة والمناسبة ؟ لا صلة ولا مناسبة ! ولكن ضع بينهما المريخَ ولونه الأحمر ثم ضع مع المريخ ما اقترن به في الاساطير من خصائص الحرب والفتنة تنتظم العلاقة وتنعقد المناسبة من جميع أطرافها ، وقلْ مثل ذلك في لون العين ولون السيف القاضب ! وفي « الطالب » الذي لا يقابله الا « الهارب » وفي « الطلب » الذي يعقد الشبه بين الموت وذلك الكاتب ! وفرّق هذا كله فاذا هو أبعد المتفرقات . . واجمعه كما جمعه ابن الرومي فاذا هو أقرب المناسبات وألزم العلاقات .

ولقد ضاعف العصرُ ما في نفسه من الاستعداد للطيرة من هذه الجوانب الكثيرة فاستعصى عليه علاجها وسهلت عليه مطاوعتها والاغراق فيها . فقد كان أصح الأصحاء في عصره

يصدق الطوالع ويؤمن بالسعد والنحس والتفاؤل والتشاؤم ، فرعم ابن الرومي أن الطيرة موجودة في الطبائع وأنه ما من أحد إلا يتفاءل بأشياء ويتشاءم بأشياء ويتخذ العلامات من ظواهر الزمان لخفاياه ، ومن فلتات لسانه لما في دخائل ضميره !

وكثر التصحيف في زمنه ، بل كثر في بيت من بيوت الرؤساء التي اتصل بها وتردد عليها في مجالس سمرها ولهوها ، وهو بيت بني طاهر ولاة الحكم في خراسان والشرطة ببغداد . ومن رؤوسه عبد الله بن طاهر الذي قال ملغزاً في اسم ظريف :

اسم من أهواه اسمٌ حسن فاذا صحَّفته فهو حسن
فاذا أسقطت منه فاءه كان نعتاً لهواه المختزن

الخ الخ . . .

ومن رؤوسه عبيد الله الذي كان يعرض الشعر على ابن الرومي ويقترح عليه تصحيفه كما ترى في ديوانه .

فتمكنت عادة التصحيف في ذهنه وجاءت الطيرة فوجدت منها أداة صالحة لخلق دلائل الشؤم واستنباط الاشارات الخفية من ظواهر المعاني والألفاظ .

على أننا ـ مع توافر هذه البواعث في مزاجه وعصره ـ نلاحظ أن الروايات التي ذكرت عن طيرته لا ترجع واحدةٌ منها إلى ما قبل الخمسين من عمره ، فرواية ابن المسيّب التي يقول فيها ان ابن الرومي فزع من رؤية الحول والعور في المهرجان ترجع إلى مهرجان سنة ثمان وسبعين ، أي حين كان ابن الرومي في السابعة والخمسين . والنوادر التي حكيت عن الأخفش لا يُظن أنها حدثت قبل نيف وسبعين ومائتين ، لأن الزبيدي يخبرنا أن الأخفش كان له تلاميذ يملي عليهم هجاء ابن الروم فيه ، ويغلب ألا يكون للعالم حلقة يجلس فيها للتدريس قبل الثلاثين . والأخفش مات سنة ست عشرة وثلاثمائة عن نحو ثمانين سنة ، فكان ابن الرومي في الخمسين حين جاوز الأخفش الثلاثين .

والرواية التي نقلت عن إبراهيم كاتب مسروق البلخي وحضرها برذعة الموسوس صاحب المعتضد ترجع إلى أيام المعتضد الذي تولى الخلافة سنة تسع وسبعين ومائتين أي حين بلغ ابن الرومي الثامنة والخمسين فيرجح أن الطيرة الشديدة في ابن الرومي كانت عارضاً من عوارض الشيخوخة ، وانه أفرط بعدما ابتلى من الآلام والأحزان وساورته المخاوف من كل جانب وقل حوله المؤاسي والرفيق ، وللشيوخ كافة ميل إلى تصديق

الأساطير واستطلاع الغيوب وما يدخل في باب العيافة والزجر على العموم . فابن الرومي في شيخوخته أحجى أن يصاب بهذه العاقبة التي ادخرها له المرض والمزاج والعصر وحوادث الأيام .

إلا أننا يجب أن نحسب هنا حساباً للمبالغة التي تدخل على كل شهرة وتغري الناس باختراع الأقاويل واضافة النوادر الشائعة عن كل صفة غريبة إلى الشخص الذي يشتهر بتلك الصفة ويتفرد فيها بالظهور . فقد يكون الموضوع من أخبار هذه الطيرة أكثر من الصحيح ، وقد يكون الصحيح مشوباً بالمبالغة والاطناب .

عقيدته

تقدم في الكلام على الحالة الدينية في القرن الثالث للهجرة انه كان عصراً كثرت فيه النحل والمذاهب وقل فيه من لا يرى في العقائد رأياً يفسر به اسلامه ، وبخاصة بين جماعة الدارسين وقراء العلوم الحديثة .

فابن الرومي واحد من هؤلاء القراء لا ننتظر أن تمر به هذه المباحث التي كان يدرسها ويحضر مجالسها ويسمع من اهلها بغير أثر محسوس في تفسير العقيدة . فكان مسلماً صادق الاسلام ولكنه كان شيعياً معتزلاً قدرياً يقول بالطبيعتين ، وهي أسلم النحل التي كانت شائعة في عهده من حيث الايمان بالدين .

وقد قال المعري في رسالة الغفران ان البغداديين « يدعون أنه متشيع ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية » ثم عقب على ذلك فقال : « ما أراه الا على مذهب غيره من الشعراء » .

ولا ندري لماذا شك المعري في تشيعه لأنه « على مذهب غيره من الشعراء » . فان الشعراء إذا تشيعوا كانوا شيعة حقاً كغيرهم من الناس وربما افرطوا فزادوا في ذلك على غيرهم من عامة المتشيعين ، وانما نعتقد أن المعري لم يطلع على شعره كله فخفيت عنه حقيقة مذهبه ، ولولا ذلك لما كان بهذه الحقيقة من خفاء .

على أن القصيدة الجيمية وحدها كافية في اظهار التشيع الذي لا شك فيه ، لأن الشاعر نظمها بغير داع يدعوه إلى نظمها من طمع أو مداراة ، بل نظمها وهو يستهدف للخطر الشديد من ناحية بني طاهر وناحية الخلفاء ، فقد رثى بها « يحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن علي » الثائر في وجه الخلافة ووجه ابناء طاهر ولاة خراسان ، وقال فيها يخاطب بني العباس ويذكر « ولاة السوء » من ابناء طاهر :

أجنوا بني العباس من شنآنكم ... وأوكوا على ما في العياب واشرجوا[1]
وخلوا ولاة السوء منكم وغيبهم ... فأحر بهم أن يغرقوا حيث لججوا
نظار لكم أن يرجع الحق راجع ... الى اهله يوماً ، فتشجوا كما شجوا
على حين لا عذرى لمعتذريكم ... ولا لكم من حجة الله مخرج

---

(١) وكى القربة ربطها واشرجها صمها والمقصود : اخفوا يابني العباس ما فى صدوركم من بغض العلويين .

فلا تلقحوا الآن الضغائن بينكم وبينهم ، ان اللواقح تنتج
غررتم ، لئن صدقتم أن حالة تدوم لكم ، والدهر لونان اخرج
لعل لهم في منطوى الغيب ثائراً سيسمو لكم،والصبح في الليل مولج

فماذا يقول الشيعي لبني العباس اقسى واصرح في التربص بدولتهم وانتظار دولة العلويين من هذا الكلام ؟ فقد أنذر بني العباس بزوال الملك وكاد يتمنى - او تمنى - لبني علي يوماً يهزمون فيه اعداءهم ويرجعون فيه حقهم ويطلبون تراثهم وينكلون بمن نكل بهم : وهواه ظاهر مع العلويين لا مداجاة فيه كهوى كل شيعي في هذا المقام . على انه كان اظهر من هذا في النونية التي تمنى فيها هلاك اعدائهم ولام نفسه على التقصير في بذل دمه لنصرتهم :

إن يوالي الدهر اعدام كم فلهم فيه كمينٌ قد كمن
خلعوا فيه عذار المعتدي وغدوا بين اعتراض وارن [1]
فاصبروا يهلكهم الله لكم مثل ما اهلك اذواء اليمن
. . . .
قرب النصر فلا تستبطئوا قرب النصر يقيناً غير ظن
ومن التقصير صوني مهجتي فعل من اضحى الى الدنيا ركن
لا دمي يُسفك في نصرتكم لا ولا عرضي فيكم يمتهن
غير أني باذل نفسي وان حقن الله دمي فيما حقن
ليت اني غرض من دونكم ذاك ، او درع يقيكم ومجن
أتلقى بجبيني من رمى وبنحري وبصدري من طعن
ان مبتاع الرضى من ربه فيكم بالنفس لا يخشى الغبن

وليس يجوز الشك في تشيع من يقول هذا القول ويشعر هذا الشعور ، فانه يعرّض نفسه للموت في غير طائل حبا لبني علي وغضباً لهم واشهاراً لعاطفة لا تفيده ولا تفيدهم ، وقد كان لا يذكر يحيى بن عمر الا بلقب الشهيد كما ذكره في القصيدة الجيمية وفي خاطرة اخرى مفردة نظمها في هذين البيتين :

كسته القنا حلة من دم فاضحت لدى الله من ارجوان

---

(1) الارن النشاط واظهار القوة

جزتـــه معانقـــة الدارعـ ـين معانقـــة القـــاصرات الحسان

وبعض هذا يكفي في الدلالة على تشيعه للطالبيين واتخاذه التشيّع مذهباً في الخلافة كمذهب الشعراء ، او غير الشعراء . . ولا سيما التشيع المعتدل الذي يقول اهله بجواز امامة المفضول مع وجود الافضل ويستنكرون لعن الصحابة الذين عارضوا علياً في الخلافة، ومعظم هؤلاء من الزيدية الذين خرجوا في جند يحيى بن عمر لقتال بني العباس .

فهم لا يقولون في نصرة آل علي اشد مما قال ابن الرومي ولا يتمنون لهم اكثر مما تمنى .

ويلوح لنا ان ابن الرومي ورث التشيع وراثة من امه وابيه ، لأن امه كانت فارسية الأصل فهي اقرب إلى مذهب قومها الفرس في نصرة العلويين ، ولأن اباه سماه علياً وهو من أسماء الشيعة المحبوبة التي يتجنبها المتشددون من انصار الخلفاء ، ولا حرج على ابي الشاعر ان يتشيع وهو في خدمة بيت من بيوت العباسيين ، لان مواليه كانوا اناساً بعيدين من الخلافة وولاية العهد وهما علة البغضاء الشديدة بين العباسيين والعلويين ، وقد اتفق لبعض الخلفاء وولاة العهد انفسهم انهم كانوا يكرمون عليا وابناءه كما كان مشهوراً عن « المعتضد » الخليفة الذي اكثر ابن الرومي من مدحه ، وكما كان مشهوراً عن « المنتصر » ولي العهد الذي قيل انه قتل اباه « المتوكل » جريرة ملاحاة وقعت بينهما في الذب عن ـ حرمة علي ـ وآله .

ومع هذا لم يخطىء المعري حين ظن أن للشعراء تشيعاً غير تشيع الدين والعصبية ، اذ كان الشعراء في كل زمن يؤخذون بالعاطفة وتستجيشهم البواعث الحية التي تجيش لها القلوب من حولهم ، وكانت العاطفة ابداً مع بني علي حيث كانت المصلحة ابداً مع بني العباس . وقد برز هذا الفارق في مقتل يحيى بن عمر خاصةً لانه كان محبوباً معطوفاً عليه لشجاعته ونخوته وكرم نفسه وشبابه وجماله ، وكان معذوراً في خروجه على العباسيين لأنهم حرموه رزقه حتى عز عليه القوت وجاع واترب وتبين ذلك لأنصاره فكانوا يعرضون عليه الطعام فيأباه ، ويقول : « ان عشنا اكلنا » . . وفي ذلك يقول ابن الرومي من القصيدة الجيمية :

أفي الحق أن يمسوا خماصاً ، وانتم يكاد اخوكم بطنه يتبعج
وتمشون مختالين في حجراتكم ثقال الخطى اكفالكم ترجرج

وليدهـم بادي الضـوى ، ووليدكـم　　　من الـريف ريان العظـام خدلج

وقد بلغ من حبه في قلوب الناس انه لما قتل التمس قتلته احداً يعالج راسه كما تعالج رؤ وس القتلى لتحفظ وتنصب فاعياهم ان يجدوه ، وطال بحثهم عنه حتى عثروا برجل من اراذل السوقة رضي ان يصنع بالرأس ما لم يرضه الآخرون . ثم ارادوا نصبه في بغداد ، فهاج اهلها وماجوا وخيفت الفتنة فانزلوه ولما يكد يرفع ، ولم يعرف في تاريخ الطالبيين احد حزن الناس لموته واضطربوا كحزنهم واضطرابهم لقتل يحيى بن عمر . ففي غضب ابن الرومي شيء كثير من غضب الشاعرية او من غضب السليقة الحساسة التي لا يسعها ان تهدأ وتفتر والقلوب حولها جائشة والصدور مكظوظة والطبائع نافرة . ولا ننس انه رثى يحيى وهو دون الثلاثين في سن للعاطفـة عليهـا سلطـان عظيم وللحـزم عليهـا سلطـان ضعيف .

ولكن اتراه ـ لولا العقيدة ـ كان يكرر هذا الغضب ويخرج هذا الخروج عن الحذر ؟ اكان يجازف بحياته ويقول في النونية اشد مما قال في الجيمية التي هيج لها هذا الهياج وساوره فيها الحزن كما ساور الوف المحزونين ؟

***

وبعد فيجب أن نذكر في هذا السياق أن ابن الرومي رثى محمد بن عبد الله بن طاهر الذي تولى حرب يحيى وجلس لقبول التهنئة بقتله . ففي هذه الملاحظة ما يجوز أن يلقي الشبهة على جده في التشيع ولدده في الخصومة للمذهب . فاذا اردنا أن نذكر ذلك وجب أن نذكر معه اموراً كثيرة تصحح تلك الملاحظة وترد تلك الشبهة . وهي : أن ابن الرومي لم يكن قط لدوداً في خصومة ولا صارماً في عصبية ، وان محمد بن عبد الله بن طاهر مات بعد مقتل يحيى بثلاث سنوات سكنت فيها سورة الحزن وفترت حدة الغضب ، وان ابناء طاهر كانوا حماة لابن الرومي يمدحهم ويرثيهم ويختلف الى قصورهم ويدخل فيما بينهم من منافسة ومصالحة بين اقطابهم . فأولى أن نذكر هنا أنه نسي ذلك كله وهجاهم وثار عليهم في سورة الحزن ورماهم بما نسميه الآن « الخيانة العظمى » واتهمهم بالكيد لبني علي وبني العباس على السواء وانهم يأتمرون بالدولة العربية الاسلامية ليقيموا على انقاضها دولة الفرس القديمة ؟ فقال لهم في القصيدة الجيمية انكم لو امكنتكم في الفريقين فرصة . .

اذن لاستقدتـم منهما وتـر فارس　　　وان ولياكم ، فالوشائـج اوشج
ابى أن تحبوهـم يد الدهـر ذكركم　　　ليالي لا ينـك منـكم متوج

وانـي على الاسـلام منـكم لخائف بوائـق شتـى بابهـا الآن مرتج

وتلك سورة متشيع ناقم لا يبالي ما يقول وقد ملكه الحزن ونسي العواقب وراح يخبط في تهم وحزازات كان أهونها يطير بالرأس في تلك الأيام .

ويصح أن نذكر بعدما تقدم أن الطاهريين كانوا في بواطنهم متشيعين يضطرون اضطراراً الى حرب بني علي وقبول التهنئة بموتهم كما كان الطالبيون انفسهم يضطرون الى شهود محافل التهنئة وهم مطويون على الحزن الأليم والثأر المقيم . ويقول ابن الأثير ان سليمان بن عبد الله بن طاهر انهزم اختياراً في حرب الحسن بن زيد العلوي الذي ثار بعد مقتل يحيى بن عمر « لان الطاهرية كلها كانت تتشيع » . فلما اقبل الحسن بن زيد الى طبرستان تأثم سليمان من قتاله لشدته في التشيع وقال :

نبئت خيل ابـن زيد أقبلـت حينا تريدنـا لتُحسينـا الامرينا
يا قوم إن كانـت الأنبـاء صادقةً فالـويل لي ولجمـع الطاهريينا
امـا أنـا فاذا اصطفـت كتائبنا اكون من بينهـم رأس المولينا
فالعـذر عنـد رسـول اللـه منبسط اذا احتسبـت دمـاء الفاطميينا

وتشيع الطاهريين معقول مرجح لأنهم كانوا فرساً يوافق هواهم هذا المذهب ، ويصلح عندهم ذريعةً لقلب الدولة وتجديد ملك فارس وقيام الدولة الطاهرية . فرثاء الشاعر رجلاً من الشيعة ـ على هذا الاحتمال ـ أمر لا غبار عليه من هذه الوجهة ولا شبهة فيه على صدق الميل والجد في العقيدة .

وان احق عقيدة أن يجد المرء فيها لعقيدةٌ تجرئه اذا خاف ، وتبسط له العذر والعزاء اذا سخط من صروف الحوادث ، وتمهد له الأمل في مقبل خيرٍ من الحاضر وادنى منه إلى كشف الظلامات ورد الحقوق ، وكل اولئك كان ابن الرومي واجده على أوفاه في التشيع للعلويين اصحاب الامامة المنتظرة في عالم الغيب على العباسيين اصحاب الحاضر الممقوت المتمنى زواله ، فلهذا كان متشيعاً في الهوى متشيعاً في الرجاء متشيعاً في الرأي الذي وافق الهوى والرجاء ، وكان « على مذهب غيره من الشعراء » وعلى مذهب غيره من سائر المتشيعين .

***

أما الاعتزال فابن الرومي لا يكتمه ولا يماري فيه ، بل يظهره اظهار معتز به حريص عليه ، فمن قوله في ابن حريث :

معتـزلي مسر كفر يبـدي ظهـوراً لهـا بطون

أأرفض الاعتزال رأياً كلا ! لاني به ضنين
لو صح عندي له اعتقاد مادنت ربي بما يدين

يقول : ان ابن حريث هذا يبطن الكفر ويظهر الاعتزال وهو الايمان الصحيح في رأي المعتزلة ، ثم يقول : اتراني إذن ارفض الاعتزال لأن ابن حريث يدعيه ؟ فيجيب نفسه : كلا ! لأني اضن به ، واعلم أن عقيدة ابن حريث الباطنة غير الاعتزال ، ولولا علمي بذلك ما دنت ربي بما يدين .

وكان مذهبه في الاعتزال مذهب القدرية الذين يقولون بالاختيار وينزهون الله عن عقاب المجبر على ما يفعل . وذلك واضحٌ من قوله يخاطب العباس بن القاشي ويناشده صلة المذهب :

ان لا يكنْ بيننا قربى فآصرةٌ للدين يقطع فيها الوالد الولدا
مقالة « العدل والتوحيد » تجمعنا دون المضاهين من ثنى ومن جحدا
وبين مستطرفي غي مرافقةٌ ترعى، فكيف اللذان استطرفا رشدا
كن عند اخلاقك الزهر التي جعلت عليك موقوفةً مقصورةً ابدا
ما عذر « معتزلي » موسر منعت كفاه معتزلياً مقتراً صفدا
أيزعم القدر المحتوم ثبّطه ؟ ان قال ذاك فقد حل الذي عقدا
أم ليس مستأهلا جدواه صاحبه ؟ أنّى : وما جار عن قصد ولا عندا
ام ليس يمكنه ما يرتضيه له ؟ يكفي اخا من اخ ميسور ما وجدا
لا عذر فيما يريني الرأي اعلمه للمرء مثلك الا ياتي السددا

فواضح من كلامه هذا انه « معتزلي » وانه من اهل « العدل والتوحيد » وهو الاسم الذي تسمى به القدرية لانهم ينسبون العدل الى الله فلا يقولون بعقوبة العبد على ذنب قضى له وسيق اليه ، ولأنهم يوحدون الله فيقولون ان القرآن من خلقه وليس قديماً مضاهياً له في صفتي الوجود والعدم . وقد اختاروا لانفسهم هذا الاسم ليردوا به على الذين سموهم « القدرية » ورووا فيهم الحديث « القدرية مجوس هذه الامة » فهم يقولون : ما نحن بالقدرية لأن الذين يعتقدون القدر أولى بان ينسبوا اليه . إنما نحن من أهل العدل والتوحيد لاننا ننزه الله عن الظلم وعن الشريك .

واضحٌ كذلك من كلامه انه يعتقد حرية الانسان فيما ياتي من خير وشر ويحتج على زميله بهذه الحجة فيقول له لم لا تثيبني ؟ ان قلت ان القدر يمنعك فقد حللت ما اعتقدت من

اختيار الانسان في افعاله ،

وان قلت انك لا تريد فقد ظلمت الصداقة واخللت بالمروءة .

وله عدا هذا أبيات صريحة في اعتقاد « الاختيار » وخلق الانسان لأفعاله كقوله :

لولا صروف الاختيار لاعنقوا ... لهوي ، كما اتسقت جمال قطار

وقوله :

أنى تكون كذا وأنت مخير ... متصرف في النقض والامرار

وقوله :

الخير مصنوع بصانعه ... فمتى صنعت الخير اعقبكا
والشر مفعول بفاعله ... فمتى فعلت الشر اعطبكا

إلا انه كان يقول بالقدر في تقسيم الأرزاق وأن :

الرزق آتٍ بلا مطالبة ... سيان مدفوعه ومجتذبه

ويقول :

أما رأيت الفجاج واسعة ... والله حيا والرزق مضمونا

ولا تناقض عند القدرية في هذا لأنهم يقولون بالاختيار فيما يعاقب عليه الانسان ويثاب لا فيما يناله من الرزق وحظوظ الحياة . ومن العزاء لابن الرومي ان يكون الرزق مضموناً مقدراً لأنه امان له من مخاوف الغد المجهول وراحة من إلقاء التبعة على نفسه فيما اصابه من الخذلان والتخلف .

اما القول بالطبيعتين فأوضح ما يكون في قوله :

فينا وفيك طبيعة أرضية ... تهوي بنا أبدا لشر قرار
هبطت بآدم قبلنا وبزوجه ... من جنة الفردوس افضل دار
فتعوضا الدنيا الدنية كاسمها ... من تلكم الجنات والانهار
بئست لعمر الله تلك طبيعة ... حرمت ابانا قرب أكرم جار
واستأسرت ضعفى بنيه بعده ... فهم لها اسرى بغير اسار
لكنها مأسورة مقسورة ... مقهورة السلطان في الاحرار
فجسومهم من اجلها تهوي بهم ... ونفوسهم تسمو سمو النار

لولا منازعة الجسوم نفوسهم نفذوا بسورتها من الاقطار[1]
او قصروا فتناولوا بأكفهم قمر السماء وكل نجم سار

وكأن الفارسية هنا تسربت إلى اقوال المعتزلة كما تسربت الى كثير من افكار الثقافة العربية . فان القول بالطبيعتين من أقدم ما عرف من ديانة الفرس قبل اديان بني اسرائيل وقبل النصرانية والاسلام . فلما جاء التوحيد الاسلامي ابطل التثنية ولم يبطل النزاع بين الخير والشر والنور والظلام ، فجاز للمسلم أن يؤمن بالطبيعتين على ان يؤمن بالوحدانية ولا يشرك الشر في تدبير الوجود .

والى هنا تكلمنا عن مذهبه ولم نتكلم عن « فطرته الدينية » او عن قوة الايمان في نفسه .

والفرق بين الامرين لا يحتاج إلى شرح طويل . فان الناس قد يختلفون في المذهب أبعد اختلاف ويتفقون في « الفطرة الدينية » اقرب اتفاق ، فربما رأيت ألف رجل يدينون بكل مذهب في فجاج الأرض وهم على الرغم من ذلك أصحاب « فطرة دينية واحدة » مطبوعون على حماسة الدين أو مطبوعون على حب التقديس والعبادة ، يتفقون في هذه الفطرة ، ويخرج كل منهم إلى معبده فاذا واحدٌ منهم ذاهب إلى المسجد والثاني الى الكنيسة والثالث إلى البيعة والرابع الى بيت الأصنام ، او يتفقون على هذه الفطرة ، ويخرج كل منهم الى قتال الآخرين بتلك الغيرة القوية التي يقاتله بها اولئك الآخرون . فالفطرة الدينية توجد في انصار كل مذهب وملة ، اما المذهب والملل فلا نهاية لها في التعدد والافتراق .

وابن الرومي كان مفطوراً على التدين لانه كان مفطوراً على التهيب والاعتماد على نصير ، وهما منفذان خفيان من منافذ الايمان والتصديق بالعناية الكبرى في هذا الوجود . ومن ثم كان مؤمناً بالله خوفاً من الشك ، مقبلاً على التسليم بسيطاً في تسليمه بساطة من يهرب من القلق ويؤثر السكينة الى شيء من الاشياء ، وبلغ من بساطته انه كان ينكر على الحكماء شكهم في حفظ اجساد الاتقياء بعد الموت وحسبانه من فعل الدواء والحنوط . فقال لابن ابي ناظرة حين تذوق بعض الاجساد ليعلم ما فيها من عوامل البقاء .

يا ذائق الموتى ليعلم هل بقوا بعد التقادم منهم بدواء
بينت عن رعة وصدق امانة لولا اتهامك خالق الاشياء

---

(١) اقطار السموات .

احسبت ان الله ليس بقادر ... ان يجعل الاموات كالاحياء
وظننت ما شاهدت من آياته ... بلطيفة من حيلة الحكماء

ومات وهو يقول في ساعاته الاخيرة :

ألا إن لقاء اللـ ... ـه هول دونه الهول

وما كانت الطيرة عنده الا شعبة من ذلك « التهيب » الديني الغريزي فيه . فهو يتفلسف ويرى الاراء في الدين ولكن في حدود من الشعور لا في حدود من التفكير ، ولهذا كان الفنان ولم يكن الفيلسوف .

وليس من « الاجتراء » انه قال بالاختيار ، ورأى له في الدين رأياً غير ما اصطلح عليه السواد . فانه كان يحيل الذنب على الانسان وينفي الظلم عن القدر في العقاب والثواب ويتصور الله على احسن ما يتصور المتفلسف مثله إلهه ، فكأنما جاءه هذا الرأي من محاباة عالم الغيب لا من الاجتراء عليه ، وانما دفع به الى رأي المعتزلة مخاوف الشكوك التي كانت تخامره فلا يستريح حتى يسكن فيها الى قرار وينتهي من التفكير فيها الى بر الامان ، ولذلك كان يأوي الى الاصدقاء يكاشفهم بما في صدره ويستعين بهم على تفريج غمته :

ويدمج اسباب المودة بيننا ... مودتنا الابرار من آل هاشم
واخلاصنا التوحيد لله وحده ... وتذبيبنا عن دينه في المقاوم
بمعرفة لا يقرع الشك بابها ... ولا طعن ذي طعن عليها بهاجم
وإعمالنا التفكير في كل شبهة ... بها حجة تعيي دهاة التراجم
يبيت كلانا في رضا الله ماحضاً ... لحجته صدراً كثير الهماهم

بيد ان « الايمان » شيء واداء الفرائض الدينية شيء آخر ، فقصارى الايمان عنده انه يؤمّنه بقرب آل البيت وتنزيه ربه والاطمئنان الى عدله ورحمته ، ثم يدع له سبيله يلعب ويمرح كلما لذ له اللعب والمرح ، ولا أهلا بالصيام اذا قطع عليه ما اشتهى من لذة وأرب :

فلا اهلا بمانع كل خير ... واهلا بالطعام وبالشراب

بل لا حرج عليه اذا قضى ليلة في السرور ان يشبهها بليلة المعراج :

رفعتنا السعود فيها الى الفو ... ز فكانت كليلة المعراج

ذلك انه كان في تقواه طوع الاحساس الحاضر كما كان في كل حالة من حالاته . يلعب

فلا يبالي ان يتماجن حيث لا يليق مجون ، ويستحضر التقوى والخشوع فلا يباريه احد من المتعبدين ، ويخيل اليك انك تستمع الى متعبد عاش عمره في الصوامع حين تستمع اليه يقول ·

تتجـافى جنوبهم عن وطـيء المضاجع
كلهـم بـين خائف مستجـير وطامع
تركوا لذة الكرى للعيون الهواجع
ورعـوا انجـم الدجى طالعـاً بعـد طالع
لو تراهـم اذا هم خطـروا بالاصابع
واذا هم تأوهوا عنـد مر القوارع
واذا باشروا الثرى بالخـدود الضوارع
واستهلـت عيونهم فائضـات المدامع
ودعـوا : « يا مليكنا يا جميل الصنائع »
اعف عنـا ذنوبنا للوجـوه الخواشع
اعف عنـا ذنوبنا للعيون الدوامع
انـت ان لم يكن لنا شافـع ، خـير شافع»
فاجيبـوا اجابة لم تقـع في المسامع
« ليس ما تصنعونه أوليائـي بضائع »
« ابذلـوا لي نفوسكم انهـا في ودائع »

وله من طراز هذا الشعر الخاشع كثير لا تسمعه من ابن الفارض ولا محيي الدين .

هجاؤه :

أخرج القرن الثالث للهجرة شاعرين هجاءين هما أشهر الهجائين في أدب العصور الاسلامية عامة ، أحدهما ابن الرومي والآخر دعبل الخزاعي هاجي الخلفاء والأمراء وهاجي الناس جميعاً والقائل :

انـي لأفتـح عينـي حـين أفتحها على كثـير ولـكن لا أرى أحداً

وقد جمع المعري بينهما في بيت واحد وضرب بهما المثل لهجاء الدهر لبنيه فقال :

لو أنصف الدهـر هجـا أهله كأنـه الرومـي أو دعبل

وليس للمؤرخ الحديث أن يضيف اسماً جديداً إلى هذين الاسمين ، فان العصور التالية للقرن الثالث لم تخرج من يضارعهما في قوة الهجاء والنفاذ في هذه الصناعة ، وكلاهما مع هذا نوع فذّ في الهجاء يظهر متى قرن بالآخر . فدعبل كما قلنا في غير هذا الكتاب :

« كان صاحب طبيعة من تلك الطبائع النابية النافرة التي تخرج على « المجتمع » وتثور به ولا تزال في حرب معه لا مسالمة فيها ولا مهادنة إلى أن يواريها الموت في ثراه ، وكان غاضباً أبداً على الناس ينكر عرفهم ويشذ على اجماعهم ويهجو أفرادهم بأسمائهم ، وهو إنما يهجو الناس جميعاً في أشخاص أولئك الأفراد . . . وكان يهيم على رأسه في البلاد سنين عدة تنقطع فيها أخباره وتخفى آثاره ثم يظهر حيث كان فجأة وقد أثرى وغنم ليبدد ما جمعه في اللهو والقصف ، ثم ينقلب إلى شأنه من الاباق والتطواف في أرجاء الأرض ، وربما لقي الشراة وقطاع الطريق في بعض رحلاته فيجالسهم ويؤاكلهم ويأمر غلاميه أن يغنيا لهم ويعرفهم ويعرفونه فلا يمسونه بأذى ولا يذكرهم بسوء ، لأنهم أبناء نحلة واحدة يؤلف شملهم النفور من الناس ويوفق بينهم الشذوذ عما تواضعوا عليه من الآداب والدساتير . فهو قاطع طريق بفطرته التي ولد عليها وإن لم يحمل السيف ولم يخرج للفتك والغيلة ، بل لقد قيل إنه قطع الطريق في بعض أيامه فعلا « وانه كان يكمن للناس بالليل فرصد يوما صيرفياً طمعاً بما معه ففتك به ولم يجد في كمه إلا ثلاث رمانات في خرقة فخرج هارباً من الكوفة لاشتداد الطلب عليه » وما كان هجوه لو بحثت في أسبابه إلا ضرباً من قطع الطريق على الناس اشتهاءً في أكثر الأحيان للذة الصيد والقنص ونزوة المطاردة والتخويف ، لا طمعاً في المال أو طلباً للترات . فما اتفق الناس على امام إلا هجاه وألح في

هجائه وإن أحسن اليه وأجزل له العطاء . ولا ترك أميرا ولا وزيراً ولا واليا إلا ناله بلسانه عرضاً أو قصداً ولو كان من أبناء قبيلته ومن خاصة المفضلين عليه » .

« . . . أما ابن الرومي فلم يكن مطبوعاً على النفرة من الناس ولم يكن قاطع طريق على « المجتمع » في عالم الأدب ، ولكنه كان « فناناً » بارعاً أوتي ملكة التصوير ولطف التخيّل والتوليد وبراعة اللعب بالمعاني والأشكال ، فاذا قصد شخصاً أو شيئاً بهجاء صوّب اليه « مصورته » الواعية فاذا ذلك الشخص أو ذلك الشيء صورة مهيأة في الشعر تهجو نفسها بنفسها وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها كما تنطبع الأشكال في المرايا المعقوفة والمحدبة ، فكل هجوه تصوير مستحضر لاشكاله أو لعب بالمعاني على حساب من يستثيره » .

هذا هو الفرق بين مذهبي هذين الشاعرين اللذين ظهرا في قرن واحد وأخذا بطرفي الهجاء في الآداب العربية .

ولك أن تقول من جهة أخرى ان الفرق بينهما كان فرقاً بين المذهب البدوي والمذهب الحضري في الهجاء . فقد كان دعبل بدوياً نافراً بفطرته وكان ابن الرومي حضرياً أنيساً بفطرته ، فاذا تبرم ابن الرومي بالناس فانما يتبرم بهم تبرم من يألفهم ويأنس اليهم ويعاني ما يعاني من عشرتهم ثم يسخط عليهم لأنه مقيد بهم لا يستطيع الفكاك منهم . فسخطه أساسه المودة والألفة وليس أساسه القطيعة والنفرة ، كما كان السخط في نفس صاحبه دعبل الخارج على الجماعة القاطع الطريق .

ولهذا الفرق أثره في موضوع المثالب التي يلقيها كل منهما على مهجويه ، فدعبل يسلب المهجو جميع الفضائل التي تعتز بها النفس الصارمة البدوية : يسلبه النخوة والكرم والبأس وطيب النحيزة . ويجعله رجلا يسمع البدوي صفاته فيقول إنه حقير مرذول .

وابن الرومي يسلب مهجوّه الفطنة والكياسة والعلم ويلصق به كل عيوب الحضارة التي يجمعها التبذل والتهالك على اللذات ، فاذا حذفت من هجوه كل ما أوجبته الحضارة والخلاعة الفاشية في تلك الحضارة فقد حذفت منه شر ما فيه ولم يبق منه إلا ما هو من قبيل الفكاهة والتصوير .

والبدوي يخاف الذم والحضري قلما يخافه :

فما يرتاح للمدح ولا يرتاع للشتم

كما قال الرومي في بعض مهجوّيه . فالافحاش وليد الحضارة والغلو في الافحاش وليد التهتك في الحضارة ، ومتى غلا الشاعر في القذف بأدناس التبذل والخلاعة فهناك عيبان محققان أحدهما ، لا شك ، عيب البيئة التي أشاعت تلك الأدناس أو جعلت الذم بها ذماً هيناً على الاسماع فلا بد فيه للشاعر من المبالغة والاغراق .

والثاني تبحث عنه في قائل الهجو ومُدمنه ، فانه لولا عيب فيه لما اضطر إلى الهجاء ولا أدمنه وأفرط فيه .

فما هو عيب ابن الرومي ـ أو ما هي عيوبه ـ التي أولعته بالهجاء والافحاش وصيرته عنواناً لزمانه في السفاهة والبذاء ؟ يبدو لنا أن عيبه الأول هو الشهوانية والتهالك على اللذات . فالشهوانية هي التي هونت عليه الاقذاع وسوغت له خوض الفضائح فأوغل فيها غير مستكره ولا متحرج . ثم أعانها الضعف وهو عيبه الغالب عليه الذي تبدأ منه وترجع إليه جميع عيوبه .

ففي هجائه صفة ذميمة يشمئز منها القارىء جداً في كثير من الأحيان ، ولكنها صفة الضعف والخفة وليست صفة الخبث والرداءة ، وقلْ فيه وفي هجائه ما شئت من لوم وتهجين وتأفف ولكنك متى قلت فيه كل ما هو أهله وأقبلت ترد هجاءه إلى بواعثه لم تجد ثمة شراً دخيلاً ولم تخطىء قط أن تجد الحرج والاضطرار وتشعر بأن قائل هذا الهجاء رجل متألم يدفع الألم عن نفسه وليس برجل السوء الذي يعنيه أن يوقع الألم بغيره ويعتد إيلام الناس غرضاً له مقصوداً لذاته .

وهو مع اشتهاره بالهجاء أسلم من غيره حالاً فيه وأكثر عذرا من غير المشهورين به . أسلم من البحتري مثلاً كما قال المرزباني في الموشح :

« وكثير من أهل الاداب ينكر خبث لسان علي بن العباس الرومي ويطعن عليه بكثرة هجائه حتى جعلوه في ذلك أوحد لا نظير له . ويضربون عن اضافة البحتري إليه وإلحاقه به مع إحسان ابن الرومي في اساءته وقصور البحتري عن مداه ، وإنه لم يبلغه في دقة معانيه وجودة ألفاظه وبدائع اختراعاته أعني الهجاء خاصة . لأن البحتري قد هجا نحواً من أربعين رئيساً ممن مدحه ، منهم خليفتان : وهما المنتصر والمستعين وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتّاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وحاله في ذلك تنبىء عن سوء العهد وخبث الطريقة . ومما قبح فيه أيضاً وعدل عن طريق الشعراء المحمودة أني وجدته قد نقل نحواً

من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها إلى مدح غيرهم وامات أسماء من مدحه أولاً ، مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

« وقال أحمد بن أبي طاهر : ما رأيت أقل وفاء من البحتري ولا أسقط ، رأيته قائما ينشد احمد بن الخصيب مدحاً له فيه فحلف ليجلسنْ ، ثم وصله واسترضى له المنتصر وكان غضبان عليه . ثم أوصل له مديحاً إليه وأخذ له منه مالاً فدفعه إليه ، ثم نكب المستعين احمد بن الخصيب بعد فعله هذا بشهور فلعهدي به قائما ينشده :

لابن الخصيب الويل كيف انبرى بافكه المردي وابطاله

. . . .

يا ناصر الدين انتصر موشكا من كائد الدين ومغتاله
فهو حلال الدم والمال ان نظرت في ظاهر أحواله

ثم قال ابن أبي طاهر : كان ابن العلجة فقيهاً يفتي الخلفاء في قتل الناس . نزحه الله . ثم ختم القصيدة بقوله :

والرأي كل الرأي في قتله بالسيف واستصفاء أمواله »

فالبحتري كان في غنى عن هذا ومندوحة واسعة ، ولكنك قلَّ أن تقرأ لابن الرومي هجاء تقول إنه كان من الوجهة النفسية في غنى عنه .

على أن لصاحبنا فناً واحداً من الهجاء لا ترتاب في أنه كان يختاره ويكثر منه ولو لم تحمله الحاجة وتلجئه النقمة إليه ، ونعني به فن التصوير الهزلي والعبث بالأشكال المضحكة والمناظر الفكاهية والمشابهات الدقيقة ، فهو مطبوع على هذا كما يطبع المصور على نقل ما يراه وإعطاء التصوير حقه من الاتقان والاختراع ، وما نراه كان يقلع عنه في شعره ولو بطلت ضروراته وحسنت مع الناس علاقاته . . . لكنّ هذا الفن أدخل في التصوير منه في الهجاء ، وهو حسنة وليس بسيئة وقدرة تُطلب وليس بخلة تنبذ . وأنت لا يغضبك أن ترى ابنك الذي تهذبه وتهديه ماهراً فيه خبيراً بمغامزه وخوافيه ، وإن كان يغضبك أن تراه يشتم المشتوم ويهين المهين ويهجو من يستهدف عرضه للهجاء لأنك إذا منعته أن يفطن إلى الصور الهزلية وأن يفننً في إدراك معانيها وتمثيل مشابهاتها منعت ملكة فيه أن تنمو وأبيت على حاسة صادقة فيه أن تصدقه وتفقه ما تقع عليه ، أما إذا منعت الهجاء وبواعثه فانك تمنع خلقاً يُستغنى عنه وميلاً لا بد له من التقويم .

ذلك هو فن ابن الرومي الذي لا عذر له منه ولا موجب للاعتذار ، فأما ما عدا ذلك من

هجائه فهو مسوقٌ فيه لا سائق ومدافعٌ لا مهاجم ومستثار عن عمد في بعض الأحيان لا مستثير . وإنك لتقرأ له قوله :

ما استــبَّ قط اثنـــان إلا غلبا شرهما نفســاً وأمــاً وأبا

فلا تصدق أن قائله هو ابن الرومي هجّاء اللغة العربية وقاذف المهجوين بكل نقيصة . لكنّ الواقع هو هذا ، والواقع كذلك أنه كان يسكن إلى رشده أحيانا فيسأم الهجاء ويعافه ويود الخلاص منه حتى ولو كان مهجواً معدواً عليه ، ويعتزم التوبة عن الهجاء مقسماً :

آليت لا أهجــو طوا ل الدهر إلا من هجاني
لا بل سأطَّــرح الهجا ء وإن رمانـي من رماني
أمــن الخلائــق كلهم فليأخــذوا منــي أماني
حلمــي أعــز عليَّ من غضبي إذا غضبي عراني
أولى بجهلي بعدما مكنت حلمي من عناني

وهذا أشبه بابن الرومي لأنه في صميمه خلق مسالماً سهلاً ولم يخلق شريراً مطوياً على الشكس والعداوة . بل هو لو كان شريراً لما اضطر إلى كل هذا الهجاء ، أو هو لو كان أكثر شراً لكان أقل هجاءً ، لأنه كان يأمن جانب العدوان فلا يقابله بمثله . وما كان الهجاء عنده كما قلنا الا سلاح دفاع لا سلاح هجوم ، وما كان هجاؤه يشف عن الكيد والنكاية وما شابهها من ضروب الشر المستقر في الغريزة كما كان يشف عن الحرج والتبرم والشعـور بالظلم الذي لا طاقة له باحتماله ولا باتقائه . وكثيرٌ من الأشرار الذي يقتلون ويعتدون في الأرض يقضون الحياة دون ان تسمع منهم كلمة ذم في إنسان ، وكثيرٌ من الناس يذمون ويتسخطون وهــم مطبوعـون على الخـير والعـطف وحسـن المودة ، بل هم قد يذمـون ويسخطون لأنهم على ذلك مطبوعون .

ومن قرأ مراثي ابن الرومي في أولاده وأمه وأخيه وزوجته وخالته وبعض أصدقائه علم منها أنها مراثي رجل مفطور على الحنان ورعاية الرحم والانس بالأصدقـاء والاخـوان . فمراثيه هي التي تدل عليه حق الدلالة المنصفة وليست مدائحه التي كان يمليها الطمـع والرغبة أو أهاجيه التي كان يمليها الغيظ وقلة الصبر على خلائق الناس . ففي هذه المراثي تظهر لنا طبيعة الرجل لا تشوبها المطامـع والضرورات ، ونـرى فيه الولـد البـار والأخ الشفيق والوالد الرحيم والزوج الودود والقريب الرؤوم والصديق المحزون . ولا يكون

الرجل كذلك ثم يكون مع ذلك شريراً مغلق الفؤاد مطبوعاً على الكيد والايذاء .

وإذا اختلف القولان بينه وبين أبناء عصره فاحجى بنا أن نصدق كلامه هو في أبناء عصره قبل أن نصدق كلامهم فيه ، لأنهم كانوا يستبيحون إيذاءه ويستسهلون الكذب عليه لغرابة اطواره وتعود الناس أن يصدقوا كل ما يرمى به غريب الأطوار من التهم والاعاجيب ، في حين أنه كان يتحاشى عن تلك التهم ويغفر الاساءة بعد الاساءه مخافة من كثرة الشكاية وعلماً منه بقلة الانصاف :

أتاني مقال من أخ فاغتفرته	وإن كان فيما دونه وجه معتب
وذكرت نفسي منه عند امتعاضها	محاسن تعفو الذنب عن كل مذنب
ومثلي رأى الحسنى بعين جلية	واغضى من العوراء غير مؤنب
فيا هارباً من سخطنا متنصلاً	هربت إلى انجى مفرٍّ ومهرب
فعذرك مبسوط لدينا مقدم	وودك مقبول بأهلٍ ومرحب
ولو بلغتني عنك اذنى اقمتها	لدي مقام الكاشح المتكذب
ولست بتقليب اللسان مصارماً	خليلي ، اذا ما القلب لم يتقلب

فالرجل لم يكن شريراً ولا رديء النفس ولا سريعاً إلى النقمة ، فلماذا إذن كثر هجاؤه واشتد وقوعه في أعراض مهجويه ؟ نظن أنه كان كذلك لأنه كان قليل الحيلة طيب السريرة خالياً من الكيد والمراوغة والدسيسة وما شابه هذه الخلائق من ادوات العيش في مثل عصره . فكان مستغرقاً في فنه يحسب أن الشعر والعلم والثقافة وحدها كفيلة بنجاحه وارتقائه إلى مراتب الوزارة والرئاسة ، لأنه كان في زمن يتولى فيه الوزارة الأدباء والكتاب والرواة ويجمعون في مناصبهم ألوف الألوف ويحظون بالزلفى عند الأمراء والخلفاء ، وقد كان هو شاعراً كاتباً وكان خطيباً واسع الرواية مشاركاً في المنطق والفلك واللغة وكل ما تدور عليه ثقافة زمانه ، او كما قال المسعودي كان الشعر اقل أدواته . . وكان الشعر وحده كافياً لجمع المال وبلوغ الآمال ، فماذا بعد أن يعرف الناس انه شاعر وأنه كاتب وأنه راوية مطلع على الفلسفة والنجوم إلا ان تجيئه الوزارة ساعية إليه تخطب وده كما جاءت إلى اناس كثيرين لا يعلمون علمه ولا يبلغون في البلاغة مكانه ؟! ألم يصل ابن الزيات إلى الوزارة بكلمة واحدة فسرها للمعتصم وفصل له تفسيرها وهي كلمة « الكلأ » التي يعرفها عامة الأدباء ؟ بلى ، وابن الرومي كان يعرف من غريب اللغة ما لم يكن يعرفه شعراء عصره ولا أدباؤه . فما أولاه اذن بالوزارة وما أظلم الدنيا إن هي ضنت عليه بحقه من المناصب والثراء !!

فاذا لم تكن الوزارة فهل أقل من الكتابة أو العمالة لبعض الوزراء والكتاب المبرزين ؟ فاذا لم يكن هذا ولا ذاك فهل غبن أصعب على النفس من هذا الغبن ؟ وهل تقصير من الزمان ألأم من هذا التقصير ؟

ونبوءة أبيه ورجاؤه في مستقبله وقوله له « أنت للشرف » أيذهب هذا كله هباء لايقبض منه اليدين على شيء ؟ تلك النبوءات التي تنطبع على أفئدة الصغار بمثل النار ولا تزال غرارة الطفولة وأحلام الصبا تزخرفها وتوشيها وتعمق في الضمير اغوارها أيأتي الشباب وهي محو لعو مطموس لا يبين أو لا يبين منه الا ما ينقلب الى الاضداد وتترجمه الأيام بالسقم والفقر والكساد ؟ وكيف يمحي الا وقد محي القلب الذي طبعت فيه ؟ وكيف ينعكس معناه الا وقد انعكس في القلب كل قائم والتوى فيه كل قويم ؟ ذلك صعب على النفوس وليس بالسهل إلا على من يلهو به وهو بعيد .

وهكذا كان ابن الرومي يسأل نفسه مرة بعد مرة ويوماً بعد يوم :

مالي أسل من القراب واغمد　　لم لا اجرد والسيوف تجرد
لم لا أجرب في الضرائب مرة ؟　　يا للرجال ! وانني لمهند .

ولا يدري كيف يجيب نفسه على سؤاله ، لأنه لم يكن يدري أن فضائله كلها لا تساوي فتيلاً بغير الحيلة والعلم بأساليب الدخول بين الناس وأن الحيلة وحدها قد تغني عن فضائله جميعاً ولو كان صاحبها لا ينظم شعراً ولا ينظر في كتب الفلسفة والرواية والنجوم . .

حسن ! إذن ندع الوزارة والولاية والعمالة بعد يأس مضيض يسهل علينا هنا أن نسطره في كلمة عابرة ولكنه لا يسهل على من يعالجه ويشقى بمحنته في كل ساعة من ساعات حياته ، ندع الوزارة والولاية والعمالة ونقنع بالمثوبة من الوزراء والولاة والعمال إن كانوا يثيبون المادحين . فهل تراهم يفعلون ؟

لا ! لأن الحيلة لازمة في استدرار الجوائز والمثوبات لزومها في كل غرض من أغراض المعاش ، ولا سيما في ذلك الزمان الذي شاعت فيه الفتن والسعايات ، وما كانت تنقضي منه سنة واحدة بغير مكيدة خبيثة تودي بحياة خليفة أو امير أو وزير . وربما كانت مصانعة الحجاب والتماس مواقع الهوى من نفوس الحاشية والندمان واللعب بمغامز النفوس الخفية واضحاك هؤلاء وهؤلاء اجدى على الشاعر في هذا الباب من بلاغة شعره وغزارة علمه ، وربما كان الوزير لا يثيب الشاعر إلا ليستصلحه كما كانوا يقولون في لغة ذلك الزمان ، أي

ليتخذه نصيراً له عسى أن ينفعه يوماً في مجالس الخلفاء والأمراء بكلمة يقضي بها ماربا او يكبت عدواً أو بحيلة يقرب بها بعيداً أو يبعد قريباً . وأين يذهب ابن الرومي في هذا المجال ؟ وماذا يرجو الممدوحون من تقريبه وهو رجل كما كانوا يقولون ممرور موسوس أدبه أكبر من عقله ولسانه اطول من صبره ؟ لقد كان صاحبنا صفراً من هذه البضاعة فلا جرم نراه يشكو تكبر الحجاب ودسائس الندماء والأصحاب ويُعطى القليل حين يجزل عطاء الآخرين او يثاب مرة ويحرم مرات ، فقد بلغ من وكس حاله في هذا انه كان يستجدي الكساء فيمطلونه ويعود إلى الاستجداء فيعودون الى المطل حتى يقول :

جعلت فداك لم أسأ لك ذاك الثواب للكفن
سألتكه لألبسه وروحي بعد في البدن

وبلغ من وكس حاله أن الممدوحين كانوا يقبلون شعره ولا يثيبونه فاذا الح في طلب المثوبة قالوا خذ شعرك فامدح به غيرنا كما فعل ابن المدبر حين قال فيه :

رددت علي مدحي بعد مطل وقد دنست ملبسه الجديدا
وقلتَ : امدح به من شئت غيري ! ومن ذا يقبل المدح الرديدا ؟
ولا سيما وقد اعبقت فيه مخازيك اللواتي لن تبيدا
وما للحي في اكفان ميت لبوس بعد ما ملئت صديدا

وكان يصنع القصيدة ويتبعها خمس قصائد او ستا ليحصل على جائزتها فلا يحصل بعد الجهد على شيء ، ويعجب لذلك ويأخذه الشك في شعره فيقول :

عجبت لقوم يقبلون مدائحي وينسون تثويبي ، وفي ذاك معجب
اشعري سفساف ؟ فلم يجتبونه ؟ وان لا تكن هذي فلم لا أثوَّب

ولعله كان يتهم شعره احياناً فيقول :

الشعر كالعيش فيه مع الشبيبة شيب
فليصفح الناس عنه فطعنهم فيه غيب

او يعتذر بالفاقة من السخف :

لا تلحني في المنطق السخيف فانني في حالة اللهيف
واحوج الناس إلى رغيف

أو يقول :

قولا لمن عاب شعر مادحه اما ترى كيف ركب الشجر ؟
ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشوك بينه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخـ ـلق رب الأرباب لا البشر

ثم يعود اليه اعتداده بكلامه فيلقي الذنب على الناس لجهلهم بمعاني الكلام :

ما خمدت ناري ولكنها الفت قلوباً نارها خامدة

أو يقول :

ما بلغت بي الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقردة
وما أنا المنطق البهائم والطـ ـير سليمان قاهر المردة

او يقول انهم بهائم لا يفهمون الا البهائم :

بحقهم إن باعدوني وقربوا سواي وتقريب المباعد اوجب
خفافيش اعشاها نهار بضوئه ولازمها قطع من الليل غيهب
بهائم لا تصغي الى شدو معبد واما على جافي الغناء فتطرب

ويخطر له حيناً ان الأمراء يحسدون شعره لأنهم يقرضون الشعر فينفسون الجيد منه على الشعراء ، ولا يبعد أن يكون ذلك صحيحاً كما قال :

قد بلينا في دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعراء
إن أجدنا في مدحهم حسدونا فحرمنا منهم ثواب الثناء
أو أسأنا في مدحهم انبونا وهجوا شعرنا اشد هجاء
قد أقاموا نفوسهم لذوي المد ح مقام الأنداد والنظراء

وكان من هؤلاء محمد بن عبد الله الذي قال فيه :

إخالك اذ جودت فيك مدائحي منعت ثوابي حاسداً لي على شعري
أتحسدني تجويد ريط نسجته لتلبسه ؟ يا للعجيب من الأمر ؟
تذكر هداك الله اني مادح وأنك ممدوح فلا تعد بي قدري
ينافس في الشعر النظير نظيره وجل ملوك الناس عن ذلك النجر

فاذا لج به الغيظ واشتد عليه بلاء الحرمان من العمل والحرمان من المثوبة صرخ متعجباً :

أذو آلة ؟ فاستخدموني لآلتي بقوتي ، والا فارزقوني مع الزمنى

أي ارزقوني مع العجزة والسقماء ، وهذه نهاية البؤس والخيبة ونهاية الحيرة التي لا

يهتدي فيها المسكين إلى سبب مريح ، فلم يبق له من عزاء إلا ان يوقن أن الدنيا هكذا طبعت على ظلم العارفين ومحاباة الأغبياء :

رأيت الدهـر يرفـع كل وغد ... ويخفض كل ذي زنـة شريفهْ
كذاك البحـر يرسـب فيه در ... ولا تنفـك تطفـو فيه جيفهْ

وكرر هذا المعنى في معارض شتى على قواف مختلفة ، لأنه سكن اليه ووجد فيه عزاءه ولو إلى حين .

وينبغي أن نذكر هنا شيئاً لا بد من ذكره في هدا المقام لأنه لازم لادراك حقيقة الغضب الذي كان يستولى على نفس الشاعر المحروم إذا اجاد المديح ولم يظفر بالعطاء ، فقد كان حق الشاعر في العطاء معترفاً به يقبله الأمراء والوزراء ويقره العرف وتجري عليه القدوة . فنحن لا نعرف اليوم ذلك الحق للشاعر ولا نستطيع لهذا أن ندرك غضبه واسفه إذا حرم وتوالى عليه الحرمان ، أما في عهد ابن الرومي فغضبه من المنع وأسفه على فوات الربح من هذه المقاصد أمر لا غرابة فيه ولا اعتراض عليه ، فالحكم عليه انما يكون بمقياس ايامه لا بمقياس ايامنا التي يجب فيها البذل على ممدوح ولا يجوز فيها الهجاء لشاعر محروم .

ومما ضاعف الاستخفاف بابن الرومي أنه كان متطيراً غريب الأطوار لا يأخذه الناس مأخذ الجد ولا يزال المعربدون منهم يعتمدونه بالعبث ويتماجنون عليه لشدة فرقه وانزعاجه من الفأل السيء :

يضحـك من كل ما بكيت له ... كأن لذاتـه بآلامي

وكان بعضهم يصبحه بقرع بابه ، فاذا سأله من الطارق ؟ قال مرة بن حنظلة ! فيمكث في بيته لا يريم عنه سحابة يومه ! وكانوا يسوقون اليه رجلا احدب كريه الرؤية يقابله بوجهه إذا خرج من منزله فيرتد على عقبيه ! وكانوا يجورون عليه بالعبث فيتوعد فلا يحفلون فيهجو ولكن بعد مصابرة واعتاب وكم قال لابن عروس :

يا ليت شعري وليت شعرك ان قلـ ... ـت وقلنـا واستحـكم القذع
ما ينفـع الصـارم اللسـان اذا ... غودر يومـاً وعرضـه قطع
فارجـع وبقيا اخيك باقية ... وانـدم وفي الحلـم فسحـة تسع

أو كما قال لبني السمري !

يا بنـي السمـري لا تجشموني ... أن تثـير القصيد كل دفين
قد تجـاوزت ما تجـاوزت عنكم ... وتغاضـت على قذاكم جفوني

لا يغرنــكم بجهلي حلمي وارعوائــي إلى حيائــي وديني
ان لــين المهــز في السيف امضى بغــراريه في صميم الشوور

أو كما قال لغيرهم ولغيرهم من العابثين والماطلين الذين كانـوا يضحـكون ممـا يبـكيه ويتفكهون بما يحز في قلبه ويدميه . فماذا أفاده العتاب وماذا دفعـت عنـه الشـكاية ! لا شيء ! لأن الأعراض هانت على اصحابها في ذلك العصر فلا يبالون المذمة الا أن يكون فيها معنى الاجتراء على الجاه والقوة ، وهم احرى الا يبالوها من شاعر كابن الرومي ليس اسهل عليهم من أن يقولوا عنه انه هذيان ممرور ، فيضيق ذرعاً بهم ويهجو كالمدفوع إلى غير ما يحب ، ويظهر ذلك منه في بعض القصائد كما يظهر من قوله :

لا يغضبــن لعمــرو من له خطر فليس يرضى بظلمــي من له خطر

كأنه يقول : لقد صبرت على عمرو فرضي الناس بظلمه اياي فاذا هجوته أنا الآن فما يحق لذي خطر أن يغضب له وهو منصف بيني وبينه .

وقد يعترف بالوسواس على نفسه ولكنه يرده إلى سوء حظه واجحاف الأيام به كما قال حين رماه الناشيء بالوسواس .

ان أوســوس فحقيق ، يسعـد القـرد وانحس !
أصبــح النــاشيء ممن يتغنــى وهــو اخرس
نافقــاً عنــد أناس تعسـوا والدهــر اتعس
ته على الــدنيا وقــل ما شئت واظلـم وتغطرس
لم يقـدس منــك شيء ولك الجــد المقدس
كيف لا يشتــد وسوا سي واشعــارك تدرس
وضياء الشمس لا يقبـ ـس والــظلماء تقبس

فاذا عبث به العابثون وتحدثوا بنحسه لم يسره ذلك وحق له الا يسر به وقال مناجزاً :

زعمــت بأننــي نحس وأني مجيبــك معلنــاً لا اتقيكا

وانطلق يصخب ويثلب وهو في رأيه معذور في ذلك الجزم الذي جنوه عليه قبل أن يجنيه عليهم ، ومعذور حتى من الحسد الذي كان لا يداريه ولا ينكره ولكن يقول في التماس المعذرة له :

لا تلومن حاسداً ، الـم النفـ ـس من النحس يا أخي شديد

وزد على ذلك فجائعه في بنيه واحبابه واحدا بعد واحد وهو أحوج ما يكون إلى معونتهم وعطفهم بين قوم كأنه غريب فيهم لا يفهمهم ولا يفهمونه ، وزد عليه طمع الناس فيه حتى كانت تسلبه ملكه الزهيد امرأة كما جاء في بعض شعره ويغصبه منزله الذي يسكنه تاجر يستهين به وبما عسى أن يصنع :

وراغمني فيما أتى من ظلامتي وقال لي اجهد فيَّ جهد احتيالكا
فما هو إلا نسجك الشعر سادراً وما الشعر إلا ضلة من ضلالكا

لهذا وأمثاله كثرت اهاجي ابن الرومي واشتد اقذاعه وكان الذين يمدحهم بالأمس هم الذين يثلبهم بعد ذاك ، يكاد لا يفصل المدح عن القدح فاصل أو يكاد يكون المدح والقدح متواليين في صفحات الديوان ، لأن الديوان مرتب على حسب الحروف لا على حسب التواريخ والموضوعات ولو أننا نصبنا ميزان العدل لكان ابن الرومي ملوماً على المدح اضعاف لومه على الهجاء . فقد كان يكذب حين يمدح ويتوسل ولم يكن يكذب حين يهجو وينتقم ، وراجع ترجمة المهجوين في قصائدهم تجدهم كلهم أو أكثرهم لصوصاً لا ينقضي على احدهم في المنصب اشهر أو سنوات حتى يعمر بيته بالمنهوب المسلوب من ارزاق الرعية الضعفاء ، ثم لا تنقضي فترة اخرى حتى يسلط عليه لصوص أكبر منه فينكبونه ويستصفون امواله كأنهم تغافلوا عنه ريثما يجمع لهم تلك الاموال ، وان في كتب التاريخ لسوءات لهم غير هذه وآثاماً جساماً لا يقال فيها انها تخرص شاعر مغبون او افتراء خصم متهم بالأقاويل ، فان كان الصدق عذراً للثالب الصادق فعذر ابن الرومي في التشهير والتجريح اوجه من عذره في الاطراء والمديح .

وقد اشتهر بالهجاء واصبح له سلاحاً لازماً وقدرة معروفة بين شعراء عصره فراح يلوح به كما يلوح المهدد بسلاحه ويعجب به كما يعجب الفنان بعمله . ولو عوفي في نفسه ورزقه لما بقي له من الهجاء الا ناحيته هذه الفنية وألاعيبه الصبيانية . فانه على كل حال لم يحتقب قط من ادواته النية الخبيثة والطبع الشرير ، أو هو على حد قوله :

لو أروض الشيطانُ اذعن كالكـ ـلب ، او العود عضه الكلوب[1]
ولما ذاك انني الرجل الشر ير ، مني الخنا ومني الوثوب
بل لدي الانصاف يشفعه الاحـ ـسان ما قارب الالد الشغوب

---

(١) العود الجمل بالمسن والكلوب المهماز .

ونعود فنقول . لو كان الرجل أكثر شراً لكان الناس اكثر اتقاء له واجتناباً لكيده ، فقلت دواعيه إلى سوء المقال واعفى اعراضهم واعفى لسانه فاراح واستراح .

هو وشعراء عصره :

عاصر ابن الرومي في بيئته كثير من الشعراء اشهرهم في عالم الشعر الحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعي والبحتري وعلي بن الجهم وابن المعتز وأبو عثمان الناجم .

وليس لهؤلاء ولا لغيرهم ممن عاصروه وعرفوه ـ او لم يعرفوه ـ أثر يذكر في تكوينه غير اثنين فيما نظن ، هما الحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعي .

فقد كان ابن الرومي معجباً بالحسين يروي شعره ويستلمح اخباره ويذكرها لاصحابه ، وكان ابن الرومي يافعاً يحضر مجالس الأدب ويتلقى دروسه والحسين في اوج شهرته يتناشد اشعاره ادباء الكوفة وبغداد ومدن العراق . حدث محمد بن الفضل الأهوازي قال : « سمعت علي بن العباس الرومي يقول : حسين بن الضحاك اغزل الناس واظرفهم ، فقلت حين يقول ماذا ؟ فقال حين يقول :

يا مستعير سوالف الخشف   اسمع لحلفة صادق الحلف
ان لم أصح ويلي ويا حربي   من وجنتيك وفترة الطرف
فجحدت ربي فضل نعمته   وعبدته ابداً على حرف

هكذا جاء في كتاب الأغاني ـ وجاء فيه أيضا عن ابن الرومي انه قال :

أنشدنا ابو العباس ثعلب قال انشدني حماد بن المبارك صاحب حسين بن الضحاك قال انشدني حسين لنفسه :

ولا وحبيك لا اصا   فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا   ح وان كان موجعا
كبدي من هواك اسقـ   ـم من ان تقطعا
لم تدع سورة الضنى   في للسقم موضحا

قال ابن الرومي . ثم قال لنا ثعلب : ما بقي من يحسن أن يقول مثل هذا ».

وروي عنه كتاب الأغاني روايات اخرى من هذا القبيل تدل كلها على الاعجاب والاستملاح ، ومثل ابن الرومي يعجب بشعر الحسين الأنيق الظريف المطبوع ولكنه لا يمتزج بصريقه ولا يتزيا بزيه ، لأن طريقة الاناقة والصقل غير طريقة الامعان والنفاذ التي طبع عليها ابن الرومي . فأنت تلمح أثر هذا الاعجاب في ابيات من شعر ابن الرومي كقوله :

يا وجنتيه اللتين من وهج في صَدغَيه اللذين من دعج

فتعلم أنه نظم هذا البيت وهو يذكر صيحة ابن الضحاك من « وجنتي صاحبه وفترة طرفه ».

او كقوله :

عينيَّ شحا ولا تسحا جل مصابي عن البكاء
تركِكما الداء مستكنا اصدق عن صحة الوفاء

فتعلم انه نظمه وهو يذكر الأبيات التي روى في اولها لابن الضحاك :

لا وحبيك لا اصا فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ح وان كان موجعا

وابن الضحاك يقول :

كأنما نصب كأسه قمر يكرع في بعض أنجم الفلك

وابن الرومي يقول :

فكأنها وكأن شاربها قمر يقبّل عارض الشمس

فهو كان معجباً بظرائف ابن الضحاك ملتفتا اليها ولكنه لم يخرج عن طريقته التي طبع عليها ولم يزد في اعجابه على ان يقتبس منه بعض الخطرات الرشيقة ، وهو شيء غير اقتباس الطريقة والتشابه في السليقة .

وقد مات الحسين بن الضحاك وابن الرومي في التاسعة والعشرين ، ولم نر في تاريخه ولا في تاريخ الحسين ما يشير إلى تلاقيهما في بغداد حيث عاش ابن الرومي معظم حياته ، او في غير بغداد حيث كان يرحل ابن الضحاك .

أما دعبل فابن الرومي عارضه في موضعين ، احدهما القصيدة الطائية التي نظمها دعبل حين اتهم « خالداً » بسرقة ديكه واطعامه لضيوفه وقال في مطلعها :

أسر المؤذن خالد وضيوفه اسر الكمي هفا خلال الماقط
بعثوا اليه بنيهم وبناتهم ما بين ناتفة وآخر سامط
يتنازعون كأنهم قد اوثقوا خاقان أو هزموا كتائب ناهط
أكلوه فانترعت به اسنانهم وتهشمت اقفاؤهم بالحائط

فزاد ابن الرومي فيها وأطالها وبلغ بها نيفاً وستين بيتاً وغير بعض الفاظها ، فمما قال في

معارضته وتمثل فيه كل مزاجه وملاحظاته :

طبخـوه ثم اتـوا به قد ابرمت ... اوتـاره لمنـادف ومرابط
متجمـلاً لدجاجـه متجلداً ... كتجلـد المجلـود بـين ربائط
ولقـد رمتـه يوم ذلك قدرهم ... بغطائـط من غليه وغطامط
حملـوا عليه كل ماء عندهم ... وفـرات كوفتهـم ودجلـة واسط
واهـاً لذاك الـديك بـين مساقط ... منـه عهدناهـا وبـين ملاقط
قوام اسحـار مؤذن جارة ... « وصّـال » زوجـات كمـي مآقط
ينفـي مناعسـه بنفس شهمة ... ويشاهـد الهيجـا بجـأش رابط

والموضع الآخر الذي عارض فيه دعبلاً ابيات ثائية قال دعبل في مطلعها :

أتيت ابن عمرو فصادفته ... مريض الخلائق ملتاثها

فعارضها ابن الرومي وزاد عليها من أبيات :

قواف ابـى الوغـد ابريزها ... فاخرجـت للوغـد اخباثها
أوابـد قد اخنسـت قبله ... كهـول الرجـال واحداثها
. . . .
ولا جرم لي ان أسـاءت جنا ... ة مزرعـة كان حراثها

ونشأ ابن الرومي ودعبل كذلك شاعر واسع الشهـرة جذاب السـيرة لغرابـة اخلاقـه ومخاطرته وتطويفه من الآفاق ، مستحسن الشعر بين من يؤثـرون الفحولـة اللغـوية ، مفضل على المحدثين من طبقته كما قال البحتري وكان يتعصب له « دعبل بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد ، لأن كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه أشبه بمذاهبهم » . وكان دعبل فيما عدا ذلك متشيعاً لآل علي غالياً في تشيعه فجذب ذلك كله نفس ابن الرومي الفتى نحوه وحبب اليه محاكاته ومجاراته ، وربما كانت الرغبـة في مجاراته احدى دواعيه إلى الهجاء .

ومات دعبل وابن الرومي في الخامسة والعشرين ولا نعلم انهما تعارفا أو كان بينهما لقاء .

هذان هما الشاعران اللذان عاصرا ابن الرومي وكان لهما أثر يذكر في تكوينـه . امـا الآخرون فالثابت انه كان على معرفة وصحبة مع اثنين منهما وهما البحتري وابـو عثمان الناجم . عرف البحتري في بيت الناجم ، وكان هذا صديقاً له بقي على صداقته إلى يوم وفاته ، وراوية يحفظ شعـره واخبـاره ويجـري على طريقتـه في بعض تشبيهاتـه ـ فسألـه

البحتري آن يعرفه إلى ابن الرومي ففعل وجرت بين الشاعرين صحبة غير طويلة ولا وثيقة ، لان البحتري كان يدل على ابن الرومي بمكانه من الخلفاء والامراء . وكان ابن الرومي لا يطيق الصبر على ذلك فهجاه وعاب شعره واتهمه بالسرقة ، فمن قوله فيه :

قبحاً لأشياء يأتي البحتري بها ... من شعره الغث بعد الكد والتعب
كأنها حين يصغي السامعون لها ... ممن يميز بين النبع والغرب
رقى العقارب أو هذر البناة إذا ... اضحوا على شعف الجدران في صخب
وقد يجيء بخلط فالنحاس له ... وللأوائل ما فيه من الذهب
عبد يغير على الموتى فيسلبهم ... حر الكلام بجيش غير ذي لجب
ما إن يزال تراه لابساً حللاً ... اسلاب قوم مضوا في سالف الحقب

ثم عاد يذكره أيام رضاه ومودته والفرق بين مسالمته وحربه ويقول له بعد اقذاع كثير :

يا بحتري لقد اقبلت منقلباً ... يوم اكتسبت هجائي شر منقلب
قد كنت تعرف مني في الرضى رجلاً ... حلو المذاقة ، فاعرفني لدى الغضب
تعرف فتى فيه طوزاً مجتنى سلع ... للمجتنين وطوراً مجتنى رطب

ونظن ان المنافسة بينهما لم تكن وحدها سبب هذا الهجاء ، وانما آنس ابن الرومي اغراء من العلاء بن صاعد بالبحتري ، لأنه خاطبه في هذه القصيدة بما يظهر منه أن العلاء كان يستضعف هجاء الشعراء للبحتري ويبحث عمن يشد عليه ويفحمه كما يؤخذ من هذا البيت :

أراك لم ترض ما اهدى له نفر ... من شتم أمٍّ لئيم خيمُها وأب

فأرضى ابن الرومي نفسه وأرضى العلاء بهجائه ، وكان رد البحتري عليه ما علم القراء من اهدائه تحت المتاع وكيس الدراهم وابلاغه « ان الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه لأنه لم يحمله على ما فعل الا الفقر والحسد المفرط »

عرف ابن الرومي البحتري وابن الرومي شاعر ناضج مشهور بالافتنان في المعاني والقدرة على الهجاء وكان البحتري يجب مجاراته في بعض قصائده . فقال له في اول لقاء بينهما انه عزم على ان يعمل قصيدة على وزن قصيدته الطائية في الهجاء فنهاه ابن الرومي عن ذاك لانه ليس من عمله : فاذا كان بينهما اقتباس او معارضة فالبحتري هو المقتبس وهو الراغب في المعارضة على أننا لا نخاله استفاد من ابن الرومي شيئاً يزيده في مذهبه الذي نبغ فيه لأنهما نمطان متباينان ، ولكل منهما اعتداد بنفسه يكفيه ويغنيه .

أما علي بن الجهم (المتوفي سنة ٢٤٩هـ) فقد كان بينه وبين ابن الرومي برزخ واسع من اختلاف المذهب في الدين والشعر . فابن الرومي متشيع وابن الجهم ناصب يذم علياوآله « ولا يلتقي الشيعي والناصب » . كما يقول ابن الرومي . . وكان ابن الجهم شديد النقمة على المعتزلة وعلى « اهل العدل والتوحيد » منهم خاصة يهجوهم ويدس لهم ويقول في زعيمهم احمد بن ابي دؤاد :

ما هذه البدع التي سميتها بالجهل منك العدل والتوحيدا

وابن الرومي كما مر بك من هذه الجماعة . فمذهبه في الدين ينفره من ابن الجهم ولا يرغبه في مجاراته ، ولو تشابها فيما عدا ذلك من المزاج والنزعة لقد يهون هذا الفارق ويسهل على ابن الرومي الاغضاء عنه وهو ناشيء يتلمس القدوة ويخطو في سبيل الشهرة . ولكنك تقرأ شعر ابن الجهم في فخره ومزاحه ، فيخيل اليك انك تقرأ كلام جندي يتنفج او يعربد . لخلوه من كل عاطفة غير عواطف الجند الذين يقضون اوقاتهم بين الفخر والضجيج واللهو والسكر ، وليس بين هذه الطبيعة وطبيعة ابن الرومي مسرب للقدوة أو للمقاربة في الميل والاحساس ، ولا كان في شعر ابن الجهم شيء يشعر مثل ابن الرومي انه يقتدى به ويحتاج الى مجاراته ، فيميل به هذا الشعور الى الاعجاب بالشاعر الذي ابعده عنه المذهب والمزاج .

* * *

وقد ولد ابن المعتز في سنة سبع وأربعين ومائتين ، فلما ايفع وبلغ السن التي يقول فيها الشعر كان ابن الرومي قد جاوز الاربعين او ضرب في حدود الخمسين ، ولما نبغ واشتهر له كلام يروى في مجالس الأدباء كان ابن الرومي قد اوفى على الستين وفرغ من التعلم والاقتباس . ولو انعكس الامر وكان ابن المعتز هو السابق في الميلاد لما اخذ منه ابن الرومي شيئاً أو لكان افسد سليقته بالاخذ عنه ، لأن ابن المعتز انما امتاز بين شعراء بغداد في عصره بمزاياه الثلاث ، وهي البديع والتوشيح والتشبيه بالتحف والنفائس ، وابن الرومي لم يرزق نصيباً معدوداً من هذه المزايا ولم يكن قط من اصحاب البديع واصحاب التوشيح او اصحاب التشبيهات التي تدور على الزخرف وتستفيد نفاستها من نفاسة المشبهات .

ويجوز أن الشاعرين لم يتعارفا ولم يتلاقيا في مجلس ، لأن ابن الرومي كان قليل الغشيان جداً للمجالس التي كان يحضرها الخلفاء وولاة العهود . فضلا عن تفاوت السن والخطة ، وفضلا عن سبب آخر قد يكون من موانع اللقاء بينهما ، وهو ان ابن الرومي

هجا المعتز ومدح المستعين حين تنازعا الخلافة وتقاتلا عليها . وكان ابن الرومي من حزب المستعين لان بغداد كانت معه وهي وطن ابن الرومي ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر كان ينصر المستعين وهو يومئذ أكبر ممدوحيه . ونحن نذكر هذا السبب الأخير للاحاطة به ولا نعيره كبير التفات ، لان ابن المعتز كان طفلاً رضيعاً حين تقابل ابوه وعمه ، ولا يحتمل كثيراً انه وعى بعد ذلك كل ما قاله ابن الرومي فى تلك الأيام .

ممدوحوه

لابن الرومي ممدوحون كثيرون يزيدون على الاربعين ، يطول بنا البحث ولا ننتهي إلى غرض يفيدنا فيما نحن فيه لو أننا أجملنا تواريخهم اجمالاً سريعاً بله التفصيل والانعام ، ولو كان للمدح في زمن ابن الرومي بواعث نفسية غير طلب العطاء لوجب أن نُعنى بتراجم الأشخاص الذين حركوا في نفس الشاعر تلك البواعث واستحقوا منه اكباره وثناءه ، لأن العناية بتراجمهم في هذه الحالة عناية بالشاعر نفسه وبواعث نظمه ومعايير وصفه وثنائه ، ولكن الشعراء كانوا يمدحون ولا يقصدون من المدح إلا الارضاء والتفنن في معاني التعظيم ، فمن العبث أن نحصي هنا تراجمَ لا تزيدنا علماً بالشاعر وليس العلم بها لذاتها مقصوداً في هذا المقام ، وحسبنا أن نلم بتاريخ الأسرتين اللتين خصهما الشاعر بمعظم مدائحه وكانت له صلة طويلة بهما وعلاقات مذكورة في ترجمة حياته ، وهما أسرة آل طاهر وأسرة آل وهب ، وكلاهما من أكبر الأسر التي عرفت في تاريخ الوزارة والقيادة في الدولة العباسية .

***

فآل طاهر أسرة قديمة تنتسب إلى أمراء الفرس الأولين ويُذكر منها في عالم الحرب والأدب والنجدة أفراد كثيرون . وأول من نبغ منها واشتهر في عهد بني العباس طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان ، أسلم جده رزيق على يد عبيد الله طلحة الطلحات الخزاعي والي سجستان فنسب اليه ولُقّب بالخزاعي لهذا السبب لا لانتمائه إلى قبيلة خزاعة من جهة النسب .

وقد ولد طاهر بقرية بوشنج من أعمال « مرو » سنة تسع وخمسين ومائة حيث كان جده مصعب والياً يتولى أعمال مرو مع أعمال هراة . ثم كان الخلاف بين الأمين والمأمون فأبلى طاهر في خدمة المأمون-الفارسي الأم- أحسن بلاء وأخلص له ونصح في ولائه وتوطيد ملكه ، فولاه خراسان وأطلق يده فيها فأصبحت دولة طاهرية مستقلة في حكومتها لا تربطها ببغداد إلا خطبة المنبر ، وقيل ان طاهراً قطع الدعاء للخليفة يوماً فسمه خادم معه كان موكلاً به من قبل المأمون فأصبح ميتاً .

وكانت لآل طاهر مع ولاية خراسان ولايةُ الشرطة في بغداد وهي من الولايات النافعة لذوي النفوذ ، فاجتمعت لهم أسباب القوة بين العاصمة وذلك الاقليم الخطير الشأن في حياة الدولة العباسية .

وولد لطاهر ابنه عبد الله فنشأ في رعاية المأمون نشأة فاضلة وشابه أباه في النجدة والاقدام وبذه في الأدب والمروءة . تولى مصر وأعطاه المأمون مال خراجها وضياعها لسنة ، فوهبه كله وفرقه في الناس ورجع صفراً من ذلك . فغاظ المأمون فعله فدخل اليه يوم مقدمه فأنشده أبياتاً قالها في هذا المعنى وهي :

نفسي فداؤك والأعناق خاضعة ... للنائبات أبياً غير مهتضم
اليك أقبلت من أرض أقمت بها ... حولين بعدك في شوق وفي ألم
أقفو مساعيك اللاتي خصصت بها ... حذو الشراك على مثل من الأدم
فكان فضليَ فيها انني تبع ... لما سننت من الانعام والنعم
ولو وكلتُ إلى نفسي عييت بها ... لكن بدأت فلم أعجز ولم ألم

« فضحك المأمون وقال والله ما نفست عليك مكرمة نلتها ولا احدوثة حسن عندها ذكرك ، ولكن هذا شيء إذا عودته نفسك افتقرت ولم تقدر على لم شعثك واصلاح حالك ، وزال ما كان في نفسه » . . . ويقال أن البطيخ « العبدلاوي » المعروف بمصر منسوب إليه ولعله نسب إليه لأنه كان يستطيبه كما يقول ابن خلكان » .

ولعبد الله شعر جزل وتلحين جيد وهو القائل « ينبغي أن يبذل العلم لأهله ولغير أهله ، فان العلم أمنع لنفسه من أن يصير إلى غير أهله » ومن كلامه « سمن الكيس ونبل الذكر لا يجتمعان » .

ومحمد بن عبد الله هذا هو الذي أدركه ابن الرومي ومدحه وظن أنه ينفس عليه شعره فقال له :

أتحسدني تجويد ريط نسجته ... لتلبسه ؟ يا للعجب من الأمر
تذكّر هداك الله أني مادح ... وانك ممدوح ، فلا تعد بي قدري

ونحسب أنه لم يظلمه ، لأنه تعود أن ينظر في شعر مادحيه نظرة الناقد المتصعب . بعث إليه حاجبه محمد بن أبي عون بأنوار من بستانه وريحان وكتب معه :

قد بعثنا بطيب الريحان ... خير ما قد جنى من البستان
قد تخيرته لخير أمير ... زانه الله بالتقى والبيان

فوقع على ظهر رقعة :

عون يا عون قد ضللت عن القـ ـصد وعُمّيت عن دقيق المعاني
حشو بيتيك قدْ وقدْ فإلى كم ؟ قدّك الله بالحسام اليماني[1]

وكان محمد عظيم النفوذ في الدولة تميل الخلافة حيث يميل ، نصر المستعين فرجحت كفته على أخيه المعتز ودانت له بغداد وما وراءها وأوشك أن يتفرد بالملك وحده ، ثم ارتاب في المستعين فتخلى عنه فلم يجد المستعين بداً من خلع نفسه وتمت الغلبة عليه لأخيه . وينسب إليه أنه قال لما انهزم محمد بن خالد في بعض الوقائع بين جنود المستعين وجنود المعتز : « لا يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره ! » .

ومات محمد في ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين ومائتين أي حين كان ابن الرومي في الثانية والثلاثين ، قال ابن الأثير : « في ليلة أربع عشرة من ذي الحجة انخسف القمر جميعه ومع انتهاء خسوفه مات محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين وكانت علته التي مات بها قروحاً أصابته في حلقه ورأسه فذبحته وكانت تدخل فيها الفتائل ، ولما اشتد مرضه كتب إلى عماله وأصحابه بتفويض ما إليه من الولاية إلى أخيه عبيد الله بن طاهر . فلما مات تنازع ابنه طاهر وأخوه عبيد الله الصلاة عليه فصلى عليه ابنه وتنازع عبيد الله وأصحاب طاهر حتى سلوا السيوف ورموا الحجارة ومالت العامة مع أصحاب طاهر وعبر عبيد الله إلى داره بالجانب الشرقي فعبر معه القواد لاستخلاف محمد فكان أوصاه على عماله . ثم وجه المعتز بعد ذلك الخلع إلى عبيد الله فأمر عبيد الله للذي أتاه بالخلع بخمسين ألف درهم » .

وعبيد الله هذا كان شاعراً كأخيه وأبيه وأكثر أفراد أسرته ، وكان يقاول البحتري ويناجزه ، وهو الذي نظم ديواناً على الحرف في شكر العلاء صاعد فعهد العلاء إلى ابن الرومي بالرد عليه ، وهو القائل :

إن الأمير هو الذي يبقى أميراً بعد عزله
إن زال سلطان الولا ية لم يزل سلطان فضله

وكان كأخيه محمد في نقد الشعر ولاسيما إذا مُدح به غيره ، فهو الذي سمى قصيدة ابن الرومي النونية في مدح إسماعيل بن بليل بدار البطيخ ! لكثرة ما ذُكر فيها من أسماء

---

(١) الموشح للمرزباني

الفاكهة ، فظرف في النكتة وإن لم ينصف في نقد القصيدة .

وقال ابن خلكان في ترجمته : « . . . كان عبيد الله المذكور أميراً ولي الشرطة ببغداد خلافةً عن أخيه محمد بن عبد الله ثم استقل بها بعد موت أخيه ، وكان سيداً واليه انتهت رئاسة أهله ، وهو آخر من مات منهم رئيساً ، وله من الكتب المصنفة كتاب الاشارة في أخبار الشعراء وكتاب رسالة في السياسة الملوكية وكتاب مراسلاته لعبد الله بن المعتز وكتاب البراعة والفصاحة وغير ذلك ، وحدث عن الزبير بن بكار وغيره ، وكان مترسلاً شاعراً لطيفاً حسن المقاصد جيد السبك رقيق الحاشية ، ومن شعره ما ذكره ابن رشيق في كتاب العمدة في باب الاستطراد فقال : ومن الاستطراد نوع يسمى الادماج ، ونحو ذلك قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لعبيد الله بن سليمان بن وهب حين وزر للمعتضد :

أبى دهرنا اسعافنا في نفوسنا ... وأسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له نُعماك فيهم أتمها ... ودع أمرنا ، أن المهم المقدم

« . . . وله ديوان شعر ، ونقتصر من نظمه على هذا القدر ، وكانت ولادته سنة ثلاث وعشرين ومائتين وكانت وفاته ليلة السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلثمائة ببغداد . . . »

ولعبيد الله أخ يسمى سليمان هو الذي هجاه ابن الرومي لأنه أخلف رجاءه في رد داره . وكانت بينه وبين عبيد الله قطيعة وملاحاة شديدة ثم اصطلحا فخلد ابن الرومي هذا الصلح في قصيدة دالية اقتبسنا منها فيما تقدم بعض أبيات .

وانتهت إلى عبيد الله رئاسة قومه كما قال ابن خلكان ، إلا أن دولتهم في خراسان ذهبت منهم في أيامه واستولى عليها في سنة تسع وخمسين ومائتين ذلك المخاطر الجريء يعقوب بن الليث الملقب بالصفّار من الصفر لأنه كان في صباه تاجراً فقيراً يعمل في النحاس ، واقتصرت ولاية عبيد الله وسطوة قومه على الشرطة في بغداد فكان هذا أول بوادر الزوال في ذلك البيت المجيد ، ولحق ابن الرومي من ذلك ما لا بد أن يلحقه منه ، فضلاً عن حسبانه عليه من عثرات جده ودلائل شؤمه !

* * *

أما أبناء وهب فكانوا أهل كتابة لا شأن لهم بالحرب وقيادة الجيوش ، جاء في الفخري أنهم كانوا « من قرية من أعمال واسط وكانوا نصارى ثم أسلموا » .

وعملوا في الكتابة من مبدأ الدولة الأموية ثم حظوا عند العباسيين فاشتهر منهم اثنان هما الحسن بن وهب بن سعيد وأخوه سليمان .

وكان الحسن كاتباً شاعراً ولاه محمد بن عبد الملك الزيات ديوان الرسائل ومدحه أبو تمام فولاه البريد في الموصل . وكانت بينه وبين أبي تمام صداقة فلما مات هذا رثاه بقصيدة يقول منها :

فان تراب ذاك القبر يحوي حبيباً كان يدعى لي حبيبا
لبيباً شاعراً فطناً أديباً أصيل الرأى في الجلىّ أريبا
إذا شاهدته رواك فيما يسرك رقة منه وطيبا
أبا تمام الطائي إنا لقينا بعدك العجب العجيبا
فقدنا منك قرماً لا نرانا نصيب له مدى الدنيا ضريبا

ولم يزل الحسن مقرباً مجدوداً حتى نكبه المتوكل مع ابن الزيات في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين .

وأخوه سليمان كتب للمأمون وهو في الرابعة عشرة . حدث ابنه عبيد الله عنه أنه قال : « كان مبدأ سعادتي أني كنت ـ وأنا صبي ـ بين يدي محمد بن تزداد وزير المأمون . وكنا جماعة من الصبيان بين يديه إذا راح الليل إلى داره بات واحد منا في دار المأمون بالنوبة ، لمهم عساه يعرض في الليل . وكانت ليلة نوبتي فخرج خادم وقال : ها هنا أحد من نواب محمد بن يزداد ؟ فقال الحجاب له نعم ! ها هوذا ، فأدخلني إلى المأمون فقال لي : اعمل نسخة في المعنى الفلاني ، ووسع بين سطورها وأحضرها لأصلح منها ما أريد إصلاحه . قال : فخرجت سريعاً وكتبت الكتاب بغير نسخة وبيّضته وأحضرته إليه . فلما رآني قال : كتبت النسخة ؟ قلت : بل كتبت الكتاب . فقال : بيّضته ! قلت نعم ، فزاد في نظره إليّ كالمتعجب مني ، فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه ورفع رأسه إلي ، وقال : ما أحسن ما كتبت يا صبي ! ولكن أريد أن تقدم هذا السطر وتؤخر هذا السطر ، وخط عليها بقلمه ، فأخذت الكتاب وخرجت وجلست ناحية ثم محوت السطرين وعملت ما أراد وجئته بالكتاب ، وكان قد ظن أني أبطله وأكتب غيره ، فلما قرأه لم يعرف مبدأ المحو فاستحسنه وقال لي : يا صبي ! لا أدري من أي شيء أعجب ! أمن جودة محوك أم من سرعة فهمك أم من حسن خطك أم من سرعتك ، بارك الله فيك ! فقبلت يده وخرجت ، وكان ذلك أول علو منزلتي وصار المأمون لا يجري مهمّ إلا قال : « هاتوا سليمان بن وهب » .

واستوزره المهتدي « ولقبه الوزير حقاً لأن من كان قبله كان غير مستحق للوزارة ولا مستقل بها »[1] . استكتبه يوماً عشرة كتب مختلفة إلى جماعة من العمال ، فلما وضعت الكتب بين يديه قال له وقد قرأها : أحسنت يا سليمان ، ونعم الرجل أنت لولا المعجَّل والمؤجَّل ! وذاك أن سليمان كان إذا ولي عاملاً أخذ منه مالاً معجلاً وأجّل مالاً إلى أن يتسلم عمله . . . ونكبه الواثق وحبسه فقال وفي هذا الشعر غناء :

نوائب الدهر أدّبتني وإنما يوعظ الأديب
قد ذقت حلواً وذقت مرّاً كذاك عيش الفتى ضروب
ما مر بؤس ولا نعيم إلا وَلي فيهما نصيب

ثم خرج من الحبس ليلة مات الواثق ، ولكنه كان مطموعاً فيه لكثرة ماله واشتهاره بالرشوة فقبض عليه الموفق ومات في حبسه سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، وقيل سنة إحدى وسبعين . . . ولما قبض الموفق عليه وعلى ابنه عبيد الله تذاكر جماعة أنه إنما استكتبهما ليقف منهما على دخائل موسى بن بغا وودائعه فلما استقصى ذلك نكبهما لكثرة مالهما فقال ابن الرومي وكان حاضراً :

ألم تر أن المال يتلف ربه إذا جم آتيه وسد طريقه
ومن جاور الماء الغزير مجمّه وسد مغيض الماء فهو غريقه[2]

وسليمان بن وهب هو أبو عبيد الله وجد القاسم ، وكلاهما وزر المعتضد وتلقى مدائح ابن الرومي الكثيرة ، ولاسيما القاسم . فانه كان صاحب القسط الأوفر من جميع مدحه .

وكانت أول ولاية عبيد الله للوزارة في عهد المعتضد ثم بويع المعتضد سنة تسع وسبعين ومائتين فأقره على وزارته ولبث فيها إلى أن مات سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وكان كاتباً حاذقاً وسائساً حصيفاً وفيه يقول الشاعر :

إذا أبو قاسم جادت يداه لنا لم يحمد الأجودان البحر والمطر
وإن مضى رأيه أو حد عزمته تأخر الماضيان ، السيف والقدر
وإن أضاءت لنا أضواء غرته تضاءل النيّران الشمس والقمر

---

(١) الاغاني
(٢) الاغاني

من لم يبت حذراً من حد صولته ... لم يدرِ ما المزعجان الخوف والحذر
ينال بالظن ما يعيي العيان به ... والشاهدان عليه العين والأثر

ويروى أنه لما مات عزم المعتضد على أن يستأصل شأفة أولاده ويستصفي أموالهم ، فحضر القاسم ابنه واستعان ببدر المعتضدي وكتب خطاباً بألفي ألف دينار فاستوزره المعتضد[1] .

قال صاحب الفخري « كان القاسم بن عبيد الله من دهاة العالم ومن أفاضل الوزراء ، وكان شهماً فاضلاً لبيباً محصلاً كريماً مهيباً جباراً ، وكان يطعن في دينه . . . » .

وقال ابن خلكان . « كان الوزير المذكور عظيم الهيبة شديد الاقدام سفاكاً للدماء ، وكان الكبير والصغير منه على وجل لا يعرف أحد من أرباب الأموال إلا نقمه . وتوفي سنة إحدى وتسعين ومائتين في خلافة المكتفي وعمره نيف وثلاثون سنة ، وفي ذلك يقول عبد الله بن الحسن بن سعد :

شربنا عشية مات الوزير ... سروراً ونشرب في ثالثه
فلا رحم الله تلك العظا ... م ولا بارك الله في وارثه

وابن خلكان قد أخذ هذا الوصف من مروج الذهب المسعودي ، وفي هذا الكتاب أن القاسم قتل عبد الواحد عم الخليفة المكتفي والخليفة يجهل ذلك ولا يريده . وكان القاسم يغريه به « فوكل به من يراعي خبره وما يظهر من قوله إذا أخذ الشراب منه فسمع منه وقد طرب وهو ينشد شعر العتابي :

تلوم على ترك الغنى باهلية ... طوى الدهر عنها كل طرف وتالد

إلى أن يقول :

ذريني تجئني ميتتي مطمئنة ... ولم اتجشم هول تلك الموارد
فان نفيسات الأمور مشوبة ... بمستودعات في بطون الأساود.
وإن الذي يسمو إلى درك العلا ... ملقّى بأسباب العلا والمكايد

فقال له بعض ندمانه وقد أخذ منه الشراب : يا سيدي أين أنت مما تمثل به يزيد بن المهلب :

---

(١) الفخر

تأخـرت أستبقـى الحياة فلـم أجد ... حياة لنفسي مثـل أن أتقدما

فقال له عبد الواحد : مه ! لقد أخطأت الغرض وأخطأ ابن المهلب وأخطأ قائل هذا البيت وأصاب أبو فرعون التميمي حيث يقول :

ومـا بي شيء في الوغـى غـير أنني ... أخـاف على فخارتـي أن تحطما
ولو كنـت مبتاعـاً من السـوق مثلها ... لدى الـروع ما باليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك إلى المكتفي ضحك وقال :«قد قلت للقاسم ليس عمي عبد الواحد ممن تسمو همته اليها . . . . أطلقوا لعمي كذا وكذا . فلم يزل للقاسم بعبد الواحد حتى قتله » .

وكان القاسم مكروهاً على خلاف أخيه الحسن الذي كان يحبه الناس ويحسنون الظن به . فلما مات الحسن قال أبو الحارث النوفلي :

قل لأبـي القاسـم المرزّا ... قابلك الدهـر بالعجائب
مات لك ابـنٌ وكان زيناً ... وعـاش ذو الشـين والمعايب
حياة هذا كمـوت هذا ... فلسـت تخلـو من المصائب

قال أبو بكر الصولي النديم : « وقد رأيت أبا الحارث هذا وكان رجلاً صدوقاً » .

ونظم آخر في هذا المعنى فقال :

قل لأبـي القاسـم المرزّا ... ونـادِ ياذا المصيبَتين
مات لك ابـن وكان زيناً ... وعـاش شـين وأي شين
حياة هذا كمـوت هذا ... فالطـم على الـرأس باليدين

ولكنّ عبيد الله أباهما كان على رأي يخالف رأي الناس في ولديه ، فكان يقدم القاسم ويهمل الحسن ، حتى راجعه في ذلك ابن الرومي بقصيدة سبقت الاشارة اليها ، ولعله رأى من دهاء ابنه القاسم وغدره أنه أصلح للحكم في ذلك الزمان ، وعلـم أن الخلـق الكريم أداة لا تنفع في هذا الغرض فأخر ابنه الحسن عن منزلة أخيه .

والقاسم هذا هو الذي أجمعت كتب التاريخ على أنه قتل ابن الرومي بالسم لأنه أشفق من فلتات لسانه .

وفاته :

يقول ابن خلكان في تاريخ وفاة ابن الرومي : « توفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأول سنة ثلاث وثمانين وقيل أربع وثمانين وقيل ست وسبعين ومائتين ، ودفن في مقبرة باب البستان . »

فأي هذه التواريخ هو الصحيح ؟

إن الذين جاءوا بعد ابن خلكان تابعوه في هذا الشك الذي لا مسوغ له اعتماداً على روايته بغير بحث في شعر الشاعر ولا في كتب المؤرخين الذين سبقوا ابن خلكان . ولا مسوغ لهذا الشك كما قلنا لأن ابن الرومي أثبت لنا انه بلغ الستين وعاش إلى ما بعد سنة ثمانين إذ يقول :

طربتَ ولم تطرب على حين مطرب   وكيف التصابي بابن ستين أشيب

فهو لم يمت في سنة ست وسبعين على التحقيق ، ولا يُظن ان الستين هنا تقريبية لضرورة الشعر وأنها قد تكون خمساً وخمسين أو ستاً وخمسين ، فانه ذكر الخمس والخمسين في موضع آخر حيث قال :

كبرتَ وفي خمس وخمسين مكبر   وشبت فألحاظ المها عنك نُفَّرُ

وليس من المعروف عنه انه كان يعيى بنظم ما يريد .

ولو راجع ابن خلكان كتاب مروج الذهب للمسعودي لعرف منه أن ابن الرومي كان حياً بعد ست وسبعين ، فلا محل للقول بموته في تلك السنة . فقد جاء في تاريخ المعتضد من ذلك الكتاب أن قطر الندى بنت خمارويه وصلت إلى مدينة السلام مع ابن الجصاص في ذي الحجة[1] سنة إحدى وثمانين ومائتين ، ففي ذلك يقول علي بن العباس الرومي :

يا سيد العرب الذي زفت له   باليمن والبركات سيدة العجم

إلى آخر الأبيات ، وهذا فضلاً عن مقطوعات أخرى نظمها الشاعر في العرس الذي احتفل به الخليفة سنة اثنتين وثمانين .

---

(١) الطبري يقول ان دخولها بغداد كان لليلتين خلتا من المحرم سنة ٢٨٢

فمن المحقق إذن أن ابن الرومي تجاوز سنة ست وسبعين ، ولم يبق لنا إلا أن نبحث في السنتين الأخريين أي سنتي ثلاث وأربع وثمانين .

فعندنا تاريخ اليوم والشهر من أولاهما وليس عندنا مثل ذلك من الثانية ، وهذا مما يرجح وفاته في سنة ثلاث وثمانين دون أربع وثمانين .

ويقوي هذا الترجيح أن مضاهاة التواريخ تثبت لنا أن جمادى الأخرى من سنة ثلاث وثمانين بدأت يوم جمعة فيكون يوم الأربعاء قد جاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى في تلك السنة كما جاء في تاريخ الوفاة .

وقد ضاهينا هذا اليوم على التاريخ الافرنجي فوجدناه يوافق الرابع عشر من شهر يونيو ، أي يوافق إبان الصيف في العراق ، وابن الرومي مات في الصيف كما يؤخذ من قول الناجم انه دخل عليه في مرضه الذي مات فيه وبين يديه ماء مثلوج ، فيجوز لنا على هذا أن نجزم بأن أصح التواريخ هو التاريخ الأول وهو « يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين » .

والأقوال بعد ذلك مجمعة على موت ابن الرومي بالسم ، وان الذي سمه هو القاسم بن عبيد الله أو أبوه .

ولكن الروايات في هذا الخبر لا تخلو من ضعف واضطراب ، فالرواية التي أوردها ابن خلكان تقول : إن الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الامام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش فدس عليه ابن فراش فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو في مجلسه فلما أكلها أحس بالسم . فقال له الوزير : إلى أين تذهب فقال الى الموضع الذي بعثتني إليه ، فقال له : سلم على والدي ! فقال له : ما طريقي على النار . . . »

وضعف هذه الرواية ظاهر . لأن عبيد الله بن سليمان مات في سنة ثمان وثمانين[1] أي بعد آخر تاريخ فرض لموت ابن الرومي بأربع سنوات ، فكان حيا عند وفاة الشاعر ولا معنى لأن يقول القاسم له سلم على والدي ووالده بقيد الحياة .

---

(١) راجع الفخري

والرواية التي أوردها الشريف المرتضى في أماليه أصح من هذه الوجهة ، لأنها تقول إن عبيد الله كان حياً عند موت ابن الرومي وانه هو الذي أوعز بقتله ، ولكنها تقول أيضاً أنه قد اتصل « بعبيد الله بن سليمان بن وهب أمر علي بن العباس الرومي وكثرة مجالسته لأبي الحسين القاسم . فقال لأبي الحسين : قد أحببت أن أرى ابن روميك هذا . فدخل يوماً عبيد الله إلى أبي الحسين وابن الرومي عنده فاستنشده من شعره فأنشده وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلاً فقال لأبي الحسين بينه وبينه : ان لسان هذا أطول من عقله ، ومَن هذه صورته لا تؤمن عقاربه عند أول عتب ولا يفكر في عاقبته ، فأخرجه عنك . فقال : أخاف حينئذ أن يعلن ما يكتمه في دولتنا ويذيعه في تمكننا ، فقال يا بني ! اني لم أرد باخراجك له طرده . فاستعمل فيه بيت أبي حية النميري :

فقلن لها سراً فديناك لا يرح سليماً ، والا تقتليه فألمي

فحدث القاسم بن فراس بما جرى وكان أعدى الناس لابن الرومي وقد هجاه بأهاج قبيحة ، فقال له الوزير أعزه الله أشار بأن يغتال حتى يستراح منه وأنا أكفيك ذلك فسمه في الخشكنانج فمات . . . قال الباقطاني : والناس يقولون ما قتله ابن فراس وانما قتله عبيد الله . »

وضعف هذه الرواية ظاهر كذلك . لأن عبيد الله كان يعرف ابن الرومي سنوات وقد مدحه ابن الرومي وتردد عليه وتشفع لديه بين ولديه ، فلا حاجة به الى أن يطلب رؤيته قبل موته ليختبره كما جاء في هذه الرواية . أما الأخبار الاخرى المنثورة في الكتب فهي مزيج مرتبك من هاتين الروايتين .

ويصعب علينا أن نستخلص الحقيقة من هذا الخلف والاضطراب فاذا قلنا إن عبيدالله هو القاتل كما نقل الباقطاني فيجوز على هذا الزعم أنه هو الذي قال له : سلم على والدي وليس ولده القاسم ، فينتفي بذلك موضع الضعف في الرواية الأولى ، ولكننا ننفيه بفرض لا يجوز الاعتماد عليه .

واذاأردنا أن نمزج بين الروايتين ونسقط منهما ما يجب اسقاطه فالخلاصة منهما أن عبد الله خاف هجاء ابن الرومي فأوعز إلى ابنه أن يسمه لأنه كان أقرب إلى مخالطته ومنادمته ، ولا صحة لما بعد ذلك من حديث القاسم وابن الرومي وانما هو حديث غلبت فيه فكاهة القصة على صدق التاريخ .

بين هذه الشبهات المتضاربة شبهة تعرض للذهن ولا يجوز اغفالها في هذا المقام وهي تبيح لنا أن نسأل : ألا يحتمل أن يكون حديث السم كله خرافة مخترعة لا أصل لها وأن ابن الرومي مات ميتة طبيعية تشتبه أعراضها بأعراض التسمم المعروفة في زمانه ؟ فمن كلام الناجم الذي زاره في مرض وفاته نعلم أنه كان يشكو من إلحاح البول فلما لاحظ الناجم ذلك قال :

غداً ينقطع البول ويأتي الهَول والغَول

وأنه كان قد أعد ماء مثلوجاً لأنه « قلما يموت انسان الا وهو ظمآن » وكان يقول فيما روته الأمالي وهو يشرب الماء ولا يروى :

وأراه زائداً في حرقتي فكأن الماء للنارِ حطب

والظمأ والحاح البول عرضان من اعراض « مرض السكر » وهو مرض يحدث لصاحبه التسمم ولا سيما بعد أكل الحلوى والافراط فيها ، وابن الرومي لم تكن تعوزه أسباب الاصابة به لأنه كان منهوماً بالحلوى والأطعمة الثقيلة ، مستسلماً للشهوات مسرفاً في الشراب مع ضعف أعصابه واعتلال جسمه ، فمن الجائز أنه أصيب به فاشتد عليه في شيخوخته وفصده الطبيب وفسد الجرح كما جاء في رواية زهر الآداب فأودى ذلك بحياته . ويسهل في هذه الحالة أن يشيع حديث السم ولواحقه لما كان يعتري ابن الرومي من كثرة التوهم أو لما كان مشهوراً عن القاسم من سوء الطوية والضراوة بالغدر والفتك بحيث لا يكبر عليه قتل شاعر هجاه ، فاذا كان الموت قد حدث بعد وليمة في بيت القاسم فهذا مما يؤكد التهمة ويصعب على الناس أن يعللوه بغير السم والمكيدة ، وان كان الطعام وحده كافياً للقضاء على رجل جاوز الستين في شيخوخة متهدمة مهملة طالت إصابته بمرض دفين لم يكن علاجه ميسوراً في أيامه :

هذه شبهة تعرض للذهن بين مختلف الشبهات ، وكل قيمتها عندنا أنها مما لا يصح اغفاله في تحقيق وفاة الشاعر . فهي احتمال كل ما فيه أنه غير مستحيل .

أما أن القاسم كان اهلا لأن يغدر بابن الرومي وأن ابن الرومي كان عرضة لغضب ذلك الوزير الفاتك المغتال فهو احتمال جد قريب ، فالقاسم جريء مستخف بالدماء وابن الرومي قانط سريع الغضب . وليس أيسر من أن ينسى القاسم رجلا كابن الرومي حين أقبلت الدولة عليه وعلى أبيه وآله وتبدلت مجالسهم الأولى وأخذوا في شأن من الصولة

والابهة غير شأنهم الذي كانوا فيه ، وليس أيسر من أن يطمع ابن الرومي في عمل أو مرتب أو مكافأة تغنيه حين أقبلت الدولة على ممدوحيه وأصحابه بالأمس في أيام التطلع والانتظار ، ومن هنا يبدأ الغضب فاللوم فالوشاية فالمبالغة في الجفاء فالهجاء من الشاعر فالوعيد من الأمير الذي ليس بين وعيده وإنجازه عائق من خوف ولا محاسبة ضمير . وسلسلة القصائد التي تشفع بها ابن الرومي وسأل العمل واعتذر من أحاديث الوشاة سلسلة طويلة يسهل ترتيبها لولا أنه لا فائدة من هذا الترتيب . فحسبنا منها أن القاسم سمع الوشايات التي تحدث بها جلساؤه ومنافسو ابن الرومي والحانقون عليه لهجائه ، فامعن في جفائه والاعراض عن توسلاته وشفاعاته ، فلم يفلح ابن الرومي في استعطافه بمثل قوله :

بلغ البغاة عليَّ حيث أرادوا والله كائدهم بما قد كادوا
وهو الشهيد عليَّ أني لم أقل بعض الذي قد أبدأوا وأعادوا
وهبِ السعاةَ أتوا بحق واضح أين الكرام ؟ أبدلوا أم بادوا
. . . .
عفو الملوك عن الهجاة مدائح مدحوا نفوسهم بها فأجادوا

ولم يفلح في استعطافه بأضعاف هذا الكلام وهو كثير .

وحسبنا منها أن القاسم كان يتوعد ابن الرومي بالقتل فقال الشاعر يقابل بين ما وشى به السعادة اليه وما وشوا به إلى القاسم :

تحدثت الأملاء أنك حابسي على غير أجرام وأنك مغتالي
وما قيل املاء الرجال وقالهم بأسهل من قيلي عليك ومن قالي

ثم يستطرد إلى الترضي والاستعطاف :

أخالك لو عاينتني في حفيرتي بكيت عظامي الباليات وأوصالي
وسرك أن أحيا كما كنت مرة ببذل الفداء الجزل والثمن الغالي
فلا تجفني حياً ولا تبك رمتي كمنصرف عني يسائل اطلالي

وتكرر وعيد القاسم بالقتل فتكرر استعطاف ابن الرومي وتذكيره بسالف المودة :

أيقتلني من ليس لي منه ناصر عليه ، وأعواني عليه مكارمه

أبـى ذاك أن الحـكم بينـي وبينه وأن علـو القـدر فيَّ يخاصمه

وقد طالت السعايات وطال التوسل حتى اجتمع من ذلك ديوان غير صغير في حجمه ولا في معانيه وابتكاراته ، وابن الرومي في كل ذلك لا يرى من القاسم إلا :

غضبـاً ألـح من السحـاب الا حـم ورضى أعـز من الغـراب الاعصم

فضاق صدره وجاهره بالهجاء وأفرغ كل ما في جعبته من قذع أخفه :

يا من إذا ما رأتـه عـين والده بـين الرجـال اتقاهـم بالمعاذير
أقسمـت بالله أن لو كنـت لي ولداً لما جعلتـك إلا في المطامير

وقال في آل وهب عامةً :

متى آل وهـب يرتجي الـريِ حائم إذا كنتـمُ مُلاَّك سُبـل المحامد

واتهمهم في اسلامهم لأنهم كانوا قديماً نصارى فأسلموا فقال فيهم من هذه القصيدة :

وأجبيتـم دين الصـليب وقمتمُ بتشييد « بيعـات » وهـدم مساجد
وابطـال ما كان الخليفـة جعفر تخـيره زيًّا لكل معاند

يشير إلى إبطالهم زي أهل الكتاب الذي أمر به الخليفة المتوكل في أيام غلوائه ونقمته على أصحاب النحل جميعاً وقراء الفلسفة وعلم الكلام .

فليس من المنتظر بعد هذه القطيعة وهذا الهجاء أن يتورع القاسم عن قتل ابن الرومي إذا استطاعه ، وهو مستطيعه كما استطاع قتل عم الخليفة بغير جريرة ودبر لذلك تدبيره الذي لم يعلم به الخليفة إلا بعد موته ، ومتى توعد القاسـم بالحبس والقتـل فليس هو بالذي يتردد في انجاز وعيده أو يعجز عنه ، وليس ابن الرومي بالذي يتخذ الحيطة من مكيدة يراد بها وهو يسأل القاسم عطفاً وينخدع في ظواهره بغير عناء .

وبقية المرحلة بعد هذا قصيرة :

ذهـب ابن الرومي إلى داره وهو يتوقع الموت ويتلمس الشفاء و« لا مفر من الموت ولا من قضائه المحتوم » كما قال وغلط عليه الطبيب أو عزّ عليه دؤاؤه فكانت إصابـة المقـدار . فتلقاه الموت آخر الأمر كما تلقته الحياة : نفساً يساورها القلق ويتوفز فيها الحس ولا تزال من خوف الألـم في ألـم : اطمأنت إلى القضاء المحتوم اطمئنانها وأبت أن تطمئن الى آلامه

وصرعاته ، فاستحضرت المدية الرميضة تحاول أن تتعجل بها الموت اذا اشتدت عليها سكراته وأبطأ نزوله ، ولم تخش في ذلك عقاب الدين وله عليها ذلك السلطان المرهوب ، وليلساعة عندها « هولٌ دونه الهول » وبعدها حساب عسير لا شك فيه .

تلك خاتمة الترجمة التي استخرجناها من شعر ابن الرومي وعثرنا فيها بتفاصيل ودقائق لا تستخرج من شعر شاعر غيره . فكأنما انتزعها من قبضة العدم انتزاعاً وتشبث بها كما تشبث بالحياة فغلب عليها اهمالَ التاريخ غلباً . . . والفضل في ذلك لتلك الملكة الفنية التي خلقت لتحس وتعبر عما تحسه وتسجل تعبيرها في سجل الفنون ، والتي أرهفتها الأسقام والآلام حتى أصبحت وسواساً يبالغ في تحريه واستيفائه كما يبالغ كل وسواس في التوكيد والتقرير .

الفصل الرابع

عبقرية ابن الرومي

فرغنا في الفصل السابق من حياة ابن الرومي لنتكلم في هذا الفصل عن عبقريته وهي زبدة حياته والغرض الذي من أجله عاش ومن أجله يكتب الكاتبون عنه . فما تحرك في حياته حركة إلا كان لعبقريته منها نصيب أوفى نصيب . حتى لكأنه كان لا يتحرك ولا يتنفس ولا يطعم ولا يشعر إلا ليتخذ من ذلك كله مادة حياة ويترجم ما عمل وما علم في قالب الفن ترجمة البر الأمين ، وصفوة القول في هذه العبقرية أنها كانت عبقرية يونانية لولا الافراط والانهماك ، أو أنها كانت عبقرية يونانية مكبرة الجوانب بعض التكبير .

ولسنا نصفها هذا الوصف لأنه تفسير سهل لهذه العبقرية النادرة ولكن لأنه وصف موجز يدل على أجزائها المختلفة بقليل من الكلمات .

فربما كان القول بأن ابن الرومي رجل حسّاس متوفز الأعصاب مُلبِّي المزاج نشأ في حضارة زاهية فأجابته وأجابها وأخذت منه وأخذ منها فنبغ على ذلك المثال الفريد لأنه لا بد في الشعر من مثال فريد ـ ربما كان هذا أقل في العجب من تفسير عبقريته بأنها عبقرية يونانية على اعتبار أنها موروثة عن آبائه اليونان . . . إذ من هم آباؤه اليونان ! لا ندري أهم من اغريق الجزر أم من اغريق البلاد المعروفة باسم اليونان أم من أغريق آسيا الصغرى التي كانت تدور الحرب فيها وحولها بين المسلمين ودولة الروم . ومن الصعب الذي يحتاج الى التفسير أن تقول إن هؤلاء الاغريق جميعاً سليقة واحدة وأمة واحدة وعنصر واحد يتحدر منه الرجل وينتقل إلى بيئة أخرى وينجب الأبناء في بيئته الجديدة فيجتمع فيهم كل ما تفرق من خصائص العبقرية الفنية التي تسمى الآن بالعبقرية اليونانية .

ثم نحن لا نعلم أن الاغريق في قديم عهدهم كانوا عنصراً واحداً ينتمي إلى سلالة

واحدة ، لأن امتزاج الأنساب بينهم وبين الأسيويين ثابت لا شك فيه واقتباسهم من عقائد الأسيويين وفنونهم ولغاتهم ثابت كذلك أقطع ثبوت . ولا يمكن أن نجزم برأي في وراثة الفطرة الفنية ولا سيما الفطرة في الشعب كله حتى لو عرفنا الأصل الذي تحدر منه ابن الرومي بين أصول اليونان الكثيرة . فقد كان في بلاد اليونان نفسها ألوف من أبناء الشعب اليوناني المحاطين بالبيئة اليونانية في جميع ظواهرها وبواطنها فلم ينبغ منهم في عصر ابن الرومي شاعر مثله ولا نبغ منهم في العصور السابقة التي أزهرت فيها آدابهم وفنونهم شاعر من طرازه في جميع خصائصه وملكاته . فلو أننا نقلنا ابن الرومي من الأدب العربي إلى الأدب اليوناني لكان فذاً في أدبهم كما كان فذاً في أدبنا ، ولم تنقض الحاجة إلى تفسيره بهذه النقلة من أدب لغته إلى أدب أصله ، ولو أننا بحثنا عن مزية أصيلة في الفطرة اليونانية تنتقل مع الدم وتسري في خلال التكوين لأعيانا أولاً أن نحصر هذه الفطرة ثم أعيانا بعد ذلك أن نحصر هذه المزية .

فنحنُ لا نفسر عبقرية الشاعر حين نسميها بالعبقرية اليونانية ، ولكننا نصمها في كلمات موجزة وصفاً يقربها إلى الأذهان ويطبعها بهذا الطابع المعروف عند المطلعين على الآداب . وما من شك في أن الشاعر الذي تحدر من أصل يوناني أياً كان مقره غير الشاعر الذي تحدر من أصل عربي أياً كان مقره. ولكن التفريق بين هذين الشاعرين شيء والقول أن الشاعر لا يحس هذا الاحساس ولا ينظم هذا النظم إلا إذا كان من أبناء اليونان شيء آخر . فحسبنا أننا نعرف ما نريد حين نذكر العبقرية اليونانية ولا نحاول بعد ذلك الخروج إلى تعليل الأصول والتعسف في تقسيم خصائص الشعوب .

وإنما وصفنا ابن الرومي بهذه الصفة لأنه صاحب عبقرية تعبد الحياة ، وتحيا مع الطبيعة ، وتلتقط الصور والأشكال ، وتشخص المعاني ، وتقدم الجمال على الخير أو لا تحب الخير إلا لأنه لون من ألوان الجمال ، ثم هي تنظر إلى الدنيا نظرتها إلى المعرض المنصوب للتملي والمتعة لا نظرتها إلى الحصن المغلق أو الصومعة الموحشة أو غير ذلك من نظرات الأجيال والأديان ، ولا نعرف صفة أجمع لهذه الخصال كلها من صفة العبقرية اليونانية التي اتسمت بها في الجملة فنون الأغريق ، فقد كان الأغريق بجملتهم كما كان ابن الرومي بمفرده ، لولا أن الأغريق كانوا يصيبون من كل متعة بمقدار وابن الرومي كان لا يعرف في أمر من الأمور مقداراً أقل من الافراط والانهماك .

ولننظر أولاً إلى حب الحياة الذي كان أول ما اشتهر به اليونان وأول ما تستشقه من فن هذه العبقرية الحية في كل جزء من الأجزاء وكل حالة من الحالات . فابن الرومي كان من أخلص محبي الحياة بين محبيها الكثيرين ، أوكان على الأصح الأوضح من مدمني الحياة بين شرّابها غير المدمنين .

وحب الحياة خليقة نادرة وانْ ظُن انها أعم شيء بين الناس وعامة الأحياء . فليس الحب ـ سواء حب حياة أو حب شيء من أشيائها ـ سهلاً رخيصاً يطمع فيه كل من يريد . فمن الناس من يحب الحياة كأنه مسوق إلى حبها ، ومنهم من يحبها كأنه مأجور على عمله ، ومنهم من يحبها كأنما يحب شيئاً غريباً عنه ، ومنهم من يحبها كما (يحب) الحيوان الأعجم ما هو فيه ، ومنهم من يحبها حب العاشق الذي يختار معشوقه أو يستوي عنده الحب على القسر والحب على المشيئة لأنه يريد ما يقسر عليه ويأبى أن يفرض للفراق وجوداً أو يتوقع لهواه تغييراً ، فهو سعيد بأن يحب وأن يُسمح له بأن يحب ، وهو يحب الحياة لأنه حي لا موت فيه ولا عمل لكل حاسة في نفسه إلا أن تحس وتحيا وتستجد احساساً وحياة ولا تشبع من الاحساس والحياة ، وهكذا كان ابن الرومي يعبد الحياة عبادة لا يبتغي عليها أجراً غير ما يبتغيه خلّص العابدين . فكان حيا كله لا مكان فيه للموت إلا الخوف منه والتفكير فيه .

وإنك لتتابع أبياته الكثيرة في هذا الغزل أو في هذه الفتنة أو في هذا السكر فيخيل اليك أنه شارب قبض على الكأس يود أن يجرعها مرة واحدة من فرط التعطش والخوف عليها لولا أنه يستعذبها ويستطيبها فيترشف منها رشفة بعد رشفة ويعود اليها ينظر ما فرغ منها وما بقي فيها ، ويضن ويشتاق ويشعر بمرارة الفقد لفرط شعوره بحلاوة المتعة ، فما نقصت من تلك الكأس ـ الحياة ـ قطرة إلا أحس بطيبها وأحس بألم فقدها وعرف مقدارها وقاس من الكأس حيّزها وعاد يترشف لينسى فيزداد ذكراً على ذكر وخسارة بعد خسارة . وأي ذكر ؟ وأي خسارة ؟ وأي ألم ؟ وأي فجيعة ؟

لعمرك ما الحياة لكل حي إذا فقد الشباب سوى عذاب
فقل لبنات دهري فلتصبني إذا ولى باسهمها الصياب

ومن هذه اللهفة بعد اللهفة تعرف كيف بلغ العشرين وكيف بلغ الثلاثين وكيف بلغ الخمسين وكيف بلغ الستين في قصائد ومناسبات عدّة لا موضع هنا لاحصائها ولكنها

تدلك إذا راجعتها على مغالاته بهذه الوديعة وضنه بتسليمها والتمريط فيها وحرصه على ذخيرتها حرص الشحيح الذي يود أن يزيد في ماله المحسوب وهو يراه ينقص ساعة بعد ساعة ولمحة بعد لمحة :

وهو إذا ذكر الشباب لم تكن صورة الشباب في ذهنه أنه فترة من الزمن ، أو ظواهر من المتعة والعافية ، وإنما يذكره وهو ينفذ إلى صميمه وباطنه ولبابه الذي لا يُحسب بالأيام ولا معوّل فيه إلا على جدة الشعور وجلاء الدنيا في بشاشتها الأولى كأنها الثمرة المقطوفة ولها من الشمس صبغة جديدة ومن الطل مسحة غضة ومن العصير المكنوز وليمة تنادي الشهوة وتفتح اللهوة .

فلا يعنيه أن يدوم له الشباب وإنما يعنيه أن تدوم له الدنيا القديمة وهي في جدة البواكير وفي طرافة المفاجأة التي لا تذال . وإلا فما يغنيه أن يدوم الشباب والدنيا أمامه مذالة المنظر مجرودة اللون مسلوبة من تلك المفاجأة في كل نظرة وفي كل لقاء ؟

لو يدوم الشباب مدة عمري لم تدم لي بشاشة الأوطار

أجل . هذا هو الشباب في صميمه وباطنه ولبابه . والشباب عنده أيضاً أن يستقبل الحياة لأنها لا تكون جديدة إلا بهذا الاستقبال :

أطالع ما أمامي بابتهاج ولا أقفو المولي باكتئاب

والشباب عنده دولة يولّى صاحبها على هذه الدنيا فتطيعه وتعطيه من خيراتها كل ما تملك وكلّ ما يصبوا اليه :

سقي الشباب وإن عفا آثار معهده القتير
ما كان إلا الملك أو دى تاجه وهوى السرير

والشباب عنده هو الحياة ، لا فرق بين فقده وفقد الحياة إلا ان فاقد الشباب يعلم بموته وفاقد الحياة لا يعلم ولا يأسى على ما فات :

وفقد الشباب الموت يوجد طعمه صراحاً ، وطعم الموت بالموت يفقد

والشباب عنده مفقود لا عزاء بعده إلا عزاء الموت القريب :

فما لي عزاء عن شبابي علمته سوى انني من بعده لا أخلد

وان مشيبي واعد بلحاقه وإن قال قوم انه يتوعد

والشباب عنده مَبكيّ لا يُوفى البكاء إلا بالدم :

لا تلحُ من يبكي شبيبته إلا إذا لم يبكها بدم

ومَرثي لا ينقطع رثاؤه حتى الممات :

سأثني بآلاء الشبيبة باسطاً لساني بها حتى أحين فاقبضا

والخير الأكبر هو أن يحيا الانسان ، والشر الأكبر هو أن يموت ، ولا سيئة عنده لهذا الخير العميم الا تنغيص ذلك الشر العميم :

سوأة للحياة والموت حتم ولبذل الزمان واسترداده

وكل ما في الحياة من قلة الغبطة ان الأحياء يموتون :

كيف العزاء وما في العيش مغتبط ولا اغتباط لأقوام يموتونا
متى نعش فبلى الأحياء يدركنا وان نمت فبلى الأموات يعفونا

وعلى هذا النحو يقول :

رأيت حياة المرء رهناً بموته وصحته رهناً كذلك بالسقم
إذا طاب لي عيش تنغصت طيبه بصدق يقيني أن سيذهب كالحلم
ومن كان في عيش يراعي زواله فذلك في بؤس وإن كان في نعم

فالخلود ، الخلود ! لا شيء دون الخلود يرضيه ويستقر عليه مناه ، وإلا فبنو الحياة بائسون محرومون لأنهم لا يعيشون لا لأنهم يعيشون كما يقول المتشائمون الذين لا يحبون هذا الحب ولا يعبدون هذه العبادة ولا يحسون هذا الاحساس . وما تكلمنا بالمجاز حين قلنا انه يعبد الحياة لأنه ـ على ما في شعره من هذه الأبيات المفرقة في شتى القصائد ـ قد كان يعلم ويقول إن للحياة ديناً يحرم ويحلل ويامر ويطاع ولو عارض أوامر الدين :

شربت وقد كان الشباب محللاً لي الراح ما كان الكتاب محرما
وقد طابق الشيب الكتاب فحرمت علي فيك تحريمين إن كنت مسلما

وذكر المحرمات في قصيدة أخرى فقال :

لم تحلّل لمن أتاها ولكن ... لم يحل دونها من الشيب حام
وأتى الآن دونها فهي اليو ... م حرام عليّ كل الحرام
سوأتى إن أطعت شيبي فيما ... لم أطع فيه حاكم الحكام
وعظ الله والكتاب فصممـ ... ت وأقدمت أيما إقدام
ونهى الشيب بعد ذاك فأسلـ ... ـمت وأحجمت أيما احجام

فقد كان يدين في خوالجه بهذا الدين ويستوحي منه شريعة التحليل والتحريم ، وتهم خواطره بالتبتل فيثنيه عنه هذا التبتل الذي لا تسكت دعوته ولا ينقطع رسوله :

أبى لأخي الدنيا التبتل أنها ... لها زيفة في كل حين تزيفها
إذا ما جلاها في الرياض ربيعها ... يروق عيون الناظرين رفيفها
وأخرى إذا ما أينعت ثمراتها ... ورقت حواشيها وطاب خريفها
تراءى لنا في زخرفين كلاهما ... إذا استوحف الأهواء طال وحيفها

وقد كان همه الأكبر أن يحيا لأنه مهيأ النفس للاحساس بالحياة ، ولو كان همه على ما به من الخصاصة واللهفة أن يطلب القوت وينصرف إلى ذرائع العيش لما كان بالملوم .

❊ ❊ ❊

وتعلق ابن الرومي بالحياة أقل شيء غرابةً وأقرب شيء إلى طبيعة الأمور . نعم انه كان سقيم الجسم عسير الرزق مخيب الآمال فكان أحرى لذلك أن يبغض الحياة أو يحبها حب المجبر الملول ، إلا أن المرء لا يحب الحياة على مقدار سعادته بها واستجابة آماله فيها . كما أن المرء لا يحب المرأة على مقدار ما ينال من حظوتها ويغنم من اقبالها ، بل يحب هذه أو تلك كلما امتلأت بها نفسه واشتغل بها حسه واشتبكت بها ذكرياته وامتزجت بها رغباته ، وابن الرومي كان صاحب نفس لا توصف إلا بأنها أداة مهيأة للنظر والسمع والتلقي عن الوجود من حيثما ألقى اليه بأثر من آثاره وخبر من أخباره دق أو جل وأسعد أو أشقى :

العين لا تنفك من نظر ... والقلب لا ينفك من وطر

ومن أبهر ما يبهرك في هذه اليقظة الحسية حاسة اللون الذاكية المتوهجة التي تطالعك من كل وصف يصف به الوجوه أو الازهار أو الكؤوس أو الحلى أو الخمر أو غير هذه المناظر التي تلامس البصر بألوانها فانك قلّ أن ترى في وصف شاعر من شعراء العالم أجمع نظيراً لهذه الحاسة الشفافة المتوفزة التي تختلج لكل لمحة من لمحات اللون وكل شعاع من أشعة النور

وتفطن إلى ألطف ما يبديه للعين من محاسن الامتزاج والمقابلة وأصفى ما يجلوه من دقائق المباينة والمشاكلة . فيصيح صيحة الوهل حين يرى الوجنة الحمراء إلى جانب الصدغ الأدعج ؛

يا وجنتيه اللتين من وهج   في صدغيه اللذين من دعج
ما حمرة فيكما ، أمن خجل ؟   أم صبغة الله ؟ أم دم المهج ؟

ويصيح هذه الصيحة كلما رأى هذا المنظر

ليت شعري أسحر عينيك داء الـ   ـقلب أم نار خدك الوهاج

ويقول في مثل هذا المعنى :

تلْقى جنى التفاح في وجناته   وترى جنى العناب في تطريفه
متعت منه مسامعي ومراشفي   بنثير لؤلؤه وماء رصيفه

ويصف قينة فلا يكاد يعرض من مناظرها لغير الألوان التي في وجهها وثيابها :

وقينة ان مُنحت رؤيتها   رضيت مسموعها ومنظرها
شمس من الحسن في معصفرة   ضاهت بلون لها معصفرها
في وجنات تحمر من خجل   كأن ورد الربيع حمرها

ويقول في ساقية :

بنت كرم يديرها ذات كرم   موقد النحر مثمر الاعناب
حصرم من زبرجد ، بين نبع   من يواقيت جمرها غير خاب
فوق لبات غادة تترك الخا   ليَ من كل صبوة وهو صاب
تحمل الكأس والحليّ فتبدو   فتنة الناظرين والشرَّاب

وفي قينة :

وشرابنا   وردية   لكؤسها   شرر   يطير
حمراء في يد أحمر الو   جنات ملثمه مهير

وفي مثلها :

إذا هي قامت في الشفوف أضاءها   سناها فشفت عن سبيكة سابك

وفي قيان مجتمعات :

لابسات من الشفوف لبوساً كالهواء الرقيق أو كالسراب
ومن الجوهر المضيء سناه شعلاً يلتهبن أي التهاب

وليس ألطف من قوله في وصف الأعناب السود :

سود لهن من الظلماء ألوان

وفي العنب الابيض :

لم يبق منه وهج الحرور إلا ضياء في ظروف نور

أما الخمر فربما كان نصيب عينه من نشوتها أجمل لديه وأحب إليه من نصيب السكر عند الشاربين ـ إذ تراه لا يصف سكرها كما يصف ألوانها وألوان أقداحها بل هو يكاد يحسبها لوناً شائعاً في الفضاء كما قال :

صفراء تنتحل الزجاجة لونها فتخال ذوب التبر حشو أديمها
لطفت فقد كادت تكون مشاعة في الجو مثل شعاعها ونسيمها

وكما قال في موضع آخر :

نضا الدهر عن اسآرها جل لونها فغادرها من لونها في غلائل
ثوت تصطلي شمس الظهائر برهة إلى أن أفادت لون شمس الأصائل

وهكذا يقول في الرياض التي :

توقدُ فيها كلما تلمع الضحى كواكب يذكو نورها حين تشمس

أو في الشقائق التي هي :

ترَفٌ لأبصار كحلن بها ليرين كيف عجائب الحكم
شعل تزيدك في النهار سنى وتضيء في محلولك الظلم
أعجب بها شعلاً على فَحِمٍ لم تشتعل في ذلك الفحْم

وهكذا يقول في كل شيء .

وليست حاسة البصر متفردة بهذه القوة بين حواس ابن الرومي ولاحظها من الذكاء

والتوفر بأوفر من حظ غيرها ، فان الرجل كان يسمع ويشم ويذوق ويتلمس كما كان يبصر ويتصور ، فلا تقصر حاسة من حواسه عن أختها ولا تشكو إحداهن كلالاً أو فتوراً في حصتها من التمييز والشعور ، وهو القائل في وصف صوت :

صوت نديٌّ وأنفاس مساعدة   كأنما نفس منهن أنفاس
يظل سامعه لدناً مفاصله   كأنما فترت أوصاله الكاس

وفي وصف مغنية :

مدّ في شأو صوتها نفس كا   ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرقٌّ الدلال والغنج منه   وبراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا   مستلذ بسيطه والنشيد
فيه وشي وفيه حلي من النـ   ـغم مصوغ يختال فيه القصيد

فكأنه قد بلغ في تحسس الصوت مرتبة الموسيقيين الذين يتمثلون للأنغام ألواناً وزخارف وأوشية تكاد تنطبع في صفحة الخيال أو تكاد تدركها العين لشدة بروزها في قرارة الوجدان . وهو لا يدع لك أن تشرح أو تستخلص ما تقرأه من كلامه حتى يقول لك بالعبارة الصريحة أنه يصل بين الرؤ ية والسماع ويترجم بين الحاستين فينقل إلى لغة العيون ما تضمنته لغة الآذان . وإليك ما يصف به إحدى القيان :

ذات صوت تهزه كيف شاءت   مثلما هزت الصبا غصن بان
يتثنى فينفض الطل عنه   في تثنيه مثل حب الجمان
ذلك الصوت في المسامع يحكي   ذلك الغصن في العيون الرواني

ثم يستطرد إلى تمييز الأنغام فيقول :

جهوريٌّ بلا جفاء على السمـ   ـع مشوب بغنة الغزلان
فيه بمٌّ وفيه زير من النـ   ـغم وفيه مثالث ومثان
فتراه يجل في السمع حيناً   وتراه يدق في الأحيان
رخّمته ورقرقته وضاهى   فعلها الأحمران والأسمران
فهو يحكي ترقرق النّهي في الر   يح لعيني ذي غلة صديان
يلج السمع مستمراً إلى القلـ   ـب بلا آذانٍ ولا استئذان

وانك إذا قرأت مدائحه الأخريات في القيان المحسنات وأهاجيه في شنطف ودبس وأبي

سليمان ومن لا يجيد هذه الصناعة من المغنين والمغنيات علمت أن له أذناً واعية تهفو إلى السماع الجميل وتنفر من السماع القبيح ، وإذا قرأت مبتكراته في فضائل الأزهار والرياحين ولذة الاستمتاع بروائحها وتمييزه لمراتبها علمت أنه كان يستروح من جمال مشموماتها مثل ما كان يستروح من جمال مناظرها ، وإذا قرأت ما قال في الموز الذي « يدفعه البلع إلى القلوب » وفي المشمش الذي إذا رأيت بستانه « فأيقن بحق أنه لطبيب » وفي الدجاجة التي تلوح له « سميطة صفراء دينارية » والتي « يكاد أهابها يتفطر » . أو قرأت مقطوعاته في القطائف والفطائر واللوزينج والحلوى التي كان يقرظها ويفتن في تشبيهها علمت كيف كان النهم بالمناظر والطعوم باباً عنده للنهم بالطعام ، بل حسبك من دليل على شراهة حاسة الطعم عنده وقوة التذاذه بها قوله انه ما كان ليحفل بالموت أو ليجزع من القبر « لولا فواكه ايلول . . . ! » .

وحاسة اللمس في هذه الاداة الحسية اليقظى كحواس البصر والسمع والشم والطعم في الدقة والرفاهة والانتباه . فها هو ذا يصف الريح الشمالية :

وشمأل باردة النسيم ... تشفي حرارات القلوب الهيم

. . . .

شاردة في الليل بالنميم ... بين نشير الروض والخيشوم

كأنها من جنة النعيم

وها هو ذا يصف الليل في شهر ايلول .

يا حبذا ليل ايلول إذا بردت ... فيه مضاجعنا والليل سجواء

وجمش القر فيه الجلد فائتلفت ... من الضجيعين أحشاء فأحشاء

أو ها هو ذا يصف البارد :

ألذ من معتق الرساطون ... وقهوتي قُطْربل وكَرْكين

رجرجة من ماء ليل تشرين ... كرونق السيف اليمان المسنون

باتت على طَرِدِ نياف العرنين ... تنفحها الريح بَرْسَ ممنون

في شطر كوز صُنع طَبّ أُفنون ... أخضر في خضرة جرو اليقطين

ألست يا محرومها بمغبون

فها هنا تلمس معه برد الهواء الذي « يجمش » الجلود والاحشاء . بل ها هنا يخيل إليك

أن لبرد الماء في « شطر الكوز » الأخضر ثقلاً راسباً ينقع الغلة بالرجرجة قبل أن ينقعها بالشراب ، وأن الشاعر ما اختار « معتق الرَّساطون » من اسماء الخمر إلا لأنها كلمة مجسمة أشبه بالرصاص البارد الذي ترى لاستقراره راحة كراحة الظمآن بعد الارتواء . ثم تعيد نظرك في الأبيات فتعجب ما هي الحاسة التي لم تشترك في وصف هذه الأبيات ؟؟ أهي حاسة البصر وهي ترى للماء رونقاً كرونق السيف اليمان المسنون ، وترى خضرة الكوز كأنه جرو اليقطين ، وترى « شطر » الكوز وهو كأنما تفلق من برودة ما فيه ، وترى صنعة الكوز فاذا هي صنع قادر صناع ؟ أم هي حاسة السمع وهي تصغى إلى رجرجة الماء ونفح الريح ؟ أم هي حاسة الري وهو هنا ناقع لا يُبقي من الظمأ بقية في الصدور ؟ أم هي حاسة الخيال وهو يرتفع بالكوز إلى رأس الطود النياف العرنين ويشبع القلب بالخمر المجلوبة من قطر بل وكركين ؟ فأوجز ما يقال في تصوير ابن الرومي لهذا الكوز انه قد التهمه حساً بكل ما فيه من منظور ومسموع ومشروب ومتخيل وملموس .

فهذه أيها القارىء نفس تامة الاداة تشعر شعوراً شديداً بالحياة من حيثما واجهتها وتداخل الطبيعة في كل جزء من أجزائها . فقد عاش صاحبها يوماً يوماً من عمره ، وناحية ناحية من وجدانه ولابس الحياة ولابسته :

ودامت الدنيا له غضةً كأنها الجارية الناهد

وليس الأمر كله حساً بالظواهر كذلك الحس الذي لا مذهب له وراء العيون والآذان والآناف ، ولا هو بالدقة التي ترهف الحواس ارهافاً فلا يكون قصاراها الا أن تقابل بين المرئيات والمسموعات أو بين هذه وتلك وبين المشمومات والملموسات . . كلا ! فان هذه اليقظة الحسية لتصاحبها يقظة في الشعور الباطني تسري به في كل مسرى وتنفذ به إلى كل منفذ وتترجم العواطف والأخلاق كما تترجم المناظر والألحان ، فاذا تتبع « المكر » في خبايا الفكر فهو القائل في ذلك قولا لا يسبقه فيه شاعر :

لك مكر يدب في القوم أخفى من دبيب الغذاء في الأعضاء
أو دبيب الملال في مستهامـ ـين الى غاية من البغضاء
أو مسير القضاء في ظلم الغيـ ـب الى قاصد له بالتّواء

وإذا جال الحزن في نفسه بدت منه على الكون غشاوة ولاح له كأنما نُفخ في الصور ودُمّر كل عامر :

واظلمت الدنيا وباخ ضياؤها
نهاراً ، وشمس الصحو حيرى على القمم

....

وابـدى اكتئابـاً كل شيء علمته   واضعـاف ما أبـداه من ذاك ما كتم

ثم عرف انه هو الحزن الدخيل ، وليست الدنيا البادية للعيان هي التي يراها بتلك النظرة الشاحبة فقال :

كذاك أرى الأشياء إمـا حقيقة   بدت لي وإمـا حلـم مستيقـظ حلُم
ولـم يحلـم اليقظـان الا وقـد أتت   على لبـه دهياء هائلـة الفقم

وقد يتأمل المرأة فاذا هو محيطٌ ـ في بيت واحد ـ بسر « الأنوثة » كله ، وبما في المرأة من ضعف وقوة ، وبما هنالك من العجب في أن تكون هذه المخلوقة العجيبة انساناً كالرجل وهي والرجل جسدان مختلفان وطبعان متباينان ، وأن تكون غريبة عنه وهي قرينة له ما عن مقارنتها محيص . وذلك كله ملحوظ في البيت الذي يقول فيه :

ومـن عجائـب ما يمُنـى الرجـال به   مستضعفـات لنـا منهـن أقران

ولا عجيبة هنا الا العجيبة التي يحسها من أحس سر الأنوثة وسر الرجولة وأحاط بالتوفيق الغريب بين هذين الانسانين حيث يفترقان وحيث يلتقيان ، واستوعب لغز « الجنس » ببديهة واسعة لم يحجبها عن ذلك اللغز أن الجنسين أشيع ما يرى في عالم الانسان والحيوان .

وأما وقد ذكرنا المرأة ولغز الجنس المنوط بها ، فقد يكون من الواجب أن نعرف مقدار ما شغلته من هذه النفس وحركته من هذا الاحساس ، فاذا كان ابن الرومي عابداً للحياة ، فالمرأة ولا ريب كاهنة هذا المعبد التي تتم على يديها مراسم العبادة ، ومحورها الذي تلتف حوله الشعائر والقرابين ، وإذا كان ابن الرومي نفساً تيقظت فيها أداة الحس والشعور ففي المرأة ولا ريب تلتقي أشد مغريات الحس وأعمق بواعث الشعور . ولا بد من شأن لهذه « المخلوقة » في حياة هذا الشاعر . فما هو هذا الشأن ؟ وما حقيقته ؟ وما مداه ؟ وهل هو شأن (المرأة) أو هو شأن (امرأة) خاصة أو أكثر من امرأة خاصة ؟ وهل عشق ؟ وهل أحب ؟ وهل عرف ما هو الحب الذي نعني به شيئاً أكثر من العشق وأكثر من الغرام ؟؟

فأما هذا الشأن فقد كان ولا يعقل إلا أن يكون ، وما فرغ ابن الرومي قط من شأن النساء ولا كره الشيخوخة إلا لأنها تصده عن المرأة أو تصد المرأة عنه ، فلأجلها قبلَ كل شيء كان يخاف غائلة السن ولأجلها قبل كل شيء كان يتمنى خلود الشباب :

أخشى كسادي على النساء إذا أسنـ ـنت والسن جمة الخبل
وإنني من كسادهن على سـ ـني لأولى بالخوف والوجل

ولأجلها كذلك تمنى أن تنعكس أيام العمر فيتقدم فيه الهرم ويتأخر فيه الشباب :

فالعيش طعمان عند ذائقه مر التوالي مستعذب الأول
من عسل تارة ومن صبرٍ لهفي لتأخير عقبة العسل
لو أنها أخرت لطاب بها العيـ ـش وإن جاوزت شفا الأجل

وفي وسعك أن تقول إنه عرف « العشق » الذي لا يعرفه إلا من نشبت علائقه بامرأة واحدة دون سائر النساء ، فوصف ما وجده من هذا العشق في غير موضع وقال من ذلك :

قد كنت أبكي لأصحاب الهوى زمناً فهل ليَ الآن من باك فيبكيني
أهكذا يجد العشاق كلهم ؟ يا رحمتا للمحبين المساكين !

وقال :

الحب داء عياء لا دواء له تضل فيه الأطباء النحارير
قد كنت أحسب أن العاشقين غلوا في وصفه فاذا في القوم تقصير
سقياً لأيام لم أخبره تجربة إلا بما وصفت عنه الأخابير

بل جرب الغيرة فقال في تهوينها على العاشق ما لا يقوله إلا غيور :

إذا خلة خانتك بالغيب عهدها فلا تجعلن الحزن ضربة لازب
وهب أنها الدنيا التي أنت موقن بفرقتها إذ أنت في شأن لاعب

فهو قد عشق وغار وكابد لوعة الرغبة التي يحصرها العشق في إنسانة واحدة بين سائر النساء وفارق وناجى وذكّر وقال من ذلك في معشوقة فارقها على أمل اللقاء :

أعلى العهد أنتِ أم حلتِ عنه جعل الله قبل ذاك مماتي
لست أنسى امتناع صبركِ للتود يع والبين مؤذن بشتات

إلا أن هذا كله عشق وليس فيه حب . وقد يكفي الاحساس والعاطفة لاضرام العشق وإغرام المرء بامرأة يشتهيها ويغار عليها ويشعر نحوها بذلك الشعور الفطري الذي ركب في عامة الرجال وعامة النساء . أما الحب الذي نعنيه فلا يكفي فيه الاحساس والعاطفة ولا بد فيه من « الروحانية » أو الزهد والتضحية ونكران النفس ومن ثم نكران الحياة ويقترن ذلك بالتصوف والارتفاع بالمرأة إلى ما فوق مرتبتها في الطبيعة وفوق حظها من محاسن الأجسام . إذ الطبيعة لا تعرف في المرأة إلا أنها أنثى وكذلك العاشق ، أما المحب فانه قادر على أن يفيض من روحانيته نوراً على من يحب وأن يحفها بهالة علوية قد يهابها وقد يخشع لها في بعض المواقف خشوع المتنسكين . ولم يكن لابن الرومي نصيب من هذه الروحانية ولا من ذلك النور ، فما كانت المرأة في حسه أو عاطفته إلا أنثى طبيعية ومخلوقاً جميلاً فيه متعة للأعين ومسرة للقلوب ، ونساؤه كلهن نساء المتعة والمسرة على نسق واحد يلخصه مثل هذا البيت :

حوراء في وطف قنواء في ذلف ذلقاء في هيف عجزاء في قبب

وهو في هذا أيضاً وفيٌ « للعبقرية اليونانية » وللصورة التي رسمها اليونان الجمال « فينوس » . فقد كان اليونان طبيعيين في الجمال وطبيعيين في العشق ولم يكونوا روحانيين في شعر ولا فلسفة ولا تصوير ، وخلاصة الحب عندهم انه نسخة من حب « خلوى ودفنيس » في غابة حفلت بالألوف من نسخ هذا الحب بين أزواج الطير والحيوان ، فاذا تنزه فهو حب عصفور لعصفورة أو ظبي لظبية أو حيوان جميل لحيوانة جميلة ، يخلو من الكثافة ويزدان بالخفة والرشاقة ، ولكنه لا يخلو من « الجسدانية » ولا من « الطبيعية » ولا يفارق الأرض ليصعد إلى سماء « الروحانية » والنور . وإذا تنزه بعد ذلك فهو صداقة حامية يشترك فيها الفكر والذوق والغريزة ، ولا ينفسح فيها مجال كبير للنزاهة والتقديس .

حب الطبيعة

وننتقل من ذاك إلى الخاصة الأخرى من خواص الطبيعة اليونانية وهي حب الطبيعة .

فقد وصف الطبيعة شعراء كثيرون ولم يمنحها الحياة إلا قليلون ! أما الذين منحوها حياة نحبها وتحبنا ونعطف عليها وتعطف علينا ونناجيها وتناجينا فأقل من هؤلاء القليلين .

وذاك ان الشاعر قد يؤخذ بأحمرها وأبيضها وأصفرها وأخضرها ويُفتَن بما فيها من الزراكش والافانين ثم لا يعدو بذلك أن يمدح شيئاً قد يجد مثله في ألوان الحلي وأصباغ الطنافس ونقوش الجدران ، أو نحن نخطو وراء ذلك خطوة فنقول انه لا يعدو بذلك أن ينظر إلى دمية فاتنة يروقه منها وجه مليح وقوام ممشوق وحسن مفاص على الجوارح والأوصال ، ولكنه لا يتطلع منها إلى عطف ولا يفتش فيها عن طوية .

وقد يستريح الشاعر إلى الطبيعة لأنها ظل ظليل ، ومهاد وثير وهواء بليل وراحة من عناء البيت وضجة المدينة ، فلا يعدو بذلك أن يستريح اليها كما تستريح كل بنية حية إلى الماء والظل والهواء - كذلك تهجع السائمة في المروج ، وكذلك تهتف الضفدع في الليلة القمراء .

وقد يمنحها الشاعر حياة من عنده أو من عند الخرافات والأساطير فاذا هي حياة بغيضة لا تصلح للتعاطف والمناجاة ولا يصدر عنها إلا الفزع والاحجام ولا تقوم بينه وبينها إلا الحواجز والعداوات .

أماالطبيعة التي تحُب وتُناحى ويتم التعاطف بين الشاعرو بينهاعن ثروة غزيرة من الشعر والشعوب فيهي طبيعة الحور الخافقات في الهواء ،والعرائس السابحات بين الأمواج ، والعذارى الراقصات في عيد الربيع ، والجنيات الهامسات في رفرفة النسيم ورقرقة الغدير وحنين الصدى وحفيف الأغصان ، أو إن شئت فقل إنها هي الطبيعة العامرة بما في البروق والرعود والسماوات والأعماق من بطولة وعظمة ، ونضال جياش بالغضب الظافر ، والسطوة المجيدة ، والخطر المثير ، والشجاعة التي تقدم ولا تحجم وترجو ولا تخاف ، أو إن شئت فقل إنها هي الطبيعة التي تبث الأغراء في كل شيء حتى ليحذر الملاّح لجة البحار مخافة أن تستهويه بنات الماء من وراء زرقة الأمواج ، فيثب إلى أحضانها وكأنما يثب إلى أحضان عروس طال بها عهد الغياب :

فعلى هذا النحو تتجلى الطبيعة للعبقرية التي تحبها وتمنحها الحياة . فليست هي دمية ولا حلية ، وليست هي مروحة للهواء ولا مجلساً للمنادمة ، ولكنها قلب نابض وحياة شاملة ونفس تخف اليها وتأنس بها و « ذات » تساجلها العطف وتجاذبها المودة ، ثم هي عمار لاخواء فيه وأسرة لا تبرح منها في حضرة قريب يناجيك وتناجيه ويعاطيك الاخلاص وتعاطيه .

وقد كان ابن الرومي يحب الطبيعة على هذا النحو ويستروح من محاسنها نفساً تتصبى الناظر اليها وتتبرج له « تبرج الأنثى تصدت للذكر » ويرى وراء هذه الزينة التي تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلقها بالعاطفة الانسانية الشاعرة :

فهي في زينة البغيّ ولكن هي في عفة الحصان الرزان

ولا يقول هذا القول على سبيل الاستعارة اللفظية ولكنه يقوله ويصف الطبيعة الوصف الذي يقتضيه ذلك الشعور ويمليه ذلك التصور ، فيشفّ وصفه لها عن شغف الحي بالحي وشوق الصاحب إلى الصاحب ، وتسمع من تشبيبه بها رنة طرب أو شجو لا تخرج إلا من نفس مفعمة باصداء الطبيعة قد نفذت إلى طويتها وشاركتها فيما تتخيله لها من حزن وسرور . فهو يحيا مع الشمس الغاربة حين تضع على الأرض « خدا أضرع » من دهشة الفراق ، وهو يحيا مع النوار حين تخضل بالدمع عيونه وتهبط مع الليل شجونه ، وهو يحيا مع الذباب المغرد والطير الساجع في ساعة الغروب التي يمتزج فيها الحنان الذائب بالشوق الخفيض ، وهو ينتظم ذلك كله في انشودة واحدة لم تدع مزيداً لفن اللون والحركة ولا مزيداً لوحي الخيال والسليقة :

إذا رنّقت شمس الأصيل ونفّضت على الأفق الغربي ورساً مذعذعا
وودعت الدنيا لتقضي نحبها وشوّل باقي عمرها فتشعشعا
ولاحظت النّوار وهي مريضة وقد وضعت خداً إلى الأرض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مدنف توجّع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا
يُراعينها صُوراً اليها روانياً ويلحظن ألحاظاً من الشجو خشعاً
وبَين إغضاء الفراق عليهما كأنهما خلاَّ صفاء تودعا
وقدضربت فيخضرة الروض صفرة من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعاً

وأذكى نسيم الـروض ريعـــان ظله وغنـــى مغنـــي الطـــير فيه فسجّعا
وغـــرد ربعـــي الذبـــاب خلاله كما حثحث النشوان صنجاً مشرّعاً

وهو يعرف الربيع حياةً تتحرك في الوحش والطير كما يعرفـه زخرفـاً تتحلى به الأرض والسماء . لأنه وليمة الحياة للاحياء :

تجـد الوحـوش به كفايتها والطـير فيه عتيدة الطعم
فظبـاؤه تضحـى بمنتطح وحمَامـه يضحـى بمختصم
إنّ الـربيع لكالشبـاب وإنّ الـ صيـف يُكسّعهُ لكالهرم

وهو ينتشي مع الطيور والأغصان إذا بعثت الشمال بتحيتها و :

هبت سُحيراً فناجَى الغصن صاحبه موسوسـاً وتنادى الطير إعلانا
ورْقٌ تغنـي على خضر مهدلة تسمـو بهـا وتشـم الأرض أحياناً
تخـال طائرهـا نشـوان من طرب والغصـن من هزه عطفيه نشوانا

وهو يستمع إلى الروضة في بكائها وشدوها إذ هي :

يتداعـى بهـا حمائـم شتى كالبـواكي وكالقيان الشوادي
من مثـان ممتّعـات قران وفُراد مفجّعـات وِحاد
تتغنـى القـران منهـن في الأ يك وتبـكي الفـراد شجـو الفراد

وهو يفهم الشعر الذي لا ينشده صاحبه للأجر والصنعة :

لكن كما راقـت القمـري جنّته فظل يُتبـع تغريداً بتغريد

وهو يحسن الاصغاء إلى سر الحياة الكامنة في هذه الأرض وينصت إلى ما يبوح به في نجواها إذا :

لم يبـق للأرض من سر تكاتمه إلا وقـد أظهرتْـه بعد اخفاء
أبـدت طرائف وشي من زواهرها حمـراً وصفـراً وكلٌ نبـت غبراء

وهو يشتهي جمال الطبيعة من كل جارحة في نفسه إذا بدت للعين :

برياض تخـايل الأرض فيها خيلاءَ الفتـاة في الأَبراد
منظـر معجـب ، تحية أنف ريحهـا ريح طيب الأولاد

وقد بلغ من قوة هذا الاحساس فيه أن تجاوز حيز البديهة إلى حيز التفكير ، كأنه التفت إلى نفسه فأدرك من طول المراقبة وتواتر الاحساس المتشابه علة أنسه بالطبيعة ، وعلم أنه أنس مستمد مما يفيضه عليها من دلائل الحياة ، فقال في أبيات يصف بها الأغصان :

تلاعبها أيدي الرياح إذا جرت ... فتسمو ، وتحنو تارة فتنكس
إذا ما أعارتها الصبا حركاتها ... أفادت بها أنس الحياة فتؤنس

ولما شغف بالشباب ذلك الشغف المتوهج لم ينس معه الشغف بالطبيعة ولم يفرق بين ربيعه وربيعها وبين ثمراته وثمراتها : بل خلع من شبابه عليها وخلع من شبابها عليه ومزج بينها مزجاً لا تخاله يكون إلا في مهجة واحدة وجسد واحد . فاذا تذكر الشباب فاسمع ما هذا الذي يذكّره بالشباب :

يذكرني الشباب صدى طويل ... إلى برد الثنايا والرضاب
وشح الغانيات عليه إلا ... عن ابن شبيبة جون الغراب

....

يذكرني الشباب جنانُ عدن ... على جنبات انهار عذاب
تُفَيّء ظلها نفحات ريح ... تهز متون أغصان رطاب
إذا ماست ذوائبها تداعت ... بواكي الطير فيها بانتحاب
يذكرني الشباب رياض حَزْن ... ترنم بينها زرق الذباب
إذا شمس الأصائل عارضتها ... وقد كَرَبت توارى بالحجاب
وألفت جنحَ مغربها شعاعاً ... مريضاً مثل ألحاظ الكعاب
يذكرني الشباب سراةُ نهيٍ ... نمير الماء مطرد الحباب
قرته مزنة بكرٌ وأضحى ... ترقرقه الصبا مثل السراب
على حصباء في أرض هجان ... كأن ترابها ذفر الملاب
له حبك إذا اطردت عليه ... قرأت بها سطوراً في كتاب
تذكرني الشباب صبا بَليلٌ ... رسيس المس لا غبة الركاب
أتت من بعد ما انسحبت ملياً ... على زهر الربا كل انسحاب
وقد عبقت بها ريّا الخزامى ... كريّا المسك ضُوّع بانتهاب
يذكرني الشباب وميض برق ... وسجع حمامة وحنين ناب
فيا أسفاً ويا جرعاً عليه ... ويا حزناً إلى يوم الحساب

أأفجع بالشباب ولا أعزّى ؟ لقد غفل المعزي عن مصابي
تفرقنا على كره جميعاً ولم يك عن قلى طول اصطحاب
وكانت أيكتي ليد إجتناء فعادت بعده ليد احتطاب
أيا بُرد الشباب لكنت عندي من الحسنات والقسم الرغاب
بليت على الزمان وكل برد فبين بلى وبين يد استلاب
وعزّ عليّ أن تبلى وأبقى ولكن الحوادث لا تحابي
لبستك برهة لبس ابتذال على علمي بفضلك في الثياب
ولو مُلكت صوتك فاعلمْه لصنتك في الحريز من العياب

وهذا حنين إلى الطبيعة وشبابها وحنين إلى العمر وشبابه لا تدري أين يبتدىء أحدهما وأين ينتهي الآخر . فهما حنين واحد وشباب واحد وفاكهة واحدة وروضة واحدة . وانك لتذوق الفاكهة فتذوق فيها طعم الشفاه والخدود وتجد فيها مس الضفائر والنهود وتجمع فيها بين وليمة الحب ووليمة البستان بعد أن تسمعه يقول :

مَتِّعِ الظبي من جنى غصنك اللد ن يمتعك منه قبل انخضاده
من عناقيده وتفاحه الغض ورمانه ومن فرصاده

او بعد أن تسمعه يقول :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان فيهن نوعان : تفاح ورمان
وفوق ذينك أعناب مهدلة سود لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عناب تلوح به اطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليها الدهر فاكهة وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات ساري الطل يضربه واقحوان منير النور ريان
ألفن من كل شيء طيب حسن فهن فاكهة شتى وريحان

فلا افتراق عنده بين الطبيعة والشعور ، يكاد لا ينظر إلى الحسان إلا تذكر الروضة والبستان ، أو يكاد لا ينظر إلى الروضة والبستان إلا بنظرة تثير الرغبة وتوقظ الأشجان .

ولو كان للطبيعة في بلاد العراق ظواهر أخرى غير هذه الظواهر التي تَوزّع وصفها في قصائده ومقطوعاته لقرأت له في تلك الظواهر الأخرى وصفاً على هذا الأسلوب يحييها ويناجيها ويلهمها القول والعمل ويرودها بالسير والاحاديث ، كما ترى في الأساطير

المروية عن بلاد الرعود والبراكين والمغاور والآجام . لأننا لا نحسب هذه القريحة قادرة على أن تتخيل شيئاً من الأشياء بغير حياة ، ولا على أن تفصل بين عالم الطبيعة وعالم الحياة في أي البلاد .

التشخيص والتصوير

والقريحة المطبوعة على اعطاء الحياة مطبوعة كذلك على اعطاء الشخوص ، أو على ملكة التشخيص .

ولكننا نحب أن نستثني هنا ذلك التشخيص الذي تلجيء اليه ضرورة اللغة وتسهيل التعبير مع علم المتكلم بما في كلامه من المجاز والمفارقة . فقد يتكلم الشاعر أو غير الشاعر عن الشمس بضمير المؤنث ، وعن القمر بضمير المذكر ، وقد يسند اليهما فعال الأحياء العاقلة وغير العاقلة ، ولكنه بعدُ تعبير لفظي ليس وراءه تصوّر وليس وراء التصوّر ـ ان كان ـ أثر من الشعور ، ولا سيما الشعور المتبادل بين طرفين متعاطفين .

وإنما المقصود بالتشخيص تلك الملكة الخالقة التي تستمد قدرتها من سعة الشعور حيناً أو من دقة الشعور حيناً آخر ، فالشعور الواسع هو الذي يستوعب كل ما في الأرضين والسموات من الأجسام والمعاني ، فاذا هي حية كلها لأنها جزء من تلك الحياة المستوعبة الشاملة ، والشعور الدقيق هو الذي يتأثر بكل مؤثر ، ويهتز لكل هامسة ولامسة فيَستبعد جد الاستبعاد أن تؤثر فيه الأشياء ذلك التأثير وتوقظه تلك اليقظة وهي هامدة جامدة صفر من العاطفة خلو من الارادة ، وهذا الشعور الدقيق هو شعور ابن الرومي بكل ما حوله ، وسببُ ما عنده من قدرة الأحياء وقدرة التشخيص : قدرة التشخيص التي هي ملكة مقصودة تكون عند أناس ولا تكون عند آخرين ، وليست قدرة التشخيص التي هي حيلة لفظية تلجئنا اليها لوازم التعبير ويوحيها الينا تداعي الفكر وتسلسل الخواطر .

خذ مثلا للمعاني « التشخيصية » التي يأتي بها اللفظ والمعاني التشخيصية التي يأتي بها الشعور من أبيات ابن الرومي في مشهد الشمس ساعة الغروب .

فقد ينظر بعض الشعراء إلى الشمس في هذا المشهد فيجعلها حسناء مفارقةً ، وما دامت حسناء مفارقة فهي معشوقة أو عاشقة ، وما دامت معشوقة أو عاشقة فهناك قصة غرام تدور على هذا المعنى الى حيث ينتهي بها المطاف ، وكل هذا لأن الشمس مؤنثة في اللغة العربية وحسناء في تشبيهات الشعراء ! فهي قصة مولدة من لفظ عَرَضي قد يكون لها نصيب من الشعور ، وقد لا يكون لها أقل نصيب ، أما الشيء الذي لا يمكن أن يخلقه اللفظ ولا التشبيهات ولا تسلسل الخواطر فهو الشعور العميق بوحشة الغروب وما ينعكس من ذلك الشعور العميق على الشمس من ترنيق وضراعة وانكسار ونظر يائس كنظر المريض إلى

العواد ووجوم شائع بينها وبين عيون النّور التي تغرورق على الاغصان لتدمع وتلحظ ألحاظاً خشّعاً من الشجو والاغضاء . فلا بد إذن من شعور يسبق التشخيص ويلقي عليه ظله ويبث فيه من حياته ، وأياً كان لفظ الشمس من التأنيث أو التذكير وأياً كان موقعها من تشبيهات الشعراء ، فان هذا الشعور لا يتغير ولا يضعف ولا يزول .

هذا الشعور هو الذي يسبق كل تشخيص لابن الرومي أو كل « صورة مشخصة » في شعره ، سواء تكلم عن بلد أو يوم أو خليقة أو فترة من العمر أو معنى محسوس أو غير محسوس .

فأنت تستخرج من بغداد « صورة مشخصة » حين يقول عنها :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ... ولبست ثوب العمر وهو جديد
فاذا تمثل في الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد

وأنت ترى للمهرجان والنيروز « شخصين » يشبان ويشيبان ويدينان بالأديان ويحدوهما الشوق وتلوح عليهما الهيبة حين يلوحان لك في قوله :

شبّب المهرجانَ لُهُوك فيه ... فغدا من غطارف الشبان
وكذاك النيروز رُد عليه ... بك شرخ الشباب ذي الريعان
ولـذكّرت ذا وذاك جميعاً ... سنن الملك في بني ساسان
عمّرا برهةً على دين كسرى ... وهما الآن بعده مسلمان

. . . .

فعلى منظريهما هيبة العـ ... ـز ونور الاسلام والايمان
وأحبّاك حب مولى شكور ... فهما وامقان ، بل عاشقان
كل يوم وليلة فرط شوق ... ونزاع اليك يطّلعان
فبهذا وذاك حتى يجيئا ... غلة فوق غلة الظمآن
لو أصابا إلى الغلاط سبيلا ... غالَطَا الحاسبين في الحسبان
أو يخلىً عنان ذاك وهذا ... سبقا موقتيهما في الزمان
ولوداً إذا هُما بك حلا ... لو يقيمان ثم لا يرحلان
وعزيز عليهما أن يكونا ... عنك لولا الازعاج يرتحلان
لو أطاقا هناك للدهر قسراً ... حرنا سائقيه أي حران

ولهنوات النفوس « شخوص » عنده يخاطبها وتخاطبه ويعتب عليها وتعتب عليه وتسمع بينه وبينها هذا الحوار :

ليتنـــي ما هتــكت عنــكن ستراً   فثويتــن تحــت ذاك الغطاء
قلن : لولا انكشافنــا ما تجلّت   عنــك ظلماء شبهــة قتماء
قلت : اعجب بكن من كاسفات   كاشفــات غواشي الظلماء
قد أفدتُنّنــي مع الخبــر بالصا   حب أن رب كاسفٍ مستضاء
قلن : أعجــبْ بمهتــد يتمنى   أنــه لم يزل على عمياء

إلى آخر ذلك الحوار .

والشباب روح أو ملك يعيش كما يعيش الرجل وزميله من الجان في بعض الأساطير :

أخــي وإلفــي وتِربــي كان مولدنا   معــاً وربتنــي الأيام حيث رَبا

والود كائن حي يعاجله القتل أو يترك إلى الهرم فيموت :

أمَــتٌ ودّيك عبطــةً ، فَمَهٍ   دعْــه على رسلــه يمــت هرما

والعوسج شرير « ملعون » يهجى ويسخر منه ويقال فيه :

عذرنــا النخــل في إبــداء شوك   يذود به الأنامــل عن جناه
فما للعوســج الملعــون أبدى   لنــا شوكاً بلا ثمــر نراه
تراه ظن فيه جنــى كريماً   فأظهــر عدة تحمــى حماه ؟!
فلا يتسلحــنّ لدفــع كفٍ ،   كفــاه لؤم مجنــاه كفاه !

وإذا كانت هذه قدرة ابن الرومي على خلق الأشكال للمعاني المجردة أو خلق الرموز لبعض الأشكال المحسوسة فان القدرة التي سبق بها الشعراء في الأمم كافة بغير شك ولا تردد هي قدرته البالغة على نقل الأشكال الموجودة كما تقع في الحس والشعور والخيال . أو هي قدرته على التصوير المطبوع ، لأن هذا في الحقيقة هو فن التصوير كما يتاح لأنبغ نوابغ المصورين . فلست أعرف فيمن قرأت لهم من مشارقة ومغاربة أو يونان أقدمين وأوربيين محدثين شاعراً واحداً له من الملكة المطبوعة في التصوير مثل ما كان لابن الرومي في كل شعر قاله مشبهاً أو حاكياً على قصد منه أو على غير قصد ، لأنه مصــور بالفطـرة المهيأة لهـذه الصناعة فلا ينظر ولا يلتفت إلا تنبهت فيه الملكة الحاضرة أبداً وأخذت في العمل موفقةً

مجيدة سواء ظهر عليها أو سها عنها كما قد يسهو المصور وهو عاملٌ في بعض الأحايين .

إنما التصوير لون وشكل ومعنى وحركة ، وقد تكون الحركة أصعب ما فيه لأن تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر ولا يتوقف على ما يراه بعينه ويدركه بظاهر حسه . ولكن تمثيل هذه الحركة المستصعبة كان أسهل شيء على ابن الرومي وأطوعه وأجراه مع ما يريد من جد أو هزل وحزن أو سرور ، وقد مر بك وصفه لمشيته التي « يغربل فيها » وللأحدب الذي شبهه بالمصفوع وهو يتجمع ويتهيأ للصفع ويخشاه ! فأضف إليه هنا وصفه لحركة الكتان في حقله :

وجلْس من الكتان أخضر ناعم توسَّنه داني الرباب مطير
إذا درجت فيه الشمال تتابعت ذوائبه حتى يقال غدير

ووصفه لحركة الرقاق في يد الصانع :

ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة في صفحة الماء يُرمَى فيه بالحجر

ووصفه للقمر في سريانه :

وأسفر القمر الساري فصفحته ريَّالها من صفاء الجو لألاء

ووصفه لحركة الري في النبات :

ويحور الخريف وهو ربيع وتسور المياه في العيدان

ووصفه للحركة البطيئة في سير السحائب :

سحائب قيست بالبلاد فأُلفيتْ غطاء على أغوارها ونجودها
حدتها النعامى مثقلات ، فأقبلت تهادى ، رويداً ، سيرها كركودها

فانك تقرأ هذه الأبيات وأمثالها مما سبق في هذا الكتاب فيروعك منها ـ أول ما يروع ـ صدقُ تمثيلها للحركة في الجملة والتفصيل . فليس أصدق من وصف ذوائب الكتان بالغدير وهي تتلاحق مع الريح ، ثم يتمم تصوير الحركة هنا تصوير اللون الأخضر والملمس الناعم والغيم الذي يسري على جلس الكتان مع الليل في وقت الوسن ويُسف بحواشيه المطيرة إلى الأرض البليل . فالصورة كاملة لا تنقص منها سمة من سمات المكان والزمان والحركة ولا حظ من حظوظ العين واللمس والخيال ، ومثلها صورة الرقاق وهي

تكبر في لمح البصر كما « تنداح » الدوائر في صفحة الماء ، ومثلها صورة الليلة القمراء وهي كاملة متحركة من بداية الأسفار إلى السريان إلى الصفحة الريّا التي تطالعك بالامتلاء والنداوة إلى الصفاء المحيط بكل هذا فاللألاء المشرق على ذلك الصفاء . ليس في البيت كلمة واحدة إلا لها مكانها من الصورة ونصيبها من التلوين والتمثيل والتبيين ، ومثل ذلك المياه التي تسور في العيدان كأن لها وجيبا أو دبيباً يتتبعه الناظر بعينه ويصغي إليه بأذنه ، والسحائب التي لا تَفَرَّق بين حركتها وركودها لأنها أطبقت على أغوار البلاد ونجودها ، وهات ما شئت من صور له في وصف الانسان والحيوان والنبات والجماد فانك لتجدن فيها كلها مثل هذا الصدق ومثل هذه الحركة ومثل هذه الحياة . وقد يكون قولنا هذا من تحصيل الحاصل بعدما سلف من بيان احساسه باللون ويقظته لكل ما يراه أو يسمعه أو يلمسه أو يدركه من ظواهر الأجسام وبواطن العواطف والأخلاق ، ولكنه تحصيل حاصل غير مألوف ولا مستغن عن بعض الابانة وبعض التفصيل .

ولو كان ابن الرومي مصوراً لما استُغرب منه هذا الولع بالألوان والظلال والأشكال والحركات . لأنه كان لا يستطيع إذن أن يشرع في عمله قبل أن يلتفت الى عناصر الصورة المحسوسة ويجيلها في روعه ويهيئها للظهور على قرطاسه . أما الشاعر فلا ضرورة في نظم الشعر تفسره على أن يلتفت هذا الالتفات الدقيق إلى كل لمحة من لمحات اللون والظل وكل صغيرة من صغائر الشكل والحركة . فاذا التفت إلى ذلك في عامة شعره بغير ضرورة قاسرة ولا طريقة مسبوقة فانما يلتفت اليه لأنه مطبوع على التصوير ينظر إلى ما حوله فينطبع ما يراه في حسه وإن دق وخفي - كما ينطبع النور البعيد الضئيل في مصوَّر الفلكي المحكم التركيب .

وبودنا أن نثبت الآن قصيدة « المهرجان » النونية برمتها لأنها نموذج واف لشعر ابن الرومي في هذا الباب ، ولكنا نجتزيء منها بما يأتي وفيه الدلالة الكافية على هذه الملكة النادرة . قال :

يمَّنَ اللـه طلعـة المهرجان ... كلٌّ يمن على الأمير الهجان

. . . .

مهرجـان كأنما صوّرته ... كيف شاءت مخيرات الأماني

. . . .

وأديل السرور واللهـو فيه ... من جميع الهمـوم والأحزان

لبسـت فيه حفـل زينتهـا الدنيـ ـيا وزافـت في منظـر فتان
وأذالـت من وشيهـا كلَ بُرد كان قدمـا تصونـه فِي الصوان
وتبـدت مثـل الهـديّ تهادى رادعَ الجيب عاطـلَ الابدان
فهـي في زينـة البغـي ولكن هي في عفـة الحصـان الرزان
كادت الأرض يوم ذلك تفشي سر بُطنانهـا الى الظهران

. . . .

وتعـود الـرياض مقتبلات ناعمات الشـكير[1] والافنان

. . . .

زُخرفـت يوم نعمـه حجرات جدّ موطـوءة من الضيفان

. . . .

حجـرات ميمّمات بناها من فضـول المعـروف أكرم بان
لم يكن يقتنـي المسـاكن حتى يتقـن المجـد أيمـا اتقان
فأذيلـت فيهـا تهـاويل رقم قائمات بزينـة المزدان
ثم قام الـكماة صفّـين من كـ ـل عظيم في قومـه مرزبان
كلهـم مطـرق إلى الأرض مغض وعلى سيقـه هنـالك حان

. . . .

وتجلى على السرير جبين ذو شعـاع يحـول دون العيان
يمـكن العـينَ لمحـةً ثم ينهى طرفهـا عن إدامـة اللحظان
فلـه منـه حاجـب قد حماه كلّ عـين ترومـه بامتهان
فاستوى فوق عرشـه بوقار وبحلـم من الحلـوم الرزان
ثم قام المجنـدون مثولاً ضاربـين الصـدور بالأذقان
ليس من كبـرياء فيه ولكن كل وجـه لذلك الوجـه عان
فتثـوا سؤدد الأمـير وعدوا فيه آلاءه بكل لسان
حـين لم يجْشَمـوا التـزيّد لا بل ما تعـدوا ما حصـل الكاتبان

. . . .

فقضـوا من مقالهـم ما قضوه ثم آبـوا بالرفـد والحملان

---

(١) الشكير : النبت الصغير

بعــد ما أرتعــوا الأنامــل فيما — لا تعــداه شهــوة الشهوان
من خوان كأنــه قطــع الرو — ض وان كان في مثــال خوان
فوقه الطــيرفي الصحــاف وحاشى — ذلك الطــير من جفــاء الجفان

. . . . — . . . .

ثم سام الأمــير سوم الملاهي — وخــلا بالمدام والندمان

. . . . — . . . .

وقيان كأنهــا أمهات — عاطفــات على بنيهــا حوان
مطفــلات ومــا حملن جنيناً — مرضعــات ولســن ذات لبان
ملقماتٌ أطفالهــن ثُدياً — ناهــدات كأحســن الرمان
مفعمات كأنهــا حافلات — وهــي صفــر من درة الألبان
كل طفــل يُدعــى بأسماء شتى — بــين عود ومزهــر وكران
أمــه دهرَهــا تترجــم عنه — وهــو بادي الغنــى عن الترجمان

. . . . — . . . .

أوتــي الحــكم والبيان صبياً — مثــل عيسى بن مريم ذي الحنان

. . . . — . . . .

لو تسلى به حديثــة رُزءٍ — لشفــى داء صدرهــا الحران
عجبــاً منــه كيف يُسْلي ويُلهي — مع تهييجــه على الأشجان

. . . . — . . . .

فتــرى في الــذي يصيخ اليه — أمــرات المحــزون والجذلان

فتأمل فهل ترى في وسع المصور القدير أن يلتفت إلى لون أو ظل أو شكل أو خط أو حركة في المهرجان لم يلتفت إليها ابن الرومي في هذه القصيدة ؟ وتأمل الشاعر هل تراه في قصيدته إلا كما قلنا في بعض مقالاتنا : « كالرسام الذي بسط أمامه لوحته وأقبل على الوجوه والاشكال يتفرسها ويطيل النظر إلى ملامحها واشاراتها وما تشف عنه من المعاني ، وتشير إليه من الدلائل ويراقبها في التفاتاتها ومواقفها وحركاتها ليثني بعد ذلك إلى لوحته فيثبت عليها ما توارد على بصره وقريحته من الألوان والمعارف والهيئات من حيث هي تحفة فنية تستهوي الحواس والأذواق ؟ فهو يبدأ برسم زينة المهرجان واختيال الدنيا بمنظرها فيه وبرود الوشي التي أذالتها للناظرين ، واللهو والسرور الذي شمل كل شيء وأديل له من جميع الهموم والأحزان ، ثم يرسم حجرات الأمير بزخارفها وتهاويلها وضيوفها الغادين.

إليها الرائحين منها ، وقيام الكُماة صفاً بعد صف مطرقين إلى الأرض مغضين بالأبصار حانين على السيوف ، ثم يرسم الأمير فوق سريره ، وقد طلع على الجمع بوجه مهيب يمكن العين منه لحظة ثم ينهاها عن ادامة اللحظان ، ثم يذكر لك وقار الامارة وسمات الحلم والرزانة بين قوم يعنون له ويجلون قدره من الحب والتبجيل لا من الصلف والكبرياء ، ثم يرسم المادحين بين يديه يرتلون عليه الثناء ضاربين الصدور بالاذقان وينصرفون من حضرته بالعطايا والحملان ، بعدما شبعوا من خوان يلوح في مثل قطع الروض وإن سمي بالخوان ، ثم يرسم القيان الكواعب الابكار عاطفات على المزاهر عطف الأم على الرضيع بنهود مفعمات ، ولكنها صفر من درة الألبان ، ثم يرسم أثر الغناء على وجوه السامعين ، فاذا هو شجن وسلوى وأمرات من الحزن والجذل وطرب يشوبه السكون وسكون يشوبه الطرب . . . فلا تزال في القصيدة تنتقل بين أبياتها من صورة إلى صورة ومن منظر إلى منظر ومن حركة إلى حركة حتى تأتي عليها وقد استعرضت في خيالك متحفاً واسعاً من الأشكال والخطوط عملت فيه القريحة والنظر واشترك فيه الفن والاحساس وروى لك أصدق الرواية عن عين تلمح وتعي ونفس تحس فتستوعب وخيال يدخر الجمال المنظور فيثري بالألوان والسمات . . . »

زعموا أن بعضهم قال لابن الرومي : « لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال لِلأَرْمِهِ : أنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني عن مثله ، فأنشده قوله في الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال زدني . فأنشده قوله في الآذَريون وهو زهر أصفر في وسطه خمل أسود :

كأن آذريونها ... والشمس فيه كالية
مَداهن من ذهب ... فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاة ! تالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ذاك إنما يصف ماعون بيته وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس » إلى آخر القصة .

وقد تصح هذه القصة أو لا تصح ، ولكنها على الحالتين تدل على رأي شائع في التشبيه بين الذين كانوا يتعاطون الأدب في عصر ابن الرومي وبين الذين يتعاطونه في هذه الأيام . فلابن المعتز تشبيهات كثيرة أبلغ من هذه التي مرت في القصة وأجمل وأنقى في المعنى

والديباجة ، ولكنهم لا يختارون له في مقام التحدي والتعجيز إلا هذه الأبيات وأمثالها ، لظنهم أن نفاسة التشبيه إنما تقاس بنفاسة المشبّه والمشبه به وأن الغرض من التشبيه إنما هو مضاهاة أبيض على أبيض وأصفر على أصفر ومستدير على مستدير ومستطيل على مستطيل مما يُرى بالعين ولا فضل فيه للشعور والتخيل ، فالشاعر الذي يصف النجوم ويشبهها بالجواهر والحلي هو الشاعر غير مدافَع وهو المثلُ الأعلى في هذه الصناعة . . . ثم يليه الشعراء على حسب الأسعار في سوق المشبّهات ! وقصارى ما يطلبه الشاعر من التشبيه أن يثبت لك أنه رأى شيئين من لون واحد وشكل واحد كأنك في حاجة إلى مثل ذلك الاثبات الذي لا طائل تحته ، فاما انه أحس وتخيل وصوّر إحساسه ، وتخيله باللفظ المبين والخواطر الذهنية الواضحة ، فليس ذلك من شأنه ولا هو مما يدخل عنده في باب البلاغة والشاعرية ، وهذا خطأ بعيد في فهم الوصف والشعر يخرج بهما عن القدرة النفسية إلى القدرة الآلية التي تحكي المناظر الظاهرة كما تحكيها المصوّرة الشمسية . فالمسافة عظيمة جداً بين شاعر يصف لك ما رآه كما قد تراه المرآة أو المصوَّرة الشمسية ، وشاعر يصف لك ما رآه وشعر به وتخيله وأجاله في روعه وجعله جزءاً من حياته . وليس يعنيك أنت أن يكون الشاعر صحيح العين مطلعاً على المرئيات المتشابهة ليتصل ما بينك وبينه ويقترب وجدانك من وجدانه ، ولكنما يعنيك منه أن يكون إنساناً « حياً » يشعر بالدنيا ، ويزيد حظك من الشعور بها ، وتلك هي مزية ابن الرومي في وصفه وتشبيهه ومزيته في شعره كله من أوائل شبابه إلى اليوم الذي مات فيه . وينبغي هنا أن نذكر مرة أخرى أن ملكة الشعر غير ملكة الوصف وليستا بشيء واحد كما يفهم كثير من القراء ، فمن وصف وشبّه ولم يشعر فليس بشاعر . ومن شعروأبلغك ما في نفسه بغير وصف مشبّهٍ فلاحاجةبه إذن إلى سرد الصفات لتتم له ملكة الشاعرية .

من ثم نقول إننا إذا قسمنا العبقريات الفنية إلى أقسام وفصائل فخير ما نفهم به عبقرية ابن الرومي أنها عبقرية يونانية على المعنى المفهوم بين قراء الآداب من هذه الكلمة ، إذ لا نعرف صفة لعبقرية ابن الرومي هي أوجز ولا أبين من هذه الصفة المجموعة في كلمة واحدة: فانه كان محبا للحياة في خفة وطفولة وأريحية دائمة كالحب الذي عهدناه في جملة الفنون اليونانية ، وكان مشخصاً لمحاسن الطبيعة وعناصرها كما شخصتها أساطير اليونان وولّدت منها بنات الماء وعرائس الغاب وأرباب السحب والبحار وغيرها من ولائد الذوق والخيال ، وكان مأخوذاً بالجمال في كل شيء كما أخذوا به في كل شيء ، مستغرقاً في الحس الدنيوي كما استغرقوا فيه . اما أنه كان كذلك لأنه من سلالة اليونان فذلك قول لا نجزم

به ولا نجزم بنفيه ، لأنه يستطيع أن يكون كذلك ولو لم يكن من تلك السلالة التي اختلطت فيها سلالات الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فما اختصَّ اليونان بابداع الفنون واستجلاء الجمال ، ولا يحسن بأحد أن يدعي ذلك لشعب من الشعوب . وكل ما امتازوا به على غيرهم أنهم منحوا الفنون حريةً لم تُمنحها في الشعوب القوية التي توطدت فيها الدولة وتوطد فيها الدين فاشتمل على العلوم والفنون وأحاطها بقيود المراسم والموروثات ، فلما خضع اليونان لمثل هذا السلطان نضب فيهم ذلك المعين الحر وأخلدوا إلى المراسم والموروثات إلا قليلا من الحنين المتجدد إلى الفن القديم ، وامتياز اليونان بالحرية في الفن فضل عظيم جليل ولكن ما مقدار ما يسري منه في الدم ويثبت مع الغرائز ويتنقل مع السلالات ؟؟ وما هو الحد الفارق بين اليونانية وغير اليونانية في الشعوب الكثيرة التي يتناولها اسم اليونان في آسيا وأوربا وقبل التاريخ وبعد التاريخ ؟؟ فأنت ترى أن القول بالوراثة اليونانية في ابن الرومي ليس أسهل ولا أصوب من القول بانفراد هذه الظاهرة الغريبة التي لا تزول غرابتها من بعض الوجوه حتى لو ظهرت في بلاد اليونان . وقد يكون فيما مرّ بك من شرح مزاجه ونشأته تعليل صالح لهذا الاحساس المتوفر يساعد على تفسيره بعض التفسير ، فحسبنا إذن من كلمة العبقرية اليونانية أنها كلمة مفهومة في لغة الآداب وإن لم تكن مفهومة في لغة الأنساب .

الفصل الخامس

فلسفة ابن الرومي

لكل شاعر كبير فلسفة للحياة ، أو فهمٌ لها على وجه من الوجوه . وهذه هي مزية الشاعر الكبير على الشعراء الصغار .

فاذا قرأت عشرين شاعراً كبيراً فأنت أمام عشرين نسخة من الدنيا ، أو أمام عشرين مثالاً لها كلٌ منها مخالف لغيره مستقل عنه في طريقة تمثيله . لأن الشاعر الكبير يشعر بكل شيء حوله . فما من مظهر ولا مخبر إلا وله موقع من قلبه وصدى في ضميره . ولأنه مستقل في إدراكه وشعوره ينحو نحو نفسه ولا ينحو نحو غيره ، فاذا قرأت شعره فهناك الدنيا كلها ممثلة في ذلك الشعر على طريقته التي لا تشبهها طريقة . ولا كذلك الشاعر الصغير ، أي الشاعر الذي تضيق نفسه بسعة الدنيا فلا يشعر إلا بجانب صغير من جوانبها الكثيرة ، والذي يتبع غيره في إدراكه وشعوره فلا يثبت على قدميه لحظة إلا ريثما يتكيء على سند من سابقيه أو معاصريه . فان هذا الشاعر الصغير شذرة من الدنيا وليس بمثال كامل للدنيا برمتها . وقد تكون هذه الشذرة أجمل وأتقن وأحب وأشهى من المثال الكامل في مساحته الواسعة ومنظره الجسيم ، ولكنه شذرة على كل حالٍ او خريطة بلد واحد لن تغنيك ـ بالغة ما بلغت من روائها وإتقانها ـ عن خريطة الأرض الكاملة ، وإن قصرت في الرواء والاتقان .

فمن الشعراء الكبار من يريك الدنيا كأنها معرض للجمال ، أو يريكها كأنها متنزه للفرجة ، أو كأنها كعبة للعبادة ، أو ميدان للقتال ، أو طريق للعبور ، أو ملعب للسرور ، أو يريك الدنيا كما هي ، وذلك أكبر الشعراء وأعلاهم في مراتب الالهام . أما الشاعر الذي تسأل نفسك بعد قراءته : ما هي الدنيا ؟ وما مثالها في خلدك ؟ فلا تهتدي

إلى جواب فليس بالشاعر الكبير وإن عدّ في المجيدين من الشعراء .

فلا بد للشاعر الكبير من إدراك الدنيا كلها ، ولا بد لهذا الادراك من صورة تختلف كثيراً أو قليلاً من سائر الصور ، وهذا هو الذي نعنيه بفلسفة الشاعر ولا نتخطاه إلى معنى الفلسفة الشائع بين المفكرين . إذ لو قصدنا إلى هذا لوجب علينا أن نقول إن الفلسفة أبعد المطالب عن ابن الرومي وأن ابن الرومي أبعد الناس عن الفلسفة ، بل لوجب علينا أن نقول أكثر من ذلك إن قريحة ابن الرومي كانت نقيض القريحة التي يحتاج اليها الفيلسوف ، لأن الفيلسوف يجرد كل شيء ليراه بعين الفكر حيث تلتقي الكليات وتنعدم الفوارق والأجزاء ، وابن الرومي كان يجسم كل شيء ليراه بعيني الفنان في عالم الأنوار والاشكال والخطوط والحركات .

وربما خطرت للقارىء وساوس ابن الرومي وأوهامه وأسراره فحسبه من أهل الباطن الذين ينظرون إلى الدنيا نظرة الروحانية ، وقرب ما بينه وبين الفلاسفة المجردين على هذا الاعتبار . فيجب علينا كذلك ان نبادر إلى القول بأن ابن الرومي كان نقيض أهل الباطن المتعمقين كما كان نقيض الفلاسفة المجردين ، لأن أهل الباطن يتجاوزون الظواهر إلى البواطن ويحسبون الظواهر وهماً أو كذباً لا وجود له إلا في الحس المضلل المخدوع . أما ابن الرومي فكان يعكس الامر فيُلبس الأسرار ثوب الظواهر ويُلحق عالم الخفاء بهذا العالم المجسم المحسوس ، فالباطنيون ينفون الظواهر ويُثبتون الأسرار وابن الرومي ينفي الأسرار ويثبت الظواهر ، وكان يلحى الناس لأنهم يغفلون عن نذير الخفاء ولا يتقونه كما يتقون نذير العيان . لأن الخفاء عنده ان هو إلا عيان يراه ويلمسه ويتجنبه ويلقاه .

لقد كان الرجل « جديد » الاحساس في شبابه وهرمه ، فعالمه أبداً عالم الطفولة الخالدة الذي يطالع صاحبه أبداً ببهجة جديدة أو خوف جديد : طفولة خالدة ولكنها مروّعة لفرط ما ألح عليها من السقم والألم . فهي في هذه المأدبة الآلهية التي تُسمى بالدنيا فاغرة الحس ابداً لكل طارىء جديد من طوارىء الاغراء والترويع ، طفولة لم تردها السنون إلا إمعاناً في الطفولة وإغراقاً في اللعب وشوقاً إلى الحلوى ورهبة من العصا واحتيالاً على هذه الرهبة ، فلن ترى في شعره كله قولة واحدة إلا هي قولة الطفل الكبير الذي يفهم أضعاف ما يفهم الكبار ولكنه لا يحس إلا كما يحس الاطفال .

أيتكلم عن الصبر ؟ أيتكلم عن العزلة ؟ نعم ، ويتكلم عن الزهد والعفة والتقوى وعما شئت من الحكم والنصائح !؟ وزد عليه أنه يتكلم عنها كلام النية والعقيدة لا كلام الخبث والرياء ، ثم ما هو إلا أن تعروه بادرة واحدة من بوادر الفرح أو الحزن وغواية واحدة من

غوايات الربيع أو الخريف حتى تذهب جميع هذا الحكم والنصائح في الرياح وينطلق الطفل الكبير مصفقاً للمتعة الجديدة أو صارخاً من الألم الجديد لأن الكلمة العليا في هذه « الفلسفة » للاحساس الطارىء لا للفكر السابق أو الاحساس القديم .

أتسميها إذن فلسفة « ابيقورية » تنشد اللذة أينما كانت وتهرب من الألم أينما كان ؟؟ إن كنت تسمي الطفل الذي يتهافت على الحلوى ويجفل من العصا « أبيقوريا » فلك أن تعد ابن الرومي في جماعة الابيقوريين ، ولكن الابيقورية في رأيي ليست « جدة » الاحساس المتفزز للمسرات والآلام وإنما هي فتور الاحساس واستكانة الشيخوخة إلى ما يريح ، ونفورها مما يزعج ويثير . وهي في معناها الشائع نقص في الاحساس وليست بزيادة فيه . وإلا فهل تظن أبا نواس شعر بلذعة الألم أو بنضرة السرور قط ؟؟ هذا هو الابيقوري في الأبيقوريين . . . وهو كما تعلم واحد من أولئك المترفين الذين يطلبون اللذة ويشفقون من الألم لأنهم فاترون فارغون لا لأنهم مرهفو الحس مفعمون بالحياة . أما ابن الرومي فكان يألم ويُسر لأن حياته هي الألم والسرور ، أو لأنه لا بد له من أن يحس ولا بد للاحساس من أن يكون بعض الألم وبعض السرور ، وليس في وسعك أن تعطله من الاحساس بهذا او بذاك إلا إذا عطلته من الحياة ، وليس في وسعه هو أن يطلب اللذة باختياره أو يجتنب الألم باختياره . لأن الجدول الرقراق لا يطلب الصفاء ولا يجتنب الكدر ، وإنما يصفو ويكدر لأنه ماء ولن يكون إلا من الماء .

فعالم ابن الرومي هو عالم الطفولة الخالدة لا عالم الشيخوخة الوادعة أو عالم « الابيقوريين » .

والطفولة الخالدة هي الاحساس الجديد بالألم والاحساس الجديد بالسرور . ولقد دام له هذا الاحساس الجديد كأحسن ما يدوم بعد فقد الشباب ، ولكنه لفرط طمعه في الحياة كان لا يقنع إلا بأن يجمع بين « بشاشة الأوطار » وقدرة الشباب .

الفصل السادس
صناعة ابن الرومي

قولا لمن عاب شعر مادحه اما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشوك دونه الثمر
وكان اولى بان يهذب ما يخلـ ـق رب الأرباب لا البشر

يتفق لقارىء الشعر أن يعرض له في مطالعاته بيتٌ غير منسوب إلى صاحبه فينسبه إلى شاعر معروف عنده ثم يجد بعد البحث أن فراسته قد صدقت وأن البيت لذلك الشاعر بغير خلاف ، ولكنه قد يعلم السبب الذي دعاه إلى نسبة البيت اليه وقد يتعذر عليه أن يرد ظنه إلى سبب غير البداهة التي لا تعلل . لأن سمات الشعراء التي تبدو في قصائدهم وابياتهم بعضها ظاهر يسهل تتبعه والاستدلال عليه وبعضها خفي يجري في الكلام مجرى الملامح في الوجوه . تعرفها وتعرف بها الأبناء والآباء ولكنك لا تردها إلى سبب محدود .

وليس كل الشعراء ذوي ملامح واضحة يعرفهم بها القراء ، ففي العربية مثلاً الوفُ من الشعراء لا تعد منهم مائةً بين أصحاب الملامح الواضحة التي تعرفهم بها في القصيدة الواحدة بله البيت الواحد . وفي طليعة هؤلاء من الشعراء المحدثين ـ غير ابن الرومي ـ المتنبي والمعري والشريف الرضي ، والبقية درجاتٌ في هذه الخصلة تعرفهم بسهولةٍ حيناً ، ولا تعرفهم حيناً إلا بعد جهد وتحقيق .

بعض هذه الملامح أو العلامات نفسي لا نعود إليه في هذا الفصل لأنه سبق في مواضع متفرقة من الفصول المتقدمة ، وبعضه لفظي يرجع إلى الصياغة واسلوب التعبير والنزعة الفنية التي ينفرد بها الشاعر بين الشعراء وان تساووا في الاجادة كما ينفرد الجميل بين ذوي الجمال بسمةٍ خاصة تستحب فيه وان تساووا كلهم في الجمال . وهذا الذي نعنيه بالصناعة

ونتم به مباحث هذا الكتاب .

فالعلاماتِ البارزة في قصائد ابن الرومي هي طول نفسه وشدة استقصائه المعنى واسترساله فيه ، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة ابياتاً متفرقة يضمها سمط واحد ، قل أن يطرد فيه المعنى إلى عدة أبيات وقلّ أن يتوالى فيه النسق توالياً يستعصي على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير فخالف ابن الرومي هذه السنة وجعل القصيدة « كلا » واحداً لا يتم الا بتمام المعنى الذي أراده على النحو الذي نحاه ، فقصائده « موضوعات » كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الاغراض ولا تنتهي حتى ينتهي مؤداها وتفرغ جميع جوانبها واطرافها ، ولو خسر في سبيل ذلك اللفظ والفصاحة .

ولا ريب أن هذا الاستقصاء كان سبباً من أسباب الاطالة ولكنه لم يكن كل السبب ، لأن ابن الرومي كان يطيل القصائد حفاوة بالممدوحين واكباراً لشأنهم واظهاراً لعنايته بارضائهم ، وكان يرى فرضاً عليه للممدوح أن يستصعب ولا يستسهل ، فاذا طرق القوافي السهلة اعتذر من تقصيره كما قال لعبيد الله بن عبد الله من قصيدة نيفت على سبعين ومائتي بيت :

كل مدح في غيركم فمثاب ... ما أثيبت عبادة الاوثان
هاكها ، لا اقول ذاك مدلا ... قول ذي نخوة بها وامتنان
بين أثنائها مديحٌ نفيس ... من لبوس الملوك والفرسان
ذو قواف كأنها حلق الأصد ... اغ في البيض من خدود الغواني
راق معنى ورق لفظاً فيحكي ... رائق الخمر في رقيق الصحان
ان تكن سهلة القوافي فليست ... في المعاني بسهلة الوجدان
فابتذلها في يوم لهوك واعلم ... انها بعد من ثياب الصيان
وابسط العذر في ارتخاص القوافي ... واتباعي سهولة الأوزان
أنت ألجأتني الى ما تراه ... بالذي فيك من فنون المعاني
اي وزن وأي حرف روي ... لهما بالمديح فيك يدان
ضاق عن مأثراتك الشعر إلا ... فاعلات مفاعل فاعلان
ليس مدحٌ يفي بمدحك الا ... صلوات المليك في القرآن
لا ولا حمد كفء نعماك الا ... حمد سبع من الكتاب مثان

أو كما قال لأبي القاسم التوزي الشطرنجي من قصيدة ناهزت مائة وخمسين بيتاً :

ولك العـذر مثـل قافيتـي فيـ ـك اتساعـاً فانهـا كالفضاء
وتأمـل فانهـا الف المد لهـا مدة بغـير انتهاء

وله رأي في اطالة الشعراء واطالته يقول فيه :

كل امـرىء مدح امـرءاً لنواله وأطـال فيه فقـد أراد هجاءه
لو لم يقـدر فيه بعـد المستقى عنـد الـورود لما أطـال رشاءه
غـيري فانـي لا أطيل مدائحي الا لاوفي من مدحـت ثناءه
وأعـد ظلماً ان أقـل مديحه عمـداً واسخـط ان اقـل عطاءه

على أنه كان يستريح إلى الاطالة كما يستريح « الجواد الكريم » الى سعة المضمار ، لأنها تشبع لذة القدرة على النظم والتمكن من اللغة وتنفي ظنة العجمة التي كانوا يعيرونه بها ويتهمونه في شعره من أجلها . . . فلغبطة في نفسه ـ لا لارضاء الممـدوح وحـده ـ كان يركب القوافي الصعبة ويتعمد رياضة الحروف العصية ، فيذل له اعصاها حتى الثاء والخاء والذال والزاي والظاء والغين والهاء وغيرها من الحروف النادرة في الروي الناقصة في شعر أقدر الشعراء ، وكانت فيه غيرة القول ونخوة المنافسة وهمة الوثوب إلى الغاية . فكان هذا « الجواد الكريم » يأرن للسباق كلما مرت به خيل السباق ! فاذا سمع الكلام الجيد لم يبرح أن يعارضه بكلام من بحره وقافيته ومعناه ، ولم ينس أن يجرب قوته إلى جانب كل قوة ويحرك شاعريته إلى جانب كل شاعرية . ففي ديوانه معارضات كثيرة للنابغة وابـي مسلم وابي نواس والحمدوني ودعبل وغيرهم ممن تروى لهم الأبيات المستحسنة والحكم المأثورة : ومثل هذا لا يقصر في المضمار اذا نشطت القريحة وتفتحت اشواط الكلام .

وحبه هذا للمعارضة وتجربة القدرة هو الذي كان يدعوه الى النظم في هذا المعنى او ذاك من المعاني الطريفة التي كانت تروقه في شعر بعض الشعراء . كالمتأنـق المغرم باللبس الجميل يستملح الكساء على لابسه فيود لو يكون له كساء من طرازه وصنفه ولكنه لا يفكر في سرقته واغتصابه ، مثال ذلك ، قال ابو تمام :

غربتـه العلى على كثـرة الاهـ ـل فاضحـى في الاقربـين جنيبا

فأعجب هذا المعنى ابن الرومي فقال فيه :

رب اكرومـة له لم نخلها قبلـه في الطبـاع والتركيب
غربتـه الخلائـق الزهـر في النا س ومـا اوحشتـه بالتغريب

وقال :

أعاذك انس المجد من كل وحشة فانك في هذا الأنام غريب

وقال :.

فآنس الله نفساً أنت صاحبها فانها من معاليها بمغترب

....

لولا عجائب لطف الله ما نبتت تلك الفضائل في لحم ولاعصب

وقال :

وحيد فريد في المحامد آنس بوحدته مستأثر بالفضائل

وقال :

الله يكلؤه والله يؤنسه فانه بمعاليه قد اغتربا

ويروي صاحب الاغاني بيتاً آخر نظر اليه ابن الرومي مثل هذه النظرة اذ يقول ابراهيم بن العباس :

لفضل بن سهل يد تقاصر عنها الأمل
فباطنها للندى وظاهرها للقبل

فيقول ابن الرومي :

اصبحت بين خصاصة ومذلة والمرء بينهما يموت هزيلا
فامدد الي يداً تعوَّد بطنها بذل النوال وظهرها التقبيلا

وجاء في الجزء الثالث من زهر الآداب ان الحسين بن الضحاك انشد ابا نواس قوله :

كأنما نصب كأسه قمر يكرع في بعض أنجم الفلك

فنعر نعرة منكرة . فقال له الحسين : مالك ؟ فقد رعتني ! قال هذا المعنى أنا احق به منك ، ولكن سترى لمن يروى . ثم أنشده بعد أيام :

اذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

قال صاحب زهر الآداب : « وقال ابن الرومي فكان أحسن منهما :

ابصرته والكأس بين فم منه وبين انامل خمس
فكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس

فهذه المآخذ القليلة جداً في شعره تعاب ولكنها اخلق بأن تعد من المعارضة والمسابقة ولا تعد من السرقة والغصب . او هي على كل حال ليست من سرقة المعدم الذي لا رزق له الا

رزق غيره . لانها لو سقطت من شعره جملةً وسقط معها عشرة اضعافها لما نقصت ثروته ولامست قدرته على التوليد والابتكار اقل مساس . ولو جازت المقاصة في هذا الباب لكان ابن الرومي دائناً طالبا ولم يكن مديناً مطلوباً ، لان ما اخذه من الشعراء اقل بكثير مما اخذه منه الشعراء .

وهناك المعاني الشائعة والنكات الشعبية العامة التي ليست لأحد ولكنها لكل احد . اي التي يأخذ منها كل انسان ويضيف اليها كل انسان ، او التي هي كالهواء يتساوى منه نصيب من يشاء . فمن هذه المعاني الشائعة حتى في هذا الجيل وحتى بين الأميين الذين لا يقرأون الشعر والأدب أن اللحية تشبه بالمخلاة . وينسب الى سعيد بن وهب في كتاب الوزراء والكتاب انه قال في قصة لا محل لذكرها هنا :

قل لمن رام بجهل مدخل الظبي الغرير
بعد ما علق في خد يه مخلاة الشعير
ليته يدخل ان جا ء من الباب الكبير

وفي كنايته عن اللحية « بمخلاة الشعير » على هذه الصيغة ما يفيد ان النكتة « معهودة » وأن الاشارة اليها على هذا النحو غمزة مفهومة ، فمن الخطل في النقد أن يقال إن ابن الرومي عمد الى بيت سعيد بن وهب فسرقه حين قال :

علق الله في عذاريك مخلا ة ولكنها بغير شعير

فان سعيد بن وهب وابن الرومي في هذا الاقتباس يستويان ، ويزيد ابن الرومي بتصرف جديد في المعنى . . وهو أن المخلاة فارغة ؟

وقد يلحق بهذا قول صاحب الصناعتين بعدما أورد البيتين الآتيين مثلا للمبالغة في الهجاء :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

فهو يقول : « والناس يظنون أن ابن الرومي ابتكر هذا المعنى وانما اخذه مما حكاه ابو عثمان . . ان بعضهم قبر احدى عينيه وقال أن النظر بهما في زمان واحد اسراف » فصاحب الصناعتين اصاب حين نفى ابتكار ابن الرومي للمعنى ولكن من تراه اولى منه بفضل الابتكار ؟ ولقد كان ابن الرومي يخطىء لو انه عدل عن نظم معناه هذا لأن أبا عثمان سبقه بتلك الحكاية ، فحسبه منه أنه تصرف فيه وانه مسح المبالغة عنه ، لأنه لم يقل ان

« عيسى » يتنفس من منخر واحد ولكنه قال انه لو استطاع لفعل !

لكن الحذلقة التي لا يقاس اليها شيء من هذا هي زعم بعض النقاد ان ابن الرومي سرق البيتين اللذين انشأهما قبيل وفاته ! وهما :

غلط الطبيب علي غلطة مورد عجزت موارده عن الاصدار
والناس يلحون الطبيب وانما خطأ الطبيب اصابة المقدار

فأبو عبد الله بن عبدوس الجهشياري صاحب « كتاب الوزراء والكتاب » يروي عن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه أنه قال « إذا نقصت المدة كان الهلاك في العدة » ثم يزعم ان ابن الرومي سرق البيتين من هذه الكلمة . . وصاحب زهر الآداب يزعم أنه اخذهما من يحيى ابن خالد حين « دخل على الرشيد فاخبر انه مشغول فرجع فبعث اليه الرشيد : خنتني فاتهمتني . فقال إذا نقصت المدة كان الحتف في الحيلة ، والله ما انصرفت الا تخفيفاً » .

ولا نظن أن عصراً مضى من عصور الاسلام خلا من اناس يؤمنون بأن الحذر لا يغني من القدر ، او يقول عامتهم كما يقول العامة في زماننا « وقت القدر يعمي البصر » . فقول ابن الرومي أن « خطأ الطبيب اصابة المقدار » انما هو عقيدته لا يزعم احد أنه سرقها إلا إذا زعم أن المسلم في هذا العصر يسرق عقائده من المسلمين في العصور السابقة ! ثم يبقى بعد ذلك ان قوله « خطأ الطبيب اصابة المقدار » هو أبلغ تعبير جديد عن ذلك المعنى القديم . وما كان النقاد ليتورطوا في مثل هذا النقد لولا أن التعسف في اظهار السرقات كان في زمن من الازمان ـ او في زمن الجمع والتأليف ـ آيتهم على سعة الرواية والعلم باقدار الشعراء .

وتلاحظ في صناعة ابن الرومي لازمة الأفعال المزيدة والمشتقات التي يستخدم منها من جميع الصيغ والاوزان : فأسماء الفاعل والمفعول والزمان والمكان وصيغ التفضيل والمبالغة والصفات المشبهة والمصادر تكثر في شعره كثرة لم نلاحظها في شعر غيره ، ونحسب أن الافراط في استخدام المشتقات والأفعال المزيدة هو الوسيلة التي لا بد منها للشاعر العربي الذي يريد أن يتناول المعنى من جميع نواحيه ويتدرج به في مختلف درجاته . اذ ليس في اللغة العربية ظروف كالظروف التي يشتقها الافرنج من معظم الصفات والأسماء باضافة صغيرة في اول الكلمة أو في آخرها فتدل على المعنى المقصود وتدل كذلك على اختلاف الدرجة والقوة في أداء ذلك المعنى . فاذا أراد الشاعر العربي أن يلتفت إلى هذه الفروق

فلا بد له من الاستعانة على ذلك بالمشتقات والأفعال المزيدة كما كان يفعل ابن الرومي إلا أنه كان يسرف في جمعها معاً حتى تنبو بها الاذن في بعض الأبيات . كقوله :

صاغــة صوّاغــة صيغاً بدعــاً لم تُلــق في خلد

أو قوله :

أبصر بيضــاء في القــذال فلا نفــر كنفــر رأيتــه نفره

أو قوله :

يتــرك بالحــول حول حولها وهــو سواء ومــوق مائقها

أو قوله :

قلــت ان تغلبــوا بغالــب مغلو ب فحسبــي بغالــب الغلاب

وهي ركاكة منه كان ينساها في استطراده وربما كان يهونها عليه وسواسه . لأن طبيعة الموسوس لا تنفر من التكرار كما تنفر منه سائر الطبائع . على انه كان يجمع بعض المشتقات والحروف المتشابهة المخارج فتسـاغ ـ وقـد تستحسـن ـ في اصعـب القـوافي كما قال في الجيمية :

سلام وريحــان وروح ورحمة عليك وممــدود من الظــل سجسج
ولا برح القــاع الــذي انــت ربه يرف عليه، الاقحــوان المفلج

فان للراء والحاء « راحة » في القلب تزداد بالتكرار وتمهد لما بعدها من الظل الممدود والتضعيف المقبول في هذه القافية العصية .

اوكما قال من قافية الخاء :

يا صارخــاً في جمــوع ليس تصرخه للظــالمين غداً في النــار مصطرخ

او من قافية الفاء :

ومنعــم كالماء يشفــي ذا الصدى كشفائــه ويشف مثــل شفيفه

ويوقعه الاستطراد ـ ولك أن تقول الاستغراق في المعنـى ـ تارة في اهمال اللفـظ وتـارة اخرى في الأساليب النثرية التي لا ينفسح غيرها للاسهاب والاطناب والتفصيل والتفريع والمراجعة والاستدراك . فينظم في هذه الحالة وكأنه ينثر ، الا انه لا يخلو من الشاعرية ولا يسف إلى طبقة « المتن » المنظوم و« الالفيات » التي ليس فيها من الشعر إلا انها موزونة مقفاة .

ومع هذا تستطيع أن تقول إنه لم يجعل اللفظ شغلاً شاغلاً في صناعته ولم يحفل به لأداء المعنى الذي يريده . فيخيل إليك وأنت تطرد في قراءته انه يرتجل القصائد ارتجالاً ويفيض بها فيضاً لمطاوعة لفظه وغزارة مدده . فهو يجيد في تركيب ابياته واحكام قوافيه ولكنه لا ينتزع الاجادة بالجهد والترويض ، وما عليه الا ان يعني ما يقول فيقول ما يعني بغير اخلال ولا التواء ، وما عليه إلا ان يرسم فيجيء البناء على ما رسم وتقوم الاركان على ما دعم .

ومن الشعراء من تلمح الكلمة في قصيده وكأنها تمن على الشاعر بفضل وتستطيل بدالة ، لانها اطاعته ولبت رجاءه ورضيت بمقامها في حظيرته . فاذا بحثت عن امثال هذه المفردات والتراكيب في قصائد ابن الرومي فلست واجدها هناك ، لأن كلماته تُقبل إلى مواضعها وكأنها تعلم أن الفضل في مقامها للشاعر لا لها وأن الدالة في اختيارها له لا عليه ، ومن ثم لم يشغل باللفظ ولم يبد على معناه أثر الجهد فيه ، وبهذا سلم من لعب الجناس اللفظي والمحسنات المموهة مع انه تنشأ في العصر الذي نشأت فيه هذه المحسنات . وعجيب هذا منه وهو المتطير الذي كان يلقي باله الى اقل تجانس في الكلمات واضعف تشابه في الحروب ليستخرج منه النذر والبشائر ويعلق عليه القنوط والأمل ، ولكنه عجيب في الظاهر دون الحقيقة . لأنه إنما كان يبالي بالكلمات حين كان ياخذها مأخذ المتطير .

وهي حينئذ لها معنى عنده ومن ورائها نبأ وفيها شعور . فليست هي خواء ولا تمويهاً ولا بهرجاً زائفاً كبهرج العابثين والمزوقين ، انماكان يجانس لمعنى يراه وهو يراه من يتطيرمثله ولا يجانس لتزويق فارغ وهو سخيف ، فاذا لم يكن متطيراً فلا جناس ولا اكتراث باللفظ الا لما فيه من معنى ظاهر مشتقيم وما لهمن فصاحة ونضارة ، او يتفق له جناس اللفظ كما كان يتفق للشاعر الجاهلي والشاعر المخضرم قبل عهد التنميق و الصناعة ، فلا غرابة في ان تجد له او لشاعر مخضرم مثل هذا البيت :

فيسبيك بالسحر الذي في جفونه ... ويصبيك بالسحر الذي هو نافثه

او مثل هذا البيت :

نصيب إذا حكمت وان طلبنا ... لديك العرف كنت حياً تصوب

أو مثل هذا البيت :

ليس ينفك طيرها في اصطحاب ... تحت اظلال ايكها واصطخاب

وهكذا كان في كل تجنيسه الذي لا تعسف فيه وليس هو بالكثير البارز في ديوانه الكبير .

فاذا جنّس في غير ذلك فهو عابث متعمد للعبث وليس بملفق محسنات ولا بطالب تزويق كما قال :

لو تلففت في كساء الكسائي وتلبست فروة في الفراء
وتخللت بالخليل واضحى سيبويه لديك رهن سباء
وتكونت من سواد أبي الأسو د شخصاً يكنى أبا السوداء
لأبى الله ان يعدك اهل العلـ ـم الا من جملة الأغبياء

فالذي يقرأه هنا لا يخطر له بتة أنه يزوق ويزخرف ولا يشك لحظة في أنه يعبث ويهزل ، وانه لا يحاول ان يبيع الناس بهرجاً بثمن ذهب وعرضاً بثمن جوهر .

أما ما يستشهد به البديعيون من كلامه كقوله في غير الجناس :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات اذا دجون نجوم
فيها معالم للهدى ومصابح تجلو الدجى والاخريات رجوم

فهو أقرب الى التقسيم الفلسفي منه إلى محسنات اللفظ وترصيعاته . وغني عن القول اننا لم نقصد بما تقدم أن ابن الرومي كان على سذاجة الجاهلين والمخضرمين في صوغ الشعر وفهم فنون البلاغة . فان هؤلاء كانوا يأتون بالقول البليغ ولا يعرفون علته ، وكانوا يطربون للشعر ولا يتوخون مذاهب نقده ، وليس في وسع شاعر عباسي أن يكون كذلك بعدما اولع القوم بالبحث في جميع العلل والأسباب واصطلحوا في البلاغة على الحدود والأسماء وخرجوا من حالة « العفو » الى حالة « الوعي » ومن سهو الجنة التي كانوا غافلين فيها عن النعيم والعذاب والخجل والعيب إلى يقظة الدنيا التي يؤخذون فيها بالتكاليف ويدركون فيها المحاسن والعيوب ، وابن الرومي اولى ألا يكون على تلك السذاجة الجاهلية أو المخضرمة وألا يسهو عن محاسن كلامه وعيوبه وهو الذي لم يسه قط عن شيء فيه ولم يكن له من هم إلا ان يحصي خطرات ذهنه وخلجات فؤاده ، فهو شاعر ناقد وبليغ له مذهب في البلاغة ورأي في المعاني وحجة في الاختيار . ونوادره في ذلك قليلة ولكن النادرة التي ننقلها بعد كافية للابانة عن وجود هذه الملكة فيه وعملها في نقد كلامه ونقد كلام غيره . قيل انه سمع هذه الأبيات :

أيها الظبي المليح القد مجدول مهفهف

---

(١) ص ٧٤٣ من كتاب الموشح

أنـا من ميلك في مشـ ـيك مرعـوب مخوف
لا تميلن فاني خائف ان تتقصف

وهي لابن أبي فنن . فقال في البيت الآخر : « إنما اراد منه انه يميل من لينه ونعومـة اعضائه فأسرف حتى أخطأ ، وذلك أنه جعل اللين المفرط يتقصف . وانما كان ينبغي أن يقول لو عقد لانعقد من لينه فضلا عن ان يميل وهو سليم من التقصف » ثم اسرع إلى معارضة القائل بهذين البيتين :

أيهـا القائـل اني خائف أن تتقصف
ليس هذا الـوصف إلا وصف مصلـوب مجفف

فملكة الابتكار في ابن الرومي كانت مصحوبة بملكة الانتقاد ، وفصاحته كانت فصاحة الذي يحاسب نفسه ويحمل تكليفه لا فصاحة غير المكلفين في جنة السهو والتوفيق !

كذلك لا يفهم من سهولة شعره وتدفقه واخـذ بعضـه بأطـراف بعض انـه كان قليل التهذيب له والرجعة اليه . فربما فرغ من القصيدة وافضى بهـا الى ممدوحـه ثم عاد الى تنقيحها والزيادة عليها وردها مرة اخرى كما فعل في المهرجانية التي تتبعها واطالها وكتب في ذلك يعتذر إلى عبيد الله بن عبدالله . .

قصيدة كرهـا مثقفها عليك إذ ثقفـت على مهل
أعجلهـا الوقـت عن رياضتها فأقبلـت ريضـا على عجل
. . . .
لم أحتشـم كرهـا عليك ولا سدي منهـا مواضـع الخلل
لأننـي عالـم بأنـك لا تعتـ ـب فيما أصلحـت من عمل
وليس مثلي ينـام عن خلل في مدح ممدوحـه ولا زلل

على أنه ـ لطول رياضة الكلام الموزون ـ قد أسلست له طريقة في النظم يقسر بها المعنى على الظهور ولو اضطر الى الحشو واللف والاعتراض فلا تشعر الا وقد استدار له البيت على احسن تركيب واصبح الحشو في يديه حسنا يزيد المعنى ولا يعيبه . فاذا اراد أن يقول « لا تكذب الاخبار بالهوى » ولم يساعده الوزن قال :

لا تكن بالهـوى تكذب بالأخبا ر حتـى تهـين مالا يهان

فأكسب المعنى قوة لم تكن له في عبارته البسيطة . لانه حين صاغ البيت هذه الصياغة

كأنما ينهى عن « خلق » التكذيب لا عن « فعل » التكذيب مرة واحدة او مرات . فمعنى « لا تكن مكذباً الاخبار بالهوى » غير معنى « لا تكذب الأخبار بالهوى ». لان العبارة الاولى تفيد زيادة في النفي لا تدخل في مدلول العبارة الثانية : تفيد النهي عن « طبيعة » التكذيب او عن أن « يكون » الانسان مكذباً ، ولا تقتصر على استنكار التكذيب في هذه الحادثة او في تلك .

وإذا أراد أن يقول ان البوم أفشل الطير وحال الوزن دون هذا المعنى البسيط قال :

واعتبر ان أفشل الطير ، في الطير ، وفينا ، كروّسات البوم .

فبلغ في اظهار فشل البومة ما لا تبلغه العبارة الاولى . لانه بين فشلها بالنظر إلى مقاييس الطير وبالنظر إلى مقاييس بني الانسان ، فهي فاشلة كما يراها نظائرها في عالم الطيور وفاشلة كما نراها نحن في عالمنا الانساني ، وذلك معنى لا تجده في قول من يقول : ان البومة أفشل الطوائر ، وتلك كانت طريقته في الحشو « المبارك » المقبول ، وفي تدوير النظم حتى يستدير له على احسن تقويم .

* * *

وقد كان ابن الرومي كأبناء عصره يقدم الغزل بين يدي مدحه ووصفه جرياً على سنة لم يكن في ثقافة عصره ما يدعوه إلى استغرابها والنظر في تنقيحها ، الا انه يعمل هذه السنة ويتصرف في تقديم الهجاء بالغزل فلا يقصره على الوصف والمديح ، فيخرج بذلك بعض الخروج من حكم التقليد والمحاكاة العمياء ويختار لصناعته بعض الاختيار .

ألم تر انني قبل الاهاجي ... اقدم في اوائلها النسيبا
لتخرق في المسامع ثم يتلو ... هجائي محرقاً يكوي القلوبا

وقد يتصرف غير هذا التصرف كما قال :

واشغل قريضك بالنسيـ ... ـب وبالفكاهة والمزاح

كذلك كان يحكي ابناء عصره في تصعيب اللفظ وتعمد الغريب حين كان ينظم في الطرد ووصف الاسد وما اليه . لان الشعراء العباسيين جعلوا الطرد خاصة معرضاً للبداوة الشعرية والفحولة العربية . فكانوا في ذلك على حد ما يقال عرباً اكثر من العرب وجاهليين اكثر من الجاهليين .

اما لفظه من حيث هو صحيح وخطأ فلفظ عالم بالنحو مطلع على شواهد العربية ولا سيما

في القرآن . ومن هنا لم يذكر كلمة « اشياء » الا ممنوعة من الصرف ، وهي مصروفة في قول القياسيين من النحاة لانها جمع شيء . فهي افعال جمع فعل وليست فعلاء مؤنث افعل التي تمنع من الصرف ، فمن المواضع التي وردت فيها الكلمة قوله : « حرمت بالمشيب أشياء حلت » . وقوله : « قبحاً لاشياء يأتي البحتري بها » وقوله :

فيك اشياء لو وجدن قديماً نظمتها الملوك في التيجان

وقوله : فيك اشياء من يواليك مسر ور بها والعدو منها مغيظ

وقوله : واليك الشكاة منها ومن اشـ ـياء تبتز ذا الحجا معقوله

وقوله : ياحور ماللحبيب يفعل بي أشـ ـياء لا يستحلها الحرج

وقوله :

وفيه أشياء صالحات حماكها الله والرسول

وإنما تابع المفسرين في هذا ولم يتابع القياسيين من النحاة لأن كلمة أشياء وردت في سورة المائدة ممنوعة من الصرف ، إذ جاء في الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تُبدلكم تسؤكم » بفتح الهمزة في أشياء ، وتعليل المفسرين لذلك « ان أشياء هنا اسم جمع كطرفاء غير أنه قلبت لامه فجعلت لفعاء ، وقيل افعلاء حذفت لامه ـ جمع لشيء كهين أو شيء كصديق فخفف » وهذه المخالفة للنحاة القياسيين هي كما ترى أدل على العلم منها على الخطأ ، فلم يكن ابن الرومي ممن يسهل وقوعهم في الخطأ النحوي وإلا لظهر منه ذلك في مواضع شتى مع إطالته وإكثاره وجرأته على تذليل النحو لمراده . ونقول جرأته لأننا لا نعد من خطأ الجهل قوله :

دعني وإيّا أبي علي الأعور المعور الخبيث

إذ لا يخفى على المبتدىء أن « إيّا » ضمير فصل يتصل بالضمائر الموصولة ولا يتصل في الكلام الفصيح بالأسماء . فابن الرومي إذا وصل الضمير المفصول بالاسم لا يفعل ذلك جهلاً بالقاعدة التي يعلمها المبتدئون وإنما يفعله وهو مجترىء عليه عالم بمكان هذه الكلمة من الخطأ والصواب ، وعلى ذكر التجوز في صرف الممنوع ومنع المصروف نقول إن ابن الرومي كان من أقل الشعراء تجوزاً في « عروضه » وأكثرهم حرصاً على أوزانه . ولا بأس بأن نذكر له هنا بيتين قالهما في مرض وفاته ورواهما عنه أبو عثمان الناجم وهما :

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك للعشيرة دون لومك

تمتـع من أخيك ، فما أراه   يراك ولا تراه بعـد يومك

فقد ذكرهما المعري في رسالة الغفران فعاب عليهما أنهما مقيدان وقال « وما علمت أنه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيداً إلا في بيت واحد يتداوله رواة اللغة ، والبيت :

كأن القـوم عشّـوا لحـم ضأن   فهـم نعجـون قد مالـت طلاهم

وهذا البيت مؤسس ، والذي قاله ابن الرومي من غير تأسيس »

والحقُّ أنه لا خلل في وزن البيتين من حيث العروض ، وإنما كان المعري في نقده هذا أشبه بالفقهاء منه بالأدباء ، ولو اختل البيتان أشد خلل لما قيست بهما صناعة ابن الرومي في جميع شعره . لأن المرء لا يقاس بنظم مرتجل يلقي به إلقاءً وهو يجود بنفسه .

وقد تُلاحظ على ابن الرومي تعبيرات كالتي تسمى في عصرنا هذا بالتعبيرات الافرنجية في مثل البيت

كما لو هجـاكم شاعـر حل قتله   كذاك فأوفـوا مادحـاً دية القتل

وقد يلاحظ ذلك في إكثاره الهتفات مثل قوله « ضلة ! ضلة » « وسوأة سوأة » و« في سبيل الشيطان منك نصيبي » إلى أشباه ذلك من اللفظات الكثيرة في تعبيرات اللغات الأروبية . فيرد على الخاطر أنه كان ـ لهذا ـ يعرف الأغريقية ويتأثر بها في أسلوبه ، أو يرد على الخاطر أن هذه التعبيرات من أثر العجمة في سليقته والعادة في لسانه . ولكنها ملاحظة لا تستلزم هذه النتيجة ولا نستطيع أنْ نعززها بملاحظات أخرى من قبيلها . ومن السهل جداً أن نقول ان أمثال تلك التعبيرات القليلة سرت إلى ابن الرومي من دراسة الكتب المترجمة ومعالجة التدليلات المنطقية في كلامه ومساجلاته ، وأن الهتفات مألوفة فيمن كان له مزاج كمزاجه المتوفز عربيا كان أو أعجميا بلا خلاف . ذلك أسهل من القول باللغة الأعجمية الذي استضعفناه فيما تقدم من الكلام على تعليم الرجل ومعلوماته .

* * *

في أي باب من أبواب الشعر كان ابن الرومي يجيد خاصة ؟

سؤ ال لا بد أن يخطر لنا في معرض الكلام على صناعته وأسلوبه ، وأرى أن الكثيرين سيقولون ـ أو قد قالوا ـ أنه هو باب الهجاء لأنه اشتهر به وشاع أنه مات بسببه ، فلنعلم إذن أنهم مخطئون في هذا الحكم لأن ابن الرومي كان يجيد في أبواب الشعر كلها على حد سواء ويعطي قصائده جميعا بمقدار واحد من عنايته وإتقانه .

وخذ مثلاً أقواله في الحكمة وهي أقل ما اشتهر به تجد له مئات من الأبيات التي تسير مسير الأمثال وتخرج من عداد تلك الأفكار المطروقة التي يتفيهق بها من يحبون الاشتهار بالبيت الحكيم والمثل السائر ، ولو أننا رجعنا إلى أبياته التي مرت بنا في هذا الكتاب لما ألفينا بينها تفاوتاً في الطبقة بين غرض وغرض وباب وباب ، وإنما اشتهر بالهجاء لأن الهجاء أشهر وأسير لا لأنه يجيد فيه أكثر من إجادته في المديح أو في الغزل أو في الصفات ، فلو أن الألسن تتساير بالوصف البارع كما تتساير بالهجاء اللاذع لغطى وصف ابن الرومي على هجائه لكثرة ما قال وأجاد في الوصف حتى خلال قصائد الهجاء .

وأغرب من هذا الاستواء في طبقة القول أنك تقرأ الأبيات التي مرت بك في هذا الكتاب فتحسب أنها نظمت كلها في عمر واحد ولا تدري أيها شعر الشباب وأيها شعر الكهولة والشيخوخة إلا ما يندب فيه شبابه ويتبرم بسِنه ، فانظر مثلاً إلى الأبيات التالية :

قل لأيوب والكلام سجال ... والجوابات ذات يوم تدال
اسكتوا بعدها فلا تذكروا الشـ ... ـؤم ، حياءُ . فأنتم الآجال
أنا شؤمي فيما تقولون عزّا ... ل ، ولكن شؤمكم قتال
بالذي أدرك المؤيد منكم ... وابن سعدان تُضرب الأمثال
زرتموه والصالحات عليه ... مُقبلات فأدبر الاقبال
حين درت له أفاويق دنيا ... ه دلفتم له فكان الفصال
إن شؤماً حلّت به عقدة الملـ ... ـك لشؤم تزول منه الجبال
ليس بدعاً من الحوادث أن يعز ... ل والٍ وتخفق الآمال
إنما البدع أن تزول أمور ... لم يكن يهتدي إليها الزوال
كالذي حاق بالمؤيد منكم ... بعد ما نوّطت به الآمال
ذلك الشؤم يا بَني أم شيخٍ ... يمكن القائلينَ فيه المقال
ذاك شؤم فيه سمام الأفاعي ... ناجز النقد ، ليس فيه مطال
ذاك شؤم كالسيل عفّى على الفـ ... ـطر جلال كما يكون الجلال
ذاك شؤم لو جاور البحر يومـ ... ـين لأمسى وليس فيه بلال

فهذه قطعة نظمها في نحو الثلاثين من عمره ، لأنها نظمت في نكبة « المؤيد » . فقابلْ بينها وبين القطعة التالية التي نظمها وهو في الخامسة والخمسين :

كبرتَ وفي خمس وخمسين مكبر ... وشبتَ ، فألحاظ المَها عنك نُفَّرُ

إذا ما رأتــك النبيض صدّت وربما غدوت، وطرف البيض نحوكأصور
ومــا ظلمتــك الغــانيات بصدها وإن كان من أحكامهــا ما يجوّر
أعــر طرفــك المرآة وانظــر فان نبا بعينيك عنـك الشيب فالبيض أعذر
إذا شنئـت عـين الفتـى وجـه نفسه فعــين سواه بالشنــاءة أجدر

أو قابل بينهما وبين هذه القطعة التي نظمها قبيل وفاته على لسان العُزير :

أيادي بنــي الجــراح عنــدي كبيرة وأكبــر منهــا أنهــا لا تكدّر
هم القــوم ينســون الأياديَ منهم عليك ، ولــكن المواعيد تذكر
وأن كنــتُ قد أهملــتُ بعــد رعاية وأغفلــت حتــى قيل أشعــث أغبر
وقلــدت شغــلاً ضره لي معجل سريع ، وأمــا نفعــه فمؤخر
أروح وأغــدو فيه أنصــب عامل وأصفره كفــا ، فكم أتصبر !

. . . .

أيعــطش أمثــالي وواديك فائض ويجــدب أمثــالي وواديك أخضر
أبـى ذاك أن الطّــوْل منــك سجية وأنـك بيت الحمــد بالطــول تعمر
وأنــك لم تؤثــر على الحــق لذةً بحكم هوى ، فالحق عنـدك مؤثر
ومــا زلـت تختــار الأمــور بحكمة فأفضلهــا الأمــر الــذي تتخير

فانظر حين تقرن هذه الأبيات بعضها ببعض هل ترى بينها من تفاوت في الصناعة أو اختلاف في روح الشعر ونسج الكلام وطريقة التركيب وتناول المفردات ؟ فهي وغيرها من قصائده التي نظمت من العشرين الى الستين طبقة واحدة من هذه الناحية لا تستطيع أن تتحقق فيها مزية سن على سن ولا فترة على فترة . وتعليل ذلك صعب في الشعراء المطبوعين غير ابن الرومي ، أما هو فلا صعوبة في تعليل هذا الاستواء في تركيبه والتشابه في روحه ونسجه ، لأنه ينسج من غزْل واحد وبضاعة واحدة ، وهي الشعور الجديد أو الشعور الطفولة الفنية التي لازمته في حياته من المبدأ الى النهاية . فلم يتغير فيه الا القليل بعد ما درس نصيبه من اللغة والعلم واستوفى مادته من الفن والصياغة ، وكأنه الشجرة لتي نضجت مبكرة وبلغت تمامها ورسخت في تربتها ، فثمرتها اليوم كثمرتها بعد سنوات عشر أو بعد عشرين وثلاثين ، ولا عيب في ذلك إلا أن تكون الثمرة بسراً لا خير فيه . أما ذا كانت ثمرة جنية كأطيب الثمر في النضرة والحلاوة فالتبكير إذن أصلح من التأخير البقاء على طبقة واحدة أحب وأكمل من التغيير .

فالكلمة الأولى والأخيرة في هذا العبقري النادر أنه كان شاعراً في جميع حياته حيا في جميع شعره ، وان الشعر كان لأناس غيره كساء عيد وحلة موسم ولكنه كان له كساء كل يوم وساعة بل كان له جسماً لا تكون بغيره حياة .

خاتمة

بالكلام عن صناعة ابن الرومي تمت الصورة التي استخرجناها له من مجموعة شعره ومتفرق أخباره . وحسبنا أن نتمم هذه الصورة لنكون قد بلغنا الغاية من وضع هذا الكتاب وأقمنا ـ في عرض الطريق ـ أوضح الأدلة المحسوسة على وحدة المقاييس بين تعبيرات الشعر وتعبيرات الحياة . ونحسب أننا قد أقمنا هذا الدليل في وقت الحاجة اليه عند قراء الأدب الغربي بيننا ، قبل قراء الأدب العربي وحده بفرعيه من قديم وحديث . لأننا نعيش في عصر شاع فيه بين كثير من الأوربيين أن الشعر شيء بمعزل عن خوالج الحياة ، وإننا لا ينبغي أن ننتظر منه مطلبا آخر غير الرونق والطلاوة ، وما إلى ذلك من ظواهر قسامة لا تتجاوز البشرة إلى ما وراءها من قلوب ونفوس وضمائر .

وغير عجيب أن يشيع هذا الرأي القائل بين الأوربيين في العصر الذي نحن فيه وهو هو عصر السآمة و« الفردية » وآداب الصالونات والمجالس . إذ ماذا تنتظر من شعر يقرأه إنسان قد سئم المُثل العليا وكذّب بالإغراض الرفيعة وفترت فيه قوة العقيدة ؟ وماذا تنتظر من شعر يقرأه إنسان تفرض عليه « الفردية » أن يظل فرداً معزولاً بين أفراد معزولين ؟ وماذا تنتظر من شعر يقرأه إنسان أنيق لا يريد أن يسمع من جليسه في الصالون أو النادي أو القهوة إلا شقشقة لسان وأحاديث فراغ ؟ إنك لا تنتظر من هذا الانسان أن يتطلب في الشعر ما يتطلبه الانسان الذي تنشط نفسه للعقيدة ولو نشاط المكافحة والثوران أو يتطلبه الانسان الذي تتصل بينه وبين الأحياء من حوله وشائج دم لا تزال تنقل منه اليهم كما تنقل منهم إليه ، أو يتطلبه الانسان الذي يحس أن الكون مجال حياة وأسرار يولد فيه مخلوقاً حيا عريق الأصول في آباد ليس لها نهاية ، لا عضواً في « صالون » أو جليساً في قهوة أو سميراً في سهرات مجون . . . كلا ! إنك لا تنتظر من انسان السآمة والفردية والصالون أن يقرأ شعراً كالذي يقرأه انسان النشاط القلبي والوشائج الآدمية والكون الابدي المستهول الوضوح والخفاء على السواء ، فغير عجيب كما قلنا أن يشيع رأي أصحاب الرونق والطلاء في هذا العصر ، وما بقي فيه للانسان من مطلب عزيز متفق عليه غير مطلب الراحة الملساء والهدوء الناعم من مزعجات الجهاد .

فاذا كنا ، مع استخراج صورة ابن الرومي من شعره ، قد وفقنا لاظهار الوحدة العامة بين الشعر والحياة أو بين الفن والحياة كلها ـ فذلك حسبنا من مقصد جدير بالالتفات خليق أن يتقرر بيننا قبل أن يشيع في أذواقنا رأي السأم والاثرة واناقة المتبطلين .

لكننا نرجو أن نكون قد وفقنا لارضاء التاريخ الى جانب ارضاء التصوير وارضاء الوحدة بين الشعر والحياة ، وحسبنا في هذا أيضاً أننا سندع ترجمة ابن الرومي هنا خيراً مما تسلمناها من شتات الماضي صحة في الأخبار ورجحاناً في الاحتمالات ، ومن هذه الأخبار أخبار تتعلق بمولده ووفاته ، واخبار اخرى تتعلق باخلاقه ومعيشته ، ومنها اخبار تلقاها الناقلون بالتسليم وجرت في التراجم مجرى المقررات ولا مصدر لها الا خطأ عارض في طبع بعض التواريخ . كالخبر الذي يُنقل عن ابن خلكان ويقال فيه ان المتنبي روى عن ابن الرومي شعره وبينهما ما بينهما من بعدَي الزمان والمكان . . . فيأخذه الناقلون ويقبله منهم من يقبل ويحار فيه من يحار ، وإنما هو اسم « المسيبي » حرّفه الطابعون إلى اسم « المتنبي » فسرى الخطأ سريانه في الكتب الحديثة بلا شذوذ . . . وغير ذلك كثير ليس يعنينا في صدد هذه الخاتمة أن نحصيه وما شاكله ونحا نحوه في جميع المصادر والمنقولات ، لأننا نقصد إلى تصحيح ما لاح لنا خطأه ولا نقصد إلى احصائه على المخطئين .

وبعد فمن تمام التعريف بابن الرومي أن نختم كتابنا بمختارات له لم نعتمد فيها الدلالة التاريخية التي توخيناها في شواهد الفصول السابقة ، ولا ريب أن هذه الشواهد معرض حسن تبدو فيه شاعرية المترجم في نواحي كثيرة منوعة . ولكننا نعتقد ان المختارات التي تقرأ لِذاتها لا لموقعها من الترجمة أحرى أن تتمم المعرفة بشاعريته من جميع نواحيها . وها هي أولاء تلك المختارات معروضة فيما يلي لتدل على معدن شعره لا على أحسن ما فيه :

(الربيع شباب الطبيعة)

ضحكَ الربيعُ الى بُكا الديمِ وغدا يسوّي النبتَ بالقِمَمِ
ما بين أخضرَ لابسٍ كُمماً خضراً ، وأزهر غير ذي كمم
متلاحقُ الأطراف متسقٌ فكأنه قد طُمَّ بالجلم[1]
متبلجُ الضحوات مُشرقها متأرّجُ الأسحار والعتم
تجد الوحوشُ به كفايتها والطير فيه عتيدةُ الطعم
فظباؤه تضحى بمنتطَحٍ وحمامُه تضحى بمختصَمِ
والروضُ في قطع الزبرجد وال ياقوت تحت لآلئٍ تُؤَمُ
طلٌ يرقرقه على ورقٍ فكأنه دُرٌّ على لمم
حُشِيد الربيع مع الربيع له فغدا يهزز ثابت الجمم[2]
والدولةُ الزهراء والزمن المز هارُ حسبُك شافيَيْ قرَم
إن الربيع لكالشباب وإن الـ صيف يكسعه لكالهرم
أشقائق النعمان بين ربيَ نعمانَ ! أنتِ محاسن النعم
غدت الشقائق وهي واصفةٌ آلاء ذي الجبروت والعِظم
ترَفٌ لأبصارٍ كُحلنَ بها ليرين كيف عجائبُ الحِكم
شُعَلٌ تزيدك في النهار سنًى وتضيء في مُحلَولك الظُّلم
أعجِبْ بها شعلاً على فحم لم تشتعل في ذلك الفحم
وكأنما لمع السواد إلى ما احمرّ منها في ضُحَى الرهَم[3]
حَدَقُ العواشق وسّطت مُقلاً نَهَلتْ وعَلّتْ من دموع دم
هاتيك أو خيلانُ غاليةٍ أضحت بها الوجنات في ذَمَم
يا للشقائق إنها قِسَمٌ تزهى بها الأبصار في القِسم
ما كان يُهدى مثلَها تحفاً إلا تطوُّلُ باريءِ النسم

---

(١) يطمه بالجلم يعلوه بالمقص
(٢) جمع جمة والمقصود بها هنا رؤوس الشحر .
(٣) المطر الخفيف الدائم .

(السحاب)

متهللٌ زجــلٌ ، تحــنّ رواعد   في حجــزتيْه ، وتستطــير بروقُ
سَدّت أوائلــه سبيلَ أواخر   لم يدر سائقهــن كيف يسوق
فَسجــا ، وأسْعَــد حالبَيه بدّرةٍ   منــه ـ سواعــدُ ثرةٌ وعروق
وتنفّســت فيه الصبــا فتَبجّست   منــه الــكِلىَ ، فأديمُــهُ معقوق
حتــى اذا قضيتْ لقيعــانِ الملا   عنــه حقــوقٌ بعدهــن حقوق
طفقــتْ رَوَاياهُ تجــرّ مزادَها   فوق الربــى ، ومزادُهــا(١) مشقوق
وتضاحك الروض الـكئيب لصوبه   حتــى تفتــق نوره المرتوق
وتنسمــت نفحاتُــه فكأنه   مســكٌ تضــوّع ، فأرُهُ مفتوق
وتغــرد المكاّء · فيه كأنه   طرب تعلل بالغنــاء مشوق

(روضة)

وروضــة عذراء غــير عانسه   جادث لهــا كلٌّ سماء راجسهْ
رائحة بالغيث أو مغالسهْ
فأصبحــت من كل وشي لابسهْ   خضراء ما فيهــا خلاة يابسهْ
ضاحــكة النــوار غــير عابسهْ   كأنهــا معشوقــة مؤ انسهْ
فيهــا شمــوس للبهــار وارسهْ   كأنهــا جماجــم الشماسهْ
ترَوقــك النــورة منهــا الناكسهْ   بعــين يقظــى وبجيد ناعسهْ
لؤلؤة الطل عليها فارسهْ
وخُــرّم(٢) في صيغــة الطيالسة   يحــكي الطــواويسَ غَدتْ مطاوسهْ
كأنمــا تلك الفــروع المائسهْ   تغمسهــا في الــلازورد غامسهْ
وصفــوةُ النعمان والقوابسهْ   من ناصــع الحمــرة ريّا قالسهْ(٣)
تكاد تحــت الــظلمات الدامسهْ   تهــوي اليهــا كلُّ كف قابسهْ

---

(١) المزاد ما يوضع فيه الزاد .
(٢) نبت كاللوبية ملون حسن الشم والمنظر
(٣) ملأى طافحة

النرجس

يا حبّذا النرجس ريحانةً … لأنفِ مغبوقٍ ومصبوحِ
كأنه من طيب أرواحه … رُكّب من رَوْحٍ ومن رُوح
يا حسنه في العين يا حسنه ! … من لامحٍ للشرْب ملموح
كأنما الطلُّ على نَوْره … ماءُ عيون غيرُ مسفوح

الهاجرة في الصحراء

وهاجرة بيضاء يُعدى بياضها … سواداً كأن الوجهَ منه محمّمُ
أظلّ إذا كافحتها وكأنني … بوّهاجها دون اللثام ملثّم
بديمومة لا ظلَّ في صحصحانها … ولا ماء لكن قورُها[1] الدهر عُوّم
ترى الآل فيها يلطم الآل ما نجا … وبارحها المسموم للوجه ألطم

خابط الليل في الفيافي

وليلٍ - غشا ليلٌ من الدجن فوقه - … فليس لنجم في غواشيه مَنجَم
عفا جلبُه آيَ الهدى من سمائه … وأعلامه من أرضه فهي طُسّم
لبستُ دجاه الجونَ ثم هتكته … بوجناء ينميها غُريرٌ وشدقم[2]
عذافرةٌ تنقضُّ من كل زجرةٍ … كما انقضّ مِردى[3] المنجنيق الململم
يخوض عليها لجّةَ الهول راكب … هو السيفُ إلا أنه لا يثلم
نجيبٌ من الفتيان فوق نجيبة … من العيس ، في يهماء ، والليل أيهم
فريدين ، يمُضيها وتمضيه في الدجى … كسمراءَ يمضيها وتمضيه لهذم
يريها الهُدَى حدْساً ، وتنجو برحله ، … ودون الهدى سدٌّ من الليل مبهم
على ظهر مَرْتٍ[4] ليس فيه معرَّجٌ … ولكنْ مَخَبٌّ للركاب ومسعم[5]
ينوح به بومٌ وتعزف جِنَّةٌ … فيعوي لها سيدٌ ويضبح سمسم[6]
يُخال بها من رزّ هذا وهذه … إذا اختلف الصوتان عرسٌ ومأتم

---

(١) اصاغر الجبال (٢) فحلان مشهوران من الابل (٣) المردى حجر يرمى به .
(٤) ارض قفر لا نبات فيها (٥) السعم السريع السير (٦) ثعلب

تعسّفته إما لخفضٍ أنالُه

وإما سآمَ الخفض ، والخفض يسأم

الأسفار

أذاقتنيَ الأسفار ما كرّه الغنى إليّ ، وأغراني برفض المطالب
فأصبحت في الاثراء أزهد زاهدٍ وإن كنتُ في الأثراء أرغب راغب
حريصاً جباناً . أشتهي ثم انتهي بلحظي جنابَ الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرصٍ وجبنٍ فأنه فقيرٍ أتاه الفقر من كل جانب
تَنازعني رغبٌ ورهبٌ كلاهما قويٌ : وأعياني اطّلاع المغايب
فقدمتُ رجلاً رغبةً في رغيبة ، وأخّرت رجلاً رهبة للمعاطب
أخاف على نفسي وأرجو مفازها ، واستارُ غيب اللّه دون العواقب
ألامن يُريني غايتي قبل مذهبي ! ،من أين ؟ والغايات بعد المذاهب

سفر البر

ومن نكبةٍ لاقيتُها بعد نكبةٍ

رهبتُ اعتسافَ الأرض ذات المناكب

وصبري على الاقتار أيسرُ محملا عليّ من التغرير بعد التجارب
لقيتُ من البرّ التباريحَ بعدما لقيت من البحر ابيضاض الذوائب
سقيتُ - على ريّ به ألفَ مطرة شغفت لبغضيها بحب المجادب
ولم أسْقَها ، بل ساقها لمكيدتي تحامُقُ دهر جدّ بي كالمُلاعب
إلى الله أشكو سخف دهري فإنه يعابثني مذ كنت ، غيرَ مطايب
أبى أن يغيث الأرض، حتى إذاارتمت برحلي أتاها بالغيوث السواكب
سقى الأرض من أجلي فأضحت مزلةً تمايَلَ صاحيها تمايلَ شارب
لتعويق سيري أودُ حوض مطيتي ، وإخصاب مزوَرٍ عن المجد ناكب
فملتُ إلى خان مرثّ بناؤهُ مميلَ غريق الثوب لهفان لاغب
فلم ألق فيه مستراحاً لمتعب ولا نزلاً ، أيّان ذاك لساغب ؟

فما زلت في خوف وجوع ووحشةٍ ... وفي سهرٍ يستغرق الليل واصب

تراه إذا ما الطين أثقل متنه ... تصرّ نواحيه صرير الجنادب
وكم خانِ سَفْرٍ خانَ فانقض فوقهم ... كما انقض صقرُ الدجن فوق الأرانب
ولم أنس ما لاقيت أيام صحوه ... من الصرفيه والثلوج الأشاهب
وما زال ضاحي البرّ يضرب أهلَه ... بسوطَيْ عذابٍ جامد بعد ذائب
فان فاته قطرٌ وثلجٌ فانه ... رهينٌ بسافٍ تارة وبحاصب .
فذاك بلاء البرّ عندي شاتياً ، ... وكم لِيَ من صيف به ذي مثالب
ألاَ ربّ نارٍ بالفضاء اصطليتها ... من الضحّ يودي لفحُها بالحواجب
إذا ظلّت البيداءُ تطفو إكامُها ... وترسبُ في غمرٍ من الآل ناضب
فدع عنك ذكر البرّ ، أنّي رأيته ... لمن خاف هولَ البحر شرَّ المهارب
كلا نُزُلَيْهِ صيفُهُ وشتاؤه ... خلافٌ لما أهواه غيرُ مصاقب
لهاثٌ مميتٌ تحت بيضاء سخنةٍ ... وريٌّ مفيتٌ تحت أسحم صائب
يجفّ إذا ما الريق أصبح عاصباً ، ... ويغدق لي والريق ليس بعاصب
فيمنع مني الماء واللوح جاهدٌ ، ... ويغرقني والريُ رطبُ المحالب
وما زال يبغيني الحتوفَ مواربا ... - يحوم على قتلي - وغير موارب
فطوراً يغاديني بلصٍ مصلّت ، ... وطوراً يمسيني بورد الشوارب
إلى أن وقاني اللّه محذور شرّه ... بعزته ، واللّه أغلب غالب
فأفلتّ من ذؤبانه وأسوده ... وخرّابه إفلاتَ أَثْوَبِ تائب

السفر بحراً بدجلة

وأما بلاء البحر عندي فإنه ... طواني على روعٍ مع الروح واقب[1]
ولو ثاب عقلي لم أدع ذكرَ بعضه ... ولكنه من هوله غير ثائب
ولِمْ لا ؟ ولو أُلقيتُ فيه وصخرةٌ ... لوافيت منه القعر أولَ راسب
ولم أتعلّمْ قطّ من ذي سباحةٍ ... سوى الغوص، والمضعوف غير مغالب
فأيسر اشفاقي من الماء أنني ... أمر به في الكوز مرَّ المجانب !
وأخشى الردى منه على كل شارب ... فكيف بأمنيه على نفس راكب

(١) غائر او مستكن

أظــلّ إذا هزتــه ريح ولألأت
له الشـمس أمواجـاً طوال الغوارب

كأنــي أرى فيهــنّ فرســان بهمة
يليحون نحوي بالسيوف القواضب

فان قلــت لي قد يُركب اليمُّ طامياً
ودجلـة عنـد اليمّ بعض المذانب[1]

فلا عذرَ فيها لا مرىء هاب مثلها ،
وفي اللجــة الخضراء عذرٌ لهائب

فان احتجاجــي عنــك ليس بنائم
وإن بيانــي ليس عنــي بعازب

لدجلـة خبٌ ليس لليّم ، إنها
تَراءى بحلــم ٍ تحتـه جهْــلُ واثب

تَطامــن حتــى تطمئــن قلوُبنا ،
وتغضب من مزح الـرياح اللواعب

وأجرافُهــا رهــنٌ بكل خيانةٍ
وغـــدرٍ ، ففيهـــا كلُّ عيب لعائب

يرانا ـ إذاهاجــت بهاالـريح هيجة
تزلــزل في حوماتهــا بالقوارب ـ

نُواتل[2] من زلزالهـا نحـو خسفها ،
فلا خــير في أوساطهـــا والجوانب

زلازل موجٍ في غمار زواخرٍ ،
وهـدّاتُ خسف في شطـوط خوارب

ولليّم اعــذارٌ بعــرض متونه
ومـــا فيه من آذيّهِ المتراكب

ولســتَ تراه في الــرياح مزلزلاً
بمــا فيه ـ إلا في الشــداد الغوالب

وإن خيفَ موجٌ عيذَ منــه بساحلٍ
خليٍّ من الأجــراف ذات الكباكب

ويلفــظ ما فيه ، فليس معاجلاً
غريقــاً بغـتٍ يزهــق النفس كارب

يعلّل غرقــاه إلى أن يغيثهم
بصنع لطيفٍ منـه خـير مصاحب :

فتلقى الدلافــينَ الــكريمَ طباعُها
هنـاك رعـــالاً عنــد نكب النواكب

مراكبَ للقــوم الــذين كبابهم ،
فهم وسطه غرقـى وهــم في مراكب

وينقض ألــواحَ السفــين فكلّها
منــجٍ لدى نوب من الــكسر ناثب

ومـا أنـا بالـراضي عن البحـر مركباً
ولكننــي عارضــتُ شغـب المشاغب

---

(١) المذنب مسيل الماء الى الأرض
(٢) وال من الشيء الى الشيء لجا

الطرد والقنص

(صيد الطير)

وقد أغتدي للطير والطير هجَّعٌ … ولو أوجست مغداي ما بتن هجّعا
بخلَّين تمّا بي ثلاثة إخوةٍ … جسومهم شتى وأرواحهم معا
مطيعين أهواءً توافت على هوًى … فلو أرسلت كالنبل لم تعد موقعا
إذا ما دعا منا خليل خليلَه : … بأفديك . لبَّاه مجيباً فأسرعا
كأن له في كل عضوٍ ومفصلٍ … وجارحةٍ قلباً من الجمر أصمعا
فثاروا إلى آلاتهم فتقلَّدوا … خرايط حمراً تحمل السمّ منقعا
محمَّلة زاداً خفيفاً مناطهُ … من البُندُق الموزون قلٌّ وأقنعا
وقد وقفوا للحائنات[1]وشمّروا … لهن إلى الأنْصَاف ساقاً وأذرعا
وجدّت قسيُّ القوم في الطير جدَّها … فظلّت سجوداً للرماة وركّعا
فظلّ صحابي ناعمين ببؤسها … وظلّت على حوض المنيَّة شرّعا
طرايح من سُودٍ وبيضٍ نواصع … تخال أديمِ الأرض منهن أبقعا
نؤلف منها بين شتى ، وإنما … نشتت من ألافها ما تجمّعا
فكم ظاعنٍ منهنّ مزمعَ رحلةٍ … قصرنا نواه دون ما كان أزمعا
وكم قادم منهن مرتاد مَنزلٍ … أناخ به منا منيخ فجعجعا
كأن بنات الماء في صرح متنه … إذا ما علا روقُ الضحى فترفعا
زرابيّ كسرى بثها في صحانه … ليحضر وفداً أو ليجمع مجمعا
تريك ربيعاً في خريفٍ ، وروضةً … على لجةٍ : بدعاً من الأمر مبدعا

---

(١) للطير الحائنات

أدوات القتل

الرماة

لهـمْ عدَّةٌ تكفيهـمُ كلَّ عدةٍ : بنـاتُ المنـايا والحنـيُّ الموتَّرُ
يزلـون عن أكبـاد كل حنيةٍ خفافـاً مع الآجـال تعلـو وتقصر
نواهـا نواهـم في المنـايا ، كأنما مواقعُهـا فيما يشـاءون تقدَر
لهـا ألسـنٌ ما تستفيق لهاتُها يكاد لعـابُ الموت منهـنَّ يقطر

سيف

خير ما استعصمت به الكفُّ عضبٌ ذكَرٌ حدُّه ، أنيثُ المهزّ
ما تأملتـه بعينيك إلا أرعـدت صفحتـاه من غـير هزّ
مثلُـه أفـزع الشجـاعَ إلى الدر ع فعَـالَى به على كل بزّ
ما يبـالي أصممت شفرتاه في محـزٍّ أو جازتـا عن محز

مجالس الشراب واللهو

القيان الأتراك

(في مجلس القاسم) .

أظــلّ إذا شاهــدتُ يوم نعيمه ... كأني في الفــردوس فوق الأرايك
بمــرأى من الــدنيا جميلٍ ومسمع ... لدى ملك بالحــقّ ، لا متمالك
تحثّ الحســانُ المحسنــاتُ كؤوسَه ... بمــدحٍ له قد سار جمّ المسالك
من الوضّــح اللعس الشفــاه كأنما ... يفهــنَ بأفــواه الظبْــاء الأوارك
يرفّعــن أصواتــاً لدانــاً ، وتارةً ... ينمنمــنَ وشياً غــير وشي الحوائك
كفلن لنــا لما اصطففــن حيالنا ... بترحيل أضياف الهمـوم السوادك[1]
فما برحــت تهـدي الينـا عجائبٌ[2] ... عجائبَ تصبـي كلّ صابٍ وناسك
فتــاةٌ من الأتــراك ترمــي بأسهمٍ ... يصبن الحشا في السلم لا في المعارك
كأن زمــير القاصبــاتِ أعارها ... شجاه وسجعَ البـاكيات الضواحك
ظللنــا لهــا نُصْبــاً تشــك قلوبنا ... بذاك الشجــا الفتــان لا بالنّيازك
ومــا « جلنّــارٌ » بالمقصرٍّ شاؤُها ... ولا المتعـدّي قصـد أهـدَى المسالك
لطيفــةُ قدّ النــدي تبِسنـد عودَها ... إلى ناجـمٍ في ساحـة الصـدر فالك
تطامــنَ عن قدّ الطــوال قوامُها ... وأربــى على قدّ القصــار الحواتك
ورقاصـة بالطبـل والصنــج كاعبٌ ... لهـا غنـجُ مخنـاثٍ ، وتـكريه فاتك
أتيح لهــا في جسمهــا رِفــدُ رافدٍ ... وإن نالهـا في خصرهـا نَهْـكُ ناهك
إذا هي قامت في الشفـوف أضاءها ... سناهــا فشفّــتْ عن سبيكة سابك
سبــاياَ اليهــنّ استبــاءُ عقولنا ... ممــالكُ مُلّــكن اقتــدارَ الممالك

---

(١) الملازمة
(٢) اسم جارية

السوداء الحسناء

(في مجلس عبد الملك بن صالح)

سوداء لم تنتسبْ إلى بَرَص ... الشُّقْر ولا كُلفةٍ ولا بهَق
ليست من العُبْس الأكُف ، ... ولا الفُلْجِ الشفاه ، الخبائثِ العرق
بل من بنات الملوك ناعمة ... تنشر بالدلّ ميت الشبق
في لين سمُّورةٍ تخيّرها الفرّاءُ ، ... أو لين جيِّدِ الدلَق[1]
تُذْكرك المسك والغواليَ والسـ ... ـكّ ذواتَ النسيم والعبق
هيفاء زينت بخمص محتضَن ... أوفى عليه نهودُ معتنَق
غصنٌ من الآبنوسُ ألِّفَ من ... مؤتزر معجب ومنتطَق
يهتز من ناهديه في ثمر ... ومن دواجي ذراه في ورق
أكسبها الحُبّ أنها صبغت ... صبغةَ حبّ القلوب والحدق
فانصرفت نحوها الضمائر والأبـ ... ـصار يعنقن أيما عنق
يفترّ ذاك السواد عن يقق ... من ثغرها كاللآلىء النسق
كأنها والمزاحُ يضحكها ... ليلٌ تفرّى دجاه عن فلَق
سمحاء كالمهرة المطهمة الدهـ ... ـماء تنضو أوائل السبق

الشراب في الخمائل

وصفراء بكرٍ ، لاقذاها مغيب ... ولاسرٌ من حلت حشاه مكتم
ينم على الأمرين فرطُ صفائها ... وسورتُها حتى يبوح المجمجم
هي الورْسُ في بيض الكؤوس ، وإن بدتْ
لعينيك في بيض الوجوه فعندم
مذاق ومسرًى في العروق كلاهما ... ألذّ من البرء الجديد وأنعمُ
إذا نزلت بالهمّ في دار أهله ... غدا الهمُّ وهو المرْهق المتهضّم
أقامت ببيت النار تسعين حجة ... وعشراً يُصَلّى حولها ويُزمزَم
سقتني بها بيضاءُ ، فوها وكأسها ... شبيها مذاقٍ عند من يتطعَّمُ

---

(١) حيوان يقرب من السنور في الحجم

لدى روضة فيها من النور أعينٌ ترقرق دمعاً ، بل ثغور تبسَّم
يضاحك روقَ الشمس منها مُضاحكٌ
مدامعهمن واقع الطلِّ سُجَّم
كمستعبرٍ مستبشرٍ بعد حزنه لبين خليط قوَّضوا ثم خيَّموا
يغازلني فيها غزالان منهما ربيبُ الفيافي والربَّيب المتوَّم
إذا نصبا جيديهما فكلاهما سواءٌ وأبريق لديَّ مفدَّم[1]
ثلاثة أظبٍ نجرُها غير واحدٍ لذي اللهو فيها كلها مُتنَعم
غزال ، وأبريق رذومٌ ، وغادة تحرِّك من أوتارها وتنغم

(١) المفدم الذي عليه الفدام وهو شبه مصفاة

في وحيد المغنية

يا خليليَّ تيمتني وحيدُ ... ففؤادي بها معنّى عميدُ
غادة زانها من الغصن قدٌّ ... ومن الظَّبي مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخديـ ... ـن ذاك السَّواد والتوريد
أوقد الحسنُ نارَه في وحيدٍ ... فوق خد ما شانه تخديد
فهي بردٌ بخدّها وسلام ... وهي للعاشقين جهد جهيد
لم تضر قط وجهها وهو ماء ... وتذيب القلوب وهي حديد
ما لما تصطليه من وجنتيها ... غيرُ ترشاف ريقها تبريد
مثلُ ذاك الرضاب أطفأ ذاك ... الوجدَ لولا الاباء والتصريد(١)

***

وغرير بحسنها قال : صِفها ! ... قلتُ : أمران ، هيِّن وشديد
يسهل القول إنها أحسن الأشـ ... ـياء طراً ويعسر التحديد .
شمس دجنٍ ، كلا المنيرَيْن ـ ... من شمس وبدر ـ من نورها يستفيد
تتجلىً للناظرين إليها ... فشقيٌّ بحسنها وسعيد
ظبية تسكن القلوب وترعا ... ها ، وقمرية لها تغريد
تتغنى ، كأنها لا تغني ... من سكون الأوصال ، وهي تجيد
لا تراها هناك تجحظ عين ... لك منها ، ولا يدرُّ وريد
من هدوٍ وليس فيه انقطاع ... وسجوٍ وما به تبليد
مدٌّ في شأوٍ صوتها نَفسٌ كافٍ ... كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلالُ والغنج منه ... وبراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا ... مستلذٌّ بسيطُه والنشيد
فيه وشيٌ ، وفيه حليٌ من ... النغم مصوغٌ يختال فيه القصيد
طاب فوها وما ترجِّع فيه ، ... كلّ شيء لها بذاك شهيد

---

(١) صرد الرجل سقاه دون الري

ثغبٌ[1] ينقــع الصــدى ، وغناءٌ عنــده يوجــد السرورُ الفقيد
فلهــا الدهــرَ لاثــم مستزيد ولهــا الدهــرَ سامــع مستعيد
في هوى مثلهــا يخفّ حليم راجــح حلمُـه ، ويغــوى رشيد
ما تُعاطــي القلــوب إلا أصابت بهواهــا منهــنّ حيث تريد
وتــر العــزف في يديْهــا مُضَاهٍ وتــرَ الــرجف فيه سهــمٌ شديد
وإذا أنبضتــه للشرْب يوماً أيقــن القــومُ أنهــا ستصيد
معبــد في الغنــاء وابــن سرَيجٍ وهــي في الضرب زلــزل وعقيد
عيبُهــا أنهــا اذا غنَّــت الأحرار ظلّــوا وهــم لديهــا عبيد
واستــزادت قلوبهَــم من هواها بُرقاهــا ، ومــا لديهــم مزيد

***

وحسان عرضــن لي ، قلــت : مهلاً عن وحيدٍ فحقُّهــا التوحيد
حسنُهــا في العيون حســن وحيدٌ فلهــا في القلــوب حبٌ وحيد
ونصيح يلومنــي في هواها ضلٌ عنــه التــوفيق والتسديد
لوأرى من يلــومُ فيه ، لأضحى وهــو المستــريبُ والمستزيد
ضلــة للفــؤاد يحنــو عليها وهــي تزهــو حياتــه وتكيد
سحرتــه بمقلتيهــا فأضحت عنــده والــذميمُ منهــا حميد
خلقــت فتنــةً غنــاءً وحسناً مالهــا فيهما جميعــاً نديد
فهــي نُعمــى ، يميد منهــا كبير وهــي بلــوى ، يشيــب منهــا وليد
ليَ حيث انصرفــت منهــا رفيق من هواهــا ، وحيث حلّــت قعيد
عن يمينــي وعــن شمالي وقدّامي وخلفــي ، فأين عنــه أحيد ؟
سد شيطــانُ حبهــا كلٌ فجّ إن شيطــان حبهــا لمريد
ليت شعــري إذا أدام إليها كَرَّةَ الطــرف مبــدئٌ ومعيد
أهــي شيءٌ لا تســأم العــين منه ؟ أم لهــا كل ساعــة تجديد ؟
بل هي العيش لا يزال متــى استُـ ـعــرض يملي غرائبــاً ويفيد
منظــرٌ ، مسمــعٌ ، معــان من اللهــو ،عتَــاد لما يحــبُّ عتيد
لا يدب الملالُ فيهــا ، ولا ينقض من عقــد سحرهــا توكيد

---

(١) الغدير لا تصيبه الشمس فيبرد الماء

حسنهـــا في العيون حســـن جديد فلهـــا في القلـــوب حب جديد

***

أخـــذ الله يا وحيد لقلبي منـــكِ ما يأخـــذ المُديل المُقيد
حظَّ غـيري من وصلـكم قرةُ العـين ، وحظـي البـكاء والتسهيد
غـير أنـي معلّل منـك نفسي بعـدات خَلا لهـنّ وعيد
ما تزالـين نظـرة منـك موت لي ممـيت ، ونظـرة تخليد
نتلاقـى ، فلحظـة منـك وعد بوصـال ، ولحظـة تهديد
قد تركت الصحـاح مرضى يميدون نحـولاً وأنـت خوط يميد
ضافنـي حبّـك الغـريب ، فألوى بالرقـاد النسيب فهـو طريد
عجبـاً لي ، إنّ الغـريبَ مقيم بـين جنبـيّ ، والنسيب شريد
قد مللنـا من سـتر شيء مليح نشـتهيه ، فهـل له تجريد !
هو في القلـب وهـو أبعـد من نجـم الثـريا فهـو القـريب البعيد

رثاء بستان : المغنية

إنّـا إلى اللـه راجعـون لقد غال الـردى سـيرة من السير
ما أولـع الدهـر في تصرّفه بكل زين له ومفتخر
يعـدو على نفسـه فيسلبها ، إلا عتـادَ المعـدّ ذي النمر
كم ملبس لايعـاب هَتَّكَهُ عن جلـدةٍ منـه شثنـة الوبر[1]
أودى ببستـان وهـي خُلّتُه فقـد غدا عارياً من الحبر
أطـار قمـرية الغنـاء عن الأرض فأي القلـوب لم يطر
للـه ما ضُمّنـت حفيرتها من حسـن مرأى وطهـر مختبر
أضحـت من الساكنـي حفائرهم سُكنـى الغـوالي مداهَـن السرر
مُطيِّبـي كل تربـة خبثتْ ومؤنسيهـا بشر مجتَور
يا حرُّ صدري على ثلاثـة أمـواه هُريقـت في التـرب والمدر
ماء شبـاب ونعمـةٍ مُزجا بمـاء ذاك الحياءِ والخفرْ
لو يعلـم القبـر من أتيح له لا نحفـر القبـر غـيرَ محتفَر

---

(١) الشثن الغليظ

أوْ لأَبَاهــا ، فصَــان حينئذ عن رمســه درةً من الدرر
إن ثرًى ضمهــا لأفضــل محجو جٍ لصــبّ وخــير معتمر
أقسمــتُ بالغنــج من ملاحظها وسحــر ذاك السجــوّ والفتر
لو عُقــرتْ حول قبرهــا بقــرُ الأنس مكان القِــلاص والمهر
والــدرُّ نَظْــمٌ على الترائــب منهــنّ ، وأشكالُــه من ٱلعتر
وانتحــرت في فنائــه بهُــم الحــرْب وصيد الملــوك من مضر
ثم سَقيتُ الدمــاءَ تربتها لم أشفِ ما في الفــؤاد من وحر
نفسَــك يا نفس فانحــري أسفاً فإن هذا أوانُ منتحر
ما حَســنٌ أن تذوب مهجتُها ومهجتــي لم تُرَقْ ولــم تمر
لا ينــكر الدهــرُ بعــد مَهْلكها هلكَ ذوات الجــلال والخطِر

* * *

بستــان يا حسرتــا على زهرٍ فيك من اللهــو ، بل على ثمر
بستــان لهفــي لحســنِ وجهــك والاحســان ، صارا معــاً إلى العفر
بستــان أضحــى الفــؤاد في وله يا نزهــة السمــع منــه والبصر
بستــان ما منــك لامــريء عوضُ من البساتــين ، لا ولا البشر
بستــان أســقيت من مدامعنــا الدمــعَ ، وأعقبــتِ عقبــةَ المطر
بل حقٌ سقياك أن تكون من الصهبــاء ، صهبــاء حمص أو جدر
بل من رحيق الجنــان يُقطَــب بالمســك ، سلالاتُــه بلا عكر
بل من نجيع القلــوب يمــزَج بالعــطف وصفــو الــوداد لا الكدر
يا نعمــةَ اللــه في بريّته أصبحــت أحــدى فواقــر الفِقَر
يا غضــة الســن يا صغيرتها أمسيت إحــدى المصائــب الكبر
أنّــى اختصرت الطــريق يا سكَني إلى لقــاء الأكفــان والحفر
أنّــىَّ تجشّمــتِ في الحــوادث ما جُشمّــتِ من كرهِ ذلك السفر
أحميك من موردِ قصــدتِ له لا ينتهــي وردُهُ إلى صدر
يا شمس زُهْــر الشمــوس ، يا قمــر الأقمار حسنــاً ، يا زهــرة الزهر
أبعــد ما كنــتِ باب مبتَهجٍ للنفس أصبحــتِ بابَ معتَبر
أصبحــتِ كالتــرب غــير راجحةٍ به ، وقــد ترجحــين بالبِدر
أصابنــا الدهــرُ فيك أكمــلَ ما كنــتِ ، فما رزؤنــا بمجتَبر

لم تقتحمـك العيونُ من صغرٍ ... ولا قلّتْكِ النفوسُ من كبر
فكيف تسلوك والأسى أبداً ... في كبر ، والسلو في صغر
كل ذنوب الزمان مغتفر ... وذنبه فيك غيرُ مغتفر
تبتَّلَ العودُ عند فقدكمُ ... وازدُجر اللهُو كلٌّ مزدجر
وغاب عنا السرور بعدكم ... واحتُضر الهمُّ حين محتضر
وفاض ماءُ النعيم يتبعكم ... وانهمر الدمعُ كل منهمر
فان سمعنا لمزهر وتراً ... حنَّ ، فهاتيك عولة الوتر
أمَا ولؤم البلى وقسوته ... لقد محَا منكِ أحسن الصور
يا بشراً صاغه المصوّرُ من ... نورٍ على سنّةٍ من الفطر
بل من شعاع العقول حين ترى ... الغيب بعين الذكاء والعبر
لا تحسبوني غنيتُ بعدكمُ ... عنكم بشمس الضحى ولا القمر
لا تحسبوني أنستُ بعدكم ... إلى هديل الحمام في الشجر
لا تحسبوني استرحت بعدكم ... إلى نسيم الشمال بالسحر
لا تحسبوا العين بعدكم سرحت ... في مسرح من مسارح النظر
يأبى لها ذاك أن ناظرها ... في شغُل بالسهاد والعبر
وكيف بالنوم للمباشرِ أطرا ... فَ حمات الحيَّات والأبر
سقياً ورعْياً لعيشةٍ معكم ... أصبحت من عهدها بمفتقر
أمتعني دهرُها بغبطته ... على الذي كان فيه من قصر
كانت لياليه كلها سحراً ... وكان أيامُهنّ كالبُكَر
لهوٌ أطفنا ببكرِ لذته ... وما فضضنا خواتم العذر
ولم ننلْ من جناه نهمَتنا ... وان حظينا بمونق الزهر
كم قد شربتُ الرضاب في قُبلٍ ... كانت ، ولكن شربت بالعمر[1]
جدوى فمٍ فيه لؤلؤ وجنى ... نحلٍ بماء السحاب في النقر
غناؤه يشتكي حرارتَه ... وريقه يشتكي من الخصر

---

(١) القدح الصغيرة

كنتم لنا فتنةً من الفتن الـ ـغرّ بلا شهرة من الشهر

كأنني ما طلعتِ مقبلةً علىّ يوماً بأملح الطرر
في كفك العودُ وهو يؤْذن بالاحسان إيذانَ صادق الخبر
إذ مشيكم مذكِرى غناءَكم مشي الهوينى سواكن البقر
وإذ فسادي بكم يذكّرني «لنفسدن الطوافَ في عُمَر»[1]
كأن عيني ما أبصرتْك ضحًى في مجلسي - والوشاة في سفر -
كأنها ما رأتك كالملك الأصيد في التاج يوم مُبتَهر
يا أحسن العالمين حاسرةً وأكمل الناس عند معتَجَر
كأنها مارأتكِ صادحةً والصُّدحُ الوُرْقُ عكّف الزُمر
يسمعن ، أو يستفدن منك شجاً والتمرُ يُمتار من قُرى هجر
كأنني ما اقترحتُ ما اقترحتْ نفسي ، فساعفتني بلا زَوَر[2]
كأنني ما استعدْتُ مقترَحي يوماً فكررته بلا ضجر
وصنْتِ خداً كساه خالقه الحسنَ ،فصعّرتِه عن الصعر
ولو تكبرتِ كنتِ معذرةً ، والمسك ما لا يعاف بالذفر
كأنني ما نعمتُ منك بمرتاح نعيمٍ ولا بمبتكر
رضيتُ من منظرٍ بطيفِ كرًى يعرو ، ومن مسمعٍ بمدِّ كَر
لولا التعزّي بذاك آونةً لا نفطر القلب كلّ منفطر(۳)

ما انتهك الدهر قبلكم لذوي اللهو حريماً في البدو والحضر

---

(۱) يشير الى قول عمر بن ابي ربيعة من ابيات له :

« أبصرتها ليلة ونسوتها يمشين بين المقام والحجر
قالت لها أختها تعاتبها لا تفسدن الطواف في عمر »

ولعل بستان كانت تغني هذه الابيات

(۲) الزور الميل

(۳) اي لولا التعزي بوصلها في الخلد

أبكيك بالدمع والدماء بل التسهاد بل بالمشيب في الشعر
بل بنحول العظام محتقراً ذاك وإن كان غير محتقر

بل باجتناب الشفاء بل بتوخّي النفس ما يُتقى من الضرر

****

لا أسأل الله حسنَ مصطبرٍ فانه عنك لؤم مصطبر
وحزن نفسي عليك من كرمٍ وهو على من سواك من خور
وقد يعزّي الفؤاد أنك في جنة عدنٍ غداً وفي نهر
سيشفع الحور فيك أنك منهن بذاك الدلال والحور

****

هجاء أبي سليمان المغني

ومُسمِع لا عدمتُ فرقَته فانها نعمةٌ من النِعَم
يطول يومي إذا قرنتُ به كأنني صائمٌ ، ولم أصُم
اذا تغنى النديم ذكره أخذ السياق(١) الحثيث بالكظم
يفتح فاه من الجهاد كما يفـ ـتسح فاه لأعظم اللقم
مجلسُه مأتمُ اللذاذة والقصـ ـفِ ، وعرسُ الهموم والسَّدم(٢)
ينشدنا اللهوُ عند طلعته : « من أوحشته البلادُ لم يُقم(٣)
كأنني طولَ ما أشاهده أشرب كأسي ممزوجة بدمي
تشهده فرطَ ساعتين فينـ ـسيك عهوداً لم تؤتَ من قدم
يريك ما قد عهدتَ في أمسك الأ دنى ، كشيء في سالف الأمم
عشرتهُ عشرة تبارك في الأعـ ـمار لولا تعجُّلُ الهرم
نبرد ، حتى يظلّ ينشدنا : هل بالديار الغداة من صمم !
يستطعم الشرْب أن يقال له « أحسنت ! »والقوم منه في وكم(٤)
وكيف للقوم بالتصنع ؟ لا كيفَ ، ولو صُوّروا من الكرم

---

(١) الاحتضار
(٢) الهم مع الندم
(٣) كناية عن اللهوان يستوحش بمجلسه فيرحل
(٤) شدة الحزن والجزع

يُظهِـر في وجهـه إساءَته كأنهـا مسحـةٌ من الحمم
يَسْـودُّ من قبـح ما يجـيء به حتـى كأن قد أسفّ بالفحم
يرتـاح منـه الى الأذان كما يرتـاح ذو شقَـةٍ الى علم
يشـدو بصـوت يسـوء سامعَه تبـارك اللـه باريء النسم
أبـحّ فيه شذور حشرجةٍ منظومـةٍ في مقاطـع النغم
نبرتُـه غصـة ، وهزتُه مثـل نبيب التيوس في الغنم
لو قُدس اللـه ذو الجـلال له لم يرفـع اللـه طيب الكلم
يُفـزَّع الصـبيةُ الصغار به اذا بكا بعضهـم ولـم ينم
يقسـو له القلـبُ ـ حـين يسمعه ـ على أحبائـه بلا جرم
أحلف باللـه لا شريك له فأنهـا غاية من القسم
ما عرف اللـه قبلَـه أحداً ما فضـلُ نعمائـه على النِّقَم

هجو شنطف

شنـطف يا عوذة السمـوات والار ض وشـمس النهـار والقمر
إن كان إبليس خالقـاً بشراً فأنـت ـ عنـدي ـ من ذلك البشر
صوَّرك الماردُ اللعـين فأعطتْ ـك يداه مقابـح الصور

هجو كنيزة

شاهدتُ في بعض ماشاهدتُ مُسمِعةً كأنمـا يومُهـا يومـان في يوم
تظـل تلقـي على من ضم مجلسُها قولا ثقيلاً على الاسماع كاللوم
لهـا غنـاء يثيب اللـه سامعهُ ضعفَـيْ ثواب صلاة الليل والصوم
ظللـت أشرب بالأرطـال لا طرباً عليه بل طلبـاً للسـكر والنوم

طلاب المآدب

(قصيدة فيها وصف ودعابة قالها في أبي شيبة بن الحاجب وكان قد دعاه واستتر عنه) :

نجاك يا ابن الحاجب الحاجب ، وأين ينجو مني الهارب !
أبعد إحرازك إيماننا هاربتنا واعتذر الحاجب ؟
يا عجباً إذ ذاك من حالة دافعنا فيها هو الجاذب
حقاً لقد أوليتنا جفوة يمحل منها البلد العاشب
انظر بعين العدل تبصر بها أنك عن منهاجه ناكب

****

لهفي وقد جاءتك جفّالة كلٌّ مغذّ ساغب لاغب
من كل شذان الحشا لهسم[1] يأكل ما لا يأكل الحاسب
فكّاه كالعصرين من دهره كلاهما في شأنه دائب
ذي معدة ثعلبها لا حس وتارة أرنبها ضاغب
تعلوه حمى شَرَهٍ نافض لكن حمى هضمه صالب
كأنما الفرّوج في كفه فريسة ضرغامها دارب
وان غدا الشبوط قرناً لهم فخذّ شبوطهم التارب
أقسمت لو أنك لاقيتهم نابك من أضراسهم نائب
أبشر بكر عاجل إنني بالثار في أمثالها طالب
لا تحسبني عنك في غفلة عودي وشيك أيها الصاحب
قلت لصحبي حين راوغتهم : « لا تحزنوا ، قد يشهد الغائب
سيصنع الله لنا في غد إن كان أكدى يومنا الخائب
كروا على الشيخ بتطفيلة عن عزمة كوكبها ثاقب

---

[1] لهسم اكل جميع ما على المائدة

وإن زواه منكم جانب ... فلا يفتكم ذلك الجانب
جوسوا عليه الأرض واستخبروا ... حتى يروح الخبر العازب
لا تنجُوَن منكم فراريجه ... لا وهب المنجَى لها الواهب
لا تفلتن منكم شبابيطه ... لا أفلت الطافي ولا الراسب
جدّوا فقد جدّ بكم لاعباً ... وقد يجدّ الرجل اللاعب
وليكن السكر على غرة ... والصيد في مأمنه سارب
مقالة قمت بها خاطباً ... وقد يصيب الغرة الخاطب

***

فاعتزم القوم على غارة ... ساند فيها الراجل الراكب
يهدي أبو عثمان كردوسها[1] ... هذاك ، ذاك الطاعن الضارب
يرقل والراية في كفه ... قد حفها الرامح والناشب

***

والقوم لاقوك فأعدْ لهم ... ما يرتضى الآكل والشارب
يسرْ فراريجك مقرونةً ... بها شبابيطك يا كاتب
تلك التي مخبرها ناعم ... تلك التي منظرها شاحب
واذكر بقلب غير مستوهلٍ ... يعروه من ذكرى القِرى ناخب
أنك من جيران قُطرُ بُلٍ ... وعندك اللقحة والحالب
فاسْقِ حليب الكرم شرّابه ... إذ ليس من شأنهم الرائب
أحضرهم البكر التي ما اصطلت ... ناراً ، فكل خاطب راغب
تلك التي ما بايتت راهباً ... إلّا جفا قنديله[2] الراهب
تلك التي ليس لها مُشْبهٌ ... في الكاس إلا الذهب الذائب
أو أمُّها الكبرى[3] التي لم يَزلْ ... لليل من طلعتها جانب
حققها بالشمس أن ربيت ... في حجرها ، والشبه الغالب
أعجبْ بتلك البكر محجوبةً ... مكروبةً يجُلَى بها الكارب

---

(1) طائفة الخيل
(2) كناية عن اشراقها والاكتفاء بسناها
(3) او لا شبه لها الا امها الكبرى وهي الشمس التي تمزق طلعتها الظلام

مغلوبــةً في الــدنّ مسلوبة　　لهــا انتصــارٌ غالــب سالب
بينــا تُرى في الــزقّ مسحوبةً　　إذ حكمــتْ أن يُسحــب الساحب
تقتصُّ من واترهــا صرعةً　　ليس لهــا باكٍ ولا نادب
إلا حمــامُ الأيك في أيكة　　أو عازف للشرب أو قاصب
ذات نسيم مســكهُ فائح　　وذات لون ورسُــه خاضب
هاتيك هاتيك على مثلها　　حام ولاب الحائــم اللائب
والنقْــلُ والريحــانُ من شأنهم　　فلا يَعِــبْ فقــدَهما عائب
ولا تنــمْ عن نرجس مؤنس　　يضحــك عنــه الزمــنُ القاطبُ
ريحــانُ روحٍ مُنْهــبٌ عِطْرَه　　والــروحُ إذ ذاك هو الناهب
لم يلفــح الصيفُ له صفحةً　　ولا سقــاه عوده الشاسب .(١)
وزَخــرفِ البيتَ ، كما زُخرفتْ　　روضــة حَزْنٍ جادهــا هاضب
واجلــبْ لهــم حسنــاءَ في شدوها　　ـ لــكل ما سرَّهُــمُ ـ جالب

---

(١) اليابس

محسنـــةً ليســـت بخطاءة طائرهـــا الهـــادل لا الناعب
بيضـــاء خوداً ردفهـــا ناهدٌ غيداء روداً ثديهـــا كاعب
مملـــوكةً بالسيف مغصوبةً لهـــا دلالٌ مالكٌ غاصب
تستوهـــب الجيد إذا اتلعت من ظبيةٍ افزعهـــا طالب
نعيم من نادمهـــا دائمٌ وبـــرح من فارقهـــا واصب
كأنهـــا والبيت مستضحكٌ والعـــود في قبضتهـــا صاخب
ادمانـــةٌ تنـــزب في روضةٍ جاوبهـــا خشفٌ لهـــا نازب[1]
واصبـــب عليهـــم تحفـــاً جمةً يحمـــى بهـــن الموعـــدُ الكاذب
واغـــرم لهـــم من بعـــد ذا كله ما نل الملاحُ والقاربُ
وتـــب من الذنـــب الـــذي جئته فقـــد يقـــال[2] المذنـــب التائب
كيما يقولـــوا حـــين ترضيهم : يا حبـــذا المنهـــزم الثائب

***

أعتـــب ليوم صالـــحٍ فيهم ليس على امثالـــه عاتب
ولا يكن يومـــاً إذا ما انقضى صيح به : لا رجـــع الذاهب
عجـــلْ لهـــم ذاك ولا تهجهم ولا يثـــب منـــك بهـــم واثب
فليس من يأدبُ اخوانه مؤدبـــاً للقـــوم بل آدب
اخلفنـــا نوءك موعوده فلا تصبنـــا ريحـــك الحاصب
حاشـــاك أن يلقـــاك مستمطر ومزنـــك الصاعـــق لا الصائب

اللوزنج

(وهو حلواء تشبه القطائف تؤدم بدهن اللوز)

لا يخطئني منـــك لوزينّج اذا بدا اعجـــب او عجبا
لم تغلـــق الشهـــوةُ ابوابها إلا أبـــتْ زُلْفـــاه أن يحجبا
لو شاء أن يذهـــب في صخرةٍ[3] لسّهل الـــطيبُ له مذهبا
يدور بالنفخـــة في جامه دوراً ترى الدهـــن له لولبا
عاون فيه منظـــرٌ مخبراً مستحســـن ساعـــد مستعذبا

---

(١) غزالة تصوت فيجاوبها ولدها ـ كناية عن مجاوبة العود لغناء المغنية
(٢) يغفر له
(٣) شمع العسل او قشر البيض

كالحسن المحسِن في شدوه ... تم فأضحى مطرباً مضربا
مستكثف الحشو ولكنه ... أرق قشراً من نسيم الصبا
كأنما قدّت جلابيبهُ ... من أعين القطر الذي قبا
يخال من رقة خرشائه[2] ... شارك في الأجنحة الجندبا
لو أنه صوِّر من خبزه ... ثغرٌ لكان الواضح الأشنبا
من كل بيضاء يحب الفتى ... ان يجعل الكفَّ لها مركبا
مدهونة زرقاء ، مدفونة ... شهباء ، تحكى الأزرق الأشهبا
ملذَّعين وفمٍ ، حسنت ... وُطيبت حتى صبا من صبا
ذيق لها اللوز فلا مرةٌ ... مرت على الذائق الا ابى
وانتقد السكر نقاده ... وشاوروا في نقده المذهبا
فلا إذا العينُ رأتها نبتْ ... ولا إذا الضرس علاها نبا

الشبوط

فلا يبعد الشبوط من متلبّسٍ ... ظهارته الحسنى ، ومن متجرد
إذا نش في سفّوده عند نصجه ... واخرج من سرباله المتوَرِّد
فتي رعى مرعى بدجلة مخصباً ... أبى أن يراه زائدٌ غير محمد
إلى أن اصابته من الدهر نوبة ... وقد صار اقصى منية المتجوّد
فأصدره الصيادُ عن خير موردٍ ... وأورده الشواء اخبثَ مورد
وجاء به الحمال اطيبَ مطعمٍ ... إلى الطيب المنفاق غير المصرَّد
ويا حبذا امعاننا فيهِ ناضجاً ... كما جاء من تنوره المتوقد
واني لمشتاقٌ الى عود مثله ... وإن كنتُ أبدي صفحةَ المتجلد

الدجاجة

وسميطةٍ صفراءَ ديناريةٍ ... ثمناً ولوناً زفها لك حزْوَرَ[1]
عَظمت فكادت أن تكون اوزة ، ... ونوتْ فكاد اهابها يتفطر
ظلنا نقشر لحمها عن جلدها ... وكأن تبراً عن لجين يقشر

---

(٢) وفي رواية صحنة صحنة

(١) غلام حزور بلغ القوة

الفواكه

(فواكه ايلول)

لولا فواكه أيلـول إذا اجتمعت   من كل نوعٍ ورقّ الجـوُّ والماء
إذاً لما حفلـت نفسي متـى اشتملت   عليَّ هائلـة الجالـين غبراء

(الموز)

إنـه (الفـوزُ) مثـل ما فقـده (المو   تُ) لقـد بان فضلـهُ لاخفاءَ
ولهـذا التـأويل سماه (موزاً)   من افـاد المعانـيَ الأسماء
ربِّ فاجعلـه لي صبوحـا وقيلاً   وغبوقـاً ومـا أسـأتُ الغذاء
وأرى - بل أبـتُّ - أن جوابي :   « لا تغالـط ، فقـد سألـتَ البقاء »
نكهـةٌ عذبـةٌ وطعـمٌ لذيذٌ   شاهـدا نعمـةٍ على نعماء
لو تكون القلـوبُ مأوى طعام   نازعتـه قلوبنـا الاحشاء
أننـي للحقيق بالشبـع السائـغ من اكلـه وإن كان ماء

كرمة العنب الرازقي

ورازقـيٍّ مخـطف الخصور   كأنـه مخـازن البلور
لم يبـق منـه وهـج الحرور   إلا ضياء في ظروف نور
لو أنـه يبقـى على الدهور   قرّط آذان الحسـان الحور
له مذاق العسـل المشور   ونكهـة المسـك مع الكافور

وبردُ مسّ الخصرِ المقرور

باكرتـه والطـير في الوكور   - وعـذر اللـذات في البكور -
بفتيةٍ من ولـد المنصور   امـلأ للعـين من البدور
حتـى أتينـا خيمـة الناطور   قبـل ارتفـاع الشـمس للذرور
فانقض كالطـاوي من الصقور   بطاعـة الراغـب لا المجبور

ثم جلسنا مجلس المحبور　　على حفافي جدولٍ مسجور[1]
أبيض مثل المهرق المنشور　　او مثل متن المنصل المشهور
ينساب مثل الحية المذعور　　بين سماطيْ شجرٍ مسطور
فنيلت الأوطار في سرور
وكلّ ما نقضي من الأمور　　تعلةٌ عن يومنا المنظور
ومتعةٌ من متع الغرور

النساء

أجنتْ لك الوجد اغصان وكثبانُ ... فيهن نوعان تفاح ورمانُ[1]
وفوق ذينك اعناب مهدّلة ... سود لهن من الظلماء الوان[2]
وتحت ذلك عُناب تلوح به ... أطرافهن قلوب القوم قنوان[3]
غصون بانٍ عليها ـ الدهر ـ فاكهة ... وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات ساري الطل يضربه ... واقحوان منيرُ النور ريان[4]
ألفن من كل شيء طيبٍ حسنٍ ... فهن فاكهة شتى وريحان
ثمارُ صدق اذا عاينت ظاهرها ... لكنها حين تبلو الطعم خطبان[5]
بل حلوة مرة ، طوراً يقال لها ... شهد ، وطوراً يقول الناس ذيفان[6]
يا ليت شعري ـ وليت غير مجديةٍ ... الا استراحة قلبٍ وهو أسوان ـ
لأي امرٍ مرادٍ بالفتى جمعت ... تلك الفنون فضمتهن افنان ؟
تجاورت في غصونٍ لسن من شجر ... لكن غصون لها وصل وهجران
تلك الغصون اللواتي في اكمتها ... نعم وبؤس وافراح واحزان
يبلو بها الله قوماً كي يبين له ... ذو الطاعة البر ممن فيه عصيان
وما ابتلاهم لأعناتٍ ولا عبثٍ ... ولا لجهلٍ بما يحويه ابطان
لكن ليثبت في الأعناق حجته ... ويحسن العفو ، والرحمان رحمان
ومن عجائب ما يمنى الرجال به ... مستضعفات لنا منهن اقران
مناضلات بنبل لا يقوم له ... كتائب الترك يزجيهن خاقان
مستظهرات برأي لا يقوم له ... قصيرُ عمروٍ ، ولا عمروٌ وَوردان
من كل قاتلة قتلى ، وآسرةٍ ... اسرى وليس لها في الأرض اثخان

---

١) (الاغصان) اشارة الى القدود و(التفاح) الخدود والرمان النهود
(٢) كرم الاعناب اشارة الى مسترسل الشعور
(٣) (العناب) البنان المخضوب
(٤) النرجس) اشارة الى الاعين و(الاقحوان) للثغور الناصعة الثنايا
(٥) جمع اخطب مر ويقال ا و من نقيع الخطبان
(٦) سم

يولــين ما فيه اغــرام ، وآونة   يولــين ما فيه للمشغــوف سلوان
ولا يدمن على عهـد لمعتقد   انــي ؟ وهــن كما شبهــن بستان
يميل طوراً بحمــلٍ ثم يعدمه   ويكتسي ثم يلفــى وهــو عريان

امتزاج روحين

أعانقهــا ، والنفس بعــد مشوقة   اليهـا : وهـل بعـد العنـاق تدان ؟
وألثــم فاهــا كي تمــوت حزازتي   فيشتـد ما القــى من الهيمان
وما كان مقدار الـذي بيّ من جوى   ليشــفيَه ما ترشف الشفتان
كأن فؤادي ليس يشفــى غليله   سوى أن يرى الروحــين تمتزجان

لمحة التوديع

ركب كعابٍ في حجابٍ لم تزل ،   مثــل الغــزال عنقــاً ومكتحل
لم تكتحــل مقلتهــا سوى الكحل   ولا تحلى جيدهــا سوى العطل
ما زلــت منهــا في مطــال وعلل   حتــى اذا ما قدر البــين نزل
جلســتُ منهــا نظـر ة على وجل   آخرهــا اولهــا من العجل
ثم أجنّتها غيابات الكلل

الشباب الراحل

أبــين ضلوعــي جمــرة تتوقد   على ما مضى ؟ ام حسرة تتجدد ؟
خليلي ما بعــد الشبــاب رزية   يجــم لهــا ماء الشــؤ ون ويعتد
فلا تلحيا إن فاض دمــعُ لفقده   فقــلٌ له بحــرٌ من الدمــع يثمد
ولا تعجبا للجلــد يبــكي ، فربما   تفطــر من عــين من الماء جلمد
شبــاب الفتــى مجلــوده وعزاؤ ه   فكيف ؟ وأنــى ؟ بعــده يتجلد
وفقد الشباب الموت ، يوجد طعمه   صراحاً ، وطعم الموت بالموت يفقد
رزئــت شبابــي عودة بعــد بدأة   وهــن الــرزايا بادئــات وعود
سلبــت سواد العارضــين وقبله   بياضــهما المحمــود اذ انــا أمرد
وبدلــت من ذاك البياض وحسنه   بياضــاً ذميٍ لا يزال يسود
لشتـان ما بـين البياضـين : معجبٌ   انيقٌ ، ومشنــوء إلى العــين أنكد

تضاحــك في افنــان رأسي ولحيتي ... واقبــح ضحــاكين شيبٌ وأدرد
وكنــتُ جلاء للعيون من القذى ... فقـد جعلـت تقـذى بشيبـي وترمد
هي الأعينُ النجل التي كنتَ تشتكي ... مواقعها في القلب ، والـرأس اسود
فما لك تأسى الآن لما رأيتها ... وقــد جعلــت مرمــى سواكَ تعمد
تشـكى إذا ما اقصدتــك سهامها ... وتــأسى اذا نكبــن عنــك وتكمد
كذلك تلك النبــلُ مَنْ وقعــت به ... ومـن صرفتْ عنه منالقوم مُقصد
إذا عدلــتْ عنــا وجدنــا عدولها ... كموقعها في القلب ، بل هو أجحد
تنــكب عنــا مرةً ، فكانما ... منكبهــا عنــا الينــا مسدد
كفــى حزنــاً ان الشبــاب معجلٌ ... قصــيرُ الليالي ، والمشيب مخلد
اذا حل ، جاري المرء شأوَ حياته ... الى ان يضــم المرءَ والشيب ملحد
ارى الدهــر أجــرى ليلــه ونهاره ... بعــدلٍ ، فلا هذا ولا ذاك سرمد
وجــار على ليلِ الشبــاب فضامه ... نهــار مشيبٍ سرمــد ليس ينفد
وعــزاك عن ليل الشبــاب معاشر ... فقالــوا نهار الشيب اهــدى وارشد
وكان نهــار المرء اهــدى لسعيه ... ولــكنَّ ظلَّ الليل انــدى وأبرد
أأيام لهــوي هلْ مواضيك عوَّدٌ ؟ ... وهل لشبــابٍ ضل بالأمس منشد ؟
أقول وقد شابت شواتــي ، وقوست ... قناتي ، واضحت كدنتــي[٣] تتخدد
ودبَّ كلالٌ في عظامــي ادبَّني ... جنيب العصــا انــاد او أتأيَّد
وبــورك طرفي ، فالشخـوص حياله ... قرائن ـ من أدنــى مدى ـ وهــي فرَّد
ولذَّت احاديثي الرجال ، واعرضت ... سليمــي وريا عن حديثــي ومهدد
وبــدل اعجــاب الغوانــي تعجبا ... فهــن روان يعتبــرن وصدد
لما تؤذن الــدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفــل ساعــة يولد
والا فما يبــكيه منهــا وإنها ... لافســح ممــا كان فيه وأرغد
إذا أبصر الــدنيا استهــل كأنه ... بمــا سوف يلقــى من أذاهــا يهدد
وللنفس أحــوال تظــل كأنها ... تشاهــد فيهــا كل غيبٍ سيشهد

---

(١) الادرد من ذهبت اسنانه
(٢) مصاب
(١) اللحم ال المكتنز

* * *

لعبت بأولى الدهر ، فاغتال شرتي   باخرى حقود ، والجرائم تحقد
فصبراً على ما اشتد منه ، فانما   يقوم لما يشتد من يتشدد
يذيق الفتى طورَي رخاءٍ وشدةٍ   حوادثه ، والحول بالحول يطرد
ومالي عزاء عن شبابي علمته   سوى أنني من بعده لا اخلد
وأن مشيبي « واعد » بلحاقه   وإن قال قوم انه « يتوعد »

دمعة على الشباب

لا تلح من يبكي شبيبته   الا إذا لم يبكها بدم
عيبُ الشبيبة غولُ سكرتها   مقدار ما فيها من النعم
لسنا نراها حق رؤ يتها   الا زمان الشيب والهرم
كالشمس لا تبدو فضيلتها   حتى تغشى الأرض بالظلم
ولرب شيء لا يبينه   وجدانه الا مع العدم

حلم زائل

رأيت سواد الرأس واللهو تحته   كليلٍ وحلم بات رائيه ينعم
فلما اضمحل الليل زال نعيمه   فلم يبق الا عهده المتوهم

مصرع

ابي الحسين يحيى من أحفاد علي

أمامــك فانظــر أيِ نهجيك تنهجُ ... طريقــان شتـى : مســتقيم واعوجُ
ألا أيهــذا النــاسُ طال ضريرُكم ... بآل رسول الله فاخشــوا ، او ارتجوا
أكل أوانٍ للنبـي محمد ... قتيلٌ زكي بالدمــاء مضرج
تبيعــون فيه الــدين شر ائمةٍ ... فللــه دينُ الله ، قد كان يمرج[1]
بين المصطفى! كم يأكل الناس شلوكم ... لبلــواكم - عما قليل - مضرَّج
امــا فيهــم راع الحــق نبيه ... ولا خائف من ربــه يتحرَّج
لقـد عمهـوا ما انــزل الله فيكم ، ... كأن كتــاب الله فيهم مُمَجْمَجُ[2]
الا خاب من أنســاه منــكم نصيبه ... متــاعٌ من الــدنيا قليلٌ وزبرج
ابعــد المكنــَّى بالحســين شهيدكم ... تضيء مصــابيح السماء فتسرج
لنــا وعلينــا - لا عليه ولا لهُ - ... تسحســح اسراب الدمــوع وتنشج
وكيف نبــكي فائــزاً عنــد ربه ... له في جنــان الخلــد عيشٌ مخرفج[3]
وقــد نال في الــدنيا سنــاءً وصيتةً ... وقــام مقامــاً لم يقمــه مزلج[4]
فان لا يكن حياً لدينــا ، فانه ... لدى الله حي في الجنــان مزوج
وكنــا نرجّيهِ لكشف عمايةٍ ... بامثالــه امثالهــا تتبلج
فساهمنــا ذو العــرش في ابــن نبيه ... ففــاز به ، والله اعلى وافلج
أيحيى العلى لهفــي لذكراك لهفةً ... يبــاشر مكواهــا الفــؤاد فينضج
لمن تستجــد الأرض بعــدك زينةً ... فتصبــح في اثوابهــا تتبرج ؟
سلامٌ وريحــان وروح ورحمة ... عليك ، وممدود من الظــل سجسج
ولا برح القــاع الــذي أنــت جاره ... يرف عليه الاقحــوان المفلج

---

(١) مرج الدين اضطرب وقد
(٢) مجمج الكتاب لم يبين حروفه ولم يفد به
(٣) عيش واسع ناعم
(٤) زلج فلا لا تقدم

ويا اسفي الا ترد تحيةً سوى أرج من طيب رمسك يارج
ألا إنما ناح الحمائم بعد ما ثويت ، وكانت قبل ذلك تهزج .
ألا أيها المستبشرون بيومه اظلت عليكم غمةٌ لا تفرّج !
اكلكم امسى اطمأن مهاده بأن رسول الله في القبر مزعج !
فلا تشتموا وليخسأ المرء منكم بوجه كأن اللون منبه اليرندج[1]
فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم[2] غداة التقى الجمعان والخيل تمعج

لاعطى يد العاني ، أو ارتدَّ هارباً كما ارتدَّ بالقاع الظليمُ[3] المهيَّج

ولكنه مازال يغشى بنحره شبا الحرب حتى قال ذو الجهل : أهوج
وحاش له من تلكم ، غير إنه أبى خطة الأمر الذي هو أسمج
وأين به عن ذاك ؟ لا أين - إنه إليه بعرقيه الزكيين مُحرج
كأني به كالليث يحمي عرينه وأشباله لا يزدهيه المهجهج
تداب عليٍّ في المواطن قبله أبي حسن والغصن من حيث يخرج

كأني اراه اذ هوى عن جواده وغفَّر بالترب الجبين المشجج
فحب به جسماً إلى الأرض اذ هوى وحب بها روحاً الى الله تعرج
أأرديتم يحيى ! ولم يطو ايطل[4] طراداً ولم يدبر من الخيل منسج
تأتت لكم فيه منى السوء هينةً وذاك لكم بالغي اغرى والهج
تمدون في طغيانكم وضلالكم ويستدرج المغرور منكم فيدرج

اجنوا بي العباس من شنآنكم
وأوكوا[5] على ما في العياب واشرجوا[6]

---

(١) جلد او طلاء اسود
(٢) فلو نزل يحيي بن الحسين لمعترك وقلبه متخوب كقلب ابيكم لسل نفسه للاسر او لولي هار با
(٣) ذكر النعام
(٤) الا يطل الخاصرة والمنسج ما بين العرف وموضع اللبد
(٥) اوكى القربة شدها بالوكاء
(٦) اشرج الخريطة داخل بين شراجها وشدها

وجلـوا رلاة الســوء منــكم وغيهم ... فاحـر بهـم ان يغرقـوا حيث لجّجوا
نظارلـكم أن يرجــع الحــق راجعٌ ... الى أهله يوماً ، فتشجـوا كما شجوا
على حــين لا عذرى لمعتذريكمُ ... ولا لكم من حجــة الله مخرج
فلاتلقحــوا الآن اللواقــح بينكم ... وبينهـــم ، ان اللواقــح تنتج
غررتـم لأن صدقتـم ان حالة ... تذوم لكم ، والدهـر لونـان أخرج
لعـل لهـم في منطـوى الغيب ثائراً ... سيسمو لكم والصبح في الليل مولج
بمجــرٍ تضيق الأرض من زفراته ... له زجل ينفي الوحـوش وهزمج(١)
اذا شيم بالأبصــار ابــرق بيضه ... بوارق لا يسطيعهــن المحمج(٢)
توامضه شمس الضحــى ، فكأنما ... يرى البحــر في اعراضــه يتموج
يؤ يده ركنــان ثبتــان : رجله ... وخيل ـ كأرسـال الجـراد ـ واوثج(٣)
عليهــا رجــال كالليوث بسالةً ... بأمثالهــا يثنــى الأبـي فينعج(٤)
تدانوا ، فما للنقـع فيهـم خصاصة ... تنفســه عن خيلهــم حــين ترهج
فلو حصبتهــم بالفضــاء سحابة ... لظــل عليهــم حصبهــا يتدحرج
كأن الزجــاج اللهــذميات فيهم ... فتيلٌ باطــراف الرديـنـي مسرج
يود الــذي لاقــوه ان سلاحه ... هنــالك خلخــال عليه ودملج
فيدرك ثأر الله انصــار دينه ، ... ولله اوسٌ آخــرون وخزرج
ويقضي « امام الحـق » فيكم قضاءه ... تماماً ، ومــا كل الحوامــل تخدج
تطعن خوف السبـى ـ بعـد اقامة ـ ... ظعائــن لم يضرب عليهــن هودج

* * *

مهٍ ! لا تعــادوا غرة البغــي بينكم ... كما يتعـادى شعلـة النــار عرفج(٥)
أفي الحق أن يمسـوا خماصاً ، وانتم ... يكاد اخــوكم بطنــةً يتبعج
تمشّــون مختالــين في حجراتكم ... ثقــال الخطــى اكفالــكم تترجرج
وليدهُمُ بادي الضوى ، ووليدكم ... من الــريف ريان العظــام خدلج

---

(١) الهزمجة اختلاط الصوت

(٢) المحدق النظر

(٣) اواثج اي اشد كثافة والتفا ة

(٤) من عنج الراكب البعير جذبه بخطا مة ليقف .

(٥) نبات سهل

بنفسي الالى كظتهم حسراتكم ... فقدعلزوا - قبل المات وحشرجوا[1]
وعيرتموهم بالسواد ، ولم يزل ... من العرب الامحاض اخضر ادعج
ولكنكم زرقٌ ، يزين وجوهكم ... بني الرومِ ! الوانٌ من الروم نعّج
ابى الله الا أن يطيبوا وتخبثوا ... وأن يَسبقَوا بالصالحات ويفلجوا
وإن كنتم منهم وكان ابوكم ... اباهم ، فإن الصفو بالرنق يمزج

* * *

لعمري لقدأغرى القلوب ابن طاهرٍ ... ببغضائكم ما دامت الريحُ تُنأج[2]
سعى لكم مسعاة سوء ذميمةً ... سعى مثلها مستكره الرجل اعرج
فلن تعدموا - ما حنّت النيبُ - فتنةً ... تحش كما حش الحريق المؤجج
وقد بدأت - لو تزجرون بريحها - ... بوائجها من كل أوب تبوّجٍ[3]
بني مصعب ! ما للنبي واهله ... عدوٌ سواكم - افصحوا او فلجلجوا
دماء بني عباسكم وعليهم ... لكم كدماءالترك والروم تهرج
يلي سفكها العوران والعرج منكم ، ... وغوغاؤكم جهلاً بذلك تبهج
وما بكم أن تنصروا أولياءكم ... ولكن هناتٌ في القلوب تنجنج[4]
ولو أمكنتكم في الفريقين فرصة ... لقد بينت اشياء تلوى وتحنج
إذن لاستقدتم منهما وتر فارسٍ ، ... وإن ولياكم . فالوشائج اوشج
أبىأن تحبُوهم ، يد الدهر ، ذكركم ... ليالي لا ينفك منكم متوّج
وأني على الاسلام منكم لخائفٌ ... بوائق شتى ، بابهُا الآن مرتج
وفي الحزم أن يستدرك الناسُ أمركم ... وحبلهم مستحكم العقد مدمج

* * *

نظارِ فان الله طالب وتره ... بني مصعبٍ ، لن يسبق الله مدلج
لعل قلوباً قد اطلتم غليلها ... ستظفر يوماً بالشفاء ، فتثلج

---

(١) علز احده القلق او الهلع
(٢) أجت الريح اشتدت
(٣) البوائج الدواهي
(٤) تتردد وتتحير

بطل الشطرنج
(في أبي القاسم التوزي الشطرنجي)

يا أخـي يا أخـا الدماثـة والرقة ... والظـرف والحجـى والدهاء
اتـرى الضربـة التـي هي غيب ... خلف خمسـين ضربـةٍ في وحاء
ثاقـب الـرأي نافـذ الفـكر فيها ... غـير ذي فتـرة ولا ابطاء
ويلاقيك سبعـةٌ فيظلو ... ن على ظهـر آلـة حدباء
تهـزم الجمـع أو حدياً وتلوي ... بالصنـاديد ايمـا إلواء
وتحط الرخـاخ بعـد الفـرازين فتزد ... اد شدة استعلاء
ربمـا هالنـي وحـير عقلي ... اخـذك اللاعبـين بالبأساء
ورضاهم هنـاك بالنصف والربع ، ... وادنـى رضـاك في الارباء
واحتـراس الدهـاة منـك واعصا ... فك بالاقـوياء والضعفاء
عن تدابـيرك اللطـاف اللواتي ... هن اخفـى من مسـتسر الهباء
بل من السر في ضمـير محب ... ادبتـه عقوبـة الإفشاء
فاخـال الـذي تدير على القو ... م حروبـاً دوائـر الأرحاء
وأظـن افتراسـك القـرن فالـ ... ـقـرن منـايا وشيكة الارداء
وارى ان رقعـة الأدم الاحمر ... ارضٌ عللتهـا بدماء
غلـط النـاس لسـت تلعـب بالشـ ... ـطرنـج لكن بأنفس اللعباء
انـت جديهـا ، وغـيرك من يلعب ... ان الرجـال غـير النساء
لك مكر يدب في القـوم اخفى ... من دبيب الغـذاء في الاعضاء
أو دبيب الملال في مستهامين ... الى غايةٍ من البغضاء
أو مسير الفضـاء في ظلـم الغيب ... إلى من يريده بالتواء
او سرى الشيب تحـت ليل شباب ... مستحـير في لمة سحماء
دب فيهـا لهـا، ومنهـا اليها ... فاكتسـت لون رثـةٍ شمطاء
تقتـل الشـاه حيث شئت من الرقـ ... ـعـة طبـا بالقتلـة النكراء
غـير ما ناظـرٍ بعينيك في الدسـ ... ـت ولا مقبـل على الرسلاء
بل تراهـا وانـت مستـدبر الظهـ ... ـر بقلـب مصـور من ذكاء

ما رأينـــا سواك قرنــاً يولِّي   وهـــو يردي فوارس الهيجاء
رب قومٍ رأوك ريعــوا فقالوا   هل تكون العيون فِي الاقفاء
والفـؤاد الـذكي للمطـرق المعرض   عـــينٌ يرى بهـــا من وراء
تقــرأ الدســـت ظاهـــراً فتؤديه   جميعـــاً كأحفـــظ القراء

(في يحي بن علي المنجم)

ربّ أكرومــةٍ له لم نخلها قبلــه في الطبــاع والتركيب
غرّبتــهُ الخلائــقُ الزهــر في النـ ـناس ، ومــا أوحشتــه بالتغريب
المعــيٌّ يرى بأول ظنّ آخــر الأمــر من وراء المغيب
لا يروّي ولا يقلّــب كفاً ، وأكفُّ الرجــال في تقليب
يدرك الطّلّــبَ بالبديهــة دون العقـ ـب ، قبــل التصــعيد والتصويب
حازم الــرأيِ ليس من طول تجر يب ، لبيب وليس عن تلبيب
لــينّ عطفُــه فإن ريم منه مكسرُ العــود كان جدّ صليب

في القاسم

عجبــتُ لمن حزْمُــه حزْمُه تكون يداه يدي حاتمِ
عجبــت لمن جوده جوده تكون له عقــدةُ الحازم
عجبــت لمن حلمــه حلمه تكون له صولــة الصارم
عجبــت لمن حدّه حدَّه تكون له رأفــة الراحم
أرى كل ضدٍّ إلى ضدّه من الخــير في طبعــه السالم

(عتب على سوء مقابلة)

قرأتُ في وجهك عنوانا آذنني بالغدر أيذانا
تاللـه ـ أنسى ما ذكرتُ الصبى بل ما ذكرت اللـه لهفانا ـ
يومَ التقينا فتجهمتني تجهّمَ المديون ديّانا
وكيف أنسىٰ ذاك مستيقظاً ولستُ أنسى ذاك وسنانا
طلعتَ من بعدٍ فأوهمتني أنك قد عاينتَ شيطانا
لاقيتني ساعةَ لاقيتني أثقَل حلق اللـه أجفانا
كأنما كنتَ تضمنتَ لِي ردَّ شبابي كالذي كانا
أو كلّ ما لم يستطع فعلَه عيسى ولا موسى بن عمرنا
يا حسن الوجه لقد شنته فاضممْ إلى حسنك إحساناً
أنت ملولٌ خائلٌ عهدهُ تصبغك الساعات ألوانا
تصرم ذا الوصل، وتضحي إلى من يجتوي وصلك ظمآنا
حتى إذا واصَلَ، صارمته أو سُمتَه صداًّ وهجرانا
وتستلين الدهر ذا خشنةٍ فظًّا، وتستخشن من لانا
وتعقد الوعد، فانجازُه خُلفُ إذا إنجازُه آنا
حتى إذا أنجزته مرةً مننتَه سرًّا وإعلانا
وما أحبُّ الواعدي مخْلفاً، كلا، ولا الممتنَّ منّانا
حذَّرتني الناس فقد أصبحت نفسَي لا تألف إنسانا
أهنتني جداً فأعززتني ربّ امرىء عزّ بأن هانا

(الى آل وهب)

تخذتكم درعاً وترسا لتدفعوا نبال العدى عني فكنتم نصالها
وقد كنتُ أرجو منكم خير ناصر على حين خذلان اليمين شمالها
فإن أنتم لم تحفظوا لمودتي ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها
قفوا موقف المعذور عني بمعزل وخلّوا نبالي والعدا ونبالها
هي النفس إما أن تعيش بغبطة وإلا فغنم أن تزول زوالها

طلبــتُ لديكم بالعتــاب زيادةً وعطفــاً فأعتبتــم بإحــدَى البوائق
فكنــت كمستســقٍ سماءَ مخيلةٍ حياً ، فأصابتـه بإحــدى الصواعق

(الى القاسم)

أأحيتينـــي بالأمس ثم تميتني برفضي وإقصائي ، وحقَي أن أُدْنَى
ولــو أننــي أحييتُ ميتــاً عشقته لحسن الذي أثّـرتُ فيه من الحسنى

شيء ليس له وجود

قل لابن بوران ـ إن كان ابن بوران ... فإن شكّي فيه جلٌّ إيماني :
يا باطلاً أوهمتْنيه مخايلهُ ... بلا دليلٍ ولا تثبيت برهان
ما أنت إلا خيالٌ طاف طائفه ... وما هجائيك إلا هجرُ وسنان
قد كنتُ أحسبه شيئاً فأهجوَه ... حتى أزاح يقيني فيه حسباني

(في اسماعيل بن بلبل)

صبراً أبا صقرٍ فكم طائر ... خرّ صريعاً بعد تحليقِ
زُوّجت نعمى لم تكن كفؤها ... فصانها الله بتطليق
وكلٌّ نعمى غيرُ مشكورةٍ ... رهنَ زوالٍ بعد تمحيق
لا قدّستْ نعمى تسربلتها ... كم حجةٍ فيها لزنديق

كيمياء الجد

عجب الناس من أبي الصقر اذولّـ ... ـيَ بعد « البطالة » الديوانا
ولعمري ماذاك أعجب من أن ... كان علجاً فصار من شيبانا
إن للجد كيمياء اذا ما ... مسّ كلباً أحاله انسانا
يفعل الله ما يشاء ، كما شا ... ء ، متى شاء ، كائناً ما كانا

تأبين !!

أقول اذ هتف الداعي بمصرعه ... لبيك ! لبيك ! من داعٍ بتبيين
نعيتَ من جمدت غزر العيون له ... فلم تفض عبرةٌ من عين محزون
ومن يقنّ له الداعي بمغفرةٍ ... وينشد الناسُ فيه بيت يقطين
فان تصبك من الأيام جائحة ... لم نبك منك على دنيا ولا دين
يا منكراً ونكيراً أوجعاه فقد ... خلّوتما بقليل الخير ملعون
بعداً وسحقاً له من هالكٍ نطفٍ ... مشوّه الخلق من نسل الشياطين

اعتزال الهجاء

يا من قسا لما شكوت إلى تطوّله زماني
واعتدّني ـ لما رخصتُ عليه من سقط المعاني
سأصون مالك عن يدي وأصون عرَضك عن لساني
آليتُ لا أهجو طوال الدهر الا من هجاني
لا بلْ سأطّرح الهجاء وإن رماني من رماني
أمنَ الخلائقُ كلهم فليأخذوا مني أماني
حلمي أعز عليَّ من غضبي اذا غضبي عراني
فلأصبرنّ وأكظمنّ وإن لظى غيظي كواني
لكنني سأحبّ نفسي إذ قلاني من قلاني
وأريدها كلَّ الارادة إذ أباني من أباني
وأرى مكاني إن تعامَى مَنْ تعامَى عن مكاني
حتى يراني الله كيفَ صيانتي قدري وشاني
ويعولني فعيالتي حق عليه كما براني
وليَغْذُوَنّي بالكرامةِ إنه قدْماً غذاني
وسأستعين على الفراقِ الصبرَ إن شوق دعاني

يصف نفسه

مَنْ كان يبكي الشباب من جزعٍ فلستُ أبكي عليه من جزع
لأن وجهي بقبح صورته ما زال بي كالمشيب والصلع
إذا أخذت المرآة ، سلمني وجهي ـ وما مُتُّ ـ هولَ مطَّلعي
شعفتُ بالخرّد الحسان وما يصلح وجهي إلاّ لذي ورع
كي يعبد الله في الفلاة ولا يشـ ـهد فيه مساجد الجمع

أكول

وأما يد البصري في كل صفحةٍ فأقلعُ من سيل وأغرفُ من رفشٍ[1]
أأوعده بالشعر وهو مسلَّطٌ على الأنس ثم الجان والطير والوحش
ألمْ أرهُ لو شاء بَلْعَ تهامةٍ وأجبالها ، طاحتْ هناك بلا أرْش[2]
على أنه ينعى إلى كل صاحب ضروساً له تأتي على الثور والكبش
يخبِّر عنها أن فيها تثلماً وذلكُم أدهى وأوكد للجرش
ألم تعلموا أن الرحا عند نقرها وتجريشها تأتي على الصلب والهشّ
فلا تقبلوا ذاك التفارقَ ، واحذروا شباه ، ولو أمسى مسجًّى على نعش

مقارنة

وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلاب طول
مقابح الكلب فيك طرًّا يزول عنها ولا تزول
وفيه أشياءُ صالحاتٌ حماكها الله والرسول
والكلب وافٍ وفيك غدرٌ ففيك عن قدره سفول
وقد يحامي عن المواشي وما تحامي ولا تصول
وأنت من بيتِ أهل سوءٍ قصّتهم قصةٌ تطول

---

(١) الرفش ما يجرف به التراب
(٢) الأرش الدية

وجوههم للورى عظاتٌ لكنّ أقفاءَهم طبول
نستغفر اللـه قد فعلنا ما يفعل المائق الجهول
ما إن سألناك ما سألنا إلا كما تسْأل الطلول
صمَّتْ وعيَّتْ فلا خطابٌ ولا كتابٌ ولا رسول
مستفعلنٌ فاعلن فعول مستفعلنٌ فاعلن فعول
بيتٌ كمعناك ليس فيه معنى سوى أنه فضول

الغث السمين

لنا صديق كلا صديقٍ غثٌّ على أنه سمينُ
من أقبح الناس ، لا أحاشي من كان منهم ومن يكون
إذا بدا وجهه لقومٍ لاذت بأجفانها العيون
كأنه عندهم غريمٌ حلّت عليهم له ديون
وهو على ما وصفتُ منه متّهمٌ ودُّه ظنين

كبرياء الحجاب

وكم حاجبٍ غضبان كاسر حاجب محا اللـه ما فيه من الكسر بالكسر
عبوس إذا حييتُه بتحية فيا لك من كبر ومن منطق نزر
يظلّ كأن اللـه يرفع قدره بما حط من قدري وصغر من أمري
إذا ما رماني عاد أعمى بلا عمى وصُمّ سميعاً ما بأذنيه من وقر
ومن شيم الحجاب أن قلوبهم قلوبٌ على الآداب أقسى من الصخر
يخافون أن يحظى سواهم بحظهم فهم من سؤ ال السائلين على وحر

(ثقيل)

كان للأرض مرة ثقلان فلها اليوم ثالثٌ بفلان
أتقي غصة اسمه عِلم اللـهُ فأُكني عن ذكره بالمعاني
يا ثقيل الثقال أقذيت عيـ ـني ليت أني كما أراك تراني
من يكن عانياً بحب حبيب ففؤادي ببغضك اليوم عاني

(بارد ثقيل)

يا أبا القاسم الذي ليس يُدْرَى أرصاص كيانُه أم حديد
أنت عندي كماء بئرك في الصيـ ـفِ ثقيل يعلوه بردٌ شديد

(في أخرق)

وأخرق تضرمه نفخة سفاهاً وتطفئه تَفْلَهْ
فأخلاقه تارة وعرة وأخلاقه تارة سهلَه

أصدقاء كثيرو السلام

ولي أصدقاء كثيرو السلا مِ عليَّ وما فيهم نافع
إذا أنا أدلجتُ في حاجة لها مطلب نازحٌ شاسعُ ،
فلي أبداً معهم وقفةٌ وتسليمة وقتُها ضائع
وفي موقف المرء عن حاجةٍ تيمّمها شاغلٌ قاطع
ترى كل غثٍ كثير الفضو ل ، مصحفُه مصحفٌ جامع
يحدثني من أحاديثه بما لا يلذ به السامع
أحاديث هن كمثل الضريـ ـع ، آكلُه أبداً جائع
أولئك لا حيُّهم مؤنسٌ صديقاً ، ولا ميتهم فاجع

الظنون

يا أخـي ، أين ربـعُ ذاك اللقاءِ ؟ أين ما كان بيننـا من صفاء
كشفـت منـك حاجتـي هنوات غُطيتْ برهـة بحسـن اللقاء
تركْتنـي ولـم أكن سيء الظنّ أسيء الظنـون بالأصدقاء
قلـت ـ لما بدت لعينـيّ شنعاً : رب شوهـاء في حشـا حسناء
ليتنـي ما هتـكتُ عنـكن ستراً فثويتـنّ تحـت ذاك الغطاء
قُلْن : لولا انكشافُنـا ما تجلّت عنـك ظلماء شبهـة قتماء
قلـت : أعجِـبْ بكن من كاسفات كاشفـات غواشي الظلماء
قد أفدتنّنـي ـ مع الخُبـر بالصا حب ـ أن رُبَّ كاسف مُستضاء
قلن : أعجِـبْ بمهتـد يتمنى أنـه لم يزل على عمياء
كنـتَ في شبهـة فزالـت بنـا عنـ ـك فأوسعتنـا من الازراء
وتمنيتَ أن تكون على الحـ ـيرة تحـت العماية الطخياء
قلـتُ : تاللـه ليس مثلي من ودّ ضلالاً وحـيرة باهتداء
غـير أنـي وددتُ ستـر صديقي بدلاً باستفـادة الأنباء
قلن : هذا هوّى فعـرِّجْ على الحـ ـق وخـلّ الهـوى لقلـبٍ هواء
ليس في الحـق أن تودّ لخلّ أنـه الدهـر كامـنُ الادواء
بل من الحـق أن تنفّـر عنهنّ وإلا فأنـت كالبعداء
إن بحـث الطبيب عن داء ذي الد اء ، لأسُّ الشفـاء قبـل الشفاء
دونـك الـكشف والعتـاب فقوِّمْ بهما كلَّ خَلَـةٍ عوجاء
وإذا ما بدا لك العـرُّ[1] يوماً فتتبـعْ نقابـه بالهناء[2]
قلـت : في ذاك موتـكُنّ ، ومـا المـ ـوت بمستعـذَب لدى الأحياء
قلن : ما الموت بالـكريه إذا كا ن بحـقٍ فلا تزد في المراء

---

(١) العر الجرب
(٢) ؟ القطران

(طينة الناس)

واعلمْ بأن الناس من طينةٍ   يصدق في الثلب لها الثالبُ
لولا علاجُ الناس أخلاقهم   اذن لفاح الحمأ اللازب

(اعتزال الناس)

ذقتُ الطعومَ فما الْتذذت كراحةٍ   من صحبة الأشرار والأخيار
أأحب قوماً لم يحبوا ربهم   إلا لفردوسٍ لديه ونار

(المعدم في أمان)

ما راح مغبوناً بصفقة خاسرٍ   من باع متعةَ فائتٍ بأمانِ
أمن امرؤٌ من رزء شيءٍ فاته ،   والمدركوه مراقبو الحدثان
وكفى عزاءً لامريء من فائتٍ   ألاّ يخُاف عليه صرف زمان

(القناعة)

إذا ما كساك اللّه سربال صحةٍ   ولم تخل من قوت يحلُّ ويعذب
فلا تغبطنَّ المترفين فانهم   على حسب مايكسوهمُ الدهرُيَسلب

(من هو الكريم !)

ليس الكريم الذي يعطي عطيَّته   على الثناء وإن أغلى به الثمنا
بل الكريم الذي يعطي عطيته   لغير شيء سوى استحسانه الحسَنا

(جزاء الاحسان)

ولقد كافأ بالنعمى امرؤ   كافأ النعمى باخلاص الوداد
إن يكُنْ نوَّل نيلاً من يدٍ   فلقد نَوَّل نيلاً من فؤاد

(الدرهم والسيف)

لم أر شيئاً صادقاً نفعه   للمرء ، كالدرهم والسيف
يقضي له الدرهم حاجاتِهِ   والسيف يحميه من الحيف

(الشرير)

وليس بشرير ضليعٌ بحجة رمى باطلاً بالحق حين يخاصمُ
ولا واسم عرضَ امرئٍ كان ناله بسوء ـ وإن لامته فيه اللوائمُ
وما بي زهدٌ في التفضل : إنه لفضل ، ولكن للرجال شكائم
ولكنما الشرّير من عم شره ، وسُوْلِمَ بدءاً فأتلى لا يُسالم
وعاد باذعان له وتودّدٍ أخوه فلم تنفعه تلك التمائم
وكافأ إحساناً بسوءٍ ولم يزل يراجم بالمكروه من لا يراجم

(الظلم)

لا انتقامُ المظلوم أربى على الظا لم ، من ظلمه على المظلوم
صاحبُ الظلم إن تأملتَ كالرا تع في المرتع الوبيل الوخيم
يجتلي أمرَه فيعلم أن قد باع ليلَ الكرى بليل السليم[1]
فهو مِن لوم نفسه حين يخلو في عُرامٍ وفي عذاب أليم
قد أمرّت حياتَه وشجتْه بُرَحاءُ النديم والتنديم
لو تجافى الخصيم عنه وأغضى ، لكفاهُ بنفسه من خصيم

(الملام)

لا تكثرنّ ملامة العشاقِ فكفاهُم بالوجد والاشواق
إن البلاء يطاق غيرَ مضاعَفٍ فاذا تضاعف كان غير مطاق
لا تطفئن جوًى بلومٍ إنه كالريح تغري النار بالاحراق

(السلو)

أبت نفسي الهلاع لرزء شيءٍ كفى شجواً لنفسي رزء نفسي
أتهلع وحشةً لفراق إلفٍ وقد وطنتُها لحلول رمس

(الصبر)

أرى الصبر محموداً وفيه مذاهبٌ ، فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب !

---

(١) الملدوغ

هناك يحق الصبرُ ، والصبر واجب ، ... وما كان منه كالضرورة أوجب
هو المهرب المنجى لمن أحدقت به ... مكارهُ دهرٍ ليس منهنّ مهربُ
لَبوسُ جمالٍ ، جُنّة من شماتةٍ ، ... شفاء أسًى ، يُثْنَى به ويثوّب

(اغراء المشيب)

وتولى الشباب فازددتُ ركضاً ... في ميادين باطلي إذ تولّى
إن من ساءه الزمانُ بشيءٍ ... لأحق امريءٍ بأن يتسلى

(الفناء)

إذا اختط قومٌ خطةً لمدينة ... تقاضتهُمُ أضعافها للمقابر
وفي ذاك ما ينهاهم انْ يشيدوا ... وأن يقتنوا إلاًّ كزاد المسافر

(الحرب الاهلية)

وما قَتلُ بعض الحيّ بعضاً بناهكٍ ... قواه إذا ما جاء حيٌّ يحاربه
وما لطمُ بعض الموج في البحر بعضه ... يمانعه تغريق من هو راكبه

(يجنون الحرب وغيرهم وقودها)

رأيتُ جناةَ الحرب غيرَ كفاتها ... إذا اختلفت فيها الرماح الشواجر
كذاك زناد النار عنها بنجوةٍ ... ولكنها تصلى صلاها المساعر

(الاغضاء الا عن الخلصاء)

يا أبا القاسم الذي كنتُ أرجو ... ه لدهري قطعت متن الرجاء
لا أجازيك عن غرورك أيا ... يَ غروراً وقتَ سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وماذا ... ك لبخل عليك بالاغضاء
أنت عيني ، وليس من حق عيني ... غضُّ أجفانها على الاقذاء

(دفاعه عن شعره)

قلتُ لمن قال لي عرضتُ على الأخفش[1] ما قلتَه فما حمده
« قصّرتَ بالشعر حين تعرضه على مبين العمى إذا انتقده
ما قال شعراً ، ولا رواه ، فلا ثعلبه كان ، لا ولا أسده
فان يقلْ أنني رويت ، فكالدفتر جهلاً بكل ما اعتقده
أرُمْتَ زَيني بأن تعرضني لمدحه ؟ فالذليلُ من عضده
أم رمت شَيني بأن تعرضني لثلبه ؟ فالسليم من قصده[2]
أنشدتَه منطقي ليشهده فغاب عنه عمىً وما شهده
وقال قولاً بغير معرفة إفكاً ـ فما حل إفكُهُ عقده
شعريَ شعر إذا تأمله الانـ ـسان ذو الفهم والحجى عبَده
لكنه ليس منطقاً بعث اللـه به آية لمن جحده
ولا أنا المفهمُ البهائمَ والطيرَ سليمانُ قاهُ المرَده
ما بلغت بي الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقرَده
وحسبُ قردٍ أراه يحسدني أن يسْكن اللـهُ قلبَه حسده
لا خفّف اللـه عنه من حسدي وزاده اللـه فوقه كمده
ولا تزل صورتي إذا طلعت لناظريه قذاه بل رَمده

(حملته على البحتري)

الحظ أعمى ولولا ذاك لم نره للبحتريّ بلا عقل ولا أدب
قبحاً لأشياء يأتي البحتريٌّ بها من شعره الغث بعد الكدّ والتعب
كأنها حين يُصغِي السامعون لها ممن يميزُ بين النَّبْع والغَرَب :
رُقى العقارب ، أو هذر البناةِ اذا أضحوا على شعف الجدران في صخب

---

(١) هو علي بن سليمان الاخفش
(٢) الذليل من اوره الاخفش والسليم من قصده الاخفش بسوء

وقد يجيء بخلط فالنحاس له ... وللأوائل ما فيه من الذهب
يُسيء عَفّا فان أكدتْ وسائلهُ ... أجاد لصًّا شديد البأس والكَلَب
عبدٌ يغير على الموتى فيسلبهم ... حُرٌّ الكلام بجيش غير ذي لجَب
ما إن تزال تراه لابساً حللاً ... أسلابَ قوم مضَوا في سالف الحقب
شعر يغير عليه باسلاً بطَلاً ، ... وينشد الناسَ إياه على رقَب
يقول مستمعوه الجاهلون به : ... أحسنت يا أشعر الحضَّار والغُيَّب
والحكم فيه مبين غيرُ ملتبس ... لَوْريم فيه خلافُ الحق لم يُصب
إذا أجاد فأوجبْ قطعَ مقوله ... فقد دهى شعراء الناس بالحَرَب
وإن أساء فاوجب قتله قوَداً ... بمن يميتُ إذا أبقى على السلب

التأسي

خليلي قد عللتماني بالأسى ... فأنعمتما لو أنني أتعلل
وما راحة المرزوء في رزء غيره ... أيحمل عنه بعض ما يتحمل ؟
وضربٌ من الظلم الخفّي مكانه ... تعزيك بالمرزوء حسين تأمل
لأنك يأسوك الذي هو كلمه ... بلا جُرم ، لو أن جورك يعدل

(حلم اليقظة)

المرء في حال التيقظ هاجع ... يرنو الى الدنيا بمقلة حالم
وأخو الحجا أبدا يجاهد طبعه ... فتراه ـ وهو محارب ـ كمسالم

التكلف

في الناس ذو حلم يسفّه نفسه ... كيما يهاب وجاهل يتحلم
وكلاهما تعِبٌ يحارب شيمة ... غلبت فآض بحملها يتألم

الدهر الشاعر

الناس كالشعر تلقى الأرض جائشة ... بالجمع يزجي ، وخير منهم رجل
والدهر شاعر آفات يفوه بها ... للناس يفْكر تارات ويرتجل

الحزم

إذا طرف من حبلك انحــل عقده ... تداعــت وشيكاً بانتقــاض مرائره[1]
فلا تغفلن أمــراً وهَــى منــه جانب ... فيتبعــه في الوهــي لا شك سائره

الأصدقاء

عدوك من صديقــك مستفادٌ ... فلا تستكثــرن من الصحاب
فان الــداء أكثــر ما تراه ... يحــول من الطعــام أو الشراب
إذا انقلــب الصــديق غداً عدواً ... مبينــاً والأمــور إلى انقلاب
ولــو كان الكثــير يطيب كانت ... مُصاحبــة الكثــير من الصواب
ومــا اللجــج الملاح بمرويات ... وتلقــى الــري في النــطَف العذاب

جمع المال

المال يكســب ربــه ما لم يفض ... في الراغبــين اليه ـ سوء ثناء
كالماء تأســن بئــره إلا إذا ... خبــط السقــاة جمامــه بدلاء

في الثقال

ليس حمــد الجفــون في مريهــا النــ ... ــوم ولا نفْيهــا أذى الأقذاء
إنمــا حمدهــا إذا هي حالت ... بــين طرف العيون والبغضاء

المنى

حرّك مُنــاك إذا هَمَمْــ ... ــتَ فانهــنّ مراوح
لا تيأســنّ فان رز ... ق اللــه غادٍ رائح

(حظّه من الشعر)

ويح القــوافي ما لهــا سفسفتْ ... حظــي كأنــي كنــتُ سفسفتُها
ألــم تكن هوجــاً فسدّدتها ؟ ... ألــم تكن عوجــاً فثقفتُها
كم كلمات حكْتُ أبرادها ... وسطّتُهــا الحســن وطرّفتها

---

(١) امر الحبل فتله شديدا والمرير من الحبال ما اشتد فتله .

ما أحسنتْ إن كنت حسنتها ... ما ظرُفت إن كنت ظرّفتها
أنحتْ على حظي بمبراتها ... شكراً ، لأني كنت أرهفتها
فرققتهُ حين رقّقتها ، ... وهفهفتْهُ حين هفهفتها
وكثفتْ دون الغنى سدّها ... حتى كأني كنتُ كثفتها
أحلفُ بالله لقد أصبحت ... في الرزق آفتْني وما إفْتُها
لم أشكُها قطُّ بتقصيرة ... فيها ، ولا من حيفة حفتها
حرمتُ في سنِّي وفي ميعتي ... قراي من دنيا تضيفتها
لهفي على الدنيا وهل لهفة ... تنصف منها إن تلهفتها
كم آهة لي قد تأوهتُها ... فيها ، ومن أفّ تأففتها
أغدو ولا حال تسنّمتها ... فيها ، ولا حالٌ تردّفتها

عباس محمود

العقاد

ابو العلاء

دار الكتاب اللبناني - بيروت

مقدمة الطبعة الثانية

علامات الخلود

ثلاث علامات من اجتمعن له كان من عظماء الرجال ، وكان له حق في الخلود :

فرط الاعجاب من محبيه ومريديه ، وفرط الحقد من حاسديه والمنكرين عليه ، وجوٌّ من الأسرار والألغاز يحيط به كأنه من خوارق الخلق الذين يحار فيهم الواصفون ويستكثرون قدرتهم على الآدمية ، فيردون تلك القدرة تارة الى الاعجاز الالهى ، وتارة الى السحر والكهانة ، وتارة الى فلتات الطبيعة ان كانوا لا يؤمنون بما وراءها . .

وهذه العلامات الثلاث مجتمعات لأبي العلاء على نحو نادر في تاريخ الثقافة العربية ، لا يشركه فيه الا قليل من الحكماء والشعراء . . فهو في ضمان الخلود منذ أحبَّه مَن أحب ، وكرهه من كره ، وتحدث عنه من تحدث كأنه بعض الخوارق والأعاجيب .

***

بلغ من منزلته بين مريديه أن وقف على قبره نيف وثمانون شاعراً يرثونه بُعَيْدَ وفاته ، فكان بلاغ قولهم مطلع قصيدة لأحدهم ـ أبى الفتح الحسن بن عبد الله بن حصينة ـ حيث يقول :

العلم بعد أبى العلاء مضيَّع   والأرض خالية الجوانب بلقع

وهو مثل من أمثلة الاعجاب الذي اتفق عليه أولئك الشعراء ، وكانـوا فيه ترجمانـاً لمئات ، أو ألوف من المعجبين ، لم ينظموا الرثاء ولم يقفوا على ثراه . .

وبلغ من انكار حساده والجاهلين به أنهم جعلوه من أهل الجحيم ، وألحقوه بأحقر ما يُسب من الحيوان ، واستجهلوه غاية الجهل ، واتهموه في فهمه وذكائه ! . .

قال رجل وقد عثر به : من هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً ! . .

وذكر ياقوت بعض كلامه في معجمه ثم قال : « كان المعري حماراً لا يفقه شيئاً ، والا فالمراد بهذا بيّن ! » .

وسئل عنه علي بن الحسن المعروف بشُميم وهو من نُحاة القرن السادس . فغضب وقال لسائله ناهراً : ويلك ! كم تسيء الأدب بين يدي ؟ من ذاك الكلب الأعمى حتى يذكر بين يديَّ في مجلسي ؟! . . » .

* * *

وهناك أناس استعظموه ولكنهم لم يفهموه ولا حقدوا عليه ! وحسبوا أن قدرة الانسان لا ترتقي هذا المرتقى ، وأن سر بني آدم لا يخفى هذا الخفاء ، فألحقوه بعالـم المجهـول ووصلوا بينه وبين سيطرة الفلك وقضاء الأقدار . .

قالوا ان محمود بن صالح صاحب حلب اتهمه بالزندقة فأمر بحمله اليه من المعـرة ، وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال : يا ابن أخي ! قد نزلت بنا هذه الحادثة ، فان منعناك عجزنا ، وان أسلمنـاك كان عاراً علينـا عنـد ذوى الذمام ، ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال أبو العـلاء : هوِّن عليك يا عم ! ولا بأس عليك ، فلي سلطـان يذب عنـي . ثم قام فاغتسـل وصلى الى نصف الليل ، ثم قال لغلامه : انظر الى المريخ أين هو ؟ فقال في منزلة كذا وكذا . . فقال زنه واضرب تحته وتداً ، وشدّ في رجلي خيطاً واربطه الى الوتد . ففعل غلامه ذلك ، وسمعوه وهو يقول : يا قديم الأزل ! يا علة العلل ! يا صانع المخلوقات وموجد الموجودات . أنا في عزك الذي لا يرام ، وكنفك الذي لا يضام . . الضيوف الضيوف ! الوزير الوزير ! ثم ذكر كلمات لا تفهم . . واذا بهدّة عظيمة ! فسأل ابو العلاء عنها فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين

كانوا بها فقتلت الخمسين . . وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر : لا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير .

ومن لم يكن عندهم ساحراً او قديساً من ذوي الكرامات كان خارقة من خوارق التكوين أو طرفة من طرف الزمان . .

***

رووا عن تلميذه أبي زكريا التبريزي أنه كان قاعداً في مسجده بمعرة النعمان بين يدي الأستاذ يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه ، وكان قد أقام عنده سنين لم ير أحداً من أهل بلده ، فدخل المسجد بعض جيرانه فرآه وعرفه فتغير من الفرح وأحس أبو العلاء بشيء فسأله : أيش أصابك ؟ فحكى له ما رآه . .

قال أبو زكريا فيما رووا عنه : فقال لي أبو العلاء : قم وكلمه ! فقلت : حتى أتمم السياق . فقال : قم . أنا أنتظر لك . فقمت وكلمته بلسان الأذربية ـ أهل أذربيجان ـ شيئاً كثيراً ، إلى أن سألت عن كل ما أردت . فلما رجعت وقعدت بين يديه قال لي : أي لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل أذربيجان ، فقال لي : ما عرفت اللسان ولا فهمته . غير أني حفظت ما قلتما . ثم أعاد عليّ اللفظ بعينه ، من غير أن ينقص عنه أو يزيد عليه في جميع ما قلت . فتعجبت غاية التعجب ! كيف حفظ ما لم يفهم ؟

وحدث أبو الحسن الدّلفى المصيصي الشاعر ، قال : لقيت بمعرة النعمان عجباً من العجب . رأيت شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الجد والهزل يكنّى أبا العلاء ، وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر . .

تلك هي العلامات الثلاث مجتمعات لأبي العلاء : اطناب في الاعجاب ، ونهاية في الزراية ، وحيرة في كلام واصفيه كحيرة المتحدثين عن خوارق الغيب وعجائب الأساطير . .

واذا بلغ من تعدد الجوانب برجل واحد أن يقول قوم إنه فخر بني الانسان ، ويقول قوم إنه كلب وحمار ، ويسلكه أناس في زمرة الشيطان ويحسبه أناس وليّاً مستجاب الصلاة ، ويخيل الى فريق أنه ساحر والى فريق أنه طرفة من الطرف وأسطورة من الأساطير ـ فذاك هو الأفق الواسع ، وتلك هي العظمة الباقية . . ومن شهده في زمانه فلا حاجة به أن ينتظر

ألف عام ليعلم أنه باق الى ألف عام ، وانه محتفل به بعد ألف عام ، أو ينبىء الدنيا بامتداد خبره ما بقي لعصره خبر بين سجلات العصور .

***

وها قد مضى اليوم ألف سنة هجرية على اليوم الذي ولد فيه أبو العلاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلثمائة وثلاث وستين . ولد كثيرون في هذه السنين الطوال كما ولد ، ومات كثيرون كما مات ، وتكررت الولادة والوفاة في الأمم العربية مئات الملايين من المرات ، ولكن ذلك المولد النادر لم يتكرر قط في هذه السنين ، ولم يزل مولد ذلك الوليد حادثاً فرداً بين ثمرات الأصلاب والبطون ، يستحق أن يعاد إليه من سنة إلى سنة ، ومن جيل الى جيل ، ومن ألف عام الى ألف عام . .

وبين الذين كررتهم الدنيا ألوف من أمثال ذلك المسكين المغرور الذي أغضبه السؤال عن أبي العلاء بين يديه ، ورأى من سوء الأدب في مجلسه أن يعاد له اسم على مسمع منه ، ولكن التاريخ الذي كررهم كثيراً ومل من تكرارهم طويلا لم يدركه الملال من ترديد اسم أبي العلاء المغضوب عليه وعلى من سأل عنه . ولم ير من سوء الأدب أن يصبح ويمسي بتمجيده ، وأن يحصي الأحقاب بعد الأحقاب لملاقاته في يوم عيده . بل رأى من سوء الأدب أن تمضي ألف سنة ولا يستوقف الزمن الماضي محتفلاً بذكراه ، مستعيداً لميلاده ، مشيراً الى مطلعه كما يشار الى ظواهر الكون التي تُستعاد ، لأنها قلما تعود . .

ولقد وقف على قبره ـ يوم وفاته ـ ثمانون شاعراً أو يزيدون ، وتقف على قبره اليوم أمم العروبة جمعاء ، وأمم شتى من جميع الأقطار والأنحاء ، مئين أو فوق المئين ، ينوب منها الشاهدون عن الغائبين .

واذا عدل الزمان ، فهذا الوفاء هو سواء الميزان ، بين أناس وسموه بعزة القدر ، وأناس وصموه بخسة الحيوان .

***

تسلَّفت هذه الذكرى قبل ست سنوات . .

وكانت الصحف السورية قد نقلت الينا في ذلك الحين أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الذي أزمعت اقامته في المعرة على قبر أبي العلاء ، وأنها تعد العدة للاحتفال

بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاة الشيخ والصواب على مولده كما هو ظاهر ، وكما نشير اليه بعد سطور .

فخطر لنا أن أبا العلاء قد دعي من حظيرة الخلود الى شهود ذكراه ، وأن الأمد لا يزال فسيحاً بيننا وبين ذلك اليوم المشهود ، ففي ذلك الأمد متسع لرحلة علائية حول الكرة الأرضية ، يرى فيها ما يعنينا أن يراه ، ويقول فيها ما ينبغي أن يقول ، أو نقول نحن على لسانه ما يشبه مقاله في أوانه ، قياساً على ما صنع هو في السماء حين حدثنا في رسالة الغفران بلسان الأدباء والشعراء ، وجعل لهم من كلامهم وأخبارهم دليلاً له في كلامه وأخباره . .

فكتبنا يومئذ سلسلة هذه الفصول التي سميناها « رجعة أبي العلاء » وعرضنا فيها حوادث الدنيا كما تتمثل له ولمن ينظرون الى أمور العصر الحاضر مثل نظرته في سائر الأمور . ونحسب أننا أتينا بصفوة الآراء التي توافقه وتستخلص من جملة تفكيره . . . ما لم يكن قد تغير نظره بعد موته ، وهو مستحيل ! . .

ونحسب كذلك أننا لم ننحله رأياً ينكره لو أنه عاد الى هذه الحياة الدنيا في زماننا هذا ، لأننا شفعنا آراءه الحاضرة بأقواله المحفوظة فيما عرض له من خطوب زمانه ، فتشابهت الأقوال وتقاربت الأحكام ، وبقي على من يخالفنا أن يزعم أن هذه الآراء غريبة عن منحى أبي العلاء في تفكيره ، ويثبت ذلك بكلامه وآرائه في مثل ما نحلناه . ويومئذ يظهر ان الانكار هو الدعوى التي تفتقر الى الشواهد والبينات .

* * *

وقد مضى الآن زهاء ست سنوات منذ كتبنا هذه الفصول ، دارت فيها الأيام دورتها واضطربت فيها الحوادث اضطرابها . فلا شك أننا حين وصفنا الحوادث كما وصفناها واستطلعنا العواقب كما استطلعناها ، لم نقحم على حكيم المعرة رأياً كذّبه الواقع وأنكره الحق الصادع ، ولم ننحله قولاً يزري بصائب فهمه أو يقدح في صادق حكمه . فان كنا وافقناه فقد أرضيناه ، وان كنا خالفناه فما أخجلناه .

ومن محاسن الاتفاق أن تحتفل الأمم العربية بتمجيد أبي العلاء وهي تتطلع الى استقلال كريم يرضي الحكيم العربي الصميم ، وتنهض الى مجد طريف يستجد لها معالم المجد

القديم ، وأن تعاد « رجعة أبي العلاء » في طبعتها الثانية والدعوة الى الاحتفال جارية الى مجراها ، ووفود الحجيج المعري مستبقة الى ملتقاها ، فهي تحية في الأوان ، وقربان على ذلك المحراب . . مزاجه الشكر والعرفان . .

عباس محمود العقاد

تمهيد

منذ سنة وشهور نشرت الصحف من أنباء سورية « أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الذي أزمعت اقامته في المعرة على قبر أبي العلاء ، وأنها تعد العدة للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاته ، أو على ميلاده كما هو الأصوب . . فالمعري كاره الحياة يعاد طوعاً أو كرهاً الى الحياة كرة أخرى ! . .

خطر لي هذا الخاطر فأحببت أن أتخيل« رهين المحبسين»يجوس بيننا خلال الديار ، ويتمرس بأحوال الأمم في عالمنا الحاضر ، فماذا هو قائل ؟ وماذا هو فاعل ؟ . .

لا شك أن أحوالاً كأحوال العصر الحاضر قد كانت مشهودة معهودة في أيام أبي العلاء ، ولا شك أننا واجدون في كلامه حكماً مكشوفاً أو ملفوفاً على جميع تلك الأحوال ، فأما ما يختلف من شؤ ون زماننا وزمانه فهل يستطاع قياسه والنفاذ الى رأي أبي العلاء فيه وفاقاً لذلك القياس ؟ وهل في مقدورنا نحن أبناء هذا الزمن أن ندعو الحكيم للجهر برأيه فيه ؟

ذلك ما قد حاولناه في هذه الصفحات[1] ، ونحسب اننا قد أصبنا فيه بعض التوفيق ، ان تعذر التوفيق كله في مجال الفرض والتخمين . .

ومضت فترة ولم نسمع خبراً عن المحفل المنظور : هل تم بناء الضريح ؟ وهل تم نحت التابوت ؟ وهل تمت العدة ؟ وهل شريت الدور التي تحجب قبر الحكيم ؟ الأرجح أن هذا كله ماض في طريق التمام ، وأن المحفل المنظور قائم في موعد قريب . . . لكن أبا العلاء الذي بعثناه وأطفناه بالعالم كله مع بعض تلاميذه قد بلغ غاية المطاف ، وسئم المضيفين

---

(١) نشرت هذه الفصول والابواب في صحيفة البلاغ الغراء ما عدا الاربع الاخيرة فلم يسبق نشرها . .

والأضياف ، وأحب أن يثوب الى داره وأن يقر في قراره . فنحن هنا مثبتون قصيداً لأبي علائنا يودع به من سوف يستقبلونه ، ويعتذر به لمن يمسكونه في الدنيا ولا يرسلونه ، ويقول أو نقول في مكانه ، ما ينبغي أن يجري على لسانه . وذلك هو نشيد الوداع في ختام هذه الصفحات ، أنابنا في نظمه على سنة اللزوميات ، فله الحسنة منه ، وعلينا نحن السيئات . .

❊ ❊ ❊

قيل ان بعض المكتبات الايطالية أهابت بالأدباء من العرب أن يوافوها باسم الأديب الذي تجتمع فيه خصائص العبقرية العربية ، فأجمعت الآراء على أنه هو أبو العلاء . .

وقواعد الانتخاب ليست بمقطع الرأي في مزايا الفنون والآداب ، ولكنا نراها في هذه الفتوى قد حكمت بالصواب ، وأجابت أحسن الجواب . . اذ الحقيقة أن حكيم المعرة خير من يمثل الذهن العربي والسليقة « السامية » غير مستثنى في ذلك أحد حتى صاحبه أبو الطيب . . . لأن تمثيل الذهن غير تمثيل « الطبيعة العملية » التي يرشح فيها أبو الطيب للمكان الأول بين شعراء الضاد . وأبو العلاء هو الذي يمثل الذهن العربي في تفكيره وفي مقاييسه وفي نظرته الى الدنيا ، دون سائر المفكرين من الشعراء .

❊ ❊ ❊

وعسى أن تكون هذه الآراء التي وضعناها على لسانه وقسناها الى المعهود من كلامه هي ترجمان الذهن العربي حين ينظر الى حقائق العالم في زماننا الحديث . .

وفـــد

نقلت الصحف من أنباء سورية أن حكومتها فرغت من مراجعة رسم التابوت الـذي أزمعت اقامته في المعرة على قبر حكيمها وحكيم العرب أبي العلاء ، وأنها نعد العدة من اليوم للاحتفال بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاة الشيخ ، والصواب على مولده كما هو ظاهر ، فان الأمد لا يزال بعيداً بيننا وبين ذكرى وفاته ، الا اذا كان الغرض التقريب لا التحقيق ، ولا حاجة الى ذاك لقرب ذكرى الميلاد .

* * *

تمثلت مندوبي الحكومة السورية يحملون قرارها الى شيخ المعرة ، ويبلغونه أنهم سيبنون تابوتاً على قبره ، وأنهم سيدعـون علماء المشرق والمغـرب الى موطنـه للاحتفـال بذكرى ميلاده . فماذا يقول ؟ وماذا يقولون ؟

ان الشيخ ليتململ في مضجعه بعد أن استراح فيه مئات السنين ، وانه ليخاطب جدثه اليوم كما خاطبه وهو في قيد الحياة وقيد المحبسين :

يا جدثـي حسبـك من رتبة | أنـك من أجداثهـم معزلا
أملنّـي الدهـر بأحداثه | فاشتقـت في بطـن الثـرى منزلا

ثم يسأل متثاقلاً : من أنتم ؟ وماذا تبغون ؟ فلا يُعلمونه من هم وماذا يبغـون حتـى يتهاتف قائلا : أتبنون لي تابوتاً ؟ أما قرأتم أو سمعتم قولي :

ان التـوابيت أجـداث مكررة | فجنِّـب القـوم سجنـاً في التوابيت

فيحار الجماعة ، ولا يدرون بماذا يجيبون . ولكنهم حريصون على اقامة التابوت ، وعلى تمجيد الرجل وتشريف مدفنه وتشريف ذكره ، وسيكون بينهم ولا ريب أناس ممن عركوا السياسة وحذقوا أساليب الخطاب والتدرج في المجاملة والارضاء ، فيقول قائل منهم : أيأبى مولانا الكرامة والتشريف ؟! . . .

فيجيب الشيخ :

لا تكرموا جسدي اذا ما حل بي   ريب المنون فلا فضيلة للجسد

ثم يقول :

اذا أنا واراني التراب فخلّني   وما أنا فيه ، فالتراب مؤونتي !

ثم يقول كما قال من قبل :

أأرغب في الصيت بين الأنا   م ، وكم خمل النابه الصيّتُ
وحسب الفتى أنه مائت   وهل يعرف الشرف الميّتُ ؟

فيُلهم أحدهم أن يراجعه ببيت من كلامه ، وأن يذكره أنه ليس بميت وانما هو حي خالد ، أو ليس هو القائل :

وجدت الناس ميتاً مثل حي   بحسن الذكر أو حياً كميت

* * *

فيأنس أبو العلاء الى ما سمع ، ويعجبه أن يُروَى له شعره بعد مئات السنين ، ويسألهم : وماذا تريدون الآن من جمع الجموع حول هذا التابوت الذي تبنونه ؟ أتراكم تمدحونني وأنا القائل :

ان مدحوني ساءني مدحهم   وخلتُ اني في الثرى سُخت

فيجيبه أريب كيس من القوم يعرف كيف يتسلل الى كمين الرضى من سريرة الشيخ ، ويقول له : بل نثني على أنفسنا وعلى بلادنا بما أنجبتْ من فضلك وأحيت من ذكرك وحفظت من أثرك ، فانما يعيبنا ولا يعيبك أن ننسى هذا ونتمادى في نسيانه ، ولن يضيرك أن نكف عن مديحك وأنت القائل عرفاناً بقدرك :

فلا وأبيك ما أخشى انتقاصاً   ولا وأبيك ما أرجو ازديادا

ولكنه يضيرنا كل الضير أن يثني عليك الغرباءُ ونحن سكوت ، وأن يمدح الناس من ملل الأرض حكماءهم وشعراءهم ولا نمدحك ونشيد بمناقبك وسجاياك . .

وكأنما يطلق ألسنتهم إصغاء الشيخ وارتياحه وما يعهدونه فيه من حب الصراحة والفكاهة فيقول منهم قائل : ثم ماذا يخيفك اليوم من المديح وقصاراك من خوفه أن تحسب أنك سخت في باطن الأرض ؟! لقد أصبح الخيال حقاً والحسبان واقعاً ، وجربت بطن الثرى مئات السنين . . فلا ضير عليك اليوم أن تسمع من المديح الدواوين والأسفار ! .

***

فيضحك الشيخ ويتفسَّح للحديث ويجري معهم في مجراهم فيقول : لا يغرنكم يا أبنائي أنني أزهد في المديح وأنني أسكن الى الزهد فيه وفي المجد والسلطان ، فما أبرىء نفسي من كبرياء ، وما أزعم أنني اخترت العزلة والفاقة عن صغر في المطامع أو قناعة بالحظ الوضيع ، ولكنني لا أرى لأحد عيشاً في هذه الدنيا الا أن يسودها أو يستخف بها ويعرض عنها :

ذر الدنيا اذا لم تحظ منها وكن فيها كثيراً أو قليلا
وأصبحْ واحد الرجلين : اما مليكاً في المعاشر أو أبيلا

وما أتيح لي أن أصبح مليكاً في المعاشر ، فأصبحت باختياري راهباً متبتِّلاً أعرض عن الدنيا ولا أريها أنها هي التي أعرضت عني وبخست من حقي ! . .

اذا كان هذا الترب يجمع بيننا فأهل الرزايا مثل أهل الممالك

فيقول قائل منهم : نعم أيها الامام . لقد كررناك حتى فهمناك كما قلت في بعض شعرك :

يكررني ليفهمني رجال كما كررت معنىً مستعادا

فما تخفى علينا خافية من هواجس ضميرك ولا تغيب عنا خالجة من خوالج طبعك ، وانك لمناضلٌ مكبوح ومغامر محبوس ، وان نفس الزاهد منك لمقرونة بنفس السيد الذي لا يدين في الحياة لغير حكمه ، ويأنف أن يموت حتف أنفه ، وقد عشت هكذا في عالم الرأي آمراً لا يأمرك الحاكمون ، وأبيّاً لا يخضعك المغلوبون ، وتمنيت يوماً :

من السعد في دنياك أن يهلك الفتى بهيجاء يغشى أهلها الطعن الضربا
فانّ قبيحاً بالمسوّد ضجعة على فرشه يشكو الى النفر الكربا

وترددت بين القلم والسيف فقلت :

وان العز في رمح وترس لأظهر منه في قلم ودرج
وما أختار أنى الملكُ يُجبى اليَّ المال من مكس وخرج
فدع إلفَيك من عرب وعجْم الى حِلفيك من قَتب[1] وسرج
سراجك في الدجنة عين ضار والا فالكواكب خير سرج

ويقول الشيخ مبتسماً : لقد أحصيتم عليَّ فلتات اللسان وشوارد الأماني وشطحات الأوهام ، وعملتم بوصيتي حين قلت :

اقرأ كلامي اذا ما ضمني جدثي فانه لك ممن قاله خلف

ولكنني كنت أوثر لو نسيتم بعضه ومنه هذا الذي ذكرتموه ، فما أحسب الا أنني حاذفه من جملة كلامي لو تمكنت من تلك الأوراق التي حفظتموه فيها . . فاحذفوه . .

* * *

ثم يخطر لبعض الحاضرين أنها فرصة لا تُضيَّع ، فيسألونه : ألا نحمل اليك تلك الأوراق فنراجعك فيما تغير منها وما تأمر بمحوه ، بعد أن تنظر في الدنيا نظرة وتطلع منها على ما استجد من حالها وتبدّل من خلائق أهلها . .

فاذا الشيخ يتجهم هنيهة وقد عاودته سوداؤه وانقباض صدره وذهب يقول :

أما خلائق أهل الدنيا فانما يتبدل الرأيُ فيها لمن يراهم على احدى حالتين :

فمن قال انهم كانوا في غابر زمانهم أهل ورع وصلاح وأصحاب كرم وتقوى . ثم عدت عليهم عوادي الزمن فصدوا عن سبيل الخير ، فذلك خليقٌ ان يصف منهم شأناً ، ثم يعود بهم الى شأن غير الذي وصف .

ومن قال انهم اليوم جاهلون وغداً يعلمون ، وأنهم اليوم على عوج وغداً يستقيمون ،

---

(١) القتب : الرحل

فذلك أيضاً خليقٌ بتبديل الرأي في الناس عصراً بعد عصر وأمَّة بعد أمَّة . .

وما أنا هذا أو ذاك ؟ . . أنا قد بلوتهم فعلمت أنهم هكذا كانوا منذ كانوا :

وهكذا كان أهل الأرض مذ فُطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا

ثم بلوتهم ورجوت صلاحهم واستأنفت الرجاء فيهم وعجبت من أمري معهم على شدة علمي بهم ، وما زلت أستغرب من تلك الحال التي أحاولها وتحاولني :

وأعجب مني كيف أخطىء دائماً على أنني من أعرف الناس بالناس

حتى انتهيت الى رأي لا يتبدل :

فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذاك هو الذي لا يستطاع

نعم ذاك الذي ما استطعته ولن تستطيعوه ، ولكن :

نزول كما زال آباؤنا ويبقى الزمان على ما ترى

* * *

وتذهبون في كل مذهب وتطمعون في كل مطمع ، ثم تعلمون بعد خطأ لا تزالون ترجعون اليه أنه :

حكم جرى للمليك فينا ونحن في الأصل أغبياء !

فهو داء عياء ليس له شفاء ، وكنت أزعم أن الموت يبرىء الخلائق منه فها أناذا معكم لم أكد أشعر بظل الحياة حتى استرجعت من دائها كل ما كنت أشكوه وأعالجه وأرجو الغلبة عليه . . . كلا يا أبنائي : لا تحذفوا حرفاً مما كتبت في خلائق الناس ، أو احذفوه كله فما هو بضائركم أن تجهلوه ، وهو منا ومنكم في الصميم ، وأنه لباق في النفوس ان زال من الطروس . .

تمثلت هذا الحديث بين شيخ المعرة وبعثة الحكومة السورية اليه ، وأخال أنني على صواب حين أزعم أن الشيخ في طليعة الحكماء الذين لا يغيرون ما قالوه في هذا المعنى بعد آلاف السنين ، لأنه لم يؤمن بالنكسة بعد العلاج ، ولم يؤمن بالتقدم والارتقاء.فيتطرق الخلاف من أحد البابين الى مجمل ما قال :

لكن شيمة واحدة في حكيم المعرة اخالها لو تغيرت قليلا لتغيرت فلسفته جميعاً من الألف الى الياء ، ولألغى كثيراً من سقط الزند وكثيراً من اللزوميات ، ولخرج بديوان يقرأه القارىء فلا يهجس في خاطره ذكر المعري المعهود ، لأن تغيير تلك الشيمة يخرجه خلقاً جديداً لا يمت بقرابة ذهن ولا بآصرة نسب الى ذلك الحكيم الذي عرفناه . .

صاحب الجلالة المعرّي

قلت في ختام الفصل السابق : « ان شيمةً واحدةً في حكيم المعرة أخالها لو تغيرت قليلا لتغيرت فلسفته جميعاً من الألف الى الياء ، ولألغى كثيراً من سقط الزند وكثيراً من اللزوميات . . . » .

فما هي تلك الشيمة ؟ . . .

هي السمت والوقار ، أو هي كما نقول في لغة العصر الحاضر أدب البيئة وأصول « اللياقة » . .

وهذه الشيمة في الواقع وازع قوي عظيم الهيمنة على جميع النفوس ، وان عدها بعضهم ثانية أو ثالثة أو رابعة في ترتيب الزواجر الأخلاقية والنفعية ، لاعتقادهم ان الزواجر انما تفعل في الطباع فعلها على مقدار ما يحيط بها من ضجيج وطنين ، أو على مقدار ما لها من أسماء وعناوين ، لا على مقدار بواعثها من الطبع ومن قوانين الاجتماع . .

ان جميع الزواجر والأوامر والنواهي لا تخرج دانقاً ولا سحتوتاً من كنز المرأة العجوز الذي تجمعه من الدوانيق والسحاتيت ، ليكون لها بعد وفاتها مشهد « يليق » ويجري مع العرف الشائع بين البيوت .

وان الرجل ليقدم على جميع المحظورات غير حافل بالعقاب أو سوء المآب ، حاشا المحظور الذي « يسقطه » في نظر الناس ويخل بقواعد المروءة في البيئة التي هو منها ، فذلك حد لا يتخطاه الا وقد تخطى قبله جميع الحدود واجترأ على جميع المنكرات .

وان الخمر والزنا والسرقة ، لفي درجة واحدة من التحريم في بعض الشرائع السماوية ،

ولكن الناس يجانبونها أو يستبيحونها على حسب نصيبها من الزراية في البيئات التي يعيشون بينها ، ونعني بها بيئة المعيشة وبيئة المعاشرة وبيئة التفكير ، وربما وجد من الناس من يباهي ببعض تلك المحظورات في بعض بيئاته ، وان كانت في بيئات أخرى مجلبة العار والمذمة والنفور . . .

وربما استخف المرء أو المرأة بكل منكور وممنوع ، الا أن يزف بنته أو بنتها مثلاً في شَوار أقل من الشَوار المصطلح عليه ، مع أنه غير ممنوع في دين ولا في قانون ولا في شرع معقول ، ولكنه ممنوع في أدب البيئة أو أدب اللياقة . . فهو اذن أصعب الممنوعات . . .

* * *

والخلاعة هي غاية السقوط عند العرب أو عند المتكلمين باللغة العربية ، وانما الأصل في الخليع أنه الرجل الذي يخلعه أهله ويبرأون منه ، فهو من ثم يجلب على نفسه أكبر العار ، وان لم يقارف شيئاً من معاصي الدين والقانون على حسب العرف الحديث .

وانهم ليجدون متسعاً من القول في كل عاص ، وكل جارم ، وكل آثم الا الخليع فلا متسع فيه من القول بعد الخلاعة . . وما عسى أن يقول القائل في خليع ؟؟ تلك غاية الغايات وقصارى الموبقات ، فلا ملامة ولا عتاب !! . . .

المعري مثل من الأمثلة البالغة على سلطان البيئة أو على سلطان أدب « اللياقة » وأدب العرف والتقاليد .

فهذا الحكيم الذي عرض على فكره كل أصل من أصول الحكمة وكل مذهب من مذاهب الدين ، فلم يقبل منها الا ما ارتضاه برهانه ، ولم يتخذ له اماماً غير العقل في صبحه ومسائه . . هو بعد هذا كله أسير « أدب اللياقة » يمنعه هذا الأدب ما ليس يمنعه شرع ولا فلسفة ولا عقيدة وهذا القائل :

وسيَّان مَن أمه حرة حَصان ومن أمه زانية !

هو هو الذي يأبى أن يدخل الوليد على النساء بعد بلوغه العاشرة ، ويأبى أن تذهب المرأة الى الحمام ، ويخشى على عرضها أن تخرج الى الحج فلا يعده فريضة على عُجَّز النساء ولا العذارى !!

ذلك هو « السمت اللائق » بالمرأة في شريعة البيئة . . فالسيدة الحَصان تنجبها الأسرة الوقور لن تكون الا على هذه الصفة ، ومتى وصلنا الى السمت اللائق أو الى أدب اللياقة

فأبو العلاء وسائر أبناء البيئة سواء ، والفيلسوف الذي قال :

كذب الظـن لا امـام سوى العـ ـقل مقياً في صبحـه والمساء

لا يعنيه من امامة العقل هنا الا ما يعني قعائد البيوت وعجائز الأمهـات والجـدات ، ذوات البنات اللائي يلتمسن الأزواج في ستر وحشمة وصيان !!

***

ولعلنا تسهّلنا بعض التسهل اذ قلنا : ان أبا العلاء وسائر أبناء البيئة سواء . . فانه لأشد تحرجاً من كثيرين ، وانه ليحظر على نفسه ما يبيحه آخرون ، وانه ليحسب الوقار جمالا لايدانيه جمال في الرجال ، فان حذر من الشيخوخة آفة فانما يحذر أن يدركه الخرف :

ومـا أتوقّـى والخطـوب كثيرة من الدهـر الا أن يحـل بي الهِتْر

واذا رثى أباه في صباه وهو يتخيل موقف الحشر ورهبة القيامة وزحـام العطـاش على الحوض فليس ينسى أن يسأل عن ذلك الأب :

ألا ليت شعـري هل يخف وقاره اذا صار أُحْـد في القيامـة كالعهن

وهـل يرد الحـوض الـروي مبادرا مع الناس أم يأبى الزحام فيستأني ؟

فكأنه يقف بالدين والفلسفة عند باب العقل ، ثم يقف بالعقل عند باب الوقار أو أدب اللياقة ، ثم لا يسأل هذا السلطان الجائر سؤ الاً واحداً من تلك الأسئلة التي كان يشنها من كل جانب على جميع السلاطين وجميع الدولات وجميع الأحكام ، ولو أنه سأل وأباح نفسه الجواب الصريح لما اخذها بكل تلك الصرامة ولا أحال عليها كل تلك القيود .

أما مرجع ذلك السلطان الجائر من حياة أبي العلاء فهو أسبـاب كثـيرة وليس بسبـب واحد :

مرجعه الى تربية الأسرة . .

فقد كان أبوه وأمه من ذوي الوجاهة والصلاح ، وكان آل أبيه يتوارثون القضاء في بلده ويعيشون بين الناس كما يعيش رجال الدين ورجال الحكم على شعائر المروءة والتعفف والأنفة من غشيان مواقع الشبهات ، وعلى الهيبة التي لا غنى عنها لمن يسوسون الرعية باسم الله واسم السلطان . .

ومرجعه الى الخليقة العربية . .

فقد كان أبو العلاء عربي النجر عربي الطبيعة ، يفهم أن العرض قوام الشرف والعزة ، وأن الابتذال هو الهوان الذي ما بعده هوان ، وأن الرجل الذي يجترىء عليه المجترىء بمذمة أو سخرية هو حمى مستباح ، وأن من لا حياء له لا حياة له ولا خير فيه ، وأن السنَّة ما سنَّه الآباء وجرى عليه العرف وسارت به الأمثال وحسنت به القدوة .

ومرجعه الى فقد بصره . .

فان الضرير قد يصيبه السخر والملام لأمور يواقعها البصير ولا من يسخر به أو يلومه ، وان البصير قد يمارس من الشهوات ما يأمن الفضيحة فيه ، لأمانه من أن يطلع عليه احد غيره ، وليس ذلك في مقدور الضرير : فاما الفضيحة والعار واما الزهد والوقار .

ومرجعه الى كبريائه وعزَّة نفسه . .

فان الأعمى قد تهون عليه الفضيحة في سبيل الشهوة ، الا أن تكون له كبرياء تأبى له المهانة والابتذال ، فيهون عليه فقد الشهوات واقتناء الكرامة . .

ولقد رأينا أن أبا العلاء كان لا يرضى من الدنيا الا بالسيادة عليها أو بالاعراض عنها ، فاما الملك واما الرهبانية ولا توسط عنده بين الأمرين ، فلا يحسبن أحد أن « فكرة الملك » عارضة في ذهنه كما يعرض الخاطر في خلد الشاعر ، فان « للمجد الدنيوي » لنزعة مكبوتة في قرارة ضميره يدل عليها شعره ونثره ، ولا تزال غالبة عليه في جمحات الأهواء وفلتات اللسان . فسرعان ما يثب اليها كلما عرضت لها لمحة ظهور ، وله في ذلك أبيات تعد بالعشرات منها :

لا ملك لي وأرى الدنيا تحاصرني   وما حججت وقد لاقيت احصارا

ومنها :

ما سرني بقناعة أوتيتها   في العيش ملكا غالبٍ وذمار

ومنها :

لو شاء ربي لصاغني ملكاً   اوملكاً . . ليس يعجز القدر !

ومنها :

وزهدني في هضبة المجد خبرتي   بأن قرارات الرجال وهود

ومنها :

لا كانت الدنيا فليس يسرني   أني خليفتها ولا محمودها

ومنها :

محمودنا الله والمسعود خائفه ... فعد عن ذكر محمود ومسعود
ملكان لو أنني خيرت ملكهما ... وعودْ صلب ، أشار العقل بالعود

ومنها :

ما سرني أني امام زمانه ... تلقى اليَّ من الأمور مقالد

ومنها :

أسر ان كنت محموداً على ضعتي ... ولا أسر بأني الملك محمود

وقد أعجبه أن يراه راءٍ في الكرى يلبس تاجاً فقال :

رآني في الكرى رجل كأني ... من الذهب اتخذت غشاء راسي
قلنسوة خصصت بها انضاراً ... كهرمز أو كملك أولى خراس
فقلت معبِّرا : ذهب ذهابي ... وتلك نباهة لي في اندراسي

ولعل الرائي هو أبو العلاء نفسه قد أظهر له المنام ما أخفاه العقل الباطن من نو ازع الكبرياء ، أو لعله صاحب خبيث قد استطلع طلعه وعرف شموخ طبعه:فرأى المنام حقاً أو لفّقه له ليغنم رضاه .

وكأنه لما فاته التاج وسوس له « عقله الباطن » في المنام فرأى تلك الرؤ يا ، ووسوس له في اليقظة فقال في المفاضلة بين تاج الملك وتاج الزاهد :

والتاج تقوى الله لا ما رصعوا ... ليكون زيناً للأمير الفاتح

وأمثال هذه الأبيات وعشرات مثلها لا تبدر من رجل يمزح حين يقول : كن في الدنيا كثيرا أو قليلا ، فاما مليكا أو راهبا . . ثم تدركه الأنفة أن يأكل من رزق غيره مع الرهبانية فيقول :

ويعجبني فعل الذين ترهبوا ... سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

كلا . . ذلك رجل قد تغلغلت الأنفة في أعماق طبعه ، فما هي عنده كلمة مجاز أو كلمة مزاح أو شطحة خيال .

تلك مراجع شتى لعادة السمت أو « أدب اللياقة » في خلائق أبي العلاء :

ومرجع آخر نضيفة اليها ولا نحسبه قليل الأثر في تكوين تلك العادة : أنه كان ضعيف البنية ضعيف الخوالج الجسدية . . فلم تغلبه شهوات اللحم والدم ولم يعسر عليه ضبطها

في عنان السمت مدى تلك السنين الطوال . .

على هذه المراجع جميعها قام « أدب اللياقة » في خلائق أبي العلاء ، او قامت تلك الشيمة التي قلنا انها لو تغيرت قليلاً لخرج أبو العلاء رجلاً آخر : مَنْ يقرأه لا يهجس في خاطره ذكر المعري المعهود . . ترى هل كان تغييرها من المستطاع ؟ . .

وماذا كان المعري صانعاً لو قدر على تغييرها ؟؟

عالم السريرة

قلنا في ختام الفصل السابق ان الخصلة التي لو تغيرت في أبي العلاء غيرت معيشته كلها أو غيرت مذهبه في الحياة كله ـ هي خصلة الوقار وكراهة السخر والمهانة أو هي خصلة « اللياقة » كما نسميها في العصر الحديث . .

وقلنا ان هذه الخصلة مردودة فيه الى مراجع كثيرة ، وهي التربية في بيت العلم والوجاهة ، والسليقة العربية ، وفقد البصر ، والكبرياء ، وضعف البنية ضعفاً اتاح له أن يكبح نوازع اللحم والدم ويقمع دوافع الشهوات . .

وسألنا : هل كان من المستطاع تغيير هذه الخصلة ؟ وماذا كان المعري صانعاً لو انها تغيرت بعض التغيير أو كل التغيير ؟

***

وعندنا أن تغييرها كان مستطاعاً كما يستطاع كل تغيير في عوارض الصفات . .

فان تلك المراجع التي أنشأت فيه حب الوقار ليس من شأنها أن تنزع بصاحبها الى النسك والزهد في الحياة الا اذا اجتمعت في وقت واحد .

أما اذا افترقت ولو بعض الافتراق فليس النسك لصاحبها بلزام ، وليس حتماً عليه أن يأنف من نعيم الحياة .

اذ ليس كل من تربى في بيت من بيوت العلم والدين والوجاهة بصادف عن اللذات والشهوات ، أو بعاكف على الصوامع والدور التي يسميها المحابس . . والأمثلة فيما نراه وفيما نقرأه كثيرات . .

وليس كل عربي تمنعه صيانة العرض أن يعاقر الخمر ويستطيب المجون ، فان امرأ القيس وطرفة والأعشى عرب في الصميم من العروبة ، ومجونهم مع ذلك كمجون الشعراء من أبناء الأمم الأخرى في عهود الجاهلية وعهود الأديان . .

وليس كل ضرير عازفاً من مواقع الشبهات ، فان بشاراً قد ولد ضريراً وانه لأسبق الى الشبهات من المبصرين . .

وليس كل ضعيف البنية معرضاً عن حظوظ الأقوياء والأشداء ، اذ ربما كان ضعف البنية سبباً الى الافراط في التماس تلك الحظوظ ، لأنه يضعف الارادة فلا تقوى على كبح سورات الطبع ووساوس الاغراء . . وكذلك ليس المتكبر مترفعاً ابدا عن الطرب والسرور ، لأنه اذا كان بصيراً لم يكن في طربه وسروره ما يجلب عليه السخر والمهانة ، او يعرضه للتغامز والتقريع بل لعله يرضي كبرياءه احياناً من طريق غزوات الحب ومظاهر البذخ والثراء . .

* * *

أما اذا اجتمعت هذه الأسباب كلها فمن الصعب أن يفلت الطبع الواحد من أوهاقها ، ومن الصعب أن يوفق بينها جميعاً الا كما وفق بينها ابو العلاء ، أي باجتناب الدنيا والتزام العزلة والقناعة . .

لكن افتراقها كان ميسوراً لا استحالة فيه ، فلم يكن ضربة لازب أن يصاب أبو العلاء بالجدري في طفولته الباكرة ، ولم يكن ضربة لازب اذا أصيب به أن يفقد بصره وأن يعيش بعد ذلك رهن المحبسين . وماذا يبقى من معيشة أبي العلاء او من فلسفته في المعيشة اذا لم يكن رهن المحبسين ؟

أكبر الظن في هذه الحالة أنه كان يجمع بين النواسية والخيامية في نمط واحد ، أو كان يخرج لنا نمطاً جديداً يضاف الى نمط النواسي ونمط الخيامي في ديوان الاداب الشرقية ، ويكون لا ريب نمطاً بديعاً خليقاً بذلك الذهن الوقاد وذلك الطبع الأصيل .

وفي المعري جميع العناصر التي تخرج منه ذلك النمط البديع ، ونعني به النمط الذي يذكرك عمر الخيام أو يذكرك الحسن بن هانىء قبل أن يذكرك أبا العلاء الذي عهدناه ودرسناه .

عنده الشك في أخلاق الناس وعقائدهم فهو القائل :

ما فيهم بَر ولا ناسك ... الا الى نفع له يجذب

وهو القائل :

توهمت يا مغرور أنك ديِّن ... على يمين الله : مالك دين !

وهو القائل :

يحرم فيكم الصهباء صبحاً ... ويشربها على عمد مساء

وهو القائل :

وما يحجون من دين ولا نسك ... وانما ذاك افراط من الأشر

وهو القائل وفيه كل سخرة بخلائق الناس وخلائق نفسه :

عرفتك فاعلم ان ذممت خلائقي ... ورابك بعضي : ان كلك رائبي !

* * *

وعنده الرغبة في الحياة والشغف بمتاع الدنيا ، وكلامه في ذلك كثير .

منه قوله :

تناهبت العيش النفوس بغرة ... فان كنت تسطيع النهاب فناهبِ

ومنه قوله :

والمرء ليس بزاهد في غادة ... لكنه يترقب الامكانا

ومنه قوله وهو أصرح مما تقدم :

ولم أعرض عن اللذات الا ... لأنخيارها عنى خَنَسْنَهْ

وعنده الشك في عقبى النفس وما يستتبعه ذلك الشك من قلة المبالاة والمساواة بين المحامد والمثالب ، ولعل أوجز كلامه في هذا المعنى قوله :

وقد زعموا الأفلاك يدركها البلى ... فان كان حقاً فالنجاسة كالطهر

أما الخمر فلا أستبعد أن الشيخ قد ذاقها في بعض الأديرة التي كان يغشاها للدرس ومراجعة المذاهب ، فان أوصافه لها أوصاف من لا يقتصر في العلم بها على السماع .

بل لا أستبعد أنه كان يذوقها من حين الى حين في بعض أيام العزلة كما ينم عليه قوله :

فلا تشربنها ما حييت ، وان تمل ... الى الغي فاشربها بغير نديم

وانك لتقرأ نهيه الكثير عن الخمر فتلمس فيه نزاعاً شديداً اليها يغالبه ويعاوده في معظم

أيامه كما يؤخذ من قوله :

تمنيت أن الخمـــر حلـــت لنشوة ... تجهلنـي كيف اطمأنـــت بي الحال

او في قوله :

أيأتـي نبـــيٌّ يجعـــل الخمـــر طلقة ... فتحمـل شيئـــاً من همومي واحزاني ؟
وهيهات لو حلت لنا كنـــت شاربا ... مخففـــة في الحلـــم كفـــة ميزاني

أو من قوله :

لو كانت الخمر حلا ما سمحت بها ... لنفسي الدهـــر لا سراً ولا علنا

أو من قوله :

لا أشرب الـــراح اشري طيب نشوتها ... بالعقل افضـــل انصـــاري واعواني

أو من قوله :

لو كان قدساً[1] ثم هبـــت ريحها ... بهضابـــه لـم يبـــق فيه وقار
لو يحمل الشرب الـــرواسي اوهموا ... ان ليس فوق ظهورهـــم أوقار

أو من قوله

ومـــا قصرت لي ام ليلى بشربها ... حنادس أوقـــات عليَّ طيال

أو من قوله :

لا ينـــزلن بانطـــاكية ورع ... كم حلل الـــدين عقـــد للزنانير
بها مدام كذوب التبر تمزجه ... للشاربـــين وجـــوه كالدنانير

أو من قوله :

لقد خدعتني أم دفر[2] وأصبحت ... مؤيدة من أم ليلى بسلطان
اذا اخذت قسطاً من العقـل هذه ... فتلك لهـــا في ضلـــة المرء قسطان

أو من قوله :

لا أشرب الـــراحَ ولـــو ضمنـــت ... ذهـــاب لوعاتـــي واحزاني
مخففـــاً ميزان حلمـــى بها ... كأننـــي ما خف ميزاني

---

(١) اسم جبل

(٢) كناية عن الدنيا

الى أضعاف هذه الأقوال وما شاكلها في اللزوميات خاصة ، وهي من بعض الوجوه أشبه الأشياء بمفكراته الشخصية ، وهذا عدا ما جاء في رسالة الغفران من وصف مجالس الشراب ولذات الشاربين في الدنيا والآخرة . .

فان لم يكن في كل ما تقدم دلالة على ان الشيخ قد ذاق الخمرة وعاد الى مذاقهابعد لزوم المحبسين ففيه دلالة على اشتهائها ومغالبة نفسه عليها ، مغالبة ليس بالهين نسيانها وصرفها من ذهنه وهواجس ضميره .

***

ويرجح الظن بنزوع المعري هذه النزعة بين الخيامية والنواسية انه كان يعيش في عصر فتنة واضطراب ، وجزع على الأنفس والأعراض ، وتلك عصور يشيع فيها الفساد وتندر فيها العصمة ويكثر فيها اغتنام الفرص والتهافت على اللذات ، ولا سيا على ملتقى الطريق بين حضارة الروم وحضارة العرب وحضارة الفرس ، وكلها في ذلك العهد حضارات اخذت في الزوال ولم تستبق من المناعة والتماسك ما يزجر النفوس ويعصم الأخلاق ويحيي شرائع الآداب .

لكن لماذا نقول الخيامية والنواسية ونفرق بين الطريقين وكلا الرجلين الخيام وأبو نواس ـ معاقر كأسٍ مقبل على متعة ، مستخف بالذم والثناء ؟ . .

نقول ذلك لأنهما على اتفاقهما في العمل مختلفان في أسبابه ودواعيه وغاياته . .

فالخيام يشرب وينعم لأنه عالج مشكلات الوجود فاستعصى عليه حلها فقنع بالساعة التي هو فيها وعمد الى الكأس يغرق فيها شكوكه واسفه على بطلان الحياة وعاقبة الحياة .

أما أبو نواس فلا شكوك عنده ولا مشكلات ، وانما هو شارب خمر لأنه يشتهيها ويتصدى لعقاب الآخرة في سبيلها ، فالآخرة عنده حقيقة مفروغ منها وليست قضية في طريق الحل والجلاء . . كما كانت في مذهب عمر الخيام . .

أما أبو العلاء فهو قريب من أبي نواس في الثقافة العربية وقريب من الخيام في التفكير والبحث عن اصول الأشياء ، فهو لا يكون كهذا ولا كذاك حين يستسلم لمتاع الحياة ، ولكنه يكون نمطاً وحده يأخذ من كليهما بما هو قريب اليه ، وقد يترجم هذا النمط بعض الترجمة بقوله :

السيف والرمح قد أودى زمانهما فهل لكفك في عود ومضراب

***

الا أننا نسأل ويحق لنا السؤال : هل كان حتماً لزاماً على المعري اذا هو سلم من الجدري وعاش بصيراً بين أهل زمانه أن يدرس الدراسة التي تشككه وتدفع به الى البحث في اصول الأشياء ؟ ألم يكن من الجائز أن استغراقه في الدراسة انما كان نتيجة لفقد بصره وانصرافه عن الدراسات الأخرى التي يشتغل بها طلاب المناصب والمساعي الدنيوية ؟ الم يكن من الجائز أن يدرس ـ وهو طفل بصير ـ تلك الدروس التي ترشحه للقضاء كما رشحت بعض أهله من قبله ؟ الم يكن من الجائزاذا علمه أهله ليرشحوه لوظيفة القضاء أن يكتفي بدروسه الفقهية ولا يسترسل في دروس الحكمة والفلسفة وشكوك الأديان ؟ . .

كل ذلك مما يجوز ، وقد ذكر هو المراتب والتطلع اليها في مواضع من شعره ، وذكر الفتيا فقال :

قلدتني الفتيا فتوّجني غداً تاجاً باعفائي من التقليد

وقال يخاطب أبناء بلده :

يا قوم لو كنت اميراً لكم ذممتم في الغيب ذاك الأمير

***

فاذا قنع الطفل أبو العلاء بدروس الوظائف والمساعي الدنيوية فربما ولي القضاء وعاش عيشة القضاة في زمانه فلا يطيل الدرس ولا يتشعب في مناحيه بعيداً من فقه الدين وفتاوى القضايا الشرعية ، واذا تمادى به البحث مرة ودعاه الى ذلك بعض ما يسمع ويرى من حوله فما هي الا خطرة عارضة ، لا تلبث أن تذهب كما جاءت أو تنطوي فى خبايا النفس مزوية عن الاسماع والابصار .

لقد كان اذن يجد الوظيفة والبصر ولكنه يعيش بعد موته في ظلام التاريخ . .

لقد كان يعيش اذن جاهلاً حقيقة نفسه ويموت مجهولاً بين عارفيه منذ قضى نحبه إلى أن يشاء الله .

أبو العلاء هو أبو العلاء

قال الرسول :

ألم يجمع شيخنا العظيم رأياً فيما اختار من تلك الشخوص ؟

قال أبو العلاء .

شيخنا العظيم قد اختار وفرغ من اختياره

قال الرسول :

أفيأذن مولاي أن أسأله عما اختار منها ؟

قال أبو العلاء :

بل هو يسألك ماذا أنت مختار له من تلك الشخوص ، فلعله يهتدي منك بهدى فيما يؤثره لنفسه ، من شكول حياته واحوال وجوده .

قال الرسول :

عفوك اللهم وغفرانك ! أفمثلي يهدي أبا العلاء ؟ وفيم أهديه تعاليت ربي وتباركت ؟ فيما يأخذ من شأنه وفيما يدع ، وفيما يؤثر لنفسه وفيما يأبى ! ماذا أسمع منك مولاي ؟ وهل بلغ من قدري أن اصبح هدفاً لسخرك ان كنت ساخراً ، وغرضاً للتهكم منك ان طاب لك أن ترجع الى تهكمك القديم ؟ . .

قال أبو العلاء :

ولا كل هذا يابني . . ما أنا بساخر منك ولا متهكم . وانما يعجز الانسان غاية العجز

حين يختار لنفسه ، ويقدر غاية القدرة حين يختار لغيره ، وليس صاحب الحكمة بدعا في هذه السنة التي شملت أبناء آدم وحواء ، بل لعل الحيرة أعظم والتردد الزم حين يختار الحكيم وينظر في مختلف الشئون ، قياساً على كثرة ما يرى وكثرة ما يستوعب من المزايا والنقائص ، وكثرة ما يعلم للمسألة الواحدة من وجوه وأطوار . فلا جرم تكون أهلا للسؤال الذي سألتك وأنا أحوج الى جوابه منك الى جوابي ، فانما أنظر الى شخوصي كما ينظر الأب الى أبنائه فلا أدري من منهم الأثير الراجح ومن منهم المزوي المرجوح . وأنا بعد صاحب الاختيار ومن يقع عليه الاختيار ، وأنا بعد الشاهد والمشهود عليه ، فما بالك تستغرب مني أن آنس الى خاطر يخطر لك أو ظن يحوم في خلدك ! . . قل يا بني ولا حرج عليك من حكمة حكيمك العظيم كما تدعوه . ما أنت بجاهل وما أنا بعليم :

وما العلماء والجهال الا قريب حين تنظر من قريب

قال الرسول وهو مأخوذ :

ذلك علم أستفيده منك اذ أنت تنكر العلم يا مولاي على نفسك ، وقصاراي أن أسألك عن شخص من شخوصك التي تعرض عليك ، وأن تقول لي ما تحمده منها وما ليس عندك بحميد ، وأنا الرابح بما اسمع ، وان لم يبلغ من رأيي أن يضاهي رأي الشيخ فيما يريده وما يأباه . .

قال أبو العلاء :

قل على بركة الله . .

قال الرسول :

ذلك قاضي قضاة المعرة أول تلك الشخوص ، أتمثله سيداً جليلاً ينظر الى الدنيا وتنظر الدنيا اليه ، وينعم بنصيب من الحياة يعلن منه ما يعلن ويبطن منه ما يبطن ، ويسأله الناس في العلم والدين ، ويقصده القاصدون فيما يشكل عليهم من قضايا الفكر ، وقضايا المصالح والحاجات . .

ومضى الرسول يطنب في مآثر قاضي القضاة وهو ينظر الى وجه ابي العلاء فيراه يبتسم ويصغي في غير قليل من الرحمة والحدب ، وغير قليل من التعجب والاستجهال ، ويتأنى الرسول في كلامه ويكفكف بعض الشيء من اطنابه وغلوائه ، فيعمد الشيخ الى الكلام كمن لا ينشط اليه ، ويقول للرسول سائلا :

في أقاليم الهند والصين ألوف وألوف من أجيال البشر الأحياء في هذا الزمان ، افتراني لو

عدمت الحياة أحسب نفسي حياً لانهم احياء ، وأزعم انني أعيش لأنهم يعيشون ؟
قال الرسول :

كلا يا مولاي ، فان لهم حياتهم وللشيخ حياته ، ولهم اعمارهم المعدودة وللشيخ عمره المعدود . .
قال شيخ المعرة :

فتح الله عليك . فما أنا وذلك القاضي الذي وصفت ؟ وما نصيبي من الحياة ان عاش هو وسمى نفسه أبا العلاء ؟ هو رجل من أهل الصين ما سمعنا به في الأولين !

انما أبو العلاء هو أبو العلاء حين يمعن في اغوار ضميره فيلمح هناك هواجس قلبه وشكوك عقله ، ومادة علمه واختباره وآثار نعمته وحرمانه ، وما حصل او ضيع من أحلامه واشجانه ، وغاية ما ينتهي من ظنه أو يقينه ، فما أنا وقاضي قضاتك يا بني ؟ ذره وما اختاره يعيش كما اختار له أمراؤ ه وطلاب عدله وانصافه ، فان الصلة بيني وبينه كما قلت لك كالصلة بيني وبين ألوف ممن عاشوا او يعيشون في ارجاء الهند والصين ، فما اجتاز صاحبنا من حقيقة أبي العلاء عتبة الدار ، ولا صعد منها الى ذروة ولا هبط الى قرار . .

قال الرسول :

فما قول شيخنا افاده الله في الشاعر النواسي يحيا حياته وينعم نعيمه ، ويرتع في لذات العيش كما رتع ، وينظم الشعر كما نظم ، ولا يحرم الشهرة بعد زمانه ، ولا الحظوة بين معاصريه واقرانه ؟

قال أبو العلاء متهانفا مستكرها :

لو سرني ان أعيش عيشه لسرني أن اخلد خلوده وان اشتهر اشتهاره في زمانه وبعد زمانه : ذاك نديم يا بني وتلك غاية مرتقاه ، فكيف تراني اوثر مكان النديم ومن فوقه مكان من ينادمه ويرجو مسرته ويبتغي صلاته وعطاياه ؟؟

رحم الله ابن هانىء ، ما اقترب من الأفق الا حين قال :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت　　　له عن عدو في ثياب صديق

ثم أبى أن يمتحنها وامتحنتها أنا في كل يوم ، وشرب من يدها الخمر لذة للشاربين وكرهت أنا أن اقبل الضيافة من عدو بغيض ، ولو لقيته لسألته : ما بالك لم تمتحنها

يرحمك الله تركتها محنة لك لا تألوك امتحاناً في ليل ولا نهار ؟

خذه يا بني الى جانب قاضيك فما كان لي من أرب في هذا ولا ذاك .

* * *

فوجم الرسول التلميذ هنيهة ، ثم قال وهو يقدم ويحجم : هل أسأل الشيخ عن الفارسي عمر الخيام ؟

فهش أبو العلاء وقال نعم تسأل ، فبماذا تخالني مجيباً ان سألت عنه ؟

قال التلميذ : أحسب أنني فطنت لاختيار استاذنا من تلك الشخوص التي عرضت عليه . .

ان أستاذنا ليختار الفيلسوف الفارسي وانه ليرضى عن بحثه وزهده ، وانه ليقنع كما قنع برغيفه وقدحه وحبيبه ، وانه لينظر بعد ذلك في السماوات والأرضين بعلم المنجم وخبرة الحكيم ، وانه ليتبوأ من سيرة الخلف بعد زمانه مكان الهداية والتعليم ، لا مكان السمير والنديم !

فبدا على وجه الحكيم الضرير قطوب يسير ، ولكنه قطوب الروية والمراجعة لا قطوب الكدر والانقباض ، وهمس بين شفتيه كأنه في حديث نجوى :

أتراني اكون نسخة منقولة من أحد كائنا ما كان ؟

ثم جهر قائلا :

كلا يا بني ! لقد كنت أختاره لو أنني خيرت فيه قبل ميلادي وميلاده ، اما اليوم فما لي في هذا الشبه من أرب : رضي الله عنه فهو أقرب من آثرت واصعب من أبيت . .

ثم عاد يقول :

لئن حظي بلذة التعاطي لما حظى بقوة الامتناع . . ولئن سكر بخمر الدعةلماسكر بخمر الانفة ، ولئن جرب اتباع الدنيا خطوة واحدة لما جرب الاعراض منها خطوات : له طريق ولي طريق ، وربما التقينا في بعض الطريق !. .

ثم صاح الشيخ بتلميذه ورسول القوم اليه :

ما بالك يا بني ترضى لي كل صورة الا الصورة التي رضيتني من اجلها ؟

قال التلميذ : تعني يا مولاي صورة أبي العلاء ؟

قال الشيخ : نعم . اياها اعني ولا أعني سواها .

فعجب التلميذ عجباً لم يدر له منفذاً ولا منصرفاً : ايقضي الشيخ حياته في التبرم والانكار ثم لا يختار حين يختار الا ما تبرم به واغرق في انكاره ؟ . .

هذا والله لهو العجب العاجب والحيرة جد الحيرة في قضاء الناس مع الاقدار وقضاء الاقدار مع الناس . .

وكأنما ادرك الشيخ ما يهجس به ضمير التلميذ فقال له : تراه عجيباً ؟ أليس كذلك ؟ . .

قال التلميذ: لا أكتمك عجبي فأنت به أعلم ، وما أدري كيف شكوت الدنيا ثم كيف تختار اليوم ما كنت تشكوه ؟

قال : أضرب لك مثلاً ، فانما بالأمثال تنجلي المشكلات والمشابهات :

هبك خرجت الى العالم العريض الرحيب فجعلت لا ترى مزية ولا حسناً ولا فضيلة في احد من الناس الا تمنيت ذلك لنفسك : هبك تمنيت من هذا عينيه ومن هذا انفه ومن هذا قوامه ومن هذا فكره ومن هذا عافيته ومن هذا أرزاقه وامواله ، ومن هذا ماضيه ، ومن هذا حاضره ومستقبله ، ومن هذا ملكة الشعر أو ملكة الغناء أو ملكة الحكم أو ملكة التدبير . .

وهبك جمعت كل هذا في شخصك فأين تكون أنت بين جميع هذه الشخوص ؟ . .

لا تجب فاني مغنيك يا بني عن الجواب : انك يومئذ لا تكون .

انك تكون أنف زيد وعين بكر ولون خالد وسطوة فلان ومال آخرين ولكنك أنت لن تكون وأنت أنت الذي يعنيك أن تكون جميع هؤلاء ، واذا كنت جميع هؤلاء فلا أنت ولا هؤلاء كائنون .

وقال التلميذ : ألا يتسنى لي أن أحتفظ بأساس وجوهر ثم اتمنى النوافل والعروض ؟ . .

قال الشيخ : ذلك خطؤكم القديم . فما من عرض الا وهو داخل في صميم الجوهر ، وما من شرفة في أعلى البناء الا وللأساس منها عماد ، وان بصري الذي فقدته لجزء من تكويني لا انزعه الا انتزعت كلي معه فلم يبق لي ما اختار به ولا ما أختاره . . ولقد يكون

من عوارض الحياة مال يذهب ومال يجيء ، ودار تسكنها هنا ودار تسكنها هناك ، ولكنك اذا كسبت المال وفيك طبع الفقير فكأنما وقع الدرهم في يمين غير يمينك ، واذا سكنت الدار وخلفت فيها ذكريات شبابك فأنت ساكنها وان تحولت منها الى العدوة الاخرى ، واذا وجدت مرة فلن توجد الا على صورة واحدة في هذه المرة . . وكل ما تختاره بعد ذلك فانما هو من وحي تلك الصورة ، ليس منه محيص ولا محيد .

كلا يا بني . . لن يكون أبو العلاء الا أبا العلاء !!

بساط الريح

قال الشيخ : الحمد لله استطعنا وفعلنا . . .

قال الرسول : ان الفضول ذميم في كل شيء يا مولاي الا في طلب العلم والسؤال عنه . أفيأذن لي أستاذنا في سؤال ؟

قال الشيخ : أحسبك تسألني عما استطعت وفعلت ؟

قال الرسول : نعم . هو ذاك !

فصمت الشيخ قليلا كمن يستحضر نغماً بعيداً أو كلاماً منسيًّا ثم أنشد :

وماء بلادي كان أنجح مشرباً ولو ان ماء الكرخ صهباء جزيال
فيا وطني ان فاتني بك سابق من الدهر ، فلينعم لساكنك البال
فان أستطع في الحشر آتك زائراً وهيهات لي يوم القيامة أشغال

هذا الذي استطعناه وفعلناه : عودة الى الوطن وزيارة للمعرّة في هذا الحشر الذي حشرتمونا اليه .

فأخذت الرسول شيطنة التلاميذ في كل سن وفي كل مقام ، وراح يقول لأبي العلاء : ومع هذا أنت القائل :

فيا ليتني هامد لا أقوم . اذا نهضوا ينفضون اللمم

فأدار الشيخ رأسه ناحية وزمَّ شفتيه قليلا ثم أجابه . نعم ! ليتني هامد لا أقوم . . أما وقد قمت فأي مكان أحق بالحنين من :

بلاد بها نيطت عليَّ تمائمي وأول أرض مس جلدي ترابها

بل أصبح جسمي من ترابها ، واختلط فوق صعيدها وبين أحشائها . . هذه هي المعرة ! . . نعم هذه هي المعرة عرفتها وما كدت أعرف غيرها . . فالحمد لله على البعث فيها . .

فهجم التلميذ بسؤ ال جديد ، وعول على الاكثار من السؤ ال ، اذ لا محيص من مساءلة الشيخ وان ضجر بعض الأحيان. . . فربما كان ضجر الاجابة خيراً من ضجر السكوت سنوات ، ريثما يعقد الاحتفال ويجتمع المقبلون الى المعرة لتحية حكيمها في ذكراه .

قال التلميذ في سؤ اله الجديد : أليس من عجبٍ هذا الحب للمعرة ممن عاف الدنيا بأسرها ؟

فأجاب الشيخ في غير ضجر ولا تأفف ، كأنه كان يتوقع سؤ الا كهذا من تلميذ : « ما أكثر عجب الناس مما لا عجب فيه ! انما يحب الوطن الصغير من يعاف الوطن الكبير ، ومن كره الدنيا كره التقلب فيها وكره السعي وراءها في نواحيها . . فالى أي منقلب يصير غير المكان الذي لا عناء فيه يتجشمه ، ولا جديد فيه يفجأه بما يسوءه ، ولا يزال فيه قريباً من عهد صباه قبل أن يذوق مرارة العيش ويمتحن ببلواه ؟ وما أحرى من اتخذ في المعرة محبساً لا يفارقه أن يتخذ في الدنيا بأسرها محبساً هو هذه القرية ولو فعل غير ذلك لعجبتم منه ، فاعجبوا واخلقوا العجائب فلعلكم تستروحون الحياة ببعض ما تعجبون له ، ولعلكم أطفال القدر يضحك منكم حين تسألون ثم يضحك منكم حين تقنعون بالجواب ، أو تحسبون انكم في غنى عن السؤ ال ؟ يا بني سل ما بدا لك . فقد سألتُ الغيب كثيراً وسألني الناس كثيراً ، وعالجت السؤ ال في الدنيا والآخرة ، فلا أدري ماذا أصنع ان لم أكن سائلاً أو مجيباً لسائل ، وما اخالك ساكتاً لو دعوتك الى السكوت ، فتكلم مأذوناً فأنتم أزهد الخلق في مباح وأرغبهم في ممنوع ، وقد يريحني الاذن لك أضعاف ما يريحني الاعراض عنك ، فلو صدقني من قبلك حين قلت لهم انني أجهل ما يجهلون لطمعت في تصديقك اياي حين ألوذ بالصمت أو أقر بالغباء . .

واضطرب الرسول لا يدري أهذا ترخيص في السؤ ال أم نهي عنه ، وانقباض من الشيخ أم تبسط وانطلاق . . وانه لكذلك اذ عاد الشيخ يتكلم كأنما قد سرت في نفسه حرارة الثورة على الناس ، وانها لحرارة ترضي صاحبها عمن يثيرها ساعة تسخطه عليه ، كما يعدو الجواد فزعاً فيشعر بنشاط العدو وجفلة الفزع في آن ، وأبو العلاء ثائر يرضيه الاعراب عن ثورة نفسه ولا يرضيه طول الكتمان لطباعه . فعاد يقول :

« ألا تنبئني يا بني : ماذا تظنون حين تسألون رجلاً متهماً بالعلم فيعجز عن الجواب أو يأباه ؟ أتحسبون الغيب سلطاناً يجتبي بأسراره الحاشية المقربين ؟ أتحسبون من يصحبه مطلعاً لا محالة على كل أمره فلا يخفي شيئاً الا اتهمتموه بالضن أو الدهاء والروغان ؟ ان كان هذا ما تحسبون يا بني فالغيب ليس بسلطان ، والعلماء ليسوا بحاشية سلطان ، وأحرى أن يكون العالم كالمدلج في الظلام يحمل مصباحه على قدر ضيائه فهو يرى ما هناك ولكنه لن يرى ما ليس هناك . . فان سألتم فاسألوا عما يجوز علمه أو ما يجوز وجوده حيث يراه المدلج وحيث يقع عليه شعاع المصباح . أما ما وراء ذلك فالعلماء والجهلاء فيه كما قلت لكم قريب من قريب » .

فتنفس التلميذ الصعداء ، وعلم أنها غضبة ليست من غضبات الجفاء والنقمة ، وقال وهو يتلعثم : لقد علمت ما لم أسأل عنه ، فما أسعدني بقربك أيها الحكيم سائلاً وغير سائل ، وسترى أيها الحكيم أنني لن أسألك الا عما هو في علمك ولن أطلب منك الا ما هو عندك . فهل أحسب الشيخ آذناً في هذه الساعة بسؤال ، أو أعفيه حتى يأذن ويستريح الى الجواب . . .

فتبسم أبو العلاء وقد راجع نفسه واسترجع حلمه وأناته ، والتفت الى تلميذه ملاطفاً وهو يقول : ان كنت قد تعودت مني ما رأيت وفهمت أنني لا أغضب منك ولا عليك فنحن على وفاق . ولك اذن أن تسأل ولي أن أجيبك أو أغضب كما غضبت منذ هنيهة ، ولا حرج علينا معاً في هذا ولا في ذاك . .

قال التلميذ : جزاك الله خيراً يا مولاي في غضبك ورضاك ، فما قول الأستاذ في اقتراح لا يشق عليه أن يجيبه ؟ ما قوله في رحلة بين آفاق الأرض ثم نعود الى قريته العزيزة في موعد الوفود ؟

فاعتدل أبو العلاء في مجلسه وهو يقول : أو تدعوني الى الرحلة وما فرغنا بعد من الكلام على الوطن والقبوع فيه ؟ انك لا تضيع فرصتك يا بني ، وانك لسريع الهجوم . .

فلم يحجم التلميذ ولم يتردد . بل راح يقول : ان يومك يا مولاي غير أمسك ، وان المعرة اليوم لعلى مسافة ساعات من بغداد ، وان الأرض كلها لتطوى الآن في أيام معدودات . فلو لم يكن في السفر الا تجربة هذه العجيبة المستحدثة في زماننا لكان ذلك شفيعي في اقتراحه وشفيع الشيخ حفظه الله في قبوله .

فطال انصات الشيخ كالمستريب المتوجس ، وخطر له أن الفتى يغـرر به ولا يصدقـه المقال ، ثم سأل في صوت خفيض :

ماذا تقـول ؟ المعـرة على مسـيرة ساعـات من بغـداد ! والأرض كلهـا تطـوى في أيام معدودات !؟ هل عادت المعجزات وهل رجع بساط الريح ؟ هل أصدقك والعقل أولى بتصديق ؟

قال التلميذ : ما على الشيخ الا أن يقبل الساعة وسيصدقني ويصدق العقل معاً بعد ساعات .

قال الشيخ : قبلت ، فأين بساط الريح ؟ وأين سليمان بن داود ؟

ثم مضى التلميذ يشرح للشيخ ما يريده ، والشيخ مقبل عليه ظاهر العجب من كلامه ، حتى فرغ من شرحه وهما على اتفاق أن يجوبا بقاع الأرض في مشرقها ومغربها ، وأن يشهدا الأجيال التي لم يشهدها أبو العلاء ولم يسمع بخبرها ، وأن يتعلم كلاهما من صاحبه ما عنده من علم ، ويتخـذه دليلاً له فيما يجهـل . . فلا حرج من سؤ ال ولا حرج من جواب . . . وسنسمع ، بعد ، ما قال أبو العلاء وما قيل له في كل مكان وصلا اليه .

حكم السيف

ألم أقل لك يا بني أنني لا أملك أن أرى رأياً جديداً ولا أن أحيا حياة جديدة ؟ . .

قصارى ما يملك المرء في هذه الدنيا عمر واحد يعلم فيه كل ما قُدر له من العلم ويعمل فيه كل ما وسعه من العمل ؟ ويختبر فيه اختباره ، ويستوفي منه أحواله وأطـواره . فاذا قضاه فتلك حصته من الزمن لا حصة له بعدها ، ولا نصيب له من أعمار الدنيا وراءها .

قال الرسول : والشهرة يا أستاذنا ، أليست هي عمراً متجدداً وحصة مزدادة ؟ . .

قال أبو العلاء : كلا يا بني الشهرة استطالة لعمر الشهير : فيها تكرار له وليس فيهـا تجديد لشيء منه . . ختمت حصتي من الوقت فلا تنتظر مني قولاً غير ما قلتُ ، أو رأياً غير ما رأيت . . ولو أطلعتني كل يوم من دنياك هذه على جديد . .

***

فأحس الرسول شيئاً من خيبة الرجاء . . أو لا يسمع من أبي العلاء كلمة فيها معنى من المعاني غير ما سطرته الأوراق وفرغ منه الحافظون والشراح ؟؟ لقد كان يحسب أنه ظافر بأبي علاء جديد ، أو بطبعة منقحة من أبي العلاء القديم ، فاذا به يسمع مرة بعد مرة أن أبا العلاء هو أبو العلاء ، وأن حجاب الزمن قد هبط بعده فلا منفذ من ورائه الى علم غير ذلك العلم ، ولا الى حكمة غير تلك الحكمة . وأوشك أن يقتضـب الرحلـة لولا أنـه استدرك وتدبر ، فعلم أن مشاهدة الدنيا في صورة علائية أمر يستحـق النظـر ومعرفـة تستحق العرفان فانطلق يقول :

اذن يا مولاي أنا أعلم رأيك في هذه الحكومات العسكرية التي تركنا بلادها ، أو هذه الأمم التي يجرون على وتيرة لا يشذون عنها ونظام لا يهاودون فيه . . أنت تحمدها بعض الحمد لأنك تقول :

واخش الملوك ويَاسرهـا بطاعتها ... فالملك للأرض مثل الماطر الساني[1]
ان يظلموا فلهم نفع يعاش به ... وكم حموك برَجل أو بفرسان
وهل خلت قبلُ من جور ومظلمة ... أرباب فارس أو أرباب غسان

* * *

وهذه الحكومات المجندة تحمي من الفوضى ولها نفع يعاش به في أزمان القلاقل ، وهي تزعم ألا حرية للناس في قديم من الزمن أو حديث ، ففي كل حكومة جور ومظلمة . والحكم هكذا يكون ، أو لا فهو فتنة وظلم مكنون . .

فأصغى أبو العلاء طويلاً . ثم قال : ولكني كما قلت هذا كذاك :

ومن شر البرية رب مُلك ... يريد رعيةً أن يسجدوا له !

وهؤلاء الحاكمون يقولون انهم معصومون وانهم لا يحاسبون ، وأنهم أرباب يدان لها بطاعة الساجدين الراكعين . فما أحمق هذا وما أحراه ألا يكون بين أناس يعقلون . .

قال الرسول :

الحق ما تقول مولاي ، لولا أن الرعية تحب هؤلاء الحاكمين ولا تطيعهم الا وهي راضية بما تطيع .

فلم يزد أبو العلاء على أن أعاد بيته القديم :

تلوا باطلاً وجلوا صارماً ... وقالوا صدقنا . فقلنا نعم

* * *

فعاد تلميذه يحاوره وكأنه ذو هوى في تعظيم مذاهب الحكم عند هؤلاء العسكريين ، وقال فيما قال :

---

(١) الساني : المطر يُسني الارض ، اي : يسقيها

ان هؤلاء القوم لا يخضعون على كره منهم ، ولكنهم يخضعون لأنهم يؤمنون ايمان الحاكمين ويفكرون تفكيرهم ويريدون مرادهم ويفرحون بعظمتهم كأنها عظمة لهم فيها نصيب ، وكأنهم شركاء في السيادة حين يخضعون لأولئك السادة .

قال أبو العلاء :

وما أعجبتني لابن آدم شيمة على كل حال من مسود وسائد

ذلك أدهى وأمر ، وليتهم فكروا وخالفوا وخضعوا مرغمين ، فذلك أكرم لعقل الانسان وأدنى الى الرجاء في الخلاص ، أما أن يسلب الانسان الفكر حتى لا يفكر الا بأمر حاكميه وعلى وفاق الهوى من رؤسائه ، فذاك آلة من الآلات وحيوان من العجماوات ، وليس بآدمي له عقل : والعقل امام للآدميين أولى بالاتباع من كل امام .

***

قال أبو العلاء ذلك وزوى وجهه كأنه قطع القول وحسم الجدل ، وقال ما لا رجعة فيه ولا مزيد عليه .

الا أن التلميذ قد طاب له أن يسترسل في النقاش والسؤال فانثنى يقول : أولا تُغفر الطاعة من الرعية حتى لو أفلح الرعاة في سياسة الأمور وشاهد الناس فلاحهم آنة بعد أخرى ، فعلموا أنهم راشدون وأنهم لا يخطئون ، وان خطأهم آمن في عقباه من خطأ الكثيرين ؟

فسأل أبو العلاء : من القائل :

يسوسون الأمور بغير عقل وينفذ أمرهم فيقال ساسة !

فأجاب التلميذ : كيف ؟ انك أنت قائل هذا يا مولاي !

قال أبو العلاء : ذلك فحوى كل جواب على كل سؤال من قبيل ما سألت . . فلا تنظر يا بني الى فلاح هؤلاء الساسة حين ينفذ أمرهم ويستقر سلطانهم وتمضي مشيئتهم . بل انظر اليهم حين يفشلون وحين يريدون فلا يقدرون . . انظر اليهم يومئذ تعلم أنهم يخطئون كما يخطىء سائر الناس وأكثر مما يخطىء سائر الناس ، بل تعلم أن الناس يرون لهم من الخطأ يومئذ أكثر مما صنعوه وأكثر مما يستطيعونه أو استطاعوه . ولا تنسَ أبدا قول الحكيم القديم :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطىء الهبل

* * *

واذكر يا بني أن هؤلاء الجيوش المجندين يتعلمون الجبن حين يتعلمون ما تحسبه شجاعة . . وان أشجعهم لن يجرؤ على كلمة يغضب بها سيده وصاحب أمره . . وما بقي بعد ذلك من اقدام على القتال أو الشجار ، فهو اقدام اضطرار ، أو اقدام مخمور بحميّا الضجيج والفخار . .

وما أبرىء نفسي يا بني . لقد عرفت هذا الجبن وقلت فيه :

لجأت الى السكوت من التلاحي كما لجأ الجبان الى الفرار
ويجمع منّي الشفتين صمتي وأبخل في المحافل بافتراري

هؤلاء كلهم يا بني فارّون من المنطق والكلام ، جبناء يهربون من الميدان الى السمت الذي تدعوه طاعة أو تدعوه شجاعة ، وما هو من الطاعة والشجاعة الا كالرجل وصورته في المرآة .

* * *

قال التلميذ : واجمال ذلك كله في كلمة واحدة يا مولاي .
قال أبو العلاء : اجمال ذلك كله يا بني في بيت واحد ، وهو :

ساس الأنام شياطين مسلطة في كل أرض من الوالين شيطان

* * *

وانفض بذلك الجدال بين الشيخ وتلميذه ، وهما قافلان من بلاد الحاكمين العسكريين . .

المستشرقون

هؤلاء الذين استغربت أمرهم يا مولاي ، هم من سميناهم نحن بالمستشرقين ! وهم أناس لم يسمع بهم الأستاذ لأنهم نشأوا أول نشأتهم في عصره ، فكان أقدمهم يتعلم العربية والحكمة على عرب المغرب يوم كان الأستاذ يملي دروسه القيمة في المعرة قبل عشرة قرون ، وكانوا قسيسين ورهباناً يدرسون علوم العرب ليفقهوا أسرار القرآن ويستعدوا لها بالحجة والبرهان ، ثم شاع أمر الدولة المسيحية وأمر الخلاف على الأناجيل بين حبرها الأعظم ومن خرجوا عليه واعتزلوه . . فمن ثم كثرت طوائفهم في بلاد الجرمان ولا يزالون أكثر ما يكونون بين هؤلاء القوم ، ولا سيا وهم قوم مشغوفون باللغات والبحث في الأصول واللهجات . فهذا علة ما استغربه الأستاذ من شيوع الاستعراب هنا حيث نحن الآن مقيمون ، وأنهم من أجل هذا يحومون حول هذا الورد ويغتنمون هذه السانحة ، ولا يريدون أن يعبر بهم حكيم المعرة دون أن يوسعوه حفاوة وسؤالا ويتخذوا من كلامه بيانا يعتصمون به ودعاية يدعون اليها . فان شاء الأستاذ أن يصابرهم ويستقصي خبرهم فله الرأي الأعلى فيما يشاء . . . »

ذلك كان حديث التلميذ لأستاذه بعد رحلة ليست بالقصيرة قضياها في بلاد الجرمان ، ولقيا فيها فئات من المستشرقين سمعوا برهين المحبسين فزاروه واستزاروه ، وسألوه وأجابوه ، وعجب ابو العلاء من شأنهم في بلاد الغرب فسأل تلميذه عنهم على سبيل الاستطلاع أو على سبيل القصاص ، لكثرة ما أطال عليه من سؤال ، وكثرة ما التمس عنده من فائدة ، وكثرة ما كلفه من تجوال .

فلما أنبأه التلميذ نبأهم قال أبو العلاء :

استعجـم العـرب في المواسـي بعـدك واستعـرب النبيط

ثم قال :

أين امـرؤ القيس والعذارى اذ مال من تحتـه الغبيط

وجعل يردد : أين ؟ أين ؟

ثم عاد يقول : هيهات ! هيهات !

هذه فئة عهدنا لها أشباهاً بين رهبان زماننا ، يدرسون العلم دراسة رهبان ولا يزالون رهباناً في كل ما يدرسون . فهم يحجون الى العلم من طريق الدين ، وقلما يعرفون العربية الا بلسان أعجم ونفوس أشد عجمة ، وأقربهم الى البصر بها من كان للعلم قصده وكانت له في لغة قومه قدم ، وهم جامعون ومحيطون ، دأبهم كدأب كل محيط يقف عند الأطراف ولا ينفذ منها الى القلب ، ولهم على ذلك ما استحقوا من جزاء ، وثناء

* * *

ثم قال : ومن هؤلاء الذين تسألني أو تأمرني أن ألقاهم الساعة ؟

قال التلميذ : أستغفر الله يا مولاي ، فالأمر والرأي لك ، وانما هو اقتراح أو رجاء ، وأنت ما ترضاه من قبول أو اباء . .

هؤلاء الصحفيون يسألون ، وقد عرفت طريقتهم في السؤال ، فان أذنت لقيتهم جميعاً مرة واحدة وأفضيت لهم بخبر ما هم مستخبرون ، فلا نجاة منهم قبل أن نرحل من هذه الديار .

فاستسلم أبو العلاء ، وأومأ قائلا : علي بهم مجتمعين ! فما أتمها حتى كان واحد منهم على الباب ، وكان يتلو خطاباً قد استظهره وتصنع لالقائه ، وجاء منه بعد كلام طويل :

« اننا نستقبل منك في بلاد الجرمان رجلا من أهل الشمال وان كان مولده فى الجنوب ، وعقلاً من عقول الآريين وان كان منسوباً الى الساميين ، وشاهداً جديداً على صدق علم الأجناس الذي كشف لنا حقيقة النبوغ ودخيلة المزايا والأخلاق بين الشعوب . فلا فضل ولا عبقرية ولا ارتقاء في الآداب والفنون ، ولا في العقائد والأخلاق الا أن يكون مردها جميعا الى أبناء الشمال ، وان خفيت مصادر النسب واختلفت مواقع الميلاد . .

ولو لم تكن أيها الرجل العظيم من سلالة الآريين لما اتصل الروح بينك وبين الهند

فرآيت ما رآه البوذيون وحرمت ما يحرمون ، وأبحت ما يبيحون ، فأنت الناهي عن أكل الحيوان وجناه حيث تقول :

تـق اللـه حتـى في جنـى النحل ... فما جمعـت الا لأنفسهـا النحل

وأنت الناصح باحراق الموتى وان عجبت منه حيث تقول :

فاعجب لتحريق أهل الهند ميتهم ... وذاك أروح من طول التباريح
ان حرقـوه فما يخشـون من ضبع ... تسري اليه ولا خَفْـيٍ[1] وتطريح
والنـار أطيب من كافـور ميتنا ... غبـاً وأذهـب للنـكراء والريح

وأنت المنكر كل ما ذهب اليه البشر الا مذهب الهند حيث تقول :

عجبـت لكسرى وأشياعه ... وغسـل الوجـوه ببـول البقر
وقـول النصـارى إلّـه يضا ... م ويظلـم حياً ولا ينتصر
وقـول اليهـود إلّـه يحب ... رشـاش الدمـاء وريح القتر[2]
وقـوم أتـوا من أقـاصي البلا ... د لرمـي الجمار ولثـم الحجر
فوا عجبـا من مقالاتهم ... أيعمـى عن الحـق كل البشر ؟!

ولاح على الرجل أنه منطلق في تحيته الى غير نهاية . . . فلم يمهله أبو العلاء حتى يأتي على شواهده وأمثاله ويستطرد الى نتائجه وغاياته . ومال الى تلميذه ورسوله يقول وكأنه يساره : أين يذهب عن هذا الثرثارة قولي : « وغسل الوجوه ببول البقر » ؟ أليس لأهل الهند فيه نصيب ؟ ثم قاطع الصحفي الخطيب قائلا :

ماذا تعني بساميين وآريين وأهل شمال وأهل جنوب ؟

فأسرع التلميذ يجيبه قبل اجابة الصحفي : « انهـم يا مولاي يعتقـدون اليوم في بلاد الجرمان أن البشر جنسـان : جنس مخلـوق للسيادة والحـكم ، وجنس مخلـوق للطاعـة والتسخير . وان أهل السيادة منبتهم في الشمال ثم انحدروا منه الى الهند ، فهم المعروفون بالهنديين الآريين ، وأن أهل الطاعة والتسخير منبتهم في الجنوب فهم الساميون أبناء سام

---

(١) خفى الشيء اظهره وهو هنا يعني النبش

(٢) رائحة العظم المحروق

أو الحاميون أبناء حام ، ومن شاكلهم في السحنة والسواد ، وأنه ما من نابغ عظيم الا وهو مردود الى أهل الشمال في معدنه وعنصره القريب ، وان ظهر بين أبناء الجنوب . . ولعل شبهتهم في انتمائك الى الشماليين يا مولاي : انك مولود على مدرجة الصقالبة والروم . . »

فانتفض أبو العلاء انتفاضة العربي المسبوب في نسبه وصاح بالتلميذ : ويح الرجل ! ماذا عساه أن يريد مني بعد هذا التخليط؟ قل له ان كان لا يسمع مني . . قل له أنا القائل :

لا يفخرن الهاشمي على امرىء من آل بربر
فالحق يحلف ما علي عنده الا كقنبر

وذلك حسبه من جواب .

* * *

ثم هجم صحفي آخر يبدو عليه الاغتباط بما سمع من زجر زميله ، وأقبل يقول : تحية الاخوان الى العربي العظيم : أنا ابن من أبناء سام .

فهم أبو العلاء بالنهوض وهو يكاتم السخط والضجر ، وقال : أما فرغنا بعد من سام وحام؟ من هذا يا بني؟ وهو يوجه السؤال الى التلميذ الحائر بين أستاذه وبين طلاب الزيارة والسؤال ، من صحفيين ومستشرقين ومستطلعين ، فبادر الصحفي الآخر الى جواب أبي العلاء ، وتلطف في تسكين غضبه والترفيه من ضجره ،وأنبأه أنه من أنباء اسرائيل ، وأنهم والعرب أبناء عمومة ، وأنه يريد منه كلمة الفصل في خصومة الآريين والساميين ، وأنها قلما تنفع في بلاد الجرمان وقلما يجسر على نشرها بينهم أو نشر كلام يخالف ما يروجونه من أقوالهم ، ولكنه يبعث بها خفية الى أناس يذيعونها في الخافقين ، ويعتزون بها في خصومة الجنسين ، وفي كل خصومة بين طرفين ، أحدهما آل اسرائيل !

وهنا أدركت أبا العلاء فكاهته المطبوعة وسخره من (تزاحم الأضداد) على قديم الأجداد ، أو على ميراث المال والعتاد ، وهم يلهجون بميراث الآباء والأولاد ، وقال وقد تهيأ للمسير وتلميذه يعتذر بموعد القطار وشك الرحلة وخوف التأخير :

(يا أخي : تلك خصومة لا يفصل فيها غير الله ! أنتم شعب الله المختار في القديم والجرمان شعب الله المختار في الحديث ، فاسألوه ولا تسألوني أيكما صاحب الحظوة الآن ؟)

مع المشيعين

هبطت السكينة على نفس أبي العلاء .

وقيل له : انك في أمان ، ليس لأحد عليك من سلطان ، وانك ممن قيل فيهم « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . خرجتَ من العالم الفاني فلا تمتد اليك يد ولا ينالك أحد من الناس بعدوان . فقل ما بدا لك من رأي ، ولا تطل همسك ان نطقت بالحق ولا ترفع رأسك ان نطقت بالمحال . أنت اليوم غيرك بالأمس : أنت اليوم من الخالدين !

وانما قيل له ذلك لأنه صارح بعض الجرمان وهو في بلادهم بمذهبه في اختلاف الأجناس وتفاوت الأقوام ، فشنجبوه وهموا أن يبطشوا به على تخوم بلادهم ، لولا أن ردتهم عنه هذه الحصانة التي لا حصانة مثلها للمجالس النيابية ولا للهيئات الوزارية . . وهي حصانة الخلود .

لهذا كان مسلكه مع جماعة المشيعين أو الشيوعيين حين نزل بأرضهم غير مسلكه المعهود من التقية والمداراة والصمت والفرار ، فقال ما أراد أن يقول ، ولم يعبأ منهم بزمجرة ولا صخب ولا وعيد .

وقف رفيق من رفقائهم يخطب في حفل جمعوه للترحيب بأبي العلاء ، أو للشيوعي العربي القديم كما أسمَوه ، فقال بعد اسهاب وترديد :

« هذا أيها الرفاق رجل منا قد سبقنا بكل رأي من آرائنا وكل دعوة من دعواتنا : فنحن ننكر التفاوت في قسمة الأرزاق وهو ينكره في كل صورة من صوره ، وكل منحى من مناحيه ، فيقول عن التفاوت بين العاملين وأصحاب الأموال :

لقـد جاءنـا هذا الشتـاء وتحته فقـير معـرّى أو أمـير مدوج
وقـد يرزق المجدود أقـوات أمة ويحرم قوتـاً واحـدٌ وهـو أحوج

ويقول عن التفاوت بين الشاب الفقير وهو أولى بالمال وبين الشيخ الموسر وهو مدبر عن الحياة :

يعيش الفتى في عدمه عيش راغب ويثـرى مسـنٌّ للمعيشـة سائم

ونحن ندعو الى التآزر الاجتماعي والتكافل بين العاملين في الأمة ، وهو قد نادى بذلك من قبل فقال :

النـاس للنـاس من بدوٍ وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

ونادى بخدمة الحاكمين للرعية فقال :

اذا ما تبينّـا الأمـور تكشفت لنـا وأمـير القـوم للقـوم خادم

وقال :

مل المقـام فكم أعـاشر أمة أمـرت بغـير صلاحهـا أمراؤ ها
ظلمـوا الـرعية واستباحـوا كيدها وعدوا مصالحها ، وهـم أجراؤ ها

واستطرد الى أبعد من هذا في التكافل بين أعضاء المجتمع الانساني فقال :

وكل عضـو لأمـر ما يمارسه لا مشي للـكف ، بل تمشى بك القدم

بل استطرد الى أبعد من هذا المساواة فقال :

ان شقًّـا يلـوح في باطـن البُرّ قِ قسـم بينـي وبـين الضعيف

ولقد بينا نحن للناس أن الآداب والعقائد انما هي مصالح الطبقة الحاكمة تصوغها على هواها لتدعم سلطانها والغلبة على من دونها ، وهذا الحكيم العربي قد بين ذلك حق بيانه حين قال :

انمـا هذه المذاهـب أسبا ب لجلـب الـدنيا الى الرؤ ساء

وحين قال في اظهار سطوة المال وقدرته على تحويل الآداب وتحويل الحقوق :

المال يسـكت عن حق وينطـق في بُطـل ، وتجمـع اكرامـاً له الشيع

وجـزية القـوم صدت عنهـم ، فغدت مساجد القـوم مقرونـاً بهـا البيع

ونحن بشرنا بدين العقل ، وهو مبشر به في قوله :

سأتبع من يدعـو الى الخير جاهداً وأخرج منها ما امامي سوى عقلي

ومثل ذلك قوله وهو يسيرٌ من كثير :

كذب الظـن لا امـام سوى العقل مقيماً في صبحـه والمساء

بل نحن قررنا تفسير التاريخ « تفسيراً مادياً » كما سميناه وهو قد أشار الى ذلك فقال :

النـاس للأرض أتبـاع اذا بخلت ضنـوا وان هي جادت مرة جادوا

وألمع الى ذلك مرة اخرى في هذا البيت على سبيل الرواية :

قالوا البـرية فوضى لا حسـاب لها وانمـا هي مثـل النبـت والشجر

وزاده توضيحاً وتقريراً حيث قال :

لم تجدبـوا لقبيح من فعالكم ولـم يجئكم لحسـن التوبـة المطر

ولا أبالغ اذا قلت انه ذكر الاشتراكية بلفظها في اللغة العربية ببيت من أبياته العامرة يقول فيه :

لو كان لي أو لغـيري قدر أنمله من البسيطة خلـت الأمـر مشتركا

وأنه قد أنحى على طبقات الفضوليين المتطفلين على المجتمع الانساني بغير عمل ينفعونه به حيث قال :

ويعجبنـي دأب الـذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحائح
وأطيب منهـم مطعماً في حياته سعـاة حلال بـين غاد ورائح

فهو يأنف من التطفل الاجتماعي أيا كان المتطفلون ولا يبيح القـوت الا لمن يكسبونـه ويستحقونه ، وهو قد فرق في قصائده ما اجتمع من مبادىء المذهب الاشتراكي في كتب الاساطين ومباحث الدعاة العلميين ، وتلك مرتبة ترفعه على أبناء عصره درجات ، وتجعله من أئمة الفكر في تاريخ الاصلاح بين الاقدمين والمحدثين . .

ثم اقترح الخطيب على سامعيه أن يقفوا جميعاً ليشربوا نخب الشاعر الذي جمع من مبادئهم في منظوماته ومنثوراته ما لم يجتمع قط في كلام أحد من الشعراء . .

فنهضوا جميعاً وشربوا أقداحهم وقوفاً ، ثم جلسوا يترقبون وقفة الشيخ بينهم ليجيب على التحية والتكريم ويجيب على بحث الخطيب بجديد من مقاله أو قديم ، والشيخ لا يعلم أنه مطالب بالوقوف أو مطالب بالتعقيب ، حتى نبهه الرسول الذي يصاحبه في كل مكان الى ما يترقبه القوم ، ثم أخذ بيده الى المنصة فنزل الصمت على الحاضرين ، وانقضت هنيهة لم يسمع بعدها الا شيخ المعرة وهو يقول بصوت رقيق ولكنه ليس بالضعيف :

. . . أنتم مشكورون على جميل ثنائكم واحتفائكم بهذا العاجز الماثل بين أيديكم . لكنه حائر في موقفه هذا لا يدري ما تبغونه بمذهب الاشتراكيين أو بمذهب التفسير المادي للتاريخ ، فأما قوله :

لو كان لي أو لغيري قدر أنملة ... من البسيطة الأمر مشتركا

فانما يعني به التوحيد الآلهي ويريد به أن الناس أغنياءهم وفقراءهم على حد سواء لا يملكون في جانب الله أرضاً ولا يستعبدون أحداً ، وهو من قوله

ويقول داري من يقول ، وأعبدي ... مه : فالعبيد لربها والدار

أو هو من قوله :

ما في بني آدم من غنيٍ ... فكلهم مقتر عديمْ
يغنى الذي ماله فناء ... وذلك الواحد القديم

أو هو من قوله :

فقير كل من في الأر ... ض ؛ ان العبد لا يملك

أو هو من قوله :

إله الأنام ورب الغما ... م لنا الفقر دونك والملك لك

فما أدري من أين تسربت « الاشتراكية » الى معناه كما تصفونها فيما سمعت من خطب وقرأت من بحوث وشروح .

ما أردت الا الرفق بالناس ، بل ما أردت الا الرفق بجميع الأحياء . . . فكنت أوصى السيد أن يرفق بعبده . وأقول له :

اذا كسر العبد الاناء فعده ‏ ‏ أذاة له ، ان الاناء الى كسر

وكنت أوصى العبد والفقير أن يرفقا بالبهيمة الخرساء . ويريبني منهما ما قلت انه يريبني :

لقد رابني مغدى الفقير بجهله ‏ ‏ على العير ضرباً . ساء ما يتقلد

وما دار في خلدي يومئذ الا الزكاة يؤ ديها أهل السعة للمضيَّقين .

اذا وهب الله لي نعمة ‏ ‏ أفدت المساكين مما وهب
جعلت لهم عشر سقي الغما ‏ ‏ م وأعطيتهم ربع عشر الذهب

وكنت أعجب :

كيف لا يشرك المضيَّقين في النعمة ‏ ‏ قوم عليهم النعماء

وأوصي بما وصى به دين الحنيفية :

وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهم ‏ ‏ لما رأيت بني الاعدام شاكينا

أما أن يأتي زمان ينقطع فيه الفقر ويبطل فيه الغنى وتؤ ول فيه السيادة الى العاملين المستضعفين على سنَّة التساوي وشرعة المزاملة فذلك ما أنبأ به بعض المنبئين في زماننا فقلت راوياً ومجيباً :

يقال أن سوف يأتي بعدنا عُصُرٌ ‏ ‏ يرضى ، فتضبط أسدَ الغابة الخطم[1]
هيهات هيهات . هذا منطق كذب ‏ ‏ في كل صقر زمان كائن قطم[2]
ما دام في الفلك المريخ أو زحل ‏ ‏ فلا يزال عباب الشر يلتطم

يلتطم وأقولها اليوم مرات : هيهات هيهات ! وما أنتم فيه مصدق لما أقول ، وان

---

(١) جمع حطام وهو ما يوضع في أنف البعير ليقاد به .

(٢) القطم : اشتهاء اللحم .

أعجبكم أن تسمعوا مني خلاف المعقول والمنقول . وأين لومي الرؤساء على اتخاذهم المذاهب أسباباً لجلب الدنيا اليهم من قولكم ان المذاهب لا ينبغي أن تكون الا كذاك ؟ انما أقول على سبيل الانكار وأنتم تقولون على سبيل الاقرار ، وشتان ما أردتم وما أريد .

بل ما لكم لا تدعون أنني ناديت بمذهب الفوضى حين قلت :

ان أكلتم فضلاً وأنفقتم فضلاً فلا يدخلنّ والٍ عليكم
لا تولوا أموركم أيدي النا س اذا رُدت الأمور اليكم

وما ناديت بالفوضى ولكني أردت اتقاء الوالين بالعفة والزهادة .
قال المعري ذلك وكأنما كان متجلياً عليه في تلك الساعة قوله :

ان عذُب المين بأفواهكم فان صدقي بفمي أعذب

ولم يكن متجلياً عليه قوله انه يفر بالصمت في المحال . .

أما ما حدث من أثر هذا الجواب في نفوس السامعين من معاشر الشيوعيين فغني عن السرد والافاضة ، وحسبك منه صيحة الرسول في أذن الحكيم : كفى كفى أيها الأستاذ الرحيم . ! فانك ان كنت على نجوة في حصانة الخلود ، فما أنا بين القوم من الناجين !

في بلاد الشمال

خرج المعري وتلميذه من أرض الشيوعيين وهما يلعنان الديار والديارين وأصبح التلميذ ولا همّ له بعد افلاته من براثن القوم الا الوصاة بالتقية والمحاذرة ، قائلاً ومعيداً ما قال : مولانا الشيخ ! انك في حرز من ضيم الأقوياء ، وأمان من سطوة أبناء الفناء . أما تلميذك ومريدك فلا حرز له منهم ولا قوة له معهم ، ولا أمان أن يبطشوا به بطشة واحدة ، فاذا أنت يا مولاي قد فقدته في منتصف الطريق . وكان الشيخ يداعبه فيظهر الاصرار على المناقشة والمناوشة ويردد ما أنشد في سابق أيامه بدار الفناء :

ان عذب المين بأفواهكم فان صدقي بفمي أعذب

قائلا : يا بني ! ما أنا بصاحب الرحلة بل أنت . . فاصبر على بلائك واحتمل عاقبة رأيك . فينتفض التلميذ خوفاً وحيرة ويعيد الوصاة والرجاء ، مناشداً مولاه الرحمة التي أرادها لبني الانسان وبني الحيوان .

فلما أطال التلميذ في وصاته قال الشيخ : ما بالك يا هذا تخاف وتوصي وتلحف في الوصاة ؟ ألعلك ذاهب بنا الى معشر من الناس كأولئك الذين كنا بينهم ؟ ان كان ذاك فعد بنا الى المعرة واختصر بنا مسافة هذه السياحة ، فلا طاقة لي بسخافة قوم آخرين كأولئك الذين فارقناهم في بلاد الشيوعيين ولا بسخافة قوم كأولئك الذين فارقناهم في بلاد الطغاة العسكريين .

قال التلميذ : كلا يا مولاي الجليل . ما الى هذه البلاد وأمثالها نرحل وانما أخاف ما ليس

في الحسبان . . انما رحلتنا بعد اليوم الى أقوام يحجرون على المقال حجر أولئك الأقوام ، ولا يقسرون الناس على رأي واحد وضمير واحد ، ولكنهم يقولون ما يشاءون ويفكرون كما يشاءون : فان خامرني الخوف ونحن مقبلون عليهم فذلك يا مولاي خوف الحبل بعد خوف الثعبان . .

وطالت الرحلة في تلك البلاد بلاد الشمال ، وتقلب المعري وتلميذه بين أهل النرويج وأهل السويد وسائر تلك الأنحاء ، فحمدا كثيراً من الأحوال ، وشهدا أنماطاً من الحكم والعلم لم يشهداها في البلدان الغربية كافة ، فطاب السرى وطاب المقام . .

ونزلا آخر المطاف ببلاد الدانيين أو الدنمركيين ، فهما الآن في مدرسة جامعة دعي اليها حكيم المعرة بأمر من مليك البلاد ووزرائها ، على عادة القوم في اغتنام كل فائدة وتسجيل كل شاردة وواردة ، ليسألوا الشيخ ويستطلعوا طلعه ، ويساجلوه القول ويظفروا بما شاء من جواب .

قال طالب علم : أيأذن الشيخ في سؤ ال عن حكومة ذلك المعشر الذين كان بينهم قبل أن يرحل الى أقطار الشمال ، وأعني بهم معشر الشيوعيين ؟

قال الشيخ : تلك حكومة كلها ظواهر تخفي ما دونها من البواطن ، كاتبها يفعل فيها ما يريد ، ولو جرى أمرها على القول الصراح لما كان لهذا الكاتب من صولجان ، الا القلم والقرطاس .

فعاد الطالب يسأل : أو ليس الأمر بين ذلك الكاتب وزملائه على سنة الشورى والمساواة ؟

فامتعض الشيخ وأدرك الطالب بالجواب قبل أن يسترسل في السؤ ال : مه يا بني مه ! أي شورى واية مساواة ؟ لقد سمعنا بعضهم يلوم من يخاطب ذلك الكاتب بكاف الخطاب كما يخاطب سائر الناس ! أعندك يا صاحبي قصيدة شاعر القازاق الذي أنشده مديحه ونحن هناك ؟ قال الشيخ هذا والتفت الى التلميذ الرسول ، فوقف التلميذ الرسول ماثلاً على المنصة وقال : نعم يا مولاي ! . . ثم مضى ينشد قصيداً يقول فيه ناظمه :

« هل أشبهك بالأنبياء ؟ كلا فبعض الأنبياء يكذبون .

« هل أشبهك بالبحر المحيط؟ كلا ! ففي البحر المحيط صخور يتصدع عليها السفين . .

« هل أشبهك بالجبال ؟ كلا ! فما من جبل الا وقمته في مرأى العيون .
« هل أشبهك بالقمر ؟ . . كلا ! . . فالقمر لا يضيء الا في لياليه . .
« هل أشبهك بالشمس ؟ كلا ! فالشمس انما تشرق في يوم صحو لا غمام فيه » . .

وفرغ التلميذ الرسول من انشاده فعاد المعري يقول لطالب العلم الذي سأله ذلك السؤال : أو سمعتم أعجب من هذا الدهان في مديح عاهل أو سلطان ؟ ما أخالكم سمعتموه ، وما أخالكم تذكرون في الملوك ملكاً واحداً كان له من الأمر النافذ في الرقاب والأذهان ، ما يأمر به كاتب الشيوعيين فيطاع . .

وسأل سائل : أو لم ينصفوا الأجَراء من أصحاب الثراء ؟

قال المعري : لا يا بني . إنهم ظلموا أصحاب الثراء ولم ينصفوا الأجَراء ، ولقد أخذوا المال من ذويه ثم أفرغوه في مصانع الدولة ، وما الفرق بين مال في أيدي التجار ومال في أيدي الولاة ؟

ورجع السائل الى سؤال لاحق بما تقدم فقال : لكنهم على ما يقولون قد عدلوا في الأجور بين العاملين فأجر اليوم واحد لا اختلاف فيه .

قال المعري : أجر اليوم واحد لا خلاف فيه ولكن العامل المحظوظ عندهم قد يعطى عدة أجور ، فهي مساواة من ناحية واختلاف من عدة أنحاء .

وفرغ السائلون عن معاشر الشيوعيين فنهض السائلون عن أمم الشمال .

قال طالب علم : ألعل الأستاذ قد حمد من قومنا ما ليس يحمده من أولئك الأقوام ؟ . .

قال المعري : نعم ولا أداجيك يا بني . . . فقد رأيت أنكم أبعد الناس عن مداجاة ، وان بقيت منها أثارة في جميع بني حواء .

قال الطالب : وماذا حمد الأستاذ مما شهد فينا ؟

قال المعري وهو يوجز في جوابه : حمدي منكم يا بني تجارتكم التي بنيتموها على التعاون بين البائعين والشارين ، فما منكم الا من يأخذ كفايته ويعطي كفاية الآخرين ، ولا ربح لأحد منكم خاصة ، بل أنتم جميعاً رابحون ، لأنكم بائعون شارون .

ذلك يا بني سبيل قوام بين احتكار المحتكرين وبين اشتراك الشيوعيين ، فاذا اهتدى اليه الناس جميعاً فلعلهم يستريحون من تفريط هؤلاء ومن إفراط هؤلاء . .

وحمدت منكم يا بني أنكم لا تفتحون البلدان ولا تقتحمون الأسواق ، وأنتم مع هذا غانمون رائجون ، لكل سلعة من أرضكم طالب غير مغبون .

وحمدت منكم يا بني تعليم الفقير وتعليم الضعيف ، فما من طفل بينكم الا وله مدرسته وله معلموه ، وان أهمله أناس في بلاد أخرى لضعف فيه أو لقصور ظاهر عليه . .

وحمدت منكم نظافةً وصحةً ورخاءً تعم الأكثرين ولا يحرمها الا القليل .

وحمدت منكم رعاية الشيخ الكسير ، فلا يُقلى عندكم ولا تبخلون عليه بالرزق الكفاف . .

وحمدت منكم ـ وعرشكم أعرق العروش في أرض المغرب الحديث ـ تواضعاً في الملك لا يرى من أحدث العروش .

حمدت منكم هذا كله فهل هو كثير أو يسير ؟

فصاحوا جميعاً : بل هو كثير كثير ، من الشيخ الكبير .

قال المعري وهو يبتسم : أفتأذنون لي ـ بعد ـ أن أحمد منكم شيئاً آخر فوق ما حمدت ؟ أتأذنون لي أن أحمد منكم الايجاز في السؤال والقصد في المقال ؟

فكان سكوت ، وكان ضحك ودعاء ، وكان ذلك جواب الشيخ الكبير من سائليه . .

جرّ الذيول

قال أبو العلاء : ما كنت أحسب أن سأرى هذا يوم قلت في مساوىء ذرية البنات :

وان تُعط البنات فأى بؤس ... تبين في وجوه مقسمات
يُردن بعولة ويُردن حلياً ... ويلقين الخطوب ملوّمات
ولسن مدافعات يوم حرب ... ولا في غارة متغشّمات !

فها نحن أولاء في أرض أندلس نراهنّ مدافعات يوم حرب ، ومتغشمات في غارة . . . بل غارات . .

كنا نسمع عن هذه الأرض - أرض أندلس - فنحضر في اخلادنا الجنة وحورها ونعيمها ، فاليوم نشهدها شهادة القرب فاذا هي جحيم مسجور ، واذا بالحور فيها زبانية يقذفون بالشرر ويتقلدون السيوف . . . ما أعجب ما تُريني يا بني ! وما أعجب الظباء يقطعن بأظافر النمورة وينهشن بأنياب الذئاب . .

قال التلميذ : أو حق يا مولاي انه عجيب ؟ ألم يقل به أفلاطون في الحكمة القديمة ؟ حسبت يا مولاي أنك على ذكر مما قال حكيم يونان ومعلم أرسطاليس ! . .

فتأوه الشيخ في استذكار طويل ثم قال لتلميذه : ما سمعت بهذا من كلام يونان وحكمائها . فلعل من عجائب زمانكم أن يكون هذا الزمان أقرب الى أفلاطون من زماننا نحن السابقين الأقدمين . . . ماذا قال معلم أرسطاليس في حرب النساء أصلحك الله ؟ . .

فترجم له التلميذ كلمة من قوانين أفلاطون ، يقول فيها :

« على البنات أن يتعلمن صناعة الحرب بأجمعها ، وعلى النساء أن يعالجن الرياضة ونظام الجيوش واستخدام السلاح ، ليستطعن ـ بين أسباب شتى ـ أن يحرسن ديارهن وأطفالهن حين يندب الرجال للحرب في أرض بعيدة ، وقد يقتحم البلاد جيش مغير كما يتفق في كثير من الأجيال ، فيكون خزياً للدولة أن يبلغ من جهل النساء بفنون الحرب أن يعجزن عن القتال والاستماتة في الذود عن الاطفال . وألا يكون لهن من عمل في هذه الغارة الا أن يهرعن ناحبات ناجيات الى الهياكل والمحاريب ! » .

فأوشك أبو العلاء أن يؤمن بصدق ما قال الفيلسوف ، ونزعت فيه نوازع العقل مرة فكادت أن تطغى على نوازع الطبع والعادة ، لولا أن غلبته النحيزة العربية وغلبه تراث الشرق العريق فالتفت الى تلميذه منشداً :

وحمل مغازل النسوان أولى ... بهن من اليراع مقلّمات !

نعم وأولى من الحديد والنار . .

* * *

ثم استرسل منشداً :

إن من أكبر الكبائر عندي ... قتل حوراء غادة عطبول
كتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول

ذلك يا بني حكم ابن أبي ربيعة ، وهو أولى بالحكم في هذه القضية من معلم يونان . . أكثير يا بني أصحاب هذا الرأي في زمانكم الحديث ؟

فأجابه التلميذ وقد لبس لبوس الأستاذ هذه المرة : هم غير قليلين في المغرب والمشرق . . فمنهم في أرض الصقالبة ومنهم في أرض الصين وما وراءها وكل من يؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة خليق أن يرى ما رآه هؤلاء . فما بال المرأة لا تحارب والحرب اليوم آلات تدار أسهل من ادارة المغزل ومن شكة الابرة في الثياب ؟

قال الشيخ : هي صناعة قتل سهلت أو صعبت ، فما لكم لا تتركون للمرأة صناعة الولادة وتدَعون صناعة القتل لغيرها كما قال أخو مخزوم ؟ وما لكم لا تجعلون جيشها كله على مثال تلك الجيوش التي حدثتني أنهم يحشدونها في بعض البلاد ، لتقويم الأبدان

والصولة ببأس الجمال ؟

فأسرع التلميذ يقول : لعلها الضرورة يا مولاي ! لعل المقاتلين لا يستغنون عن مدد من النساء اذا قلّ الرجال . .

فأدركه الشيخ قائلا : بل اذا قلّت الرجولة وأصبحت الحرب وليست هي من الفروسة ولا من البطولة . . ما أحسب الآفة عندكم ان النساء أصبحن كالرجال ، وانما الآفة فيما أخال أن الرجال أصبحوا كالنساء ، فلا حرج اذن من المساواة في القتال !

ثم سأل الشيخ : ما هذا الغرام بالحرب في كل شعب من شعوبكم حتى استنفدت رجالكم وجارت على نسائكم ، واستنفدت سلاحكم وجارت على أدوات السلم في أيديكم ؟ ما هذه الحاجة الملحة الى ازهاق الأرواح وتمزيق الأبدان ؟ أهي فرط كراهة منكم للحياة أم هي فرط خوف من المنية ؟ أم أنتم مدفوعون الى حيث لا تعلمون وأنتم تحسبون أنكم تعلمون ؟

***

وكأنما خشي التلميذ أن يحاسبه الحكيم على سيئات عصره ، وأن يسأله في هذا سؤال المتهم عن وزره ، فأجابه وهو لا يفقه ما يعنيه :

عن هذا أسألك أيها الحكيم العليم !! فهي معضلة من معضلات الزمن الأخير نسأل عنها وليس لها من مجيب !. .

فشك الشيخ غير قليل . وغاب عن صاحبه في تأمل طويل ، وكأنما أفاق من غيبوبة علوية حين أقبل يقول :

« انما الحرب يا بنى حيلة من ليست له حيلة ، يقدم عليها من يأمن شرها أو من يخاف جميع الشرور فلا يبقى له ما يأمن . . وانما يستميت في الخصومة من يخاصم الأقدار وان حسب انه مخاصم اخوانه من بني الانسان : انما يستميت في خصومته من يطلب الدوام لشيء لا يمكن دوامه أو يطلب التبديل لشيء لا يمكن تبديله ، فهم يحاربون القدر ولا يحاربون أبناء آدم ومن حارب القدر يا بني لم يحاربه بنصف عزمه ولا بنصف سلاحه ولا بنصف رأيه : من حارب القدر فأيسر جهده أن يستجمع ، وأن يستميت ، وأن يخسر في الجانبين وينهزم في الصفين .

وهؤلاء أبناء أندلس يريد فريق أن يعيد أمس ، ويريد فريق أن يستعجل الغيب ، وليس هذا ولا ذاك في يد انسان ، ولو كان في يد انسان لكان ، ولم يستعر بينهم كل هذا الشنآن.

قال التلميذ: ألا دواء لهذا الشنآن بين الفريقين؟ قال الحكيم: حتى يفقد كلاهما كل قوته ، أو يفقد كلاهما نصف اعتقاده . فاذا انقصم السيف الأخير في أيدى هؤلاء وهؤلاء فهناك رجاء في سلام !. . واذا شك كلاهما في حقه واعتقد أن نصف الحق معه ونصف الحق مع خصمه فهناك رجاء في سلام . . . أما وهناك بقية من قوة في الصفين ، وايمان بالحق الكامل في الجانبين فلا سلام ولا رجاء فيه !.

***

قال التلميذ وكأنه يمزح :

أولا يسفر الشيخ بينهما ليظهر لكليهما نصف باطله ونصف الحق عند خصومه ؟. .

ففطن أبو العلاء لموضع المزاح من كلامه وتمتم بين شفتيه :

بعثت شفيعاً الى صالح ... وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحما ... م وأسمع منه زئير الأسد

ولأفسدُ من ذاك أن أذهب شفيعاً في حرب الأقدار ، وسفيراً بين الاعصار والنار . . .

المرأة

نشط الشيخ في ذلك اليوم للبحث والمساجلة ، فأقبل على تلميذه يسأله : ألا تحدثني يا بني عن تلك الفلسفات التي ذكرت لي أنهم يدورون بها حول المرأة في الغرب الحديث ، وفي زمانكم هذا الأخير ؟ فقد أنبأتني بالقليل منها يوم حدثتك برأيي في جنديات الأندلس المقاتلات ، وقد لاح لي مما أنبأتَ ان فلسفات القوم في هذا المجال تشتمل على كثير ، وان آراءهم اليوم توشك أن تنصرف كلها الى فلسفة الزواج وفلسفة العشق وفلسفة الاباحة وما شاكل ذلك من فلسفات . واني ـ كما تعلم ـ امرؤ قد عنيت بهذا الأمر وأفرطت في العناية به حتى لزمت الرهبانية ، فماذا يقول القوم فيه ؟ وعلامَ يقع الخلاف ؟ وكيف يختلفون ؟

قال التلميذ : اني لأستحي أن أقوم من الشيخ مقام الأستاذ ولو في هداية الطريق ، فكيف بالهداية في الحكمة وأقاويل الحكماء !

قال أبو العلاء : اعتبرها يا بني هداية طريق في بلد أنت به أعلم وأنا فيه غريب . فالغربة قد تكون في الزمان كما قد تكون في المكان ، وأنت صاحب الدار يا بني في زمانك ، فقل ولا غليك من مقام الأستاذ ومقام التلميذ . . ألست أنا القائل :

رب شيخ ظل يهديه الى سبل الحق غلام ما احتلم

فقل يا بني ولا تتحرج . وان أبيت الا مقام التلمذة فاقنع منها اليوم بالطاعة فيما أدعوك اليه . .

فلم يسع التلميذ الا أن يجيب سؤال الشيخ ، وأنشأ يقول وهو متلعثم في المقال :

هذه الفلسفات يا مولاي كثيرة كما لاح لك من بوادر الاشارة العارضة ، فمن أصحابها من يجعل حب المرأة الحب كله ومرجع الأهواء بحذافيرها . ويزعم أنه حب يضمره الطفل في طبعه وهو يرضع من ثدي أمه أو يحبو الى لعبته أو يتواثب مع لِداته ، وانه ما من خبيئةٍ يبطنها الانسان الا ومناطها هوى من هذه الأهواء مكبوت ، ونزعة من هذه النزعات يختلف فيها التفسير والتأويل ، وقد تفصح عنها الأحلام التي يناجي بها الانسان سريرته في المنام ، وان كانت المناجاة هنالك بالرموز والأشكال دون المعاني والأفكار . .

ومن أصحاب هذه الفلسفات من نشأ على المذهب الأول ثم عدله ونقحه باضافة حب القوة الى حب المرأة ، أو باضافة المجد والجاه الى الشهوة والغرام . .

* * *

ومنهم من يقول ان الأخلاق ينبغي ان تختلف بين أفراد الرجال والنساء كما تختلف أنواع الغذاء ، فالناس في حاجة الى غذاء متشابه العناصر متقارب التركيب . . وليس من طعام مع هذا هو صالح لجميع الأبدان مطلوب في جميع الأحوال ، فكذلك الأخلاق في جملتها من عمل الخير والدعوة الى الصلاح قريبة العناصر متشابهة الأوصاف ، ولكنها قد تختلف مع اختلاف المزاج كما يختلف الطعام على حسب البنية ، حتى يكون دواءً لهذا ما هو سم قاتل لذاك . فليس لجميع الناس قانون واحد ولا خلق واحد ولا طعام واحد . بل ينبغي أن يحرم على أناس ما يباح لآخرين . .

* * *

ومن أصحاب هذه الفلسفات من يدعو الى الاباحة لأنها حالة الطبيعة ، ومنهم من ينكر عليه هذا الزعم فيقول ان الاباحة هي أبعد الأحوال عن طبيعة الاحياء : ألا ترون الى العجماوات تمانع وتقاتل ثم تعتصم بالعفة والزهادة طوال العام ؟ ألا ترون الى قبائل الفطرة الأولى كيف تحوط العلاقة بين الرجل والمرأة بالمراسم والشعائر وكيف تحفها بالتمائم والشعوذات ؟ فالطبيعة أحجى أن تكون الى جانب الامتناع والاعتصام دون الاباحة والانطلاق ، ولاسيما في غرائز الحب ودوافع الشهوات . والحضارة قد علمتنا أنه حيث تكون القيود في الحب تكون نهضة الشعوب ، وحيث تكون الاباحة في الحب يكون الركود ثم الدثور . .

* * *

ومن أصحاب هذه الفلسفات من يدعو الى الاباحة لأنها الحل الصالح عنده لمشكلات الأمم في العهد الحديث . فالناس يتقاتلون لأنهم يتنافسون على المال ، والناس يتنافسون على المال لأنهم يشترون به الشهوات والمظاهر التي هي كالأشراك لاقتناص النساء . فاذا بطلت قيود الجنسين بطل في زعمهم كل ذاك وخفت حدة الزحام والعداء وقلت بواعث الفتنة والاغراء . .

* * *

ومنهم ـ وقد كان رئيساً لحكومة كبيرة في دولة عظيمة ـ من يوصي الرجل أن يجرب كثيراً من النساء ويوصي المرأة أن تجرب كثيراً من الرجال قبل الايواء الى حرم البيت وحصن الزواج . فان الرجل والمرأة اذا قضيا الشطر الأول من الحياة في التطواف والتجوال سكنا الى الزواج وهما جانحان الى استقرار يعين على الوفاء ، وقناعة تعين على العصمة ، وأصبحا زوجين رشيدين وأبوين صالحين مدى الحياة . .

قال المعري : حسبك ! حسبك !

قال التلميذ : نعم حسبي حسبي . فقد تعبت من « دور » الأستاذ وشاقني أن أصغي اليك اصغاء التلميذ . . فخذ دورك الساعة يا مولاي وقل لنا ماذا ترى في هذه الآراء ، وماذا تقول في هذه الأقاويل .

ووجم الشيخ قليلاً ثم أنشد من كلامه القديم :

لو أن كل نفوس الناس رائية ... كرأي نفسي تناءت عن خزاياها
وعطّلوا هذه الدنيا فما ولدوا ... ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

ثم راح يقول :

ان ما سمعتُه يا بني بعضهُ سديد ، وبعضه حق ، وبعضه هراء . .

حقٌ ان المرأة هوى النفوس وفتنة المطامع :

والمرء ليس بزاهد في غادة ... لكنه يترقب الامكانا

وانها تفتن من هجر الدنيا كما تفتن من غاص في غمارها وتقلّب في أوزارها . .

راحـت الى القس بتقريبها ... وبيتهـا أولى بقربانها
وزارت الـدير وأثوابها ... ضامنـةٌ فتنـة رهبانها

وانها مقياس الحياة لا يعافها الا من عافته الحياة :

واذا الفتـى كره الغوانـي واتقى ... مرضـاً يعـود وضرّه ما يطعم
فقد انطـوت عنـه الحياة ، وكاذبٌ ... من قال عنـه يبيت وهـو منعم
يقـال ان سوف يأتـي بعدنـا عصر ... يرضى ، فتضبط أسد الغابة الخطم

وانها خفية المسارب في دخائل الشهوات :

وانمـا الخـود في مساربها ... كربـة السـم في تسربها

وانه لا يؤمن منها على صغير ولا يؤمن عليها من صغير :

اذا بلـغ الـوليد لديك عشراً ... فلا يدخـل على الحـرم الوليد

كل هذا حق وكل هذا سديد في مذهب صاحبكم الحديث وفي مذهب الحكمة القديم ، الا أن المرأة ليست كل ما يثير النفس ويوسوس في الضمائر وينبعث مع الغواية ، وليست كل ما رامه الرجل :

وانمـا رام نسوانـا تزوجها ... بمـا اقتـراه وأمـوالا تمولها

أو قل مرة أخرى :

وانمـا رام عزاً في معيشته ... أو خاف ضربـة ماضي الحـد قلاّم
أو شاء تزويج مثل الظبـي مُعلمة ... للناظـرين بأسـوار وأعلام

ذلك قوام الرأيين ووفاق الخلافين . أما الرأي في الزواج :

فلا يتـزوج أخـو الأربعـ ... ين الا مجربـة كهلة

على أنني أقول كما كنت أقول :

ان الأوانس أن تزور قبورها ... خـير لهـا من أن يقـال عرائس

واقول كما كنت أقول :

تزوجَ بعـد واحـدة ثلاثاً ... وقـال لعرسـه يكفيك ربعي

فيرضيهـا اذا قنعـت بقوت ويرجمهـا اذا مالـت لتبع
ومـن جمـع اثنتـين فما توخى سبيل الحـق في خمس وربع

* * *

وأقول كما كنت أقول :

خير النساء اللواتـي لا يلـدن لكم فان ولـدن فخـير النســل ما نفعا

وأقول كما كنت أقول :

وأصبحـت في الـدنيا غبينـا مرزّءاً فأعفيت نفسي من اذاة ومـن غبن

ثـم أقول كما كنت أقول :

شر النساء مشاعـات غدون سدى كالأرض يحملن أولاداً مشاعينا

ولا أكتمك مع هذا أنني :

تنازعنـي الى الشهـوات نفسي فلا أنـا منجـح أبـداً ، ولا هيْ

فأسرع التلميذ يمتحن الأستاذ ، ويهمس في أذنه قائلا : « وفيم المنازعة ونحن في بلاد الغرب والشيخ قد أفرط في الصيام » .

فقهقه الشيخ وهو يصيح به : اليك عني أيها الخبيث . . قد خرجنـا من هذه المحنة صارعنا فيها أستاذك القديم ابليس . . والله يعلم أكنّا فيها صارعين أو مصروعين ! ذلك سر مكتوم وحديث مختوم . . !

الحكيمان

كان آخر الخطباء في الجمع العظيم يقول :

« انها مصادفة عجيبة ولا ريب . فهل أقول انها مصادفة سعيدة ؟ اخشى أن أغضب الحكيمين المحتفى بهما اذا أنا قلت ذلك ، فليس المعري حكيم المشرق ولا شوبنهور حكيم المغرب ممن يدينون بالسعادة ، وليس اجتماعهما اليوم في عالم الذكرى من دواعي التفاؤ ل والاستبشار . . فالعالم مقبل على خطوب وكروب وأهوال وحروب ، ولم يكن مذهب التشاؤ م قط أدنى الى الصدق والاقناع مما كان في هذا العصر المرهوب الجوانب المحذور العواقب ، فاذا سعد الحكيمان بتحقيق ما رأياه واثبات ما قرراه وانجاز الوعيد وتقريب البعيد ، فهو اجتماع سعيد » .

غد ـ وهو الثاني والعشرون من شهر فبراير ـ هو تمام مائة وخمسين عاما مضت على مولد الامام الاكبر في مذهب التشاؤ م بين الغربيين ، وهو أرثر شوبنهور ، فما أعجب المصادفة التي جمعت بينه وبين الامام الأكبر في هذا المذهب ، عند الناطقين بالضاد ، على ملتقى ألف عام من مولده المجيد ان لم يأذن لنا ان نقول : السعيد .

« أنقول ان روح العالم في شدائده وبأسائه قد استحضر روحيهما فحضرا ، وقرب بين افقيهما فاقتربا . . انقول انها مؤ اساة من عالم الخلود لعالم الشقاء والبأساء ؟ انقول انهما نذيران او بشيران ؟

« على أننا نكرم زماننا هذا ونكبره ونرفع من قدره اذا نحن وصفناه بزمان التشاؤ م وان حقق لنا مخاوف المتشائمين .

فالتشاؤم ـ كالتفاؤل ـ انما يكون مع الحب والاهتمام ، او مع الظن الحسن والأمل المشبوب ، تجيء خيبة الأمل حين يكون الأمل معقولا او شبيهاً بمعقول . أما اذا غلب اليأس من البداية فلا تشاؤم ولا اخلاف ظنون . .

« الذي يهجو المرأة يحبها كالذي يثني عليها ، والذي يملأه الغيظ منها كالذي يملأه الشوق اليها : كلاهما يعتد بها ويشتغل بامرها ويحسب الحساب لاقبالها واعراضها . . اما الذي يلهو بها فلا شوق ولا غضب ! ولا فرح بلقائها ولا حزن لغيابها ، فليس ذلك من العشاق المدلهين ولكنه من طلاب الفراغ العابثين . .

***

« كذلك الحياة في زماننا قلما تتسع فيها النفس لتفاؤل او تشاؤم ، وقلما ترى فيها الا مزجياً لفراغ او لاهياً بحاضر مبتور ، لا يرجع الى ماضيه ولا يترقب عقباه . .

« كانت الحياة حليلة نحاسبها على الامانة والخيانة ، وكانت في بعض اجيالها عشيقة نحاسبها على العطف والمودة ، فاصبحت عندنا بنتاً من بنات الهوى لا نحاسبها على شيء ولا نغار عليها من احد ، ولا ننحي عليها بلوم ولا نخصها بثناء . .

« فنحن كما قلنا : نكرم زماننا هذا ونكبره ونرفع من قدره اذا نحن وصفناه بزمان التشاؤم . ليتنا كنا متشائمين ، وليتنا نحفل بالحياة . . ما اخالنا نخطىء اذ نقول ان تشاؤم ابي العلاء وتشاؤم زميله في الغرب سعادة بالقياس الى ما نحن فيه » .

كان هذا القائل آخر الخطباء في الجمع العظيم الذي التقى من بلاد المشرق والمغرب لتحية الحكيمين في احدى العواصم . فكان في هذه التحية تزكية للمذهب المحتفى بصاحبيه ، كما كان فيها مناقضة له وتشكيك فيه ، لأنها جاءت في ابانها دليلاً جديداً على اتساع افق الحياة واستغراقها لجميع ما يقال فيها من تشاؤم وتفاؤل ، كما تهضم البنية القوية ما ينفع وما يضير . .

وقد خرج حكيم المعرة وهو يعجب ويسأل تلميذه من فرط العجب :

« أحق ان التشابه بيني وبين الرجل على هذا المدى من القرب والتجاور ، مع ما بيننا من مسافة الزمان ومسافة العنصر ومسافة الفكر واللسان ؟ . .

قال التلميذ : بل هو اقرب من ذاك يا مولاي . . فلا عجب أن يتفق الرجلان في النظرة الى الدنيا على تباعد الجيرة وتفاوت السيرة ، ولكن العجب العاجب أن يتفقا على

التفصيلات ويتشابها في الدقائق والعرضيات ، وفيما ليس هو من جوهر المذهب ولا من الضروريات التي يقضي بها التوافق في الأصول ، والتماثل في العقول .

قال أبو العلاء مستفهماً : ومثال ذاك ؟

قال التلميذ : مثال ذاك أن الرجل يقول : ان المرء يعيش الى السادسة والثلاثين من عمره كما يعيش التاجر الذي ينفق من ربحه ونوافله ، ثم ينحدر وينقص ولا يزال في نقصه وهبوطه حتى ينفق من رأس ماله الى يوم افلاسه ووفاته . . وانت يا مولاي تقول :

إذا ما تقضى الاربعون فلا ترد ... سوى امرأة في الأربعين لها قسم
فان الذي وفىَّ الثلاثين وارتقى ... عليهن عشراً للفناء به وسم
زمان الغواني عصر جسمك زائد ... وهن عناء بعد ان يقف الجسم

***

والرجل يقول بغلبة الارادة على الفكرة ، وضياع العقول مع الشهوات وأن العقل يكف عن العمل ، وأن العمل لمن لا يعقلون ، وأنت يا مولاي تقول :

وتفكر الانسان يثني غربه ... ويرد جامحه الى الاقصار

وتقول :

اذا ما أشار العقل بالرشد جرهم ... الى الغي طبع أخذه اخذ ساحب

وتقول :

وقد غلب الاحياء في كل وجهة ... هواهم ، وان كانوا غطارفة غلبا

وتقول :

والعقل زين ولكن فوقه قدر ... فما له في ابتغاء الرزق تقدير

والرجل يرى أن النوم سلفة مستعارة من الموت ، وهذا رأيك في ابيات كثيرة منها :

ونومي موت قريب النشور ، ... وموتي نوم طويل الكرى

ومنها :

وموت المرء نوم طال جداً ... عليه ، وكل عيشته سهاد

ومنها :

وفضيلـة النـوم الخـروج باهله   عن عالـم هو بالاذى مجبول

❊ ❊ ❊

والرجل يعطف على الحيوان ، ويؤثر صحبة الكلب على صحبة الانسان ، وانت مع تحريمك أكل الأحياء تقول في الكلب خاصة :

سببـتَ بالكلـب فانكرته   والكلـب خـير منـك اذ ينبح

والرجل يقول ان الارادة تورث من الآباء ، وان الذكاء يورث من الامهـات ، وقـد اوشكت يا مولاي ان تقول ذلك حين قلت :

كأن حواء التـي زوجها   آدم لم تلقـح بشـخص اريب
قد كثـرت في الأرض جهالنا   والعاقـل الحـازم فينـا غريب

والرجل يرفع من أقدار نساك الهند ، وانت كذلك ترفع من أقدارهم ، ويذكر مذاهب المجوس في الخير والشر ، وأنت تذكرها كما جاء في قولك :

فكر « يزدان » على غرة   فصيغ من تفـكيره « اهرمن »

والرجل يقول في الزمان : « نحن نسلب يوما كل مغرب شمس » ويقول فيه : « ان وجودنا مستقر على الحاضر الذي ما يني.ابداً متسرباً طائراً فلا بد له ـ أي لوجودنـا ـ ان يتلبس بالحركة الدائمة الدائبة بلا أمل في الوصول الى الراحة التي ينشدها ، مثلنا في ذلك مثل المنحدر من جبل عال فهو يسقط اذا حاول الوقوف .

وذلك شبيه يا مولاي بقولك :

نَفَسٌ بعـد مثلـه يتقضى   فتمـر الدهـور والاحيان

وقولك :

امـا المكان فثابـت لا ينطوي   لكن زمانـك ذاهـب لا يثبت

❊ ❊ ❊

وغير ذلك التشابه كثير ، يدل عليه تناقض التعبـير بينـكما كما يدل عليه التقـارب في التفكير . .

فالرجل يسأل : « ما هو التواضع الا ان يكون ذلـة مزيفـة يلتمس بهـا المرء غفرانـا لفضائله ومزاياه في عالم مكظوظ بالحسد والضغينة ؟

ومولاي قد تلفع بالتواضع كثيراً لاتقاء الشر والملاحاة ، وخلع التواضع كثيراً في قصائد

الفخر والمباهاة ، وشغلته هذه المسألة من حيث شغلت صاحبه في جانبي الاقرار والانكار . .

قال أبو العلاء : ان هذا لعجيب ، وان الرجل الى لجد قريب ، وما احسبها الا قرابة في الطباع لا قرابة في الرأي والاطلاع ، فان تشابه الطباع هو الذي يوحي القول الواحد الى افواه الكثيرين ، اما المتشابهون في العقول فقلما يتفقون ، وقد يتنابذون ، لانهم متشابهون . .

حكم وحكمة

كان أبو العلاء قد اقام في بلاد الانجليز بضعة أيام ، شهد في خلالها مجامع العلم والادب ومعاهد الفن والرواية ، وسمع الكثير من أنباء السياسة العالمية ، وأنباء الازمة التي اخرجت وزير الشؤ ون الخارجية ، واعجبه نمط الحكم وانتظام الامور بين الحكام والرعايا ، فجلس يحاور تلميذه وتلميذه يحاوره ، ويأبى التلميذ الا ان البرلمان هو اساس هذا النظام وسبب هذا الاعتدال في تدبير الأحكام ، ويأبى الحكيم الا ان الامة التي تنجب البرلمان تعرف الحكم الصالح بغير برلمان ، فلو لم يكن فيها نواب وناخبون ، لكان فيها الحكم كما ينبغي أن يكون ، لانها هي المرجع وهي الأساس ، وكل ما عدا ذلك فهو صور واشكال ، يأخذها اناس وينبذها أناس . .

قال التلميذ : بل الرأي هنا للكثرة من سواد الأمة ، وما على الحكام الا ان يطيعوا ما يأمر به هؤلاء .

قال أبو العلاء : وهل للكثرة من السواد رأي ؟ ان الله يقول : « ولكن اكثرهم لا يعقلون » ويقول : « وان تطع اكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ».

قال التلميذ . ويقول : « وامرهم شورى بينهم ».

قال أبو العلاء : ونسيت أنه جل جلاله يقول : « فاسألوا اهل الذكر » ويقول : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »؟

قال التلميذ : فماذا يسمي الشيخ هذه الحكومة التي يسمونها هنا بالحكومة النيابية ؟

قال الحكيم : أسميها الحكومة النيابية واختلف ما شئت في معنى النيابة وفيمن ينوب وفيمن ينيب . فالرأي لاهل الرأي والحكم لأولي الحكم ، والطاعة لمن يستطيعونها ، ولا مشقة في الطاعةعلى سواد الناس اذا صلحت الأحوال وتقابلت الاهواء ، فلا غلبة من هنا ولا هزيمة من هناك ، ولا باس من تبدل الأمور كلما اشتدت سطوة فريق واشتدت معها شكاية فريق . .

* * *

قال التلميذ : أكاد يا مولاي ان أتابعك في قولك وان كنت تنظر الى زمان غير زمانك ، فالحق أننا هنا بين أمة توازنت جوانبها فقل فيها الجور وكثر فيها الاعتدال : ان طغى النبلاء صمد لهم كبار التجار ، وان تجبر العلية أو تمرد السفلة صمد لهم اوساط الناس ، وان تحكم رجال الدين قابلهم رجل العلم ، وان صال الجند والقادة في البر فهناك الجند والقادة في البحار : تقابل وتوازن لا يطغى فيه جانب على جانب ، ولا فصل فيه لتدبير فئة على فئة ، وانما هو من صنع الجغرافية ومن صنع التاريخ ومن صنع الفئات كافة ، وما داموا على هذا فهم في صلاح دائم ، واخشى انهم لا يدومون . .

وان التلميذ ليوشك أن يمضي في مقاله اذا بحاجب الباب يحمل اليه رسالة من وزير لشؤون الخارجية المستقيل ،واذا بالوزير يطلب الاذن في مقابلة الحكيم ،واذا بالحكيم يسأل التلميذ ويعجب : ما خطب الرجل وهو في أزمات محرجات لا يفرغ فيها الساسة للأدب والأدباء ولا للشعر والشعراء ؟ والتلميذ يشرح له بعض ما يعلم من شأن ذلك الوزير ، ومن شؤون سائر الوزراء في تلك البلاد .

قال التلميذ فيما قال : انه يا مولاي يعرف اللغة الفارسية .

قال أبو العلاء : ولكني لا اعرفها .

قال التلميذ : اعلم ذلك ، ولكنه يا مولاي قد اطلع على شعر حكيم الفرس الخيام ويعنيه أن يلقى حكيم العرب أبا العلاء ، وهو فيما يحسبه بعض ادباء الغرب أستاذ الشاعر الفارسي ، وفاتح هذا الطريق في آداب المشرقيين .

قال أبو العلاء : أو كثير من وزراء هذا البلد من يعنى بهذه المطالب ؟

قال التلميذ : غير قليل . . فمنهم من يكتب في الحكمة والعلوم ، ومنهم من يكتب في نظام الشعوب وتدبير الممالك ، ومنهم من يكتب في الخطابة والتاريخ ، ومنهم من يكتب

في الطير والسمك ، ومنهم من يكتب في مشاهد الطبيعة ومحاسن الفنون ، ومنهم من ينقد أهل الفن والادب فيتفق له من صائب النقد ما ليس يتفق لرجال هذا المقام وفرسان هذا الميدان كما يقولون . ايذكر مولاي تلك الروايات التي شهدناها في معاهد التمثيل فاعجب الاستاذ ببعضها وسأل عن كاتبها ؟

قال المعري : تعنى الرجل المسمى « برناردشو »؟
قال التلميذ : اياه اعني . .

***

فعاد المعري يسأل : وما شأنه في هذا السياق ؟ اهو وزير من أولئك الوزراء ؟ . .

فأجابه التلميذ : كلا بل هو أديب كتب عنه عشرات من الأدباء ، فلا اذكر أن واحداً منهم أصاب في نقده ما أصاب الوزير الذي قال في شخوص رواياته : « انها تظهر في الحياة لا لما تعمل او تكون ، ومع هذا هي صالحة للحياة ».

قال أبو العلاء : صدقت يا بني فما أعرف لذلك الكاتب المقوال صفة اوجز ولا اصدق من هذه الصفة . . فمن يكون الوزير القائل هذا ؟ أهو زائرنا اليوم ؟ .

قال التلميذ : ذاك يدعى شرشل وزائرنا يدعى ايدن ، وكلاهما في ميدان الأدب ومناصب الحكم سواء ، وان كان هذا ادنى الى المسالمة وذاك أدنى الى الصرامة والنضال . .

فأطرق المعري هنيهة ثم أدار وجهه الى تلميذه وقد اطمأن الى حديثه ، وقال له « ما أحسب اشتغالهم بهذه المطالب الا من الخير . فان التفرغ للحكم ـ بل لعمل واحد كائنا ما كان ـ سبيل الى العنت وضيق النظر وقلة السماحة ، ومن تعددت مطالبه كان خليقاً ان يتسع افقه للخصومة والخلاف ، وان يعود وهو أدنى الى المودة والانصاف .

ثم هتف : بالتلميذ : لقد أطلنا على الرجل لحظات الانتظار ، فاسرع ! اسرع اليه بالدعوة ، وبالاعتذار .

***

ويطول سرد الحديث الذي جرى بين الحكيم والوزير ، فحسبنا منه ما استطرد ا
السياسة وتدبير الشعوب . . فقد أفاض الرجلان في مقاصد القول حتى استنفذا منها ك

ما يخوضان فيه ويشاركان في مناحيه ، وانهما ليهمان بالافتراق اذ يقحم التلميذ سؤالا كان من حقه آن يسأل لولا ان شغل عنه المتحدثان بافانين الأدب والثقافة ، ولعل التلميذ قد عز عليه أن يرى في سياسة العصر رأيا لا يقره عليه شيخه واستاذه فاندفع يقول :

ألا يسأل مولاي زائرنا الكريم فيما طرقناه من حديث الحكومة والبرلمان ؟ فما ينبئنا مثل خبير ؟

ووافق السؤال هوى من نفس الحكيم فأوجز الامر للوزير وانصت يترقب منه الجواب . .

قال الوزير : سر التوفيق في حكومة هذه الأمة أن يتم فيها الأمر الجليل كما يتم الامر الصغير ، وليس فيها من يعتقد انه يريده كل الارادة أو يأباه كل الاباء ، وانهم قد احسنوا الخصومة في الجد . . فالغالب منهم والمغلوب في رياضة لا توغر الصدور ولا تحفظ القلوب

خليفة دانتي

قضى المعري أياماً في البلاد الانجليزية وهو يستمع الى الأنباء التي تفيض بها الصحف رثاء لشاعر الطليان « جبريل دننزيو » وتعقيباً على أدبه ومغامراته في الحب والحرب والسياسة . فسأل صاحبه : من يكون الرجل الذي يلغطون به هذا اللغط في بلاد ليس بينها وبين بلاده صفاء ، ويوشك أن يستعر بينهما لهيب الجفاء والبغضاء ؟

قال صاحبه : هو خليفة دانتي !

قال المعري : الآن زدتني به معرفة . . ومن دانتي يرحمك الله ؟ . .

فثاب التلميذ الى نفسه وهو يعتذر من فلتات وهمه ! فقد طالما اقترن اسم المعري واسم دانتي في قراءاته حتى حسب انهما متعارفان ، وأن المعري لا يجهل اسم قرينه ولا يغيب عنه أثره وتاريخه ، فقال :

حسبتك يا مولاي تعرفه وتعرف الصلة بينك وبينه ، فقد زعم بعض الأدباء من أبناء الأندلس المحدثين أنه تلميذك وأنه اقتبس منك روايته المقدسة ، لما بينها وبين رسالة الغفران من المشابهة . فهي رحلة بين الأرض والفردوس والجحيم ، ومقابلة للأدباء وذوي الشهرة من الصالحين والغاوين ، وحكاية لما يصنعون في الدار الآخرة قياساً على ما كانوا يصنعون في الدار العاجلة . . وقد سبقني الوهم حتى كدت أسألك : أصحيح انه أخذ منك تلك الرواية ؟ وانما الصواب أن أسأل « دانتي » لو لقيته كما لقيتك ، فهو أقمن بجواب ذلك السؤ ال .

قال المعري : وماذا فعل خليفته ؟ أتراه كتب رسالة أخرى على نمط رسالة الغفران ؟

قال التلميذ : كلا يا مولاي وانما يسمونه خليفة « دانتي » لأنه أشهر شعراء الطليان في العالم الحديث كما كان أشهرهم في زمانه . أما مادة الأدب فلا مشابهة فيها ولا مقاربة ، بل لعلهما أقرب الى المناقضة والمباينة في كثير من الأقوال والنزعات والأخلاق .

***

واسترسل التلميذ في شرحه وهو لا يحسب الا أن الحكيم مسترسل في صمته ليستزيده من الشرح والتفصيل ، فجعل يقول : لقد كان دانتي عُذرياً في هواه متديناً في شعره صارماً في حياته . أما خليفته فمذهبه في الحب اشباع الشهوات واستنفاد متعة الحياة ، ومذهبه في الدين مذهب أهل العصر من الشك والاباحة ، وسجيته أقرب الى العربدة منها الى الصرامة والى الضحك الثائر أقرب منها الى العبوس الرصين ، وكان دانتي أحرى بالحظوة عند النساء ولكنه لم يحظَ منهن بطائل . . أما خليفته فهو بيِّن الصلع والقماءة ، ولكنه مجدود عند الشواذ من بنات الفن ورائدات الغرائب والبدوات . . على أنه كان من الشهوانيين بالأعصاب ولم يكن من الشهوانيين باللحم والجسم ، وكانت لذاته رعدة تهز الأوصال ولم تكن أكلة يملأ بها ماضغيه ويحشو بها أحشاءه ، فهي وليدة القلق والحركة وليست وليدة الترف والاستنامة ، وكأنها قد أصبحت بذلك في زعمه أقرب الى الطموح والمثل الأعلى ، وأبعد من الغواية والاسفاف .

فقاطعه المعري منشداً :

جهلت أقاضي المصر أكبر مأثماً   بما ناله ، أم شاعر يتغزل ؟ .

ألهذا يا بني قد شهروه وقدروه ، وبهذا يا بني قد أكبروا ذكره وسيروه ؟

فأحس التلميذ لهجة التأفف والاستنكار في سؤال الحكيم المعرض عن الشهوات واللذات ، وجاراه من حيث لا يشعر قائلا :

بل لعلهم قد شهروه لمغامراته في الحرب والسياسة كما شهروه بمغامراته في الحب والغواية . .

قال المعري : وما ذاك ؟

قال التلميذ : انه كان من أهل بلد صغير فصلوه من موطنه الكبير ، فلما كانت الحرب

التي يسمونها بالحرب العظمى طمع في رجعة ذلك البلد وسعى الى الوصل بين منشأ أهله ومستقر قومه ، فحالت الحوادث دون ما طمع فيه وسعى اليه ، فحمل السلاح وغزا ذلك البلد وأقام نفسه حاكماً عليه وأبى أن يبرحه الا وهو قتيل ، بل جعل يصيح على مسمع العالم كله : انه لن يبرحه وهو قتيل ، لأنه أقسم ليموتن فيه وليدفن في ترابه ، بل أقسم ليكونن هناك نصيراً لكل من أضاع وطنا أو غضب على وطن ، ونادى بدعوته فاذا هي كما قال : « أعظم الدعوات وأجملها وأشدها نقمة على خسة العالم الشائخ وهتره وتخريفه في هذه الايام ، لأنها تمتد من ايرلندة الى مصر ، ومن مصر الى الروسيا فأمريكا ، ومن رومانيا الى الهند : تجمع الشعوب البيضاء والشعوب ذات الألوان ، وتصلح بين وحي الانجيل ووحي القرآن ، وتمشي بالوئام بين أتباع عيسى وأتباع محمد ، وتمزج في ارادة واحدة كل ما وسعته الأمم في نخاعها وفي عروقها من ملح وحديد لامداد النفوس بغذاء العمل والحركة . وسننتصر لا محالة ! وسينضوي الثائرون من جميع الأمم بين جميع أبناء آدم الى أعلامنا وسينتضي العزّل المظلومون سلاحنا ، وسندفع العنف بالعنف والشدة بالشدة ، ونشنها غارة جديدة كغارة الصليبيين لنصرة المساكين واغاثة الأمم الفقيرة المنزوفة ، ونرسلها شعواء على المرابين والمبتزين الذين غنموا بالأمس أسلاب الحروب ويغنمون اليوم أسلاب السلام . »

قال المعري : أضغاث أحلام ، وشطحات أوهام . . ثم ماذا كان من شأنه في ذلك البلد ، وماذا كان من شأنه مع المظلومين والمستضعفين ؟

فابتسم التلميذ وقال : هو ما تقول أيها الحكيم . . فما هي الا أضغاث أحلام وشطحات أوهام ، وما هو الا أن تبدل الوزراء في حكومة بلاده حتى خرج حياً من البلد الذي أقسم ليموتن فيه وليدفنن في ترابه ، وما كان قد دخله من قبل الا وهو على تواطؤ مع قادة الجيش ورجال الدولة ، فلم يمنعوه ، ولم يقفوا في طريقه . .

فابتسم الحكيم ابتسامته المرة وعاد يسأل وكأنه يعلم جواب ما سأل عنه قبل الافضاء به اليه :

والمساكين المستضعفين ؟ . .

فقهقه التلميذ ناسياً أدبه ووقار شيخه ، وقال : أما المساكين المستضعفون فقد جردت عليهم حكومته جيشاً يزيدهم مسكنة وضعفاً . .

* * *

فتعجل الشيخ سائلا : فماذا صنع خليفة دانتي وخليفتي يرحمك الله ؟ هل أعطاهم من سلاحه ما ينتضونه ؟

قال التلميذ : بل أرسل عليهم شواظاً من شعره يحض به الجيش الزاحف على حسن البلاء وتشديد النكير . .

فوجم المعري مهموماً ولم يزد على أن قال :

صدق الله العظيم « يقولون ما لا يفعلون » .

لعب العبقرية

كان أبو العلاء في أيامه الأخيرة بين أمم الغرب كثير السآمة من لقاء الناس ، كثير النفور من المجامع والمحافل ، كثير الاعراض عن الجدل في المذاهب والآراء والفلسفات التي سمع من أخبارها في أيام ما لم يسمعه في أعوام كان بقيد الحياة .

« ما النحو ؟ . . ما الشعر ؟ . . ما الكلام ؟» كما قال في بعض أبياته[1] كلها ككل شيء في هذه الدنيا :

تعب غير نافع واجتهاد   لا يؤدي الى غناء اجتهاد

وكانت للأمر في أول عهده بالقوم جدة وغرابة ، فكان يحتمل المجامع والمحافل ما بقيت الجدة والغرابة . . ثم نصلت الطلاوة وزالت الغشاوة فاذا الجديد كالقديم واذا العجم كالعرب ، واذا الدنيا هي الدنيا والناس هم الناس والحياة هي الحياة ! وكل يوم دعوة ، وكل يوم خروج على غير طائل ، أو على ضجة ما كان أغنى عنها تينك الأذنين اللتين حجبهما الرجل عن الصوت ، بعد أن حجبت الأقدار عينيه عن الضياء .

قال يوما لصاحبه : كنت أحسب الدنيا بنية مطمورة في القدم فكلما غاص الانسان فيها كان أدنى الى حقائقها وأسرارها ، فلما بعثت في هذا العصر الحديث حسبتها منجماً مقبلاً

---

(١) من أبيات يقول فيها :

اف لما نحن فيه من عنت   فكلنا في تحيل ودلس
ما النحو ما الشعر ما الكلام وما   مرقش والمسيب بن علس ؟

كلما أمعن الانسان في غده بعد يومه كان أدنى الى تلك الحقائق والأسرار .

فأسرع صاحبه يسأله :

فالآن ماذا تحسبها ؟

قال أحسبها متاهة مغلقة ، فكلما رجعت فيها أو تقدمت فأنت في مكان واحد من المدخل أو من المخرج ، وقد أغلقت فلا مدخل ولا مخرج هناك .

وكان صاحبه أو تلميذه من أبناء العصر المنشَّئين على تربيته وعاداته : كل دعوة تأتيه فاما لحضور واما لاعتذار ، وكانت عنده دعوة من مؤتمر الفلسفة والأديان ، ينتظر أصحابها الاجابة من حكيم العرب وحكيم القرون الوسطى . . فبماذا يجيب ؟ والحكيم لا يريد الحضور ولا يريد الاعتذار ؟

* * *

تلك فرصة سانحة يوم عرض الحكيم للدنيا وشبهها تارة بالبنية المطمورة وتارة بالمنجم المحفور ، وتارة بالمتاهة المغلقة .

فعاد التلميذ الى المفاتحة في أمر الدعوة الى مؤتمر الفلسفة والأديان ، وعاد الحكيم الى الرفض والاعراض وزاد متهكماً ساخراً : مؤتمر يشاور فيه بعضهم بعضا فيما يدينون به من عقيدة !! . . ليوشك القوم غدا أن يتشاوروا فيما يحبون من وجه جميل وفيما يأكلون من فاكهة لذة !! وهل يرجع المرء فيما يحبه من جمال وفيما يشعر به من لذاذة وفيما يعتقده من طمأنينة اليقين الى مشاورة الآخرين ؟

فعلم التلميذ ان نوبة النفور أصلح هنا للخوض في مسائل المؤتمر من نوبة الاقبال والموافقة ، واقترح على الشيخ أن يسأله وأن يدوّن جوابه ، وأن يستخلص من الحديث ما يلقيه على المؤتمرين ، نائباً عن الشيخ ، والشيخ معافى من مشقة الذهاب ومشقة السؤال والجواب .

قال التلميذ : أأنت من العقليين يا مولاي أم من الفطريين . . ؟

فسأله مولاه :

ما العقليون وما الفطريون هداك الله ؟

فلخص التلميذ مذهب العقليين ومذهب الفطريين في كلمات موجزات ، وقال ان العقليين يحسبون ان الاقناع هو سبيل الاصلاح والهداية، والفطريين يحسبون ان البداهة قبل التفكير وان الاقناع قلما يغالب الأهواء . . فمن أي الفريقين يا ترى يكون الشيخ الجليل ؟

قال أبو العلاء : من كلا الفريقين !

أنا من العقليين حين أقول :

كذب الظن لا إمام سوى العقـ ـل مشيراً في صبحه والمساء

وأنا من الفطريين حين أقول :

العقل يسعى لنفسي في مصالحها فما لطبع الى الآفات جذاب

وأنا لست من هؤلاء ولا هؤلاء حين أقول :

وبصير الأقوام مثلي أعمى فهلموا في حندس نتصادم !!

قال التلميذ : خرجنا من البنية المطمورة ومن المنجم المجفور ودخلنا المتاهة المغلقة يا مولاي : هذا تناقض والحق لا يتناقض . فماذا أقول للمؤتمرين من رأي الشيخ في حقيقة الحق بين هذه الأمور ؟

فهتف به الشيخ ضاحكاً وقد سرى عنه بعض السآمة : بل التناقض للحقائق يا بني لا للأباطيل . .

* * *

ان الأباطيل تتغير وتتبدل فيسهل التوفيق بينها بقليل من النقص هنا وقليل من الزيادة هناك ، أما الحقائق فهي التي تقف في سبيلنا وقفة الصخور . لا تحيد من يمين ولا من شمال ، وعلينا نحن أن نسلك بينها ونتحول من حولها ، فان أردت أن أتحول بك في دروبها قليلا فاعلم اذن أننا نتبع العقل فيما هو للعقل من رأى وتفكير وتجربة ومشاهدة ، واننا نتبع الفطرة فيما هو للفطرة من ذوق وطمأنينة وتسليم ، واننا لا نطلب من الفطرة أن تصبح عقلاً ولا من العقل أن يصبح فطرة ، وانما نستشير كليهما حيث يشير . . .

* * *

وبدا لأبي العلاء أن تلميذه المصغي اليه يستريح ويستقر على ما سمع فأدركته عارضة من لعب العبقرية ولعب الطفولة الخالدة . وهل العبقرية الخالدة الا حياة متجددة ؟ وهل يلعب الطفل الا لما يدركه من جدة الحياة واقبالها ؟ فكما يرى الطفل من ينامون الى جانبه وهو يقظان فتأبى عليه شيطنة الحياة العارمة الا أن يوقظهم معه ويعديهم بمساس من القلق الذي يشتمل عليه ، كذلك العبقري لا يطيب له أن يأرق وحده والناس هادئون . . فمن ثم ان شئت يقظات الأحلام والناس نيام ، وشيطنة الخلود والفانون سادرون في موت الجمود ؛ قل ان شئت انها جدة تلطف جدها ، وأنها حلاوة تخالط مرارتها ، ولكنها ـ بعد كل ما يقال ـ لا تخلو من جانب اللعب فيها وجانب الرياضة ، ولن يستحق الجد ما ليس فيه لعب ولا رياضة . .

* * *

بدا ذلك لأبي العلاء فأومأ الى تلميذه يسأله وقد كفَّ هو عن سؤ اله :

أراك صدقت وآمنت . فمالك لا تسأل : ومَن الذي يستشير العقل ؟ ومن الذي يستشير الفطرة ؟ أفي الانسان شيء خارج العقل وخارج الفطرة فهو الذي يكون منه السؤ ال ثم يكون الجواب اما من العقل المسئول أو من الفطرة المسئولة ؟ وما الرأي اذا كان السائل هو الفطرة والمجيب هو العقل ؟

وما الرأي اذا وقع الخلاف على السؤ ال وعلى الجواب !؟

وفوجىء التلميذ . . ولكنها مفاجأة وقعت منه موقع السرور والتأهب ، لأنه انتظر بعدها مزيداً من الاستفسار ومزيداً من التفسير . فقال اذن أنت يا مولاي من الجبريين ؟! ولا أدري كيف فاتني الساعة أن أذكر ذلك وأنت القائل :

والعقل زين ولكن فوقه قدر ... فما له في ابتغاء الرزق تقدير

* * *

قال أبو العلاء ولا تزال فيه تلك العارضة من لعب العبقرية : ولا تدري ايضاً كيف فاتك الساعة أنني لست من الجبريين ولا من القدريين لأنني أنا القائل :

لا تعش مجبراً ولا قدرياً ... واجتهد في توسط بين بينا

قال التلميذ وكأنما شملته تلك العارضة التي استولت على أستاذه في تلك الساعة :

وهل هذه الا الجبرية بعينها ؟ لا تريد أن تقول ان الانسان مجبر ولا تريد أن تقول انه مخير . ولا تفصل في المشكلة بل تدع الفصل فيها لعالم الغيب أو عالم الشهادة . . ماذا يكون الجبريون ان لم يكونوا هكذا غير مختارين فيما يفكرون وفيما يعتقدون ؟

فأصغى المعري وأعجبه ما سمع من تلميذه فأومأ موافقاً : « نعم هي الجبرية في أرجوحة ذاهبة آيبة . . وهي خير من الجبرية في قيد مقيم . .

قال التلميذ :

لقد عدم التيقن في زمان حصلنا من حجاه على التظني

* * *

فهتف به المعري : ويحك انك لتتعقبني بكلامي القديم تعقب المذنب باقراره . . فهلا أغناك حفظك عن مطاردتي بالسؤال والاستقصاء ؟

فلاحقه التلميذ قائلاً : المدى يا مولاي في هذه المسائل فسيح ، والتعب لا يضير ، وخطوة واحدة الى الأمام أو خطوة واحدة الى الوراء لن تضيق النطاق ، ولن تقرب اللحاق .

قال الشيخ مترقباً : ثم ماذا ؟

قال التلميذ مجارياً : ثم علامَ الجزاء اذا كنا فيما نحسن أو نسيء مجبرين مسيَّرين ؟ . .

قال الشيخ : اذا كانت النفس تعمل الخير مكرهة فما حقها في الجزاء ؟

واذا كانت النفس تعمل الخير مختارة لانها تؤثره وترضاه وتجد فيه الغبطة وفي غيره الندم والحسرة فما حقها ايضا في الجزاء ؟ فاحرِ بنا الا نشغل بالنا بمثوبة او عقوبة .

ولتفعل النفس الجميل لانه خير واحسن لا لاجل ثوابها

* * *

ان الطفل يا بني يؤجر بالدرهم ليأكل الطعام وفيه مصلحته ونماؤه ، فاذا كبر الطفل بذل هو الدرهم وصبر على بذله وتحصيله لياخذ به طعامه ويشبع به نهمته واوامه . . وكذلك تصغر النفس فتؤجر على خيرها الذي تجهله ، وتكبر النفس فتبدل هي الاجر على

ما تعمل من خير ، وذلك هو الجميل وذلك هو الثواب :

أدين برب واحد وتجنب قبيح المساعي حين يظلم دائن

ثم انشد :

وليس اعتقادي خلود النجوم ولا مذهبي قدم العالم

* * *

ثم عاودت الشيخ تلك العارضة من لعب العبقرية الخالدة فصاح بالفتى : اسرع . . اسرع يا بني مؤتمر الفلسفة والدين ، اسرع اليهم فقد طال بهم الانتظار ، في طلب هذا الحوار ، والذي لا يستقر عليه قرار ، ولا يزيد به عدد الابرار ، ولا ينقص به عدد الفجار .

ثم تمتم بين شفتيه :

ما النحو ؟ ما الشعر ؟ ما الكلام ؟

كلام في كلام في كلام .

الاختراع

السفينة في طريقها الى المشرق والمعري وصاحبه على مقدمها يستقبلان الهواء . والمذياع يغني الأنشودة المشهورة على لسان امرأة لاهية تقول بالفرنسية :

« عندما تضمني بين ذراعيك ، أنا أعلم الكلمة التي ستقولها . . ستقول اني أحبك ! وهي كلمة كاذبة ولا شك . . ولكني مع هذا أحب أن أسمع صوتك » . .

والفيلسوف يسأل : ماذا تقول هذه المرأة ؟ والتلميذ يترجم الأنشودة ويتخابث في سؤ ال الشيخ عن رأيه في هذه المناجاة العصرية ، على لسان امرأة تخاطب رجلاً ، أو على لسان النساء يخاطبن الرجال .

والشيخ يتأمل باسماً ويجيب تلميذه راضياً رضى القانطين المستسلمين : « هو الغرب كله يا بني ماثل في هذه الأنشودة اللاهية : هو الغرب الذي يأخذ من الحياة ما تعطيه ، ويطلب السرور ، ثم لا يسوم دنياه طلب الوفاء والكمال . . هو الغرب الذي يأخذ كل شيء بقيمته وكل شيء على حقيقته ، ثم يصقله ويحببه الى نفسه ليستسيغه ويستمرىء مذاقه ، هو الغرب ذو النفس الناطقة التي لا تقول كلمة في جدها ولا لهوها الا جمعت فيها خلاصة ما عندها من حضارة وأخلاق وفلسفة وشعور . . »

قال التلميذ :

أو ليست كل النفوس ناطقة ؟ ألا تفصح كل نفس عن دخيلتها في غنائها ومناجاتها ؟ . .

قال الشيخ : بلى ، ولكن شتان تعبير اللسان الذي يقول فيجمع حياته فيما يقول ، وتعبير

الثمرة التي ترى قشرتها فترى من لونها وتشم من رائحتها انها ناضرة أو ذاوية ، وصحيحة أو معطوبة : ذلك تعبيرٌ الفضل كله فيه للقائل ، وهذا تعبير الفضل كله فيه للناظر ، وكلاهما تعبير ولكن المسافة بينهما كالمسافة بين الحياة والجمود ، والحركة والركود »

فصاح التلميذ : اليوم سيدي الشيخ عربي وهو يفارق الغرب الى الشرق ! . . فهلا كان غريباً وهو في بلاد القوم مستريح ؟ . . أم كتب على الانسان أن يحب ما يفارق ولا يزال ساخطاً على ما هو فيه ؟

فصمت الشيخ هنيهة ، ثم راح يمضغ بين شفتيه :

يا ماء دجلة ما أراك تلذ لي شوقا كماء معرة النعمان

اطمئن يا بني . ما أنا الى الغرب ولا أنا الى الشرق . أنا الى معرة النعمان فهلا آن الأوان ؟

* * *

فأراد التلميذ أن يطاوله ويصرفه عما ورد على نفسه في تلك اللحظة من الحنين الى وطنه ، وعاد يحاوره وكأنما يتحداه ليستثيره ويجنّبه غاشية السوداء التي هو مقبل عليها :

أفي المعرة مثل هذه السفينة ومثل هذا المذياع ومثل هذا الصوت الجميل ومثل هذه الأعاجيب !

وكان المعري قد ركب السفائن والطائرات ، وعرف مطايا الكهرباء ومطايا البخار ، وقال في كل منها قولة عارضة وهو يركبها أو يترجل منها . الا أنها رحلة العودة ففيها خلاصة المقال ونهاية المآل ، فيما رأى من هذه الصنوف والأشكال ، فقال :

وما حاجة المعرة الى سفائن البحار ؟ فيها السيارة وتحوم على فضائها الطيارة ولو كان فيها بحر لكان فيها مثل هذه السفينة ومثل هذه الضوضاء . .

قال التلميذ : وكلها من صنع الغرب الذي ما أدرى أيبرم به الأستاذ أم هو مشوق اليه ؟ . .

قال المعري : الآن فهمت ما تريد . . فهلا أنبأتني يا بني ماذا صنع الغرب من هذه الآلات يوم كنا نعيش حياتنا الدنيا في المعرة ؟ لعمرك يا بني ما صنعوها اليوم الا لأنهم قد احتاجوا اليها ، والا لأنهم قد بنوا على أساس ما سبقها وهيأ أسبابها من صناعات

القرون الأولى . يا بني لا تهولنك المظاهر ولا تعجبك كثرة الأعداد . فلعل مبتدع الشراع والدولاب أحذق من مبتدع البخار والكهرباء ، ولعل القوس والسهم أبرع في اختراعهما من المدفع والقذيفة ، ولعلهم كانوا يعيشون على عهد الشراع خيراً من هذه العيشة ، ولعلهم كانوا يموتون على عهد القسي والسهام أكرم من هذه الميتة ! ولعل متعة الحالم بالطيران أحب اليه من متعة الطائر بالجثمان .

* * *

قال التلميذ : ولا أحسبني مع هذا مخطئاً اذا قلت انني لمحت دلائل الدهشة على وجه الأستاذ يوم ركبنا الهواء أول ما ركبناه . .

قال أبو العلاء : تلك دهشة تغني عن دهشات .

فسأل التلميذ : أيحب مولاي أن أفهم من هذا ان الكهرباء والبخار وما صنع الانسان منهما لا تستحق دهشة الحكيم كما يستحقها الانسان الطائر في الهواء ؟

قال أبو العلاء : لا أحب أن تفهم هذا ولا أكرهه ، ولكنني دهشت لمعنى ما رأيت حين رأيته أول لمحة ، ثم أغناني ذلك عن دهشتي للمصنوعات المكررة والظواهر المختلفة . . أتحسب أن من يدهش للطيران في الهواء خليق أن يدهش لكل متحرك بالبخار والكهرباء ؟ أفمن شهد الشراع مرة خليق أن يدهش له مرات كلما حركته ريح شمال أو ريح جنوب ؟ ذلك معنى واحد في ألفاظ شتى ، أو ذلك جسد واحد في مختلف الثياب ، وحسبك أن تعلم أن تسخير القوى التي يسمونها بالقوى الطبيعية مستطاع لتزول عنك الدهشة من كل ما يستطاع من هذا الطراز .

فاندفع التلميذ سائلا : أفكل هذه الآلات اذن ليست بالفتح الجديد ؟ أليس فيهـا ما يستوقف الحكماء من تاريخ بني الانسان فيما يرى سيدي الأستاذ ؟

فلم يمهله أبو العلاء هنيهة ، وأجاب :

« لا فتح ولا اقفال » !

« وربما فتحت هذه الآلات لانسانك يا بني فتحاً جديداً لو أنه سخر الآلات ثم أطلق نفسه من العقال ، أو لو أنه ملك نفسه يوم ملك **آلات الأرض والهواء** . . ولكنه سخر الآلات المصنوعة ليصبح شبيهاً بها ، ثم ازداد في التسخير ليزداد في الشبه . فهو أسير ما

صنع ورهين ما ابتدع ، فان سمّيت هذا فتحاً فالله يفتح عليك . .

***

ولم تخفَ لذعة السخر والمرارة في كلمة الشيخ الأخيرة على فطنة تلميذه الملحاح فقال وهو لا يتعمد الاطالة في الحوار :

أخال انسان اليوم على جميع حالاته أطلق من آبائنا الأولين !

فتمتم أبو العلاء هامساً : أكذاك ؟

ثم انثنى يقول : لأمر ما كان الأوئل يروضون الحيوان وكنتم في زمانكم هذا تروضون الجماد : « كلٌ قريبٌ الى ما يروِّض ! وما أحسبكم تفلحون في رياضة حيوان واحد بعد الذي راضه آباؤكم المتقدمون ، ولكنكم كلما قاربتم الآلات خرجتم من رياضتها في كل يوم بجديد

***

وتعمد التلميذ المناوأة الخفية فقال :

ومع هذا يغبط مولاي الجماد ويسبح الله الذي أعفاه من الطعام والكساء ومن الرحلة والشقاء .

ولم يرفض أبو العلاء هذه المناوأة بل جرى في مجراها فقال متمنياً أو متهكماً على حدٍّ سواء :

لو عوفيتم كما عوفي الجماد !
فأنس التلميذ الى هذا التهكم الرقيق وراح يسأل :
وهل عوفي الأقدمون ؟

قال أبو العلاء : كلا . على هذا مضيتم ومضى السلف ، الا أنهم صبروا حيث تضجرون ، وطلبوا من الدنيا دون ما تطلبون ، فاذا كانوا مثلكم في الشقاء فلقد كانوا أقل منكم في الشكاة ، واذا كان نصيبهم كنصيبكم من الخير فالذي يطلب الألف ويجد المائة محروم ، والذي يطلب العشرة ويجد الخمسين مجدود لا تحسبه من أهل الحرمان .

أقصى المغرب

قاتل الله المجاز ! . .

كان هذا أول ما فاه به المعري لتلميذه بعد أن علم سبب الكارثة التي أودت بمئات النفوس من ركاب السفينة . اذ كانا يركبانها ويتحدثان فيها ذلك الحديث المروي في الفصل السابق . . وكانا قد بلغا شواطىء الأندلس حين وقعت الواقعة . وما هي الواقعة ؟ قذيفة أطلقتها على السفينة غواصة من غواصات الثوار فهبطت بها الى القرار ، ثم نجا المعري بعصمة الخلود ، ونجا تلميذه ببعض المجهود ، وهما الآن على متن سفينة أمريكية تمخر بهما بحر الظلام ، الى بلاد العم « سام » .

ومال التلميذ الى الأستاذ يسأله :

أعلمت يا مولاي ما سبب الكارثة ؟

فقال الأستاذ : وما سببها ؟

قال : أنت يا مولاي !

قال : ويحك ! وكيف أكون أنا سبباً لاغراق سفينة أنا راكب فيها ! أهي دعوة صائبة ؟ . .

قال التلميذ : بل هو مجاز خائب . . كتبت بعض الصحف أن سفينة من السفن تفارق الشواطىء الأندلسية وعليها ذخيرة عربية نفيسة . . ومن تكون الذخيرة العربية النفيسة

غير أبي العلاء ؟ فلما تواترت الأنباء بهذا المجاز النفيس حسب الثائرون على حكومة لأندلس أن هذه الحكومة تبعث بالتحف العربية الغالية الى بلاد أجنبية ، لتودعها أو رهنها هناك فطاردتنا وأغرقتنا لتحرمها هذه الذخيرة ، أو تستولي عليها اذا أدركتها قبل أن يبتلعها اللجة ، فغرقت السفينة وهلك من هلك من جراء أبي العلاء . .

قال أبو العلاء : قاتل الله المجاز ، بل هو الذي أهلك القوم كما أهلك من قبلهم أمماً خالية أغرقها المجاز في بحار من الكلام ، وأنا مع ذلك القائل :

لا تقيِّد عليَّ لفظي فاني ... مثل غيري تكلُّمي بالمجاز

نعم وأنا القائل أيضاً :

بني الدهر مهلاً ان ذممت فعالكم ... فاني بنفسي لا محالة أبدأُ

***

ثم قال : والى أين تمضي سفينتنا الآن بالذخيرة العربية النفيسة ؟ أتراني سأغرقها مرة أخرى ؟

قال التلميذ : بل الى بر السلامة ان شاء الله . . الى بلاد العم سام !

قال أبو العلاء : وما عسى أن نشهد هناك غير ما شهدنا ؟ أو نسمع هناك غير ما سمعنا ؟

قال التلميذ : كثيراً يا مولاي . . سنرى قبل كل شيء مُلكا عظيماً على الطريقة الأمريكية . .

فتمهل أبو العلاء قليلا ثم قال : أراني سأقضي منك ديون السؤال كلها في هذه الرحلة . فما هي هذه الطريقة الأمريكية التي نسمع بها في كل شأن من شؤون هؤلاء الناس ؟ وكيف يكون الملك العظيم ملكاً عظيماً على هذه الطريقة . .

قال التلميذ : بالامتحان والكشف الطبي ، كأنه موظف في الخدمة اليومية ! . . فهذا الرجل الذي يحكم الدولة العظمى في الديار الأمريكية قد كان مشلولا في كهولته ثم تقدم الى الشفاء ، فلما أذاع خصومه أنه لا يصلح للحكم عرض نفسه على الأطباء الثقاة ليشهدوا له بصحة العقل وصحة الضمير . وقد شهدوا له وجاز الامتحان عند أبناء وطنه فانتخبوه . أليست هذه طريقة أمريكية في الحكومة كالطرق الأمريكية في الصناعة

والتجارة ، وفي كل شأن من شؤ ون هؤ لاء الناس ؟

قال أبو العلاء : وهل أفلح الرجل وصدق الأطباء ؟

فأجاب التلميذ : نعم أفلح غاية ما يستطاع الفلاح ، وعالج الشلل في قومه كما عالجه في جسمه . .

فأدركه أبو العلاء متهانفاً وصاح به : غرقة أخرى يا بني ! . . ومجاز آخر يوشك أن يرسل بالسفينة الى القرار . . أفصح يا بني ودعنا من المجاز ! . .

***

فاستضحك التلميذ ، ولكنه شغل بالجد فيما هو فيه عن سخرية الشيخ وارتيابه ، فطفق يقول :

لقد صعد « روزفلت » العظيم الى كرسي الرئاسة والأمة الأمريكية كالجسم الذي له نصف محتقن بالدم الغزير ونصف منزوف مشلول لقلة الدم فيه ، فكان كالقلب الذي لا تنتظم به دورة الدم في جميع العروق ، وأخذ من النصف المحقون للنصف المشلول ، فدار الدم دورته في جميع العروق ، وأوشكت الحركة أن تعود الى جميع الأعضاء .

قال أبو العلاء : أتراه أثار الفقراء على الأغنياء كما صنعوا في بعض الديار الأوربية ؟

قال التلميذ : لو صنع ذلك يا مولاي لكان من الفاشلين ، فان هذه البلاد على تقدم الصناعة فيها وكثرة الصناع بين أبنائها تعتصم من ثورة الفقراء على الأغنياء بشتى العواصم ، وتحتمي منها بكثير من الحصون : منها يا مولاي ان باب الغنى مفتوح لكل فقير مستطيع ، فكل فقير فيها يمنّي نفسه بالثروة بعد حين ، ولا يشعر باحتكار الثروة في أيدي طائفة من الناس تتوارث المراتب وتتوارث الأموال . . فمن هنا يحسب الفقير أنه يثور على نفسه أو يثور على أمله حين يثور على الأغنياء .

ومنها أن الأمريكيين قوم ورثوا المغامرة والمراهنة من أجدادهم الأولين الذين غامروا بالهجرة الى الغرب المجهول منذ قرون ، فمن شغفهم بالمغامرة والمراهنة أنهم يحبون الانتخاب وينتظرون السباق فيه بين الأحزاب ، ولا يلجأون من أجل ذلك الى الاضراب والاغتصاب .

ومنها أن الزراعة عندهم توازن الصناعة ، وأن الريف بينهم يوازن المدينة وأن ازدحام

الحواضر لا يخلي القرى من الحارثين الحاصدين ، وهؤلاء أقرب الى جانب الاستقرار منهم الى جانب الثورة والثوار .

ومنها ان حب الدين فيهم قديم ، لأن آباءهم الأولين كانوا أناساً متنطسين متطهرين نقموا معيشة الفساد في أوربا فهجروها الى الغرب متعففين متورعين وانما يثور الانسان على الأرزاق حين يثور على الأقدار . . .

* * *

قال أبو العلاء : أرحتني من الأستاذية في هذه الرحلة المباركة أراحك الله ، غير أني أراك قد ذكرت لنا ما منع رئيس القوم أن يثور بالفقراء على الأغنياء ولم تذكر لنا ما صنع لعلاج ذلك الجسم المحقون المشلول . . أتراه رجع فيه الى الأطباء ؟

قال التلميذ : عفواً يا مولاي . أحسبها غلطة من غلطات الحداثة في الأستاذية ، أو أحسبها أسلوباً مبتكراً على الطريقة الأمريكية ، ومن كان أستاذاً لأبي العلاء فمغتفر له ما شاء من امهال وابطاء .

فاعلم يا مولاي اذن أنه أجزل من الأجرة والوقت للصناعين ، وأكثر من الأرزاق للشيوخ والعاطلين ، فأكثروا من الانفاق وراجت بهم الأسواق . .

فسأل أبو العلاء : ومن أين جاء بالمال ؟

قال التلميذ : بعضه من أرباح الأغنياء والفقراء ، وبعضه من الضرائب على رؤوس الأموال .

فعاد أبو العلاء سائلا : وكيف رضوا بما فُرض عليهم ؟ . .

قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين ، فان كثرة البيع والشراء خير من كساد السلع والخوف الدائم من ثورة العاطلين والمطرودين ، والمال الذي يذهب ويعود خير من المال الذي يُفسده الركود .

* * *

فسأل أبو العلاء مرة أخرى : وهب التجار لم يخرجوا من بضائعهم الا بمقدار ، فأمنوا بذلك مغبة البوار ، وقنعوا باعتدال الأسعار . فهل تزن الأرض غلاّتها ، وهل تحكم الحكومة على نباتها ؟ . .

قال التلميذ يقرظ استاذه العجيب : ما أعجبك يا مولاي من أستاذ ومـا أعجبـك من تلميذ . انك لتحسن السؤ ال كما تحسن الجواب . فاعلـم اذن يا مولاي أن الأرض قد أخرجـت ما شاءت وأن الحكومـة قد أتلفـت منـه ما شاءت ، وهـو النصف من جميع الغلات .

قال أبو العلاء : وهل رضي الزارعون ؟

قال التلميذ : رضوا كارهين أو كرهوا راضين ، ثم حمدوا المغبة بعد حين . .

* * *

وانطلقت السفينة في عبابها وأبو العلاء يقول وكأنه يحدث نفسه ولا يعنـي تلميذه بمـا يقول :

لئن نجح الرجل نصف نجاح لقد نجح في حقيقة الأمر كل النجاح ، فما من الصواب أن نسوم انساناً واحداً كل الصواب ، وأن نمضي من حوله كلنا مخطئين . .

أقصى المشرق

قل انهم يحبون العجلة ! قل انهم يكرهون الوقت ! قل انهم حائرون فيما يحبون وما يكرهون . اما انهم يحبون المال وكفى فان من يحب المال للمال لا يتحرك ولا يعيش ، بل يجلس كما تجلس العجوز على القِدر المدفونة ، أوكما يجلس الصيرفي على خزانة الذهب ، وهؤلاء لا يجلسون جلسة العجوز ولا جلسة الصيرفي ، ولكنهم يتحركون ويعيشون .

كان ذلك حكم المعري على الأمريكيين أو قل « حكم المعري للامريكيين » وهو خارج من بلادهم ، وكان قد حضر مع تلميذه عيد الاستقلال في عاصمتهم ورأى بذخ القوم واسرافهم في بذل أموالهم لازجاء أوقاتهم والحفاوة بذكرياتهم ، فلما برحا الشواطىء الأمريكية من أقصى المغرب واستويا على مكانهما في السفينة يعرضان ما عبرا وعبر بهما ، ويجمعان ما تفرق من الوقائع والمشاهدات قال التلميذ : هذه أمة تحب المال ولا تعمل الا للمال ، فأبى المعري أن يجاري تلميذه في حكمه ، وقال عن القوم ذلك المقال .

ولا ندري لِمَ لَم يطب المقام في بلاد الشمس المشرقة لرهين المحبسين كأنما كان هناك في حبس أشد عليه من محبسيه .

فكان في أرض « نيبون » يتأفف ويتبرم من كل شيء ومن غير شيء ، ولم يزل مع تلميذه على حذر وامتعاض حتى هجرا أرض نيبون الى أرض الصين ، وأقاما فيها برهة بين الفتن والثورات والمجاعة تارة والقحط تارات ، ولكنهما كانا أقرب شيء الى راحة البال والاقبال على شهود الأحوال ، لأنهما كانا يشهدان في الصين جهداً يسر الناظرين أن يبلغ تمامه . أما الجهد الذي كانا يشهدانه في أرض نيبون فقلَّ أن يكون في تمامه سروراً للناظرين ، ولا سيما الحكماء .

قال التلميذ يستفز أستاذه للكلام :

أو ليس القوم في أرض نيبون على جانب من الشجاعة عظيم ؟ . . قال المعري : بلى ! ان كنت تعني شجاعة الغريزة ولا تعني شجاعة النية والارادة . .

قال التلميذ متجاهلاً : وما شجاعة الغريزة وما شجاعة النية والارادة يا مولاي ؟! . .

فأجابه الحكيم غير متأفف ولا متبرم : ان الشجاع الحق هو من يعرف الخطر ويخشاه ثم يغلبه بعزيمة هي أعظم من الخطر وأعظم من الخشية . أما الشجاع الذي يقتحم الخطر لأنه مدفوع اليه بعادات الأقدمين وسنن الآباء والأجداد فذلك أسير لا فرق بينه وبين من يقتحم النار مسوقاً اليها بسلسلة من الحديد ، ولا فرق بينه وبين الأسير الذي يقدمه آسروه في الطليعة وهو لا يملك الفرار ، وقد توجد هذه الشجاعة في الحيوان كما توجد في أبناء آدم ، فهي من أصول لا ارتفاع فيها ولا تعلق لها بالتكليف والضمير . .

* * *

وقال التلميذ : لو أن الأستاذ قد شهد أسراب الطير وهي تعبر البحر المحيط كل عام فيغرق منها من يغرق ويسلم منها من يسلم ثم تعود الى الهجرة ولا تخاف الموت ولا تعرف ما هولحسبتَ أنه يعني هذه الشجاعة حين يذكر شجاعة الغريزة وشجاعة الحيوان . .

فقال المعري : ما رأيت هذه الأسراب ، ولا أحسبنا في حاجة الى رؤيتها لنعرف ان الشجاعة التي تتعلق بالعادات الموروثة غير الشجاعة التي تتعلق بارادة المريد ، وكل من شهدنا في أرض نيبون من باقري بطونهم وباخعي أنفسهم فانما هم قالب واحد لا يختلف باختلاف البيئات ولا باختلاف الأفراد ، وليست هكذا تكون الصفات التي مرجعها الى مزية في الانسان ومزية في الخلق والتكليف .

* * *

قال التلميذ : أو ليس القوم خيراً من هؤلاء الصينيين الذين ترضى عنهم ولا تضيق ذرعاً بعشرتهم ومراقبة أحوالهم ؟

قال المعري : اما ان أردت أنهم أفلحوا حيث أخفق الصينيون فأنت على صواب ، واما انهم يفلحون هكذا لو كانت أرضهم هي أرض الصين وأحوالهم هي أحوال الصينيين فذلك هو البعيد . . ان القوم قد أخذوا قديمهم من الصين وأخذوا حديثهم من الغرب ووجدوا في عزلتهم من وراء بحرهم ، وعلى خصاصة عيشهم ، متسعاً من الوقت

يأخذون فيه ما يأخذون ويدعـون ما يدعـون . . فان أردت الانصـاف فضعهـم حيث وضعت الدنيا أبناء الصين وأنت ترى الفرق بين الأمتين !

***

قال التلميذ : يعني الأستاذ الفرق بين المنتصرين والمنهزمين ؟

قال المعري : نعم . . وما يدريك لعل أهل نيبون يخدمون أهل الصين بهذه الهزيمة وهم لا يشعرون ؟ لقد كان هؤلاء المنهزمون شتيتاً من الخلق فجمعتهم الهزيمة فأصبحوا أمة تنضوي الى لواء واحد ، فاذا بالمنتصرين يخافونهم بعد خمس سنوات تجردوا فيها لاتخـاذ الأهبة وتوحدوا أو كادوا ، فكيف يكون شأنهم لو تجردوا لاتخاذ الأهبة متوحدين خمسين سنة لا خمس سنوات ، ومن ذا الذي يهزمهم في المشرق أو المغرب لو تهيأ لهم الوقت كما تهيأ لأعدائهم المنتصرين ؟ علم الله لولا أن أهل نيبـون يخافونهـم ويفزعـون من غدهـم لما عاجلوهم بالعدوان ، وما أخالهم مع ذلك آمنين عقبى الأمور . .

***

قـال التلميذ : من يسمعـك يا مولاي يحسبك من دعـاة « الكومنتـاج » أو من غلاة المتشيعين لانجيل « سون ياتسين » .

ولو كان أبنـاء نيبـون قد أساءوا استقبـالك لزعمـت أن في نفسـك اثـارة من سوء ما استقبلـوك ، ولكنهـم جمعـوا لك المسلمـين في عاصمتهـم واستمعـوا لك في معبدهـم ومسجدهم ، وصحبوك وبجلوك ، ومللتهم ولم يملوك ، فأعجب العجب أن تبغضهم هذه البغضاء وأن تألف الصينيين هذه الألفة . .

فقاطعه الحكيم قائلا : لعلهم أساءوا من قِبَل هذه الحفاوة ! . .

فابتدره التلميذ مستغرباً . كيف أيها الحكيم ؟ أيأبى مولاي الكرامة وهو كريم ؟! . .

فأجاب المعري : نعم آباها اذا كانت تجارة وكنت أنا فيها سلعة من السلع المعروضة أو ذريعة من ذرائع الترويج والخديعة . . هؤلاء الناس لم ينشئوا مسجدهم لله ولا للعبادة ولا للمسلمين ولا لأبي العلاء ، ولكنهم أنشأوه للبيع والتجـارة ، ومـا نحـن بالسلعـة الرخيصة في أسواق التجار . .

***

فقال التلميذ متسائلاً : وحفاوة المسلمين في الصين ما شأنها وما شأن التجارة والكرامة فيها ؟

قال أبو العلاء : تلك حفاوة قريب بقريب . وأظن المحتفين بنا هنا قد كانوا مسلمين منذ قرون !

فصاح التلميذ : كأنما فوجىء بكلام لم يخطر له على بال :

تظن يا مولاي ؟ لقد حسبت أن عندك من خبر المسلمين هنا ما ليس عندنا ، واننا نسمع من تاريخهم لديك فوق ما سمعنا !

قال : وما سمعتم ؟

قال : سمعنا حديثا يشبه الأحاجي والأساطير . . سمعنا أنهم دخلوا الصين قبل زمان مولاي بعهد طويل ، وان قتيبة بن مسلم الباهلي قد غزا أطرافها في عهد بني أمية ، فكتب اليه ملك الصين أن ابعث الى رجلاً شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم ، فانتخب قتيبة عشرة رجال لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح ، وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابي فقال لهم : اذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت أني لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم . .

فقال لهم ملك الصين : قولوا لصاحبكم ينصرف فاني قد عرفت قلة أصحابه ، والا بعثت اليكم من يهلككم . قالوا كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فأكرمها القتل . . لسنا نكرهه ولا نخافه . وقد حلف أميرنا ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية . .

قال ملك الصين : فانا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطأه ، ونبعث اليه بعض أبنائنا فيختمهم ونبعث اليه بجزية يرضاها .

ثم أجازهم وبعث بما ذكر الى قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب ، وأنشد شاعر في ذلك :

لا عيب في الوفـد الـذين بعثتهم — للصـين أن سلـكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الردى — حاشى الـكريم هبـيرة بن مشمرج
أدى رسالتـك التـي استدعيته — فأتـاك من حنـث اليمـين بمخرج

فأصغى أبو العلاء ثم قال :

ولا كل هذا سمعنا ! فلا تعجب أن يكون المحدثون أعلم بالزمن القديم من الأقدمين . .

زعيم الصين

جلس الشيخ في فرضة الصين الكبرى « شنغهاي » والى جانبه تلميذه يترجم له الخطاب الذي ألقاه زعيم الصين الكبير شيانج كاي شيك عن السيد المسيح صلوات الله عليه .

وكان الشيخ ـ وهو من المعنيين بأمر الاديان والمشغولين بعقائد ذوي الآراء ـ قد سمع أن الزعيم الصيني تحول عن عقيدة آبائه واجداده مع حرص أهل الصين على تراث الآباء والأجداد ، وآثر المسيحية كما آثرها من قبله استاذه وأستاذ الصين الحديثة « سون ياتسين » فعجب لهذا التحول واشتاق أن يعرف أسبابه وبواعثه من السياسة أو من خطرات الضمائر وبدوات النفوس . فلما أنبأه تلميذه أن الزعيم يتكلم عن السيد المسيح أصغى اليه وقال : اسمعني ما يقول !

وانطلق التلميذ يترجم ما عدده الزعيم من أسباب حبه المسيح وايثاره عقائد النصرانية وهي : أن المسيح كان قائد ثورة وطنية نهض بأمته فاحياها بعد أن أماتها طمع الرومان وعسف الطغاة من الأمراء والكهان ، وأن المسيح كان قائداً لثورة الاصلاح الاجتماعية كما كان قائداً لدعوة النهضة السياسية ، فأنحى على الفساد والمفسدين وبشر بالطهارة من الرجس والرجاء في الخير والاستقامة . . وأن المسيح كان مع دعوته القومية والاجتماعية داعياً الى الثورة الدينية متمرداً على الشعائر البالية والخرافات الموروثة والرياء الشائع بين أئمة الدين واحباره ، وانه قد استطاع ما استطاعه وهو رجل فقير من بيت فقير في بلد فقير ، فلم يكن وارث ألقاب وأموال ، ولم يكن سليل أحبار وأقطاب ، ولا كان له مظهر من مظاهر الدراسة الخاوية ولا التعليم الموقر بالنفايات والقشور . بل كان صاحب قلب

كبير يستوحى العناية الربانية ويستلهم الفطرة السليمة ، ويروي عن صفحات الكون ولا يروي ما حشيت به الاوراق وامتلأت به قماطر الهياكل . .

قال المعري : أرأيت ؟

قال التلميذ : ماذا أيها الحكيم !

قال ان الرجل قد دان بالمسيحية لأنه قد آخى بين حياته وحياة المسيح . واعتد نفسه مسيحاً جديداً قام من سلالة الفقراء ومن لا يحسبون بين العلماء واختاره الله لاحياء الصين بما ابتعثه فيها من ثورة قومية على الطغاة والمغيرين ومن ثورة اجتماعية فيما سماه « الحياة الجديدة » وأوصى فيه بالتطهر والاستقامة والفداء ، ومن ثورة دينية فيما أنكره على الكهان والشيوخ ، فهو قد آمن بالمسيح لأنه يؤمن بنفسه ، وهو قد ابغض الرومان لانه يبغض « المانشو » واليابان وزمرة المتجرين بالأديان .

***

قال التلميذ : أو تأذن أيها الحكيم باضافة قليلة .

قال المعري : أو كثيرة ؟

قال التلميذ : لعله آمن بالمسيح لأنه آمن بنفسه وآمن معها بزوجه .

فسأله المعري : وماذا تعني !

قال أعني ان « شيانج كاي شيك » يتيم تكفلت به أمه وانفقت عليه من سم الخياط ومن فضل الطوى والقناعة ، رجت فيه الخير يوم يئس منه الأقربون ونفضوا الأيدي من حاضره ومؤتنف امره . . وما زال يستمدها العون حتى بعد أن كبر وتولى القيادة وباء بالهزيمة وفر الى اليابان وهو لا يملك قوت أيام . فللمرأة شأن أي شأن في قلبه وعقله ، وخليق بمن كان كذلك ثم رزق الزوجة الصالحة الرشيدة أن يركن اليها ويطمئن الى عطفها وخلوص طويتها ، ويحسب الصلاح في صلاحها ، والدين في دينها والايمان في ايمانها ، فاذا كانت مسيحية فما أقربه مع الأيام أن يتسلل الى الايمان بالمسيحية واذا كانت من أسرة قديرة على المذهب المسيحي فما أولاه أن يعيش في كنف الأسرة وان يشعر بشعورها ! ولقد كانت لأستاذه « سون ياتسين » زوجة مسيحية فحسن على يديها ايمانه بدينها . . . وما كانت زوجة الأستاذ العظيم الا شقيقة زوجة المريد العظيم . فما أعجب هذه الأسرة التي أنجبت بنتين يدين بدينهما زعيمان من زعماء الصين كبيران ، ورجلان من رجال العالم خطيران ، عدا من انجبت من أبناء وبنات كلهم علم من أعلام هذا الجيل في هذه البلاد ؟

***

قال المعري : لا عجب اذن أن يؤمن الرجل بالعقيدة التي توافق ايمانه بنفسه وايمانه بزوجه وايمانه باستاذه ، وايمانه برجاء بلاده .

فعاد التلميذ يسأل : وما رأي الحكيم في رجاء بلاده ؟

قال المعري : ان نقصت مساحات أرضها فقد تزيد قوة نفوسها ، وان تقاربت مسافاتها واطرافها فقد تتقارب علاقات سكانها وأواصر ابنائها ، وان غلبوها بالسلاح فقد تغلبهم بالكثرة ، وان طال الزمن على رجائها فما هو بأطول من ازمانها في القنوط والجمود . . هي ناجحة فيما أرجوه ويرجوه لها المنصفون . .

قال التلميذ تلك بشرى يفرح بها القوم اذا سمعوها فهل من وصاة اوصيهم بها ، وهل من آفة احذرهم عواقبها ؟

قال المعري : آفة القوم انهم بين الحضر والبادية ، فلا هم جادون في الحضارة ولا هم جادون في البداوة . فليجدوها في احداهما فذلك خير من حيرة المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً ابقى .

قال التلميذ : لكأنك يا مولاي قد عشت في الصين منذ عشت في الدنيا . . لو رأيت بناءهم لرأيت قصوراً في أشكال خيام . وذلك شأن كل « بناء » في الصين .

زهدان

شتان زهد الهند وزهد نجد .

ذاك زهد السآمة من الوفر والاغراق والابتذال ، وهذا زهد الأنفة في وجه الضنك والضرورة .

زهد الهند زهد الذي اكتظ من صنوف المائدة حتى عافها واعرض عنها . .

وزهد نجد زهد الذي لم ير المائدة وانف من مذلة الحاجة اليها . .

***

كان هذا حديث المعري لتلميذه وقد وصلا الى جدة وقفلا من مدن الحجاز ، بعد طواف طويل في الصين والهند وفارس والعراق .

وكان التلميذ يسأل استاذه عن شظف النجديين من أتباع عبد الوهاب ، اذ يحرمون على انفسهم كل ما يعز عليهم وجوده في الصحراء النجدية . وهو ينتظر رأي المعري في هذا الشظف ، وقد علم أنه أخذ نفسه بمثله ايام الحياة .

فلما قال المعري ان القوم في الصحراء يزهدون زهد الأنفة في وجه الضرورة فهم أن حكيم المعرة يستكبر أن يساويه في زهده مئات وألوف ، وأحب أن يحسب القوم مضطرين غير مخيرين ، او مسوقين غير سائقين ، فرجع اليه سائلا :

أفترى كل محتاج زاهداً فيما يحتاج اليه ، آنفاً من الاقرار بالحاجة والحرمان ؟ . .

قال الشيخ : كلا . . انما تفعل ذلك الأمم التي لها عزة وليست لها وفرة . فهي اذن تفرض على نفسها القناعة وتنفض عنها شعور المذلة ، ولو ضعفت ولانت لجمعت على نفسها حرمان الفقر وحرمان الذل والاستكانة ، فترى أنها محرومة وأنها دون من يستمتعون بالخير والبذخ والرفاهة ، ولا ترى كما يرى هؤلاء النجديون انهم محرومون وأنهم مع ذلك خير من المستمتعين . .

قال التلميذ : لا غرو . انني لأسمع المعري الهندي !

قال الشيخ : ويحك . هل عدنا الى قديم هذه الدعوى ؟ فمن ذاك المعري الذي ولد في الهند أو الهندي الذي ولد في المعرة ؟

قال التلميذ : هو الذي قال :

غدوت مريض العقل والدين فالقني ... تسمع أنباء الأمور الصحائح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ... ولا تبغ قوتاً من عريض الذبائح
ولا بيض أمّات أرادت صريحه ... لأطفالها دون الغواني الصرائح
ولا تفجعنّ الطير وهي غوافل ... بما وضعت فالظلم شر القبائح
ودع ضَرَب النحل الذي بكرت له ... كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كي يكون لغيرها ... ولا جمعته للندى والمنائح
مسحتُ يدي عن كل هذا فليتني ... أبهت لشأني قبل شيب المسائح
بني زمني هل تعلمون سرائراً ... علمت ولكني بها غير بائح
سريتم على غي فهلاّ اهتديتم ... بما خبّرتكم صافيات القرائح
وصاح بكم داعي الضلال فما لكم ... أجبتم على ما خيّلت كلَ صائح
متى ما كشفتم عن حقائق دينكم ... تكشفتم عن مخزيات الفضائح
فان ترشدوا لا تخضبوا السيف من دم ... ولا تلزموا الأميال سبر الجرائح
ويعجبني دأب الذين تراهبوا ... سوى أكلهم كد النفوس الشحائح
وأطيب منهم مطعماً في حياته ... سعاة حلال بين غاد ورائح
فما حبس النفس المسيح تعبداً ... ولكن مشى في الأرض مشية سائح

* * *

أليس في بعض هذا ما ينسب الرجل الى أمة الهند ودين البرهميين ؟ ألست يا سيدي قد رضيت أن تهلك ولا يهلك فروج من بنات الطير لتتداوى بالسليق من لحمه ومائه ، وقلت

لهم : استضعفتموه فتداويتم به ، ولو كان شبل أسد لما وصفتموه . .

فجرى السخط في مجراه من قلب الشيخ الكظيم . . ومن مجراه في قلبه أن ينقلب هزؤاً كلما اوشك أن ينفجر غضباً . وقال : لو صح هذا لما بقيت أمة في الأرض الا نسبت اليها . . ما لكم لا تصدقون انها الفاقة وانها الرحمة ؟ أبلغ من سوء ظنكم بأنفسكم ألا تفرطوا في أكلة الا خوفاً من غضب معبود ؟ . وماذا يضيرني من برهما ان غضب وما هو بصاحب نار ولا بصاحب نعيم ؟ وما لي ولدين أناس يؤمنون بقداسة بعض الحيوان ونجاسة بعض الانسان ؟ ذلك لا يلمسونه من هيبة ووقاية وهذا لا يلمسونه من كبر وزراية ! ويحك ! أينسب الى الهند من يحقن الدماء ؟ فما قولكم في الحسام وهو من الهند في المعادن والأسماء ؟

ثم ماذا تقولون فيما قلت :

وجدت الشر ينفع كل حين	ومن نفع به حمل الحسام
وليس الخير في وسع الليالي	فكيف نسومها ما لا يسام؟

* * *

انني اذن لمن اتباع صاحبكم نيتشه ؟ او من أتباع أصحابه الفاشيين ؟ ومالك لا تحسب على انكاري لزعم الهند حين أنقض ما يقولون :

يقولون ان الجسم ينقل روحه	الى غيره حتى يهذبها النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة	اذا لم يؤيد ما اتوك به العقل

* * *

وأشفق التلميذ أن تكون غضبة فسكون . . وقد علم أن صاحبه أصعب ما يكون مراساً اذا سكن بعد غضبة . فيومئذ لا كلام ولا حوار ولا جواب غير الوجوم والازدراء ، ولكنه اذا انتقل من ثورة الى ثورة أو تدرج من سخرية الى فكاهة . . ففي استطالة الحديث معه رجاء . .

قال التلميذ : أمن النسبة الى الهند ينفر مولاي كل هذه النفرة ؟ فمن قال انه من الفرس كيف يجاب ؟ ومن زعم أنه من المجوس ماذا يسمع من زجر وعقاب ؟ . .

قال المعري : يقال له صدقت وبررت ، وانه مع ذلك لعلى دينهم لأنه يعجب منهم اذ

يقول :

عجبت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر

فمن التقية أن ينكر الانسان ما به يدين . وأن يكون نكرانه علامة اليقين . . أليس كذاك ؟

* * *

وتلطف التلميذ اللبق في نقل الحديث الى فارس والفرس وما كان فيه وما يكون ، وتذاكر ما مر بهما ومرا به في تلك البلاد ، فسرّي عن الشيخ بعض ما اعتراه من غضب وامتعاض لنسبته الى البراهمة والمجوس . وضحك الشيخ وتلميذه كثيراً حين ذكرا ذلك الكرسي الذي كان يجلس عليه بعض الشاهات ـ عند قضاء الحاجة ـ فيعزف بالنشيد الملكي تحية للجالس عليه !! وقال الشيخ : حسنا صنع عاهل الفرس الجديد أعانه الله على ما تصدى له من خير وتهذيب . . انه أراح أمته من هذه المراسم وهذه التفخيمات التي أفسدت عليهم ما أفسدت ، ونسوا كل شيء ليذكروها وحدها حتى حين ينسى الانسان كل تفخيم وتبجيل . . ان المراسم آفة هذه الأمة الطيبة الرضية ، فلا أدب لهم ولا علم ولا دين ولا شريعة الا وفيها آية المراسم ظاهرة ، وتحية المراسم ناطقة ، وديوان المراسم معقود ومشهود . ولئن خلصوا منها لقد خلصوا من قيود تحبس الرؤوس قبل الأعضاء والأقدام . .

* * *

فسأل التلميذ : وماذا بقي منها فيستحب لهم الخلاص منه ؟

قال المعري انهم يقتدون بالأمم الكبرى في أزيائها وشعائرها ، وان أخوف ما نخاف عليهم أن يحسبوا القوة والمنعة في هذه الأزياء وفي هذه الشعائر ، فيتقيدوا بها من جديد ويخلصوا من تقليد الى تقليد ، ولئن هداهم عاهلهم السديد في مسعاهم المجيد ، لقد بلغ بهم ما لم يبلغه الأكاسرة ولا الهرامزة الأولون . .

في مصر

على مقربـة من سينـاء قال حكيم العـربية لتلميذه كأنمـا هو الـذي يقـوده : هذه هي البادية ! . .

قال التلميذ : أو قد عرفتها ؟ قال : كيف لا أعرفها . . وان الشمس لتتغير وما غير الله البادية منذ خلقها ، ولا يغيرها حتى يطويها مع الأرض أو السماء ! . .

قال التلميذ : فعلى اليمين بيت المقدس وعلى الشمال أرض مصر ، فأيهما يؤثر الاستاذ بالزيارة ؟ . .

وكان شيخنا قد سمع شيئاً عن متاعب فلسطين والشرق العربي ، وسمـع شيئـا عن عجائب مصر .

فأنشد :

أمـا الحجـاز فما يُرجى المقـام به ... لأنـه بالحـرار الخمس محتجز
والشـام فيه وقـود الحـرب مشتعل ... يَشُبُّـهُ القـوم شُدت منهـم الحجز
وبالعـراق وميض يستهـل دماً ... وعـارض بلقـاء الشر يرتجز

ثم قال : لا أدخل أرضاً يجلى عنها العرب ، فلندخل مصر آمنين

قال التلميذ : ان أبيت أن تدخل أرضاً يجلى العرب عنها فهلا بعثت اليهـم بتحية أو نصيحة !

قال الشيخ : النصيحة لهم أن يصاولوا بالقوة والمال من يغلبونهم بالقوة والمال . . فهم هم الظافرون ، قصر الزمان أو طال . .

وسأله التلميذ : ومن أين لهم بقوة ومال ؟

قال : من العزم والاباء . . من أبى ما هو فيه استمد العزم من إبائه ، وجاءته القوة والثروة الى موطىء قدميه .

قال التلميذ : وهبهم بلغوا منهما جهد الطاقة أفيبلغون منهما يا مولاي مبلغ الدول الكبار ؟ . .

فأجابه الشيخ : بل يبلغون منهما ما يتعب الدول الكبار ، وحسبهم أن يتعبوها فيستريحوا ، أو يرجعوا الى حال خير من قبول الضياع والفناء .

* * *

ودخلا مصر فقضيا أياماً بين ترحيب وتسليم ، وبين ربوع وآثار ، وسأل الشيخ بلسان أبي الطيب الذي كان يتعصب له ويستعيد شواهده :

أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟

ثم أنشد :

تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع

ثم قال : أشهد وأنا بينهما أنهما لم يفنيا ولم يتبعا . . فما أعظم يقين أبي الطيب بفعل الزمن ودولة الفناء . .

قال التلميذ : ما هو بأعظم يقيناً بالزمن وفعله والفناء ودولته من القائل :

زحل أشرف الكواكب داراً من لقاء الردى على ميعاد
ولنار المريخ من حدثان الد هر مطفٍ وان علت في اتقاد !

فرد عليه الشيخ خاشعاً وهو يجمجم بين شفتيه : نعم . وتهون الأعمار عند ذاك ويهون الخلود . .

واسترسل التلميذ في نغمته الأولى فقال : هذا لحد أبَى أن يصير لحداً مراراً ، وأبى أن يضحك من تزاحم الأضداد .

قال الشيخ وهو في جمجمته الأولى : لقد دخله الأحياء فأبى أن يكون لحداً مرة بلـه المرات ، وضحك من صاحبه الأول قبل أن يضحك من أضداده . . واني والله لأسأل عن هذا الطود المشيد كما سألت عن الورقاء :

أبكت تلكم الحمامة أم غنـ ـت على فرع غصنها المياد

فما أدري هنا أهو عنوان غلبة الموت أم عنوان غلبة الحياة . . انما هو على الحالين عنوان شقاء الانسان ، وعبث الطغيان .

وعاود الشيخ وجومه على أشد ما يكون بين أطلال الفراعنة ومروج وادي النيل ، وانه ليروض نفسه على اقامة أيام اذ حانت له الطرفة التي سماها أعجب العجائب في بلاد العجائب ، فانتوى الهجرة من قريب .

***

كان ذلك في ناحية من الصحراء وقد تردد عليه رجل من كتاب الصحف فسأل الشيخ تلميذه : ماذا عساه يريد ؟

قال التلميذ : انه يعتذر . .

قال : ومم الاعتذار ؟ . .

قال : ان الرجل لكاتب المقال الذي أطلعتك عليه تفكهة وعبرة يوم وصلنا الى هذه الديار .

قال : تعني الرجل الذي نعى على حكومة هذا البلد انها احتفلت بمن سماه امام الملحدين وشيخ الكافرين ، وانها من أجل ذلك خليقة باغضاب المسلمين والمروق من حظيرة الدين .

قال التلميذ : هو بعينه .

فعجب الشيخ وسأل : وما اعتذاره اليوم ؟

قال : اعتذاره أنه سيلقي عليك المقال الذي أعده للانحاء على الحكومة لو انها قصرت في لقائك ، وأحجمت عن استقبالك . فهم خصوم الحكومة ينعون عليها كل ما تفعل ويقدحون في كل ما تنوي ، فان هي أكرمت وفادتك قالوا ما قد علمت . . وان هي

قصرت في حفاوتها فهم قائلون ما ستسمعه الآن . .

قال المعري : أحسبهم كانوا قائلين يومئذ ان هذه الحكومة تنكرت للعرب وآداب العرب ، وقطعت ما بينها وبين لغة القرآن من سبب ، وباعت نفسها للفرنجة ، وحادت عن سواء المحجة ، وغير ذلك مما ينتظم في هذا النظام ! . .

قال التلميذ : أحسنت يا مولاي . . انك اليوم لفي طليعة المرشحين للكتابة في الصحف السيارة ، وعلى رأس المقدمين للخوض في غمار السياسة المصرية . . هكذا كتبوا ، وعلى هذا دأبوا ، ولهذا اقبلوا يعتذرون وفي هذه اللجاجة تنقضي عليهم الأيام والسنون .

فردد المعري قوله القديم :

ما خص مصراً وبأٌ وحدَها　　　بل كائن في كل أرض وبأ . .

لكن هذا هو الطاعون الذي يحمد عنده كل وباء .

الى المعرة يا بني فقد ختمنا المطاف ، وشبعنا من المصيفين والأضياف .

وكان « كاتب هذه الأسطر » في محضر الفيلسوف فقال : ان أسوان تدعوك أن تجعل الأوبة من طريق الجنوب ، وان طالت المسالك واختلفت الدروب . .

فدارت على لسان الفيلسوف نوبة الاستشهاد بكلامه القديم ، وأجابه ببيت من لزومياته يذكر فيه أسوان اذ يقول :

أسوان أنت لأن الركب نيتهم　　　أسوان . . أي عذاب دون عيذاب؟!

لقد زرتك فيها قبل اليوم يا بني ، فاحتسب دعوة اليوم في تلك الزيارات ، وخلنا في عالم الفكر من هذه المجاملات والمصانعات . أما دعوتني فيها وأنت يافع تحسب أنك تكره الحياة لأنك مملوء اليدين بالحياة ؟ أما دعوتني فيها وأنت فتى تثور وتحسب انني معك حين تثور ؟ أما دعوتني فيها وأنت كهل تصالح الدنيا لأنك أنفت من مخاصمة الدنيا ؟ أما دعوتني فيها وأنت تزعم انك تناقضني بانكار الأحزان وما أنكرتها الا ترفعاً عن الشعور بالحرمان ؟ انك دعوتني كثيراً وانني أجبتك كثيراً ، وانني لألقاك حيث أنت خير لقاء ، وانك لتلقاني وتسمعني حين تشاء .

نشيد وداع . .

بُنـاةَ ضريحـى طال بالصخـر إبطاءُ ... فهـل وطَّـأوه أو تعـداه إيطاءُ ؟
وهـل لان أو يأبـى على اللـين نخوة ؟ ... وهـل رقَّطـوه أو سرت فيه رقطاء ؟
عرفـت انتظـار الموت . أمـا منية ... وطـول انتظـار ، فهـو للقصـد اخطاء
« متـى يتقضى الوقـت واللـه قادر » ... فتغطينـي الـدنيا ويحمـد اغطاء[1]
أرانـي لديكم كالمعـرَّى معرضاً ... لمن شاء والركبـان حولي خبطاء[2]
أقمتـم لذكراي المآدب فاستوى ... بمأدبـة النسيان منـع واعطاء
ومـا نضجـت تلك الثمار فما لكم ... دعوتم ولـم تخرج من الـزرع أشطاء[3]
ذرونـي فلي فيكم كتـاب وسيرة ... جديدٌ صباهـا وهـي في الدهـر شمطاء
اذا حان يومي بينـكم فهـي عندكم ، ... وعنـدي لكم شكر لراعيه طأطاء[4]
وهـذا وداعـى لازم غـير لازم[5] ... اذا عاب بعض الشعـر عيٌ وإيطاء[6]
لعلي أراكم بعـد ألف وبينكم ... ألوف لهـم ذكرى من الحمـد عيطاء[7]

عن المعري
عباس محمود العقاد

---

(١) اعطاه : بمعنى غطاه .
(٢) العرس الخبطاء : التي تضرب الارض برجلها وهو من علامات المرح أو القلق .
(٣) احرج الزرع شطاه : اي ظهر فيه الورق والفروع .
(٤) اى موطأ متضامن .
(٥) من لزوم ما لا يلزم .
(٦) تكرار القافية
(٧) طويلة الجيد

فهرس الكتاب

ابن الرومي

فهرس كتاب
رجعة ابي العلاء

الموضوع | الصفحة